التيسير في التفسير

تأليف الإمام

أبي حفص النسفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي

٤٦١ - ٥٣٧ هـ

يطبع أول مرة محققاً على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق

جمال عبد الرحيم الفارس

المجلد الثامن

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير في التفسير

(٨)

الطبعَة الأولىٰ
١٤٤٠هـ-٢٠١٩م

9 786052 279311

دار اللباب
للدِّراسَاتِ وتحقِيقِ التُّراثِ
DAR-ALLOBAB
Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

اسطنبول - تركيا
00905454729850
00902125255551
info@allobab.com

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990
Www.allobab.com

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

سُورَةُ يُونُسَ

سُورَةُ يُونُسَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الَّذي أنزلَ آياتِ الكتاب الحكيم، الرَّحمنِ الَّذي يدعو إلى دار السَّلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، الرَّحيمِ الَّذي لا رادَّ لفضلِه يصيبُ به مَن يشاءُ مِن عباده وهو الغفور الرَّحيم.

وهذه السُّورة مكيَّةٌ، وهي مئة وعشر آيات، وقيل: تسع، وقيل: ثمان، والاختلاف في ثلاث آيات: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وكلماتُها ألفٌ وثماني مئة وثلاث وثلاثون، وحروفُها سبعة آلاف وثلاث مئة وسبعة وتسعون(١).

وروى أبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قرأَ سورةَ يونُسَ أُعْطِيَ مِنَ الأجرِ(٢) عشرَ حسناتٍ بعددِ مَن كذَّب بيونس وصدَّق(٣) به، وبعددِ مَن غرقَ مع فرعون»(٤).

---

(١) في (أ): «وتسعة وتسعون». وفي «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٦٣): سَبعة آلاف وخمس مئة وسَبعة وسِتُّون حرفاً كحروف هود.

(٢) «من الأجر» من (أ).

(٣) في (ف): «ومن صدق».

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١٦)، والواحدي في «الوسيط» (١/ ١٧٤). قال ابن الجوزي في =

وانتظامُ أوَّل هذه السُّورة بآخر تلك السُّورة: أنَّه ختم تلك بثنائه بقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وبدأ هذه السُّورة بـ ﴿الٓر﴾، وهو مُنزل الكتاب الحكيم، ولأنَّه ذكر في ختم تلك السُّورة تولِّيَ الكفَّار، وفي افتتاح هذه السُّورة في ذكر المنافقين والمشركين(١) وحسنِ عاقبة المخلصين، وفي هذه السُّورة محاجَّةُ الكافرين وما نزل بالكفَّار الماضين، وخلاص المخلصين.

* * *

(١) ـ ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الٓر﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنا الله أرى(٢).

وروى عكرمة عنه: ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾ إذا اجتمعَتْ فهي الرَّحمن(٣).

وقيل: هي اسم السُّورة.

وقيل: هي اسم القرآن.

وقيل: هي ثلاثةٌ مِن أسماء الله تعالى الحسنى، وهي الله واللَّطيف والرَّحيم.

وقيل: معناه: اللهُ بعثَ جبريلَ به إلى رسولِه.

وقيل: الألفُ آلاءُ الله، واللَّام لطفُه، والرَّاء رحمتُه.

= «الموضوعات» (٤/ ٣٤٤): مصنوع بلا شك. وقال ابن كثير في «تفسيره»: حديث منكر من سائر طرقه. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١) في (ف): «والشياطين». قلت وليس في افتتاح هذه السورة ذكرٌ للمنافقين، ثم إن هذه السورة مكيَّة ولا نفاق في مكة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٣ ـ ١٠٤) واللفظ له، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢١).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾: قال أبو عبيدة: أي: هذه[(١)]، كما مرَّ في أوَّل (سورة البقرة): ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ [البقرة: ٢].

وقال الزَّجَّاج: أي: الآيات الَّتي تقدَّم ذكرُها قبلَ هذه السُّورة[(٢)].

وقيل: لَمَّا كانت ﴿الٓر﴾ اسم السُّورة، فقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إليها، وهو كقولهم: هند هي الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾: أي: الآتي بالحكمةِ.

وقيل: أي: المحكم عن التَّناقض والتَّغيير والتَّبديل.

وقيل: أي: الحاكم، كالعليم بمعنى العالم؛ أي: فيه بيان الأحكام.

وهذا كلُّه صفةُ القرآن.

وقيل: هو صفةُ اللَّوح المحفوظِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]. وعلى هذا تكون ﴿تِلْكَ﴾ إشارةً إلى الغائب على ظاهر وصفِه؛ أي: هذه السُّورة تلكَ آياتُ الكتابِ المكتوبةُ في اللَّوح المحفوظ، وكَّلْنا بحفظِها الثِّقات، ثمَّ أوحيناها إليك في أوقاتٍ.

وقيل: أي: هذه تلك الآيات الموعودة لك يوم الميثاق.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ذلك الكتاب الذي وعدْتُكم به، وقد حقَّقنا لكم الميعاد، وأوصلنا لكم أسباب الوداد، وانقضى عنكم زمان البِعاد، فاستقيموا على نهج الأحباب، وتمسكوا بوثائق الأسباب[(٣)].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٧٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٧٧).

(٢) ـ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي: أتعجَّبَ مشركو مكَّة أنْ جعلْنا لنا رسولًا إليهم، وهو من جنسهم، يفهمون منه، ويسكنون إليه، ويعرفون صدقَه وأمانته، أن أنذِر المشركين وبشِّر المؤمنين، وهو كقوله: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ الآية [ص: ٤]، و: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وليسَ بعجَبٍ؛ لأنَّ الخَلْقَ خلقُهُ، والـمُلْكَ ملكُه، وله أنْ يرسِلَ إليهم رسولًا، ويأمرَهم بما يريدُ، وينهاهم عمَّا يريدُ.

وإذا صحَّ هذا في العقول فإرسال البشر أولى وأقرب إلى أن يسكنوا إليهم وأن يعقلوا عنهم من إرسال الملائكة الذين لا يُعايَنون.

ثمَّ ليس في نفسِ ما أتوا به ما تنكرُه العقولُ، إنَّما هو حثٌّ على الشُّكر والطَّاعة للمنعِم، ودعاءٌ إلى شرائعَ بها صلاحُ بينِهم، وتألُّفُ قلوبِهم، وارتفاعُ التَّظالم عنهم، وإنذارٌ لِمَن عصاه بالعذابِ الأليمِ، وتبشيرٌ لِمَن أطاعَه بالنَّعيم المقيم.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: قيل: أي: سوابقَ أعمالٍ صالحةٍ قدَّموها ذُخرًا لآخرتهم.

والقَدَمُ: ما قُدِّمَ مِن العملِ؛ قال حسَّان رضي الله عنه:

لنا القدمُ العُلْيا إليْكَ وخَلْفُنَا ... لأوَّلِنَا في طاعَةِ اللهِ تَابِعُ[١]

---

(١) انظر: «ديوان حسان» (ص: ٣١٠). وفيه: «الأولى» بدل «العليا».

وقال ذو الرُّمَّة:

لكُمْ قَدَمٌ لا يُنْكِرُ النَّاسُ أنَّها … مع الحَسَبِ العادي طَمَّتْ على البَحْرِ[(١)]

والصِّدقُ: الحَسَن، ويُذكَر على الإضافة بطريق المدح، يُقال: رجلُ صِدْقٍ، وثَوْبُ صِدْقٍ، وفَرَسُ صِدْقٍ.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ قال: محمَّدٌ ﷺ شفيعٌ لهم يومَ القيامةِ[(٢)].

وقيل: تُذكَر اليدُ مكان الصَّنعة[(٣)] مجازًا، والقدمُ مكان السَّعي أيضًا؛ لأنَّ الكسْبَ يقعُ باليد، والسَّعي بالقدم، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

وقال ابن عبَّاس والحسنُ رضي الله عنهم: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾: عملَ صِدْقٍ يَقدَمُون عليه[(٤)]؛ قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: الجنَّة.

وقال عطاء: مَقامَ صدقٍ لا زوالَ عنه ولا بؤسَ فيه[(٥)].

وقال الرَّبيع بن أنس: ثوابَ صدقٍ[(٦)].

وقال قتادة: سَلَفَ صدقٍ[(٧)].

---

(١) انظر: «ديوان ذي الرمة» (٢/ ٩٧٢)، وفيه: «الفخر» بدل «البحر».

(٢) رواه ابن مردويه، كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٤٢).

(٣) في (أ) و(ف): «الصنيعة».

(٤) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١٧) عن الحسن، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: «أجرًا حسنًا بما قدَّموا من أعمالهم».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١٧).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٣).

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١١)، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٣).

وقال يمانُ بن رئابٍ: هو إيمانهم[(١)].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِلُ أنَّ معناه: ثبتَتْ أقدامهم فلا تزلُّ؛ قال تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤][(٢)].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في رواية: تسبقُ لهم السَّعادة في الذِّكر الأوَّل[(٣)].

وقال عبد العزيز بن يحيى: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١][(٤)].

وقيل: هو تقديم الله تعالى هذه الأمَّة يوم القيامة؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «نحنُ الآخرونَ السَّابقون»[(٥)]، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنَّ الجنَّةَ محرَّمَةٌ على الأنبياء حتَّى أدخُلَها أنا، ومحرَّمَةٌ على الأممِ ما لم تدخُلْها أمَّتي»[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾: في أوَّله مضمر؛ أي: لَمَّا جاءَهم وأنذرهم قال الكافرون: إنَّ هذا المدَّعي لساحرٌ مبينٌ، وهو قراءة ابن كثير

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١٧).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١٠).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١٧).

(٥) رواه البخاري (٢٣٨)، ومسلم (٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٠٢) من طريق مكحول عن عمر رضي الله عنه، ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٤٢)، من طريق آخر عمر رضي الله عنه. ورواية ابن أبي شيبة مرسلة، قال أبو زرعة كما في «المراسيل» لابن أبي حاتم (ص: ١٦٦): مكحول عن عمر مرسل، ورواية الطبراني قال عنها أبو زرعة: حديث منكر، لا أدري كيف هو؟ انظر: «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٥/ ٥٣٥).

وعاصم وحمزة والكسائي؛ أي: يخدعنا بتخاييله، ويقودنا إلى الانقياد له، ويعرِّضُ أنفسَنا وأهاليَنا وأولادَنا للتَّلَف في مجاهدة عدوِّه.

وقرأ الباقون: ﴿لسحرٌ مبينٌ﴾[1]؛ أي: إنَّ هذا الَّذي أتى به لَسِحْرٌ ظاهرٌ.

وقال الأستاذ أبو عليٍّ الدَّقاقُ: جوَّزَ الكفَّار أن يكون المنحوت مِن الخشب والمعمول مِن الصُّفر والشَّبَه[2] إلهًا معبودًا، وتعجَّبوا أنْ يكونَ مثلُ محمَّدٍ في جلالةِ قَدْرِهِ رسولًا مبعوثًا، هذا هو الضَّلال البعيد.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾: هو ما قدَّموه لأنفسِهم مِن طاعات أخلصوا فيها، وعباداتٍ صدَقوا في القيام لها.

وقيل: هو ما قدَّم الحقُّ لهم يومَ القيامةِ مِن عنايتِه بشأنهم، وما قضى لهم مِن فنون إحسانِه.

وقيل: هو ما رفعوه مِن أقدامِهم في بدايتهم في زمان إرادتهم؛ فإن لأقدامِ المريدِيْن المرفوعةِ لأجل اللهِ حُرْمَةً عندَ اللهِ، ولأيَّامِهم الخالية في حال تردُّدهم، ولياليهم الماضية في طلبه وهم في حرقةِ تحيُّرهم = حقًّا يرعاه الله، قال الشَّاعر:

مَن ينسَ حُرْمَةَ دارٍ قَدْ تَخَوَّنَها ... رَيْبُ الزَّمانِ فإنِّي لسْتُ أنساك

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٠).

(٢) الشَّبَه، النحاس الأصفر، والصُّفر: النحاس الجَيِّد، وقيل: هُوَ ضَرْبٌ من النُّحَاسِ، وقيل: هو ما صَفرَ منه، ورجَّحه شيخُ الزبيدي؛ لمناسبة التَّسْمية. انظر: «تاج العروس» (مادة: صفر). ولم ترد كلمة «الشبه» في «لطائف الإشارات»، والكلام منقول منه، وقد غير محققه كلمة الصفر إلى: (الصخر) مخطِّئاً ما جاء في نسخ «اللطائف» من كلمة (الصفر).

وقال آخر:

تلكَ العهودُ بشدِّها مختومةٌ عندي كما هيَ عَقْدُها لم يُحْلَلِ[1]

***

(٣) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: مرَّ تفسيرُه في سورة الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: قال مجاهد: يقضي الأمرَ وحدَه[2].

والأمرُ جنسٌ أُريد به الجمع؛ أي: يقدِّرُ الأمورَ كلَّها، ويُمضيها في الدُّنيا والآخرة، مِن خَلْقِ أفعالِ العباد وأقوالهم وأحوالهم، وإظهارِ الحوادث مِن الموت والحياة، والعزِّ والذُّل، والصِّحَّةِ والمرض، والسَّعةِ والضِّيق، والخيرِ والشَّر، وإعطاءِ الذُّكور والإناث مِن الأولاد، وتصريفِ اللَّيل والنَّهار، والرِّيحِ والسَّحاب، والحرِّ والبرد، وكلِّ شيء؛ قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

ولَمَّا كان الموكَّلون على بعض هذه الحوادث من الملائكة، قال في وصفهم: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

وكذلك أمورُ الآخرة كلُّها من الثَّواب والعقاب، واللُّطف والعِتاب، والعفوِ والحساب، والكشف والحجاب، بتدبيره وتقديره.

وقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾: أي: لا يفعلُ شيئًا مِن هذه الأمور بشفاعةِ أحدٍ.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٧٧ ـ ٧٨)، والبيتان فيه دون نسبة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١٤ ـ ١١٥).

وقولـه تعالـى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾: أي: هـو المسـتحقُّ للعبادة فإيَّـاه فاعبدوا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي: أفلا تتَّعظون بما يعظِكُم اللهُ به مِن الإيمانِ به وتركِ الشِّرك.

وقال الإمام القشيري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣]: لا يحتاجُ فعلُه إلى مدَّةٍ، وكيفَ وهو خالق المدَّة، خلقَ السَّماوات والأرض في ستَّة أيَّام، وتلك الأيَّام أيضًا مِن جُملة ما خلقَ مِن الأيَّام.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ معناه: اتِّصافُه بعزِّ الصَّمديَّة، وجلال الأحديَّة، وانفرادُه بنعت الجبروت وعلاء الرُّبوبيَّة، تقدَّس الجبار عن الأقطار، والمعبود عن الحدود(١)، والدَّيان عن المكان.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: الحادثاتُ صادرةٌ عن تقديرِه، وحاصلةٌ بتدبيرِه، فلا شريكَ يعضدُه، ولا معارِضَ يقصدُه.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ تعريفٌ، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ تكليفٌ، فحصولُ التَّعريف بتحقيقِه، والوصولُ إلى ما وردَ به التَّكليف بتوفيقه(٢).

* * *

(٤) ـ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) في (ف): «الحدوث».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٧٨).

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: أي: إلى جزاءِ اللهِ رجوعُكم جميعًا يومَ القيامةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾: نصبٌ على المصدر على إضمار الفعل؛ أي: وَعَدَ اللهُ ذلك وَعْدًا صدقًا.

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: أي: ليتعبَّدهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: يميتهم، ثم يعيدهم أحياءً[1] يوم القيامة ليجزيهم.

والخَلْقُ أصلُه مصدرٌ، فلم يُجمَع، ومعناه الجمع، فلذلك وحَّدَ الكنايةَ بعدَه.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾: أي: بالعدْلِ، وهو قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: يجزي المحسنين جزاء الإحسانِ، والمسيئين جزاء الإساءة، ويفصل بين العدو والولي في الجزاء، وهو العدل.

ويحتمِل: ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالفضل؛ فقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣].

وسمَّاه قسطًا وهو العدل؛ لأنَّ العدلَ وضعُ الشَّيء في موضعِه، وهذا وضعُ الفضلِ في[2] موضعِه، فكان عدلًا من هذا الوجهِ.

ويحتمل أن يكون القِسطُ صفةً للعالمين؛ أي: عملوا الصَّالحات بقسطهم في الدُّنيا؛ أي: عدلهم[3].

---

(١) في (ف): «أي يميتهم بعد إحيائهم ثم يبعثهم».

(٢) «في» من (ف).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٨ ـ ٩).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾: مِن ماءٍ حارٍّ مغليٍّ قد انتهى حرُّه، وهو في جهنَّم، ومِن صفتِه أنَّه كالـمُهلِ يشوي الوجوهَ، وأنَّه يقطِّع أمعاءَهم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾: أي: عذابٌ يَخلصُ وجعُه إلى قلوبِهم بكفرِهم.

* * *

(٥) - ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾: أي: خلقَ الشَّمسَ فجعلَها ﴿ضِيَآءً﴾ للخلق بالنَّهار.

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾؛ أي: وخلق القمرَ فجعلَه نورًا لهم باللَّيل.

والضِّياءُ نورٌ معه حرٌّ، والنُّورُ لا حرَّ معه، والضِّياءُ أعمُّ وأتمُّ مِن النُّور، والضِّياءُ والنُّورُ مصدران جُعِلا نعتَيْن.

وقال الكلبيُّ: جعلَ الشَّمسَ ضياءً بالنَّهارِ، والقمرَ نورًا باللَّيل، تضيءُ وجوهُهما لأهل السَّماواتِ، وظهورُهما لأهلِ الأرض.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: للعقول نجومٌ، وهي للشَّياطين رجومٌ، وللعلوم أقمارٌ، هي أنوارٌ واستبصارٌ، وللمعارف شموسٌ، ولها على أسرار العارفين طلوعٌ. وقد قيل:

إنَّ شمسَ النَّهارِ تغربُ باللَّيـ ـلِ وشمسُ القلوبِ ليسَ تغيْبُ[1]

---

(١) للحلاج، كما في «تاريخ الطبري» (١١/ ٢٣٣)، وهو في «ديوانه» (ص: ٢٣)، وقبله: =

وكما أنَّ في السَّماء شمسًا وقمرًا، والشَّمسُ أبدًا بضيائها، والقمرُ في الزِّيادة والنُّقصان أبدًا، وكما استترَ بمحاقِهِ، بدا بعد ذلك حتَّى يكمل بدرًا بإشراقه، ثمَّ يأخذُ في النَّقص إلى أن لا يبقى منه شيء لتمام انمحاقه، ثمَّ يعودُ جديدًا، وكلُّ ليلةٍ تجدُ مزيدًا، فإذا صار بدرًا تمامًا، لم يجد أكثرَ مِن ليلةٍ لكمالِه مقامًا، ثم يأخذ في النُّقصان إلى أن يخفى شخصُه ويتمَّ نقصُه = كذلك مِن النَّاس مَن هو مردودٌ بينَ قبضِه وبسطِه، وصحوِه ومحوِه، وذهابِه وإيابِه، لا فناءَ فيستريح، ولا بقاءَ له دوامٌ صحيحٌ.

قال الشَّاعر:

كلَّما قلْتُ قَدْ دَنَا حَلُّ قَيْدِي ... قدَّموني فأوثَقُوا المِسْمارَا[1]

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ قيل: أي: وقدَّر القمرَ منازلَ، فعل يتعدَّى إلى مفعولَيْن، وهو كقولِه: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، يجري في كلِّها كلَّ شهرٍ مرَّة.

وإنَّما خصَّ القمرَ به لأنَّه هو الذي يعرِّفُ الشُّهور، وباجتماعِها تكون السِّنون.

وقيل: معناه: وقدَّرهما منازلَ؛ أي: الشَّمس والقمر، وإنَّما وحَّد[2] اكتفاءً، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ١١٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، وهذا لأنَّه يُعرَف بالشَّمس ابتداءُ النَّهار وانتهاؤه، وباجتماع الأيَّام واللَّيالي تُعرَف الشُّهور.

= طلعت شمسُ مَنْ أُحبُّ بليلٍ ... فَاسْتَنارَتْ فَمَا تَلاَهَا غُرُوبُ

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨٠). والبيت للشبلي. انظر: «محاضرات الأدباء» (٢/ ٨١٨)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦٦/ ٧٦).

(٢) في (أ): «وإنما ذكر واحدًا».

وقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾: فعددُ السِّنين: معرفةُ الشُّهور وتمام السَّنة، والحساب: هو الآجالُ والمواقيْتُ المقدَّرة بالشُّهور والسِّنين.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: بالشَّمس تُعرَفُ أوقاتُ الصَّلوات في الشِّتاء والصَّيف والرَّبيع والخريف، ولا يُعرَفُ ذلك بالقمر، وبالقمر تُعرَف الشُّهور والسِّنون، ولا يُعرَف ذلك بالشَّمس.

وفي مصحف حفصة رضي الله عنها: (وقدَّرهما منازلَ)(١).

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قال أبو بكر الأصم الكيساني(٢): [أي]: ما خلقَ اللهُ ذلك إلَّا وقد جعلَ فيه دلالة معرفتِه.

وقال الإمام الزاهد أبو منصور رحمه الله: قال قائلون: ما خلقَ اللهُ ذلك إلَّا وقدْ جعلَ فيه الشَّهادة له على الخلْقِ، وهو شهادةُ الوحدانيَّة والألوهيَّة.

وقال بعضهم ما خلق الله ذلك إلَّا للأمر الكائن لا محالة، وهو البَعْثُ.

ويحتمل: ما خلق الله ذلك إلَّا بالحكمة، لم يخلق ذلك عبثًا باطلًا، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧](٣).

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١١). ووقع في (أ): «وقدرها منازل»، وفي (ف): «وقدرناها منازل»، وكلاهما مخالف للمصدر المذكور.

(٢) قوله: «قال أبو بكر الكسائي» كذا في (أ) و(ر)، وليست في (ف)، وفي مطبوع «التأويلات»: «قال أبو بكر الأصم والكيساني»، ولعل الصواب ما أثبتناه، وقد أكثر الماتريدي من النقل عن أبي بكر الكيساني، وهو خيران بن العلاء، أبو بكر الكلبي الكيساني الأصم من أهل دمشق، روى عن الأوزاعي وزهير بن محمد وحماد بن سلمة روى عنه ابنه عمرو بن خيران وأبو عمرو الأوزاعي وهو شيخه، وغيرهما. انظر: «تاريخ دمشق» (١٧/ ٧٣).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١١).

وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: قرأ أبو عَمرو بياء المغايبة، بناء على قوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٥][١]، وقرأ الباقون بالنُّون بناءً على قوله: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾.

ومعنى قوله: ﴿نفصل﴾؛ أي: نبيِّن العلامات التي يُستدلُّ بها على الحقِّ.

وخصَّ العالمين بذلك لأنَّهم هم المنتفِعونَ[٢] بها.

* * *

(٦) ـ ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: قال أهلُ مكَّة: ائتنا بآيةٍ حتَّى نؤمنَ لك، فنزلت هذه الآية[٣].

أي: فيما يتعلَّق بما خلقْنا مِن الشَّمس والقمر ـ مِن اختلافِ اللَّيل والنَّهار لأوقاتٍ معلومةٍ على نسقٍ واحدٍ ـ لآياتٌ؛ لأنَّ في ذلك بقاءَ الدُّنيا إلى حين، وتدبيرَ معايشِ أهلِها، فمَن تدبَّر ذلك علم أنَّ الدُّنيا مخلوقةٌ لمكثِ الخَلْقِ فيها، وخالقُهم لم يهملْهُم، بل جعلَها لهم دارَ عملٍ، فلا بُدَّ مِن أمرٍ ونهيٍ، ثمَّ جزاءٍ ليُفرِّق بينَ المطيع والعاصي، فمَن تدَّبر هذا اتَّقى العاقبةَ وما فيها للعاصي مِن العقوبة، فكان الانتفاع بالآيات للمتقين فلذلك أضيفَتْ إليهم.

---

(١) وقرأ بالياء أيضاً ابن كثير وحفص. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٢) في (ر): «المتفوِّهون».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٢٠).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: اختصاصُ النَّهارِ بضيائِه، وانفرادُ اللَّيل بظلمائه، مِن غير استيجابٍ لهذا ومِن غير استحقاقِ عِتابٍ مع هذا = دلالةٌ على أنَّ الرَّدَ والقَبولَ والمنعَ والوصولَ ليس بمعلولٍ بسببٍ، ولا حاصلٍ بأمرٍ مكتسَب، كلَّا إنَّها إرادةٌ ومشيئة، وحكمٌ وقضيَّة، والنَّهارُ وقتُ حضور الغَفلة في أوطان كسبِهم، واللَّيلُ وقتُ أرباب الوصلة لانفرادهم بشهود ربِّهم[1].

* * *

(٧) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ قيل: أي: لا يخافون عقابَنا.

وقال مقاتل: لا يخافون البعثَ[2]. كما قال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]؛ أي: لا تخافون للهِ عظمةً.

وقيل: أي: لا يطمعون في ثوابِنا.

وهذه الكلمة من الأضداد، وقد أوضحنا ذلك في قوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وإنَّما سمَّى ذلك: لقاءَ اللهِ؛ لأنَّه لا[3] يقدر على ذلك إلَّا الله، فجُعِلَ لِقاؤُهُ لقاءَه تفخيمًا لشأنِه، كما جُعِلَ إتيانُ جلائلِ آياتِ الله إتيانَ اللهِ لذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾: أي: سكنوا إليها، فلم يفكِّروا في عاقبةٍ ولا حسابٍ ولا جزاءٍ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: لا يتدبَّرون فيها.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨٠).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٢٧).

(٣) في (أ): «لما لم».

(٨) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: أي: مِن الكفر والمعاصي.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أنكروا جوازَ الرُّؤيةِ فلم يرجوها، والمؤمنون آمنوا بجوازِ الرُّؤية فأمَّلوها.

وقيل: لا يرجون لقاءَه لأنَّهم لم يشتاقوا إليه، ولم يشتاقوا إليه لأنَّهم لم يحبُّوه، ولم يحبُّوه لأنَّهم لم يعرفوه، ولم يعرفوه لأنَّهم لم يطلبوه، ولم يطلبوه لأنَّ اللهَ تعالى أرادَ أنْ لا يطلبوه، ولو أرادَ أنْ يطلبوه لطلبوا، ولو طلبوا لعرفوا، ولو عرفوا لأحبُّوا، ولو أحبُّوا لاشتاقوا، ولو اشتاقوا إليه لرجوا لقاءَه، ولو رجوا لقاءَه لرأَوه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ﴾ الآية [السجدة: ١٣].

وقال في قوله: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: أصحابُ الدُّنيا رضوا بالحياة الدُّنيا فحُرِموا الجنَّةَ، والعبَّادُ والزُّهادُ ركنوا إلى الجنَّةِ ورضوا بها، فبقُوا في مراتبِ الوصلةِ.

وقال: لَمَّا كان الذي لا يرجو لقاءَه مأواه العذاب والفُرقة ثبتَ أنَّ الَّذي يرجو لقاءَه فعاقِبتُه الاقتراب والوصلة واللِّقاء والزُّلفة(١).

* * *

(٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وهم الَّذين يرجون لقاءَ اللهِ.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨١).

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾: قيل: يرشدُهم بإيمانهم في الدُّنيا إلى الخيرات، ويرزقُهم الدَّوام عليه والثَّبات.

وعلى هذا القولِ يكون قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: أي: وتجري، بإضمار الواو، وبالحذف يصير كلامًا مبتدأً غيرَ الأوَّل أيضًا.

وقيل: يهديهم في الآخرةِ إلى الجنَّة، وعلى هذا الإضمارِ قال مجاهد: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾: لهم نورٌ يمشون به(١).

وقال الضَّحَّاكُ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾: إلى الجنَّة في الآخرة(٢).

وقال مقاتلٌ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ على الصِّراط إلى الجنَّة بالنُّور(٣).

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: بينَ أيديهم في البساتين، كما قال: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، ومَا كانَتْ قاعدةً عليه، ولكن كان ذلك بينَ يديها، وكذا قالوا في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

وقيل: بأمرِهم ومشيئتِهم، كما يُقال: هذا تحتَ تصرُّفِه، وكذا قالوا في قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: يتنعَّمون فيها مِن غير مشقَّةٍ ولا مؤونةٍ.

***

(١٠) ـ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٩).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٠٥).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٢٧). وهو شبيه بقول مجاهد.

وقوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾: أي: دعاؤهم، وهو مِن دعا يدعو، كالشَّكوى مِن شكا يشكو.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾؛ أي: كلامُ أهلِ الجنَّة فيها تنزيهُ اللهِ عمَّا كان في الدُّنيا يُضاف إليه مِن الأضداد والشركاء.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: وآخرُ ما يتكلَّمون فيه مِن النَّعيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يحمدونَه على ما أدرَّ عليهم مِن نِعمِه، يبتدئون كلَّ نعمةٍ بالتَّسبيح لله، ويختمونها بالحمد لله، كما كانوا في الدُّنيا يبتدئونَ النِّعمةَ بالتَّسميةِ ويختمونها بالحمدِ.

وقيل: هي على حقيقة الدَّعوى التي تكون مِن المدَّعي.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال قائلون: أي: يدَّعون في الآخرةِ مِن الإيمان والتَّوحيد لله تعالى والتَّنزيه ما ادَّعوه في الدُّنيا مِن ذلك؛ فإنَّ التَّسبيحَ هو تنزيهُ اللهِ تعالى، وتبرئتُه عن جميع العيوب الَّتي وصفَتْهُ بها المشبِّهة والملحِدة[1].

وقيل: الدَّعوى هي التَّمني؛ قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ١٣]؛ أي: يتمنَّون ويشتهون.

وروى سعيدُ بن جبير عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾: كلَّما اشتهى أهلُ الجنَّة شيئًا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فجاءَهم ما يشتهون[2].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٣١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٠).

وقال الكلبيُّ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: قولهم في الجنَّة: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فإذا سمع الخدَّام ذلك أتوهم بما يشتهون(١).

وقال مقاتل: هذا علَم بين أهل الجنَّة وبين الخدَّام في الطَّعام، فإذا قالوا ذلك أتوهم الخدَّام بالموائد، فوضع بين أيديهم ما أرادوا على مائدة هي مِيلٌ في ميلٍ(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾: أي: تحيَّةُ بعضِهم لبعضٍ ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢].

وقال الكلبيُّ: يحيِّي بعضُهم بعضًا بالسَّلام، وتأتيهم الملائكةُ مِن عند ربهم بالسَّلام(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: قال الكلبيُّ: إذا فرغ أحدهم من كلامه قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤).

وقال مقاتل: إذا فرغوا من الطَّعام والشَّراب حمدوا ربَّهم على ما أعطاهم(٥).

وقال ابن جريج: إذا مرَّ بهم الطَّير يشتهونه قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فتأتيهم فتسلِّم عليهم، فيردُّون عليه، فإذا أكلوا حمدوا(٦).

وقيل: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾: هي مِن دعوى أهل الدُّنيا، وهي من تداعيهم في الحروب بآلِ فلان، ومعنى الآية: أنهم كانوا في الدُّنيا متضاغنين متقاتلين، فإذا

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٣١)

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٢٨).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٣١) عن ابن عباس رضي الله عنهما والكلبي.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٣١).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٢٩).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٦).

صاروا إلى الجنَّة نُزِعَ ذلك مِن قلوبهم، وصاروا إخوانًا على سررٍ متقابلين، فيكون تداعيهم بتسبيح الله وتحميده، فلذلك وصله بقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: له ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: أنَّه بيان أنَّه ليس على أهل الجنَّة شيءٌ من العبادات سوى التَّوحيد، وهي كلمة التَّوحيد.

والثَّاني: أنهم يقولون ذلك لعظيمِ ما يرَون من النَّعيم، وعجيبِ ما عاينوا.

والثَّالث: شكرًا لِمَا أعطاهم مِن ألوان النَّعيم(١).

وقال محمَّد بن عليٍّ الباقر: كلامُ أهلِ الجنَّة ثلاثة: التَّسبيح والتَّحميد وتسليم بعضهم على بعض، ورزَقَ اللهُ تعالى هذه الثَّلاثة للمؤمنين في الدُّنيا في الصَّلاة؛ يفتتحون الصَّلاة بالتَّسبيح، ويفتتحون القراءة بالحمد، ويختمون بالسَّلام.

وقال الحسين بن علي: إذا أرادوا الطَّعام والشَّراب سبَّحوا، وإذا فرغوا حمدوا، وإذا اشتاقوا هلَّلوا، وإذا تلاقوا سلَّموا، وإذا تفرَّقوا بعدَ التَّزاور فآخر دعواهم ـ أي: آخر كلامهم عند التَّفرُّق ـ الحمد لله ربِّ العالمين(٢).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾؛ أي: ثناؤهم عندَ اللِّقاء سبحانَك اللَّهمَّ، وتحيَّتُهم مِن الله عند اللِّقاء السَّلام، يحمدونَه بحمدٍ أبديٍّ سرمديّ، وهو يحييِّهم بسلامٍ أزليّ، وكلامٍ أبديّ، عزيزٍ صمديّ، وحبيبٍ أحديّ(٣).

* * *

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٤).

(٢) لم أقف عليهما.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨٢). وآخره: (...وهو عزيز صمديّ ومجيد أحديّ).

(١١) - ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: وهذه منتظِمة بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، ولغفلتهم إذا أُنذِروا استعجلوا العذابَ جهلًا منهم، ولو عجَّل اللهُ لهم ذلك إذا استعجلوه بدعائِهم كما يستعجلون بالخير لَمَا قاموا لعذابنا، بل ماتوا؛ لأنَّ تركيبَهم لا يحتمِل ذلك في الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: فُرِغَ منه وقُطِعَ. وقال أبو ذُؤَيْب:

وعليهما مَسْرُودتانِ قَضاهُما ... داودُ أو صَنَعُ السَّوابغِ تُبَّعُ[١]

وقرأ ابن عامر: ﴿لَقَضَى إليهم أَجَلَهُم﴾ بالنَّصب على الفعل الظاهر؛ أي: لقضى الله إليهم أجلَهم، والباقون بالضَّمِّ على ما لم يسمَّ فاعله[٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: تقديرُ الآية على هذا القولِ: ولو يعجِّلُ اللهُ للنَّاس الشَّرَّ إذا استعجلوه كما يعجِّل لهم الخيرَ إذا استعجلوه لهلكوا[٣].

واستعجالُهم الشَّرَّ ذُكِرَ في آياتٍ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ

---

(١) انظر: «ديوان الهذليين» (١/ ١٩). والمسرودتان: مثنى «المسرودة»، والدرع المسرودة: المنسوجة بحيث يدخل بعض الحلق في بعض. وقضاهما: صنعهما. والصنع بفتحتين: الذي يحسن العمل بيديه. والسوابغ: جمع سابغة، وهي الدرع الواسعة الوافية. وتبَّع: لقب لكلِّ مَن ملك اليمن. انظر: «شرح الشواهد الشعرية» لمحمد حسن شراب (٢/ ٩٧).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٥).

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ إلى قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ [الرعد: ٦]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

واستعجالُهم بالخير في آياتٍ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: ١٢] ونحوهما.

وعلى هذا قيل: إنَّها نزلَتْ في النَّضر بن الحارث حين قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ الآية [الأنفال: ٣٢][1].

وقيل: هو في دعاءِ الإنسانِ على نفسِه أو غيرِه بالهلاك عند الغضب، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

قال الكلبيُّ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ أي: العقوبة إذا دعوا على أنفسِهم أو على أولادهم[2]: أخزاهُم الله تعالى ولعنَهم اللهُ، كما يعجِّل لهم بالخير إذا دعوه بالرَّحمة والعافية والفرج فيرزقُهم ويدفَعُ عنهم لَمَاتوا وهَلَكوا[3].

وقال مقاتلٌ: لو استُجيبَ لهم في الشَّرِّ كما يحبُّون أنْ يُستجابَ لهم في الخير لهلَكوا[4].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله مع ذِكْرِ هذَيْن القولَيْن: ويُشبهُ أنْ يكونَ معناه:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٤ ـ ١٤٥) عن سعيد بن جبير ومجاهد والسدي، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (أ): «أموالهم».

(٣) ذكر نحوه الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٣٥).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٢٩).

ولو يعجِّلُ اللهُ للنَّاس الشَّرَّ باكتسابِهم الشَّر وارتكابهم إيَّاه كما يعجِّل لهم الخير وقتَ اكتسابهم الخيرَ لهلكوا(١).

وقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾: وهذا ابتداءُ كلامٍ معناه: فحن نذَر؛ أي: نترك الذين لا يخافون البعثَ في تماديهم يمضون متحيِّرين.

وقيل: فيه مُضمَرٌ: لكنَّا لا نفعلُ ذلك ونؤخِّر عذابهم إلى الآخرة، وندَعُهم في الدُّنيا كذلك.

قال القشيريُّ رحمه الله: معناه: لو أجبناهم إذا دعوا على أنفسِهم وأعزَّتهم عندَ غيظِهم وضجَرِهم لعجَّلْنا إهلاكَهم، لكنَّا تحمَّلْنا [أنْ] لا نجيبهم، وبرحمتنا عليهم لا نسمعُ بالإجابة دعاءَهم، وربَّما يشكو العبدُ بأنَّه لا يجيبُ دعاءَه، وتركُ إجابتِه لطفٌ به منه، قال الشَّاعر:

أنــاسٌ أعرَضــوا عنَّــا ... بِــلا جُــرْمٍ ولا مَعنــى
أســاؤوا ظنَّهــم فينــا ... فهــلَّا أحســنوا الظَّنَّــا
وإنْ كانــوا لنــا كُنَّــا ... وإنْ عــادوا لنــا عُدْنــا
وإنْ كانــوا قــد استغنوا ... فــإنَّا عنهــم أغنــى(٢)

***

(١٢) ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٥).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٦٢٤) (٢/ ٨٣)، والشعر لمحمود بن الحسين كشاجم. انظر: «ديوانه» (ص: ٣٩٤) مكتبة الخانجي، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾: أي: وإذا أصابَ الواحدَ مِن المشركين البلاءُ والمكروهُ في بدنِه ومالِه.

﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾: أي: على أيِّ حالٍ كانَ مِن اضطجاعٍ أو قُعودٍ أو قيامٍ.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾: أي: فإذا أزلنا عنه بلاءه ﴿مَرَّ﴾؛ أي: استمرَّ على شركِه لا يرى ذلك منَّا، وعادَ إلى ما كان عليه ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾؛ أي: كأنَّه لم يدْعُنا في بلاءٍ أصابَه.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أي: كالذي زُيِّنَ لهذا الإنسان زُيِّنَ لسائر المشركين المجاوزين حدودَ الشَّرع بالإشراك بالله وتكذيب الأنبياء ووضع الأموال والأنفس في الموضع الذي لا ينتفعون به في عبادة الأصنام وغيرها = ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الدُّعاء عندَ البلاءِ والنِّسيان عند الرَّخاء، وهذا التَّزيين مِن اللهِ تخليقًا، ومِن الشَّيطان وسوسةً، ومِن الأصحاب دعوةً وتلبيسًا.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: نزلَتِ الآيةُ في أبي حذيفةَ هشام بن المغيرة[1].

وقال عطاءٌ: في الوليدِ بن المغيرة وعتبةَ بن ربيعة[2].

وقال الإمام الزَّاهد أبو منصور رحمه الله: قال بعض أهل التَّأويل: جميع ما ذُكر في القرآن الإنسان فالمراد منه الكافر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]،

---

(١) هو قول مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٢٣٠).

(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٤٠).

وعندي مَن دخل في هذه الصِّفة من أهل الإيمان ـ وهي الدُّعاء عند البلاء وتركُه عند الرَّخاء ـ فهو مرادٌ بهذه الآية[١].

وأنشد القشيريُّ رحمه الله في معنى قوله: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ قولَ الشَّاعر:

كأنَّ الفَتى لم يَعْرَ يومًا إذا اكتَسى ... ولم يكُ صُعلوكًا إذا ما تموَّلا[٢]

* * *

(١٣) ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: بينَ القرنَين ثمانٍ وعشرون سنة[٣].

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾: كفروا بالله، وهو وضع الشَّيء في غير موضعِه، وهو ظلمُ نفسِه أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: وقد كانت جاءتهم رسلُهم بالحُجَج الواضحة.

﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾؛ أي: علمنا أنهم لا يؤمنون بدعاء الرُّسل وإظهار الآيات.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: كذلك نفعل بالمجرمين الذين نعلمُ أنَّهم لا يؤمنون، فنحن قادرون على معاجلة هؤلاء المستعجلين بالشَّر،

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٠٢). والبيت لجابر بن ثعلب الطائي. كما في «ديوان الحماسة» لأبي تمام (ص: ١١٠).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٢٢).

لكنَّا نمهلُهُم لعلمنا أنَّ فيهم مَن يؤمنُ، وهو كعكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد ونحوهما.

* * *

(١٤) ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: سكانَها ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله:

يحتمِل: جعلَكم مكانَ أولئك لم يهلكْهم[1]، وهو تذكيرٌ للنِّعمة.

ويحتمل: جعلكم خلائف أولئك في المحنة والعبادة؛ أي: ابتلاكم بالأمر والنَّهي كما فعل بأولئك.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال: لم يزلِ اللهُ تعالى عالماً بما كان ويكون منهم مِن الطَّاعة والمعصية، ولكنْ ليَعْلَمهم عصاةً ومطيعين؛ لأنَّ المعصية إنما تكون بعدما يكون النَّهي، والطَّاعة إنما تكون بعدما يكون الأمر، فيَعْلَمكم عاصين كما علم أنه يكون منكم معصية، ويعلمكم مطيعين كما علم أنه يكون منكم طاعة[2].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: مَن لم يعتبر بمَن سبقَه اعتبر به مَن لحقَه، ومَن لم يعتبر بما سمعَه اعتبر به مَن تَبعه[3].

* * *

(١) كذا وقعت العبارة في النسخ، وعبارة «التأويلات»: (جعل أنفسكم خلف أنفس أولئك الذين لم يهلكهم).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٨).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨٤).

(١٥) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾: وهذا إخبارٌ ببعضِ جهالات المشركين، معناه: وإذا تُقرأ عليهم آياتُنا في القرآن واضحاتِ الإعجاز في النَّظم والمعنى ليسمعوه ويتدبَّروه، قال الَّذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء للنَّبِيِّ عليه الصلاة السلام: ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا، ليس فيه شتمٌ لآلهتِنا، ولا تسفيهٌ لأحلامِنا، ولا وعيدٌ بالعذاب لنا، ولا أمرٌ ولا نهيٌ ممَّا يَشُقُّ علينا، أو بدِّل القرآنَ فاجعل فيه بَدَلَ السَّبِّ مدحًا، وبدل الوعيدِ وعدًا.

والإتيانُ بغيرِه قد يكون مع قيامِه، وتبديلُه لا يكون إلَّا برفعِه ووَضْعِ آخرَ مكانَه، أو تغييرِ أشياء منه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾: أي: مِن جهةِ نفسي؛ لأنَّه ليس قولي ولا كلامي، وإنَّما هو وحيُ الله تعالى إليَّ، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما أتَّبع إلَّا الوحيَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أي: أخشى إنْ عصيْتُ اللهَ بتركِ تبليغِه إليكم، أو تبديلِه على مرادِكُم، عذابَ يومِ القيامة.

وقيل: عذاب يومٍ هائلٍ في الدُّنيا يَنزلُ عليَّ العذابُ فيه.

قال قتادة: هم مشركو مكَّة[١].

وقال الكلبيُّ: هم المستهزئون بالقرآن، وهم خمسةُ رهطٍ: الوليدُ بن

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٤).

المغيـرة، والعـاصُ بـن وائـل، والأسـود بـن المطلِّـب، والأسـود بن عبـد يغوث، والحـارث بـن غيطلـة(١).

وقال مقاتل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: عبد الله بن أبي أميَّة المخزوميُّ، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامريُّ، والعاص بن عامر بن هاشم، قالوا للنَّبيِّ ﷺ: ائْتِ بقرآن غير هذا القرآن ليس فيه تركُ عبادةِ الَّلات والعزَّى ومناة وهبل، وليس فيه عَيبها، أو بدِّله فكلِّم به مِن تلقاء نفسِك(٢).

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾: فإذا أُمِرْتُ بأمرٍ فعلْتُ، ولا أبتدع ما لم أؤمر به، إنِّي أخاف إن فعْلُت ما لم أؤمر به عذابَ يوم عظيم، نسخَها قولُه جلَّ جلالُه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢](٣).

وأنزل الله تعالى في شأنهم: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [هود: ١٢](٤).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: إذا اقترحوا عليكَ أنْ تأتيَهم بما لم آمرْكَ به أو

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٠٧) دون ذكر أسمائهم. وقد روي عن ابن عباس أن هؤلاء الخمسة هم المستهزئون المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾. انظر: «تفسير عبد الرزاق» (١٤٦٥)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ١٥٠)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٤٦)، و«النكت والعيون» (٣/ ١٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٧٥).

وقوله: الحارث بن غيطلة، هو الحارث بن قيس وغيطلة أمه. انظر: «تاريخ دمشق» (٤١/ ٩٠).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٣١)، ولم يذكر هنا من الأسماء المذكورة سوى الوليد، فقال: «الوليد بن المغيرة وأصحابه أربعين رجلًا»، لكنه ذكرها في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١]. انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٣٠)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٢٣).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٥/ ١٦٨).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٣).

تريَهم ما لم أُظهِرْ عليك فأخبرهم أنَّك غيرُ مستقلٍّ بك، ولا موكولٍ عليك، أنا القائم عليك، المصرِّفُ لك، وأنت المتَّبع لِمَا أُجريه عليك، غيرُ مبتدِع بما يحصل منك(١).

* * *

(١٦) ـ ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾: أي: قل يا محمَّدُ لهؤلاء: لو شاء الله ما قرأتهُ عليكم بألَّا ينزِله عليَّ ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾؛ أي: ولا أعلمَكُمُ اللهُ به.

دريْتُ الشَّيءَ درايةً؛ أي: علمْتُه، وأدريْتُه غيري إدراءً؛ أي: أعلمْتُه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ قال الضَّحَّاكُ: لقد لبثْتُ فيكم قبلَ نزول القرآن عمرًا طويلًا أربعين سنة ولا أقرأ لكم شيئًا ولا آتيكم به(٢).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾: أنَّه ليس مِن قِبَلي.

وقيل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أنِّي لو كنْتُ أردْتُ شيئًا غير طاعتي لربِّي فيما أوحاه إليَّ لكان ذلك قبلَ نزول القرآن ـ وهو وقت شبابي ـ أمكَنَ، وأنا على ذلك حينئذ أقدَرُ، وعلى الدَّفع عن نفسي أقوى، وإذا تلوته عليكم في هذا الوقت فإنَّما ذلك للوحي ولخوف العذاب بالعصيان.

وقيل: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ قبلَ نزولِه، تعرفون حالي في مولدي ومنشئي وسفري وحضري، لم أشتغل بتعلُّمه، ولا اختلفتُ إلى مَن يعرفُه، فإذا

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨٤).

(٢) قاله مقاتل. انظر: «تفسيره» (٢/ ٢٣١)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٣٥) عن قتادة.

كانت هذه حالتي وجئتكم به مِن غير تعلُّم فاعلموا واعقلوا أنَّه مِن عند الله تعالى.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: لبثْتُ فيكم سِنينَ ولم تعرفوني كذبْتُ قطُّ، فكيفَ أفتري على اللهِ، وأخترعُ القرآنَ مِن عندِ نفسي[١]؟!

* * *

(١٧) - ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: فمَنْ أظلَمُ ممَّنْ اختلقَ على اللهِ كَذِبًا أنَّ معَه شريكًا وصاحبةً وولدًا، أو عبدَ الأوثانَ، أو كذَّبَ بمحمَّدٍ والقرآن، إنَّه لا يأمَنُ المشركون[٢].

ويحتمل هذا ثلاثةَ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّه إخبارٌ مِن اللهِ جلَّ جلالُه، والصِّفةُ المذكورة في الآيةِ مِن المشركين الكذبُ والتَّكذيب جميعًا.

والثَّاني: أنَّه متَّصل بقول النَّبي ﷺ الذي أمرَه اللهُ تعالى به في الآية الأولى أنْ يقول، ومعناه أنَّه قال: لا أحدَ أظلمُ ممَّن افترى على الله كذبًا؛ أضافَ إليه ما لم ينزلْهُ، أو بدَّل ما أنزلَه، وممَّن نفى ما أنزلَه عنه فكذَّبه فيه؛ أي: لا أظلمَ مِن هذين: أحدهما ما ينفيه عن نفسه، والآخر ما يثبتُه للمشركين.

والثالثُ: أنَّه نفى الأمرَيْن عن نفسِه؛ أي: إذا أتيْتُ بغيرِ هذا القرآن، أو بدَّلْتُ هذا القرآنَ، كنْتُ قد افتريْتُ على الله الكذبَ وكذَّبْتُه فيما أنزلَه عليَّ.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١).

(٢) نحوه عن ابن عباس في «البسيط» (١١/ ١٤٨)، ودون نسبة في «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٢٤).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: لا يظفرون بمطلوبٍ، ولا يصلون إلى مأمولٍ، ولا يأمنون مِن محذورٍ.

***

(١٨) - ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: أي: ويعبدون من دون الله الأصنامَ الَّتي لا تضرُّ مَن عصاها ولا تنفعُ مَن أطاعَها في معاشٍ ولا رزقٍ ولا غيره[١].

﴿وَيَقُولُونَ﴾: يعني أهل مكَّة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: يعنون الأصنام ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وقال الحسنُ: أي: في إصلاحِ المعاشِ؛ لأنَّهم كانوا لا يقرُّون بالمعاد، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨][٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: أتخبرون اللهَ بما لا يعلمُه موجودًا؛ أي: بما يعلمُه غيرَ موجودٍ؛ لأنَّه لو كان موجودًا لكان معلومًا له وجودُه؛ لأنَّه عالمٌ بكلِّ شيءٍ، وكيف يصحُّ وجودُ ما لا يعلمُه؟

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهُ اللهِ عن كلِّ سوءٍ ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ بتاء المخاطبة، كما قال تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾، والباقون على المغايبة، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾[٣].

---

(١) نحوه دون نسبة في «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٢٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٤٩).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢١).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: مَن علَّقَ قلبَه بالمخلوقين في استدفاع المضارِّ واستجلاب المسارِّ فهو كالسَّالكِ سبيلَ عبدةِ الأصنام؛ إذِ الموجِدُ والمنشِئُ للأشياء مِن العدمِ هو اللهُ المنفردُ بالأزليَّة والقِدَم(١).

***

(١٩) ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: قال أبو روق: وما كان النَّاس إلَّا أمَّة واحدة على ملَّة الإسلام زمنَ نوح عليه السلام بعد الغرقِ، فاختلفوا وتفرَّقوا، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بأنْ جعل للدُّنيا مدَّةً وأجلًا، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: لأقيمَ عليهم السَّاعة(٢).

وقال الكلبيُّ: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: كافرةً على عهد إبراهيم عليه السلام، ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾: فتفرَّقوا مؤمنًا وكافرًا، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: أنَّ اللهَ أخَّر هذه الأمَّة فلا يهلكُهم بالعذاب كما أهلَكَ الَّذين مِن قبلِهم، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن الدِّين(٣).

وقال الحسنُ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: في حكمِه أنَّه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه مِن الثَّواب والعِقاب دونَ القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدُّنيا،

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨٦).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٢٥).

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٠٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٢٥).

فأدخلَ المؤمنين الجنَّةَ بأعمالهم، والكافرين النَّارَ بكفرِهم، ولكنَّه سبقَ مِن اللهِ الأجَلُ، فجعلَ موعدَهم يومَ القيامةِ(١).

وقال مجاهدٌ والسُّدِّيُّ: كان النَّاسُ أمَّةً واحدةً على الإسلام في زمنِ آدمَ صلوات الله عليه(٢).

والآيةُ تنتظِم بقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وهي تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ في تأخير العذاب عنهم.

وقيل: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: بإهلاكِ المبطِلين وتخليصِ المحقِّين.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أي: مِن الآيات المقترحة، كما قال: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] الآيات.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾: أي: مالكُ الأشياء الغائبةِ والعالِمُ بها هو اللهُ تعالى، وهو أعلمُ بما ينزِّلُ عليكم مِن الآيات وما لم ينزِّلْ، وإنَّما أنا نذيرٌ مبلِّغٌ، وقد بلَّغتُكم ما نزَّله عليَّ مِن القرآن الَّذي جعلَه آيةً لي، فليس بعدَ هذا إلَّا العقوبة المنتظرَة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: أي: فانتظروا إهلاكَهم فإنَّا منتظرون ذلك.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٢٥)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ١٥٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣) عن مجاهد و(٣/ ٦٢٥) عن السدي.

وقال الحسنُ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ مواعيدَ الشَّيطان فيما يغرُّكم ويمنِّيكم ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ لمواعيد اللهِ[1].

***

(٢١) ـ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾: أي: إذا أعطينا المشركين خِصْبًا بعد جَدْب، ومَطرًا بعد قَحْط، وسَعةً بعدَ ضِيق، ندعوهم بذلك إلى الشُّكر.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾: ﴿إِذَا﴾: كلمةُ مفاجأة؛ أي: ظهرَ منهم مكرٌ في آياتِنا؛ أي: حملَهم الطُّغيان على إخفاء قصد السُّوء بآياتِنا، بأن تصوَّروا أعلام الدُّعاء إلى الشُّكر منهم بغير صورتها، وتغييرها[2] عن وجهِها، ويقولون: هذا شيءٌ جاءَنا باستحقاقِنا، وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وكقوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾: أي: هو استدراجٌ منه لهم مِن حيثُ لا يعلمون، وإملاءٌ لهم، وهو أسرعُ مِن فعلِهم، فلا حاجةَ للهِ في إمضائِه إلى تلبُّثٍ.

ويحتملُ أنْ يكونَ معناه: يستعينون بنعمةِ اللهِ على الاحتيال على المؤمنين، والإنفاقِ في ابتغاء الغوائل لهم، فيوقِفُ اللهُ تعالى نبيَّه على ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى قوله ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

---

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٤٧٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٢٦).

(٢) قوله: «وتغييرها» كذا في (ر) و(ف)، وغير واضحة في (أ).

وقال مقاتل بن حيَّان: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾: لا يقولون: هذا رزقُ اللهِ، وإنما يقولون: سُقينا بِنَوْءِ كذا، وهو قولُه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؛ أي: صنيعًا[١]، فقتلَهم اللهُ يومَ بدرٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾: أي: الحفظة مِن الملائكة.

﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾: أي: ما تقولون في الصَّدِّ عن الإيمان والتَّكذيب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؛ أي: أسرعُ لجزاءِ المكرِ، وأعجل أخذًا لكم من حيث لا تعلمون أنتم[٢].

***

(٢٢) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: وفي قراءة ابن عامر: ﴿يَنْشُرُكُمْ﴾؛ أي: يهيِّئ لكم أسباب الانتشار[٣]، وقرأ الباقون: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾[٤]؛ أي: يهيِّئ لكم أسبابَ السَّيرِ طلبًا للمعاشِ، ويهديْكُم إلى ذلك، ويُيَسِّرُ لكم ذلك بالدَّوابِّ وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: أي: السُّفُنِ، واشتقاقها مِن فَلْكَةِ المغْزَلِ،

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٢٦)، و«البسيط» (١١/ ١٥٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٦).

(٣) في (أ): «أسباب الاتسار»، وفي «ف»: «الأسباب للاستبشار»، وفي (ر): «الانتشار»، والصواب المثبت.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

وفَلَكِ السَّماء، ومعناها: الدَّورانُ في الماءِ، وهي تجيءُ للجَمْعِ والواحدِ، ويذكَّرُ ويؤنَّثُ، وهاهنا للجمعِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾: والنُّون للجمع، ثمَّ رجع للمغايبة بقوله: ﴿بِهِم﴾ بعدَ ذِكْرِ المخاطبة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ﴾، وهو طريقٌ مسلوكٌ لأهل اللِّسانِ، ومعدودٌ في الفصاحةِ والبيان، مع أنَّه خِطابٌ لِمَنْ كانَ في تلك الحالة، وإخبارٌ لغيره من النَّاس، وهو كقولِ لَبِيْدٍ:

باتَـتْ تَشَـكَّى إلـيَّ النَّفـسُ مُجْـهِـشَةً ... وقَدْ حَمَلْتُـكِ سَـبْعًا بَعْـدَ سَـبْعِيْنَا[1]

وقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: أي: جرَتِ السُّفنِ براكبيها بريحٍ ليِّنةٍ يُسْتَطابُ هبوبُها، ويستقيمُ مرورُ السُّفنِ بها.

وقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾؛ أي: سُرُّوا بهذه الرِّيح، وأمنِ السَّفينةِ لمحالِّها[2].

وقوله تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: أي: انتقلَتِ الرِّيح فصارَتْ عاصفًا شديدةَ الهبوبِ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: أي: تلاطَمَتِ الأمواجُ مِن كلِّ جانبٍ مِن جوانبِ السَّفينةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أي: أشرفوا على الهَلَكَةِ، وغلَبَ ظنُّهم أنَّهم لا يتخلَّصون مِن الغرقِ.

وقوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: أي: بالاعتقادِ والعلمِ أنَّه لا يخلِّصُهم

---

(١) انظر: «ديوان لبيد بن ربيعة» (ص: ١٣٩)، وبعده:

فـإن تزادي ثلاثًا تبلغـي أملاً ... وفي الثلاث وفـاء للثمانينا

(٢) في (ر): «وأمر السفينة لحالها»، وفي (ف): «وأمن السفينة».

منها غيرُه: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: فقالوا: ربَّنا لَئِنْ خلَّصْتَنا مِن هذه الرِّيح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لَكَ، لا نُنْكِرُ نعمَتَكَ، ولا نعبدُ غيرَكَ، ولا نشرِكُ بِكَ شيئًا.

❊ ❊ ❊

(٢٣) ـ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾: أي: منها ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: عادوا إلى خلافِ الشُّكر، واستطالوا في الأرضِ على النَّاس، بغير أن يكون ذلك مباحًا لهم فيكون حقًّا، وقهرُوهم وسلبُوهم وقتلُوهم ونسُوا عهودَهم.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾: أي: بغيكُم يجلبُ إلى أنفسِكُم المكارِهَ، فهو أوقعُ عليكم، ضارٌّ بكم.

وقوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: قرأ عاصم في رواية حفص بالنَّصب على الحال أو القطع، والباقون بالرَّفع على إضمار (هو) أو (ذاك)(١).

أي: ومدَّةُ البغي وصاحبِه مدَّةٌ قليلة في الدُّنيا، كالشَّيء يُتَمَتَّعُ به ثمَّ ينقضي.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾: في الآخرة ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فنخبرُكُم بذلك، ونجزيكُم عليها.

وقال محمَّد بن كعب القرظيُّ: ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه كُنَّ عليه: البغيُ والنَّكثُ والمكر؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠](٢).

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٨٧)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٣٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: يريدُ أنَّهم يُصبِحونَ في النِّعم يجرُّون أذيالَهم، ثمَّ يمسُون يشكون بلبالهم[١]، وقد يبيتون والبهجةُ ملكَتْهم، ثمَّ يصبحون وخفايا التَّقدي أهلكَتْهم، وقد قيل في معناه[٢]:

أقمْنا زمانًا والعيونُ قريرةٌ ... ومِنْ بعدُ عُدْنا والعيونُ سَوافِكُ[٣]

فإذا رجعوا إلى اللهِ بإخلاصِ الدُّعاء جادَ عليهم بكشْفِ البَلاءِ، فلمَّا أنجاهم بإجابة دعائهم إذا هم في بغيهم يرجعون، وعلى مناهجِهم في تمرُّدهم يسلكون[٤].

وقال: إنَّما بغيُكم على أنفسِكم؛ أي: تمتُّعكم في أيَّام قلائل، ثمَّ تلقون في ذلك وبيلًا، وتقاسُون بذلك عذابًا طويلًا.

***

(٢٤) ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: ثُّم بيَّنَ متاعَ الحياة

---

(١) في (أ): «بشكوى بلبالهم»، وفي (ف): «بسكون بلبالهم»، وفي مطبوع «اللطائف»: «يشكون لياليهم»، والبَلْبَال: الهمُّ. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: بلل).

(٢) «وقد قيل في معناه» من (ف)، وفي (أ): «شعر»، وليست في (ر)، وفي «لطائف الإشارات»: «وأنشدوا».

(٣) البيت نسب للقشيري نفسه صاحب «اللطائف»، كما في: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ٢٠٧)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٨/ ٢٣٢)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٩/ ٦٤).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٨٧ ـ ٨٨).

الدُّنيا المذكورةِ في الآية المتقدِّمة: أنَّ مثال هذه الحياة، أو صفةَ هذه الحياةِ القريبةِ المدَّةِ، كمطرٍ أنزلناه مِن السَّحاب ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: فنبَتَ نباتًا مختلفَ الأنواع، مختلطٌ[1] بعضُها ببعضٍ، وهو فيما لم يَنبُت بعدُ، فيَنبُتُ به.

ويجوز أن يكون في النَّبْتِ الحادث: إذا نزلَ به المطرُ اختلطَ بالمطرِ؛ أي: اتَّصل كلُّ واحدٍ منهما بالآخر، فاهتزَّ ورَبَا.

﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾: مِن اللُّبَاب ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾؛ أي: البهائمُ والمواشي وغيرها من القشور.

وهو فيما يشتملُ على القشر واللُّبِّ، فقد ينبُتُ مَا يأكلُ كلَّه النَّاسُ كالحبوب، وما يأكلُ كلَّه الأنعامُ كالحشيش.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾: أي: زِيْنتَها، والزُّخرفُ: الذَّهبُ.

وقال قتادة: بهجتَها.

وقال الضَّحاكُ: حسنها.

وقال أبو العالية: جمالها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾؛ أي: تزيَّنتْ، أُدغمَت التَّاءُ في الزَّاي، وزِيدَت الألفُ ليكون الابتداء بالمتحرِّك؛ أي: اكتسبَتْ رونقًا وجمالًا باختلاف ألوان النَّبات مِن صُفرة وحمرة وخضرة وبياض ونحوِها.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾: قيل: أي: على استصحابِ تلكَ الحال، وحصلوا على غير شيء منها؛ لأنَّ القادرَ عليهم وعليها أهلَكَها.

---

(١) في (أ): «مختلفة الأنواع» بدل: «مختلف الأنواع مختلط».

وقيل: أي: قادرون على أخذِ ما فيها مِنَ النَّبات والحبِّ والثَّمر، وعلى التَّنزُّهِ بزهرتِها، والانتفاعِ بوجوهِ منافعِها.

وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾: وهو ما يرسلُه عليها مِن عذابٍ يستأصل نباتَها، مِن بردٍ أو ريحٍ أو صاعقةٍ أو نحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَيۡلًا﴾: أي: باللَّيل ﴿أَوۡ نَهَارًا﴾؛ أي: بالنَّهار ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدًا﴾؛ أي: مقطوعًا ساقطًا ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾؛ أي: لم تكنْ على تلكَ الصِّفة فيما قبلُ. وقد غَنِيَ بالمكان: إذا أقام به، من حدِّ عَلِم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: فكما بيَّنا هذا المثل نبيِّن سائرَ الآيات ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: هم المنتفعون بها.

وقال الإمام الزَّاهد أبو منصور رحمه الله: قيل: ضرب مثل الحياة الدُّنيا بالزَّرع مِن وجوهٍ:

أحدها: إنَّه يخبرُ عن سرعةِ زوالِها وانقطاعِها، كالنَّبات الَّذي يتسارع إلى الزَّوال والانقطاع بالآفة.

والثَّاني: إنَّه يخبرُ عن تغيُّرها[١] وانقلابِ أمرِها، كالنَّبات الَّذي يتغيَّر في أدنى مدَّة.

والثَّالث: إنَّه ذكر مسرَّة صاحب الدُّنيا وابتهاجَه بالحياة الدُّنيا كما يكون ذلكَ لصاحبِ الزَّرع به، ثم يكون ما ذكر.

والرَّابع: أنَّ معناه: مَثَلُ الحياة الدُّنيا للحياة الدُّنيا فيما ينفقون[٢] فيها، مثَلُ

---

(١) في (ر) و(ف): «تقلبها».

(٢) في (أ): «ينتفعون».

صاحب الزَّرع الذي يُنْفِقُ عليه لِمَا يأمُلُ مِن المنافع، ثمَّ يكون ما ذكر، ولو علم ذلك في الابتداء ما فعل، فكذلك صاحبُ الدُّنيا فيما فعل(١).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: شبَّه الحياةَ الدُّنيا بالماء الذي ينزل من السَّماء، ينبُتُ به النَّبات، وتخضرُّ به الأرض، وتظهر الثمار، ويوطِّن أربابُها عليها أنفسَهم، فتصيبهم جائحةٌ سماويَّةٌ بغتةً، وتصيرُ كأنْ لم تكنْ، كذلك الإنسانُ بعد كمالِ سِنِّه، وتمام قوَّتِه، واستجماع الخصال المحمودة فيه تخترمُه المنيَّة، وكذلك أمورُه المنتظِمةُ تبطل وتختلُّ بوفاته، كما قيل:

فقدناه لَمَّا تمَّ واعتمَّ بالعُلا ... كذاك كسوفُ البدرِ عندَ تمامِهِ(٢)

ومِن وجوهِ تشبيهِ الأموالِ الدُّنيويَّة بالماء المنزَل مِن السَّماء: أنَّ المطرَ لا يُستنزَل بالحيلة، كذلك الدُّنيا لا تساعد إلَّا بالقسمة(٣)، ثمَّ إنَّ المطرَ وإنْ كان لا يجيء إلَّا بالتَّقدير فقد يُستسقَى، كذلك الرِّزق وإن كان بالقسمة فقد يُلتَمَس مِن الله تعالى ويُستعطَى.

ومنها: أنَّ الماءَ في موضعِه سببُ حياةِ النَّاس، وفي غير موضعِه سببُ خرابِ

---

(١) في (أ): «يفعل». وانظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٩)، وفيه: (...ولو علم في الابتداء أن أمر زرعه يؤول ويصير إلى ما صار لكان لا ينفق؛ فعلى ذلك صاحب الحياة الدنيا لو علم أن عاقبة أمر نفقته تصير حسرة عليه وندامة ما أنفق، كما أن صاحب الزرع الذي ذكر وبلغ المبلغ الذي ذكر لو علم أن عاقبته كما كان ما أنفق عليه، أو لو علم أنه لا ينتفع به ما أنفق تلك النفقة، أي: لو علم أن سروره وابتهاجه به لا يبقى ولا يدوم إلى آخره ما تكلف ذلك، أو لو علم أنها تزول عنه وتنقطع عن تلك السرعة ما أنفق ذلك وما تكلف الذي تكلف).

(٢) البيت لأبي الفتح البستي في الصاحب. انظر: «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي (ص: ٢٣٢)، و«زهر الآداب» للقيرواني (٢/ ٤٥١).

(٣) في (أ): «لا يساعد إلا بالسمة»، وفي «لطائف الإشارات»: «لا تساعدها إلا القسمة».

الموضع، كذلك المال لمستحقِّه سببُ سلامتِه وانتفاعِ المتَّصلين به، وعند مَن لا يستحقُّه سببُ طغيانِه وسببُ بلاءِ مَن هو متَّصلٌ به، كما قيل: نِعمُ اللهِ لا تُعاب، ولكن ربَّما استُقبِحَتْ على يد أقوام.

ومنها: أنَّ الماءَ إذا كان بمقدارٍ كانَ سببَ الصَّلاحِ، فإذا جاوزَ الحدَّ كان سببَ الخراب، كذلك المالُ إذا كان بقدر الكفاية والكفاف فصاحبُه منعَّم، فإذا زادَ وجاوزَ الحدَّ أوجبَ الكُفران والطُّغيان.

ومنها: أنَّ الماءَ ما دام جاريًا كان طيِّبًا، فإذا طالَ مكثُه تغيَّر، كذلك المالُ إذا أنفقَه صاحبُه كان محمودًا، فإذا ادَّخره وأمسكَه كان معلولًا مذمومًا.

ومنها: أنَّ الماءَ إذا كان طاهرًا كان حلالًا يصلُح للشُّرب ويصلح للطُّهور ولإزالة الأذى، وإذا كان غير طاهرٍ فبالعكس، وكذلك المالُ إذا كان حلالًا، وبعكسه إذا كان حرامًا.

ويُقال: كما أنَّ الرَّبيعَ تتورَّد أشجارُه، وتظهر أزهارُه، وتخضرُّ رِباعُه، وتتزيَّن بالنَّبات وِهادُه وتِلاعُه[1]، ثم لا يُؤْمَنُ أنْ تصيبَه آفةٌ مِن غير ارتقاب، وينقلبُ الحالُ بما لم يكنْ في الحساب، كذلكَ مِن النَّاس مَن يكون له أحوالٌ صافية، وأعمالٌ بشرطِ الخلوص زاكية، وغصونُ أُنْسِهِ متدلِّية، ورياضُ قُرْبِهِ مُؤْنِقَة، ثمَّ تصيبُه عينٌ، فيذبلُ عودُ وِصالِه، وينسدُّ بابُ عوائدِ إقبالِه، كما قيل:

عينٌ أصابَتْكَ إنَّ العينَ صائبةٌ والعينُ تسرعُ أحيانًا إلى الحسَنِ[2]

---

(١) في «أ»: «بالنبات من البر وهاده وتلاعه»، وفي (ر): «بالنبات وتأمن من البرودات وتلاعه»، وفي (ف): «بالنبات ويأمن من البرودات»، والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٢) انظر: «لطائف الإشارت» للقشيري (٢/ ٨٩)، والبيت بلا نسبة فيه، وأورده بلا نسبة كذلك الإشبيلي =

(٢٥) ـ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ أي: لا يدعوكم إلى الرُّكون إلى الدُّنيا الَّتي هي تعرض الآفات، بل إلى الجنَّة الَّتي فيها السَّلامة عن كلِّ العاهات.

قال الزَّجَّاجُ: ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾: دار السَّلامة عن كلِّ آفةٍ(١).

والسَّلام والسَّلامة، كاللَّذاذ واللَّذاذة، والرَّضاع والرَّضاعة(٢).

وقال الحسنُ وقتادةُ: السَّلام: اللهُ، ودارُه: الجنَّةُ(٣).

ومعنى الآية على القول الأوَّل: واللهُ يدعوكم إلى عمل الآخرة الَّتي سَلِمَ صاحبُها مِن الحزن والخوف، ونعيمُها مِن التَّغيُّر والفناء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي: مَن حَسُنَتْ إجابته أجابَه اللهُ إليها؛ أي: هداهُ إلى الطَّريق الَّذي يفضي به إليها.

فالدُّعاءُ عامٌّ، والهدايةُ خاصَّة؛ إذ الكلُّ مدعوُّون، والسُّعداءُ منهم مهديُّون.

وقيل: ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾: دار التَّحيَّة؛ قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]: وهي مِن بعضهم لبعض؛ وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ

= في «قانون التأويل» (ص: ٥٨٦)، والمستعصمي في «الدر الفريد» (٧/ ٢٧٦). وفي «اللطائف»: (الحسد) بدل «الحسن».

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥).

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٦)، و«معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٢٨٥).

(٣) رواه عن قتادة عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٤)، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٢/ ١٦٧)، والواحدي في «البسيط» (٧/ ٣١٢).

وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٣) عن الحسن قال: ما من ليلة إلَّا ينادي منادٍ: يا صاحب الخير هلمَّ، ويا صاحب الشرِّ أقصر، فقال رجل للحسن: أتجدها في كتاب الله؟ قال: نعم ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]: وهو سلام الملائكة، وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]: وهو سلام الله تعالى.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الدُّعاءُ تكليفٌ، والهدايةُ تعريفٌ، فالتَّكليف على العموم، والتَّعريف على الخصوص، التَّكليف بحقِّ سلطانه، والتَّعريف بحكم إحسانِه، الدُّعاء قولُه، والهداية طَولُه.

و﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾: دار السَّلامة؛ سلم أهلُها مِن الحُرْقةِ والفُرْقةِ؛ سلموا مِن الحُرْقةِ فحصلوا على لذَّة عطائِه، وسلموا مِن الفُرْقةِ فوصلوا إلى عزيز لقائِه.

وقيل: لا يصلُ إلى دار السَّلام إلَّا مَن سلمَتْ نفسُه مِن سجود الصَّنم، وقلبُه من الشِّرك والظُّلم.

ودرجاتُ تلكَ الدَّار متفاوتةٌ، فالَّذي سلمَ قلبُه عن صحبة الأغيار أعلى درجةً ممَّنْ سلمَتْ نفسُه عن الذُّنوب والأوضار.

والصِّراطُ المستقيمُ: طريقُ المسلمين، فهذا للعوام بشرط علم اليقين، ثمَّ طريقُ المؤمنين وهو طريق الخواصِّ بشرط عين اليقين، ثمَّ طريقُ المحسنين وهو طريقُ أشراف الخواصِّ بشرط حقِّ اليقين، فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بوصف العِيَان، وهم الَّذين قال لهم النَّبيُّ ﷺ: «الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ»[(١)]، و: «المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِن لسانِه ويدِهِ»[(٢)].

والمحسنُ: مَن سَلِمَ الخَلْقُ بأجمعِهم عَن قلبِه.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٩٠ ـ ٩١)، والحديث رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢٦) ـ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: أي: للَّذين أحسنوا الأعمال الحسنى(١).

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: الحُسنى: الحسنة(٢)، والزِّيادة: عشرةُ أمثالِها.

وعن علقمة قال: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هي التَّضعيف(٣).

وقال الحسن: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: عشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف(٤).

وقال مجاهد: الحُسنى: الجنَّة، والزِّيادةُ: المغفرةُ والرِّضوانُ(٥).

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الزِّيادةُ: غرفةٌ مِن لؤلؤةٍ واحدةٍ، لها أربعةُ أبوابٍ، الغرفةُ والأبوابُ مِن لؤلؤةٍ واحدةٍ(٦).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: الحُسنى: الجنَّة لأنَّها جزاءُ الإحسان، كما سمَّى النَّارَ السُّوأى؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ [الروم: ١٠] لأنَّها جزاءُ الإساءة.

---

(١) في (أ): «أي للَّذين أحسنوا زيادة؛ أي: للَّذين أحسنوا الأعمال الحسنى».

(٢) تحرفت في النسخ إلى: «الجنة»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ١٦٣)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٣٤٢)، و«الكشاف» (٢/ ٣٢٧). ومع ذلك فالخبر إسناده ضعيف جدًّا.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٦).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٣).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٥).

(٦) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٥٨ ـ تفسير)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٥)، جميعهم من طريق الحكم بن عتيبة عن علي رضي الله عنه. وإسناده ضعيف للانقطاع بين الحكم وعلي رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٢٤): لا يصح.

قال: وقيل: الزِّيادة: المحبَّة في قلوب العباد، يحبُّه المحسنون ويهابه كلُّ أحدٍ من غير سلطان.

قال: وقيل: التَّضعيف حتَّى يكون عشرًا وسبعَ مئة وما شاء الله؛ يدلُّ عليه قوله تعالى في مقابلتِه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾.

قال: وقال قائلون: الزِّيادة هي قَبول حسناتِه مع ما فيها مِن الخَلْطِ بالسَّيئات.

قال: وقال قائلون: الحُسنى: ما تقدِّرُها العقول وتدركُها وتصوِّرها الأوهامُ، والزِّيادةُ هي الَّتي لا تقدِّرها العقولُ ولا تدركُها ولا تصوِّرها الأوهامُ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «وفيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر»[1].

وقال أبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه: سألْتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن هذه الآية، فقالَ: «الحُسْنَى الجنَّةُ، والزِّيادَةُ النَّظَرُ إلى وجهِ اللهِ تعالى»[2].

وقال أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ في قولِه جلَّ جلالُه: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] قالَ: «يتجلَّى لهم ربُّهم»[3].

وعن صهيبٍ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٢ـ ٣٤). والحديث رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٤٤)، والدارقطني في «الرؤية» (١٨٣)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٧٨٠). وله شاهد من حديث صهيب رضي الله عنه سيأتي قريباً.

(٣) رواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٩٨)، والبزار في «مسنده» (٧٥١٨)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٨١٣)، كلهم موقوفًا على أنس رضي الله عنه، وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن أنس بهذا اللفظ إلا عثمان بن عمير أبو اليقظان، وعثمان صالح.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٢): رواه البزار، وفيه عثمان بن عمير وهو ضعيف.

وَزِيَـادَةٌ﴾ قالَ «إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ نادى منادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ، إنَّ لكم عندَ اللهِ موعدًا، يريدُ أنْ يُنْجِزَكُمُوْهُ. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيِّضْ وجوهَنا، ويثقِّلْ موازينَنا، ويدْخِلْنا الجنَّةَ، ويجرْنا من النَّار؟ قالَ: فيَكْشِفُ الحِجابَ، فيتجلَّى لهم، فينظرون إليه، والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه، ما أعطاهم شيئًا هو أحبُّ إليهم ولا أقرُّ لأعينِهم مِنَ النَّظرِ إليه»[1].

والآيةُ تنتظمُ هذه الأقاويلَ كلَّها، وأولى التَّفاسيرِ تفسيرُ رسولِ الله ﷺ، وقد قال به جماعة من الصَّحابة رضوان الله عليهم والتَّابعين: أبو بكر الصِّدِّيق، وحذيفة بن اليمان، وأبو موسى الأشعري، وكعب بن عجرة، وصهيب بن سنان، وعبادة بن الصَّامت، وابن عبَّاس، وعامر بن سعد، وعبد الرَّحمن بن أبي ليلى، وعبد الرَّحمن بن سليط، وعكرمة، والحسن، والضَّحَّاك، والسُّدي، ومقاتل، وعطاء[2]، وعامَّة المفسِّرين: الزِّيادةُ: النَّظر إلى وَجْهِ اللهِ تعالى.

وروى قيسُ بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله قال: كنَّا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، فنظرَ إلى القمرِ ليلةَ البَدْرِ، فقال: «إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ ربَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هذا القَمَرَ، لا تُضَامُّونَ في رُؤْيَتِهِ»[3].

وهذا تشبيهُ الرُّؤيةِ بالرُّؤيةِ، لا تشبيهُ المرئيِّ بالمرئيِّ، وهو القول الحقُّ، وعليه أهل السُّنَّة والجماعة[4].

---

(١) رواه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، والإمام أحمد في «المسند» (١٨٩٣٥) واللفظ له.

(٢) انظر أقوالهم في «تفسير الطبري» (١٢/ ١٥٦ ـ ١٦٤)، و«رؤية الله» للدارقطني (ص: ١٥٦ ـ ٣٠٨)، و«الاعتقاد» للالكائي (٣/ ٥٠٣ ـ ٥٦٠).

(٣) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٤) وقد طعن الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٣٤٢) بهذا الحديث ونعته بـ(المرقوع) ونعت أهل السنة =

وروى منصور بن عمَّار، عن يزيد بن شجرة قال: إنَّ مِنَ الزِّيادةِ أنْ تَمُرَّ السَّحابةُ بأهلِ الجنَّةِ، فتقولَ: ما تريدون أنْ أُمطرَكُمْ؟ فلا يريدون شيئًا إلَّا مطرتْهم[1]، فتمطرُهُمْ منعَّمات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾: أي: لا يغشاهم غبارٌ.

وقيل: القترةُ: غَبَرةٌ معَها سوادٌ؛ أي: على وجوهِهم سِيْما الفرح والسُّرور، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٣٩].

وهو خلافُ حالِ وجوه أهل النَّار: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠ ـ ٤١]، وقال هاهنا: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾: أي: هَوَان.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: هذا ظاهرٌ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في الواجبات، ولم يبخلوا بالمندوباتِ.

= القائلين به بـ(المشبهة والمجبرة) لأنهم يعتقدون بجواز رؤيته تعالى ووقوعها في الآخرة، خلاف المعتزلة القائلين بامتناع ذلك. وقد تعقبه كثير من العلماء، ومنهم الآلوسي حيث قال: (وقول الزمخشري عامله الله تعالى بعدله: (إن الحديث مرقوع) بالقاف؛ أي: مفترى، لا يصدر إلا عن رقيع، فإنه متفق على صحته، وقد أخرجه حفاظ ليس فيهم ما يقال). انظر: «روح المعاني» (١١/ ١٠٣).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٠)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٣٤٢). ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٤) عن كثير بن مرة. ويزيد بن شجرة هو أبو شجرة الرهاوي (نسبة إلى الرها بطن من مذحج) الشامي، يقال له صحبة، وكان أمير الجيش في غزو الروم، توفي سنة (٥٨هـ). انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٠٦).

وقيل: ﴿أَحْسَنُوا﴾: لم يبقَ عليهم حقٌّ إلَّا قاموا به، إن كانَ حقَّ الحقِّ فمِن غير تقصيرٍ، وإنْ كان حقَّ الخَلْقِ فمِن غير تأخيرٍ.

وقيل: أحسنوا في المآل كما أحسنوا في الحال، فاستداموا بما فيه واستقاموا.

وقيل: الحسنى في الدُّنيا: توفيقٌ بدوام وتحقيقٌ في تمام، وفي الآخرة: غفرانٌ معجَّلٌ، وعِيَانٌ على التأبيد محصَّل.

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قال أهلُ المعرفةِ: الحسنى، الرُّؤية، والزِّيادةُ دوامُها.

وقيل: الحسنى: اللِّقاء، والزِّيادة: البقاء في حال اللِّقاء.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ أي: لا يُردُّون مِن غير شهودٍ إلى رؤيةِ غيره.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: في فنونِ أفضالهم، في جميع أحوالهم[1].

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾: قال الكلبيُّ: عملوا الشِّركَ والمعاصي[2].

﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾: أي: لهم جزاءُ سيِّئةٍ ﴿بِمِثْلِهَا﴾؛ أي: قصاص ذلك بمثلِها، وهي النَّارُ، هي مثلُها؛ أي: هي موافِقةٌ لعمَلِهم، اعتقدوا الشِّركَ على الأبدِ، فعُوقِبوا فيها على الأبد.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي: يغشاهم هوانٌ، وآثار خيبةٍ وحرمان، وهو كقوله تعالى:

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٩١ ـ ٩٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠ ـ ٤١].

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: أي: مانع مِن عذابِ اللهِ تعالى مِن جهة أصنامِهم وأعوانِهم.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾: قرأ ابن كثير والكسَّائيُّ بسكون الطَّاء. وقال الأخفش: معناه؛ أي: بعضًا من اللَّيل، وقرأ الباقون بفتح الطَّاء، وهي جمع قِطْعة[1].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾: نصبه على الحالِ مِن قولِه: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ حالَ إظلامِه، وهو كقوله: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال القشيريُّ رحمه الله: وُسِمُوا بذلِّ الحِجاب، وعُوْقِبوا بتأبيد العذاب[2].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: وهذا ظاهر.

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: أي: نجمع الَّذين كسبوا السَّيئات وما عبدوهم من دونِ الله تعالى في الموقف ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ أي: للمشركين: ﴿مَكَانَكُمْ﴾: نصب على الملازَمةِ[3]، معناه: الزَموا مكانكم واثبتوا مكانكم[4].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢١).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٩٢).

(٣) في (ر) و(ف): «الإغراء».

(٤) «واثبتوا مكانكم» ليس في (ف).

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾: ﴿أَنتُمْ﴾ توكيدٌ لأسماء المخاطَبين بالأمر بلزومِهم مكانَهم و﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطفٌ عليهم. وأضاف الشُّركاء إليهم لأنَّهم القائلون بذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: أي: فرَّقنا بينَهم، وقد زِلْتُهُ أَزِيْلُهُ؛ أي: فرَّقْتُه، وزَيَّلْتُه للتَّكثير والتَّكرير، وليس مِن الزَّوال، وذاك واويٌّ وهذا يائيٌّ.

وقال تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ [الفتح: ٢٥]، وجاء في الحديث: «خَالِطُوا النَّاسَ وزايِلُوْهُم»[1]؛ أي: خالطوهم بالأبدان، وفارقوهم في الأعمال.

يقول: إنَّا نقولُ للمشركين: الزموا مكانَكم وآلهتكم للحسابِ، لا تفرَّقوا.

وقيل: أي: اثبتوا مكانَكم مع شركائِكم ليعينوكم، ويشفعوا لكم، ويعصموكم من عذاب الله، وهي كلمةُ توبيخٍ.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٩٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٣٦): رواه الطبراني في «الأوسط» عن شيخه محمد بن علي المروزي، وهو ضعيف.

وجاء موقوفًا عن عدد من الصحابة:

فرواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠١٥٢) عن عمر رضي الله عنه قال: (خالطوا الناس بما يحبون، وزايلوهم بأعمالكم، وجدوا مع العامة).

ورواه وكيع في «الزهد» (٥٣١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٢٢١)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (خالطوا الناس وزايلوهم وصافحوهم، ودينكم لا تكلمونه)، ورواه أيضاً الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٧٥٦، ٩٧٥٧)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٨٠): رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات.

ورواه الدارمي في «سننه» (٣١٢) عن علي قال: (خالِطُوا الناس بألسنتكم وأجسادِكم وزايلُوهم بأعمالِكم وقلوبِكم فإن للمرءِ ما اكتَسَبَ وهو يوم القيامةِ مع مَن أَحَبَّ).

وروي مرسلاً؛ رواه هناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٥٨٨) عن عبد الله بن باباه مرسلًا.

وقوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾؛ أي: ميَّزْنا بينَ العابدين والمعبودين؛ لأنَّ المعبودين إنْ كانوا ملائكةً فهم مميَّزون عن أهل النَّار إلى المواضع التي هي مقاماتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾: قيل: هم الملائكة: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾: وهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١]؛ أي: قالت الملائكةُ: إنَّ الجنَّ ـ وهم الشَّياطين ـ دعَتْهم إلى عبادَتِنا، ونحن منهم بُرَءاءُ، فإنَّما عبدوا الشَّياطين؛ لأنَّهم أطاعوهم فيما أمروهم، وهو كقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠].

وقال الكلبيُّ ومقاتلٌ ومجاهدٌ: ﴿شُرَكَاؤُهُم﴾: الأصنامُ، يُنْطِقُهُمُ اللهُ تعالى، فيقولون: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾: ما علمْنَا بعبادتكم إيَّانا، ولا أَمَرْنا بها، ولا عبادةَ إلَّا بأمْرِ المعبودِ(١).

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: فرَّقنا بينَ المشركين وبين أصنامِهم وما كان بينَهم من التَّواصل.

وقيل: أي: جعلنا الأصنام ترابًا، وجعلنا المشركين في النَّار.

وقيل: ﴿شُرَكَاؤُهُم﴾: أعوانهم وقرناؤهم في الشِّرك، وقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ هو قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ الآية [البقرة: ١٦٦]، قاله مجاهد(٢).

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٣٦)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٨) عن مجاهد.

(٢) انظر: «الوسيط» للواحدي (٢/ ٥٤٦)، و«تفسير ابن كثير» عند هذه الآية.

وقيل: فرَّقنا بينهم فلم يتناصروا، وقال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥].

وقيل: هو تفريقهم في الدَّرَكَات في النَّار؛ لأنَّ بعضَهم أسفل من بعضٍ.

* * *

(٢٩) ـ ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾؛ أي: ما كنَّا عنها إلَّا غافلين.

و﴿شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أعمُّ وأحسنُ مِن قولِه: شهيدًا لنا ولكم، أو: علينا وعليكم؛ لأنَّه ينتظمُهما.

قال الكلبيُّ: لَمَّا قالتِ الأصنام: لم نعلمْ بعبادتكم إيَّانا، قالوا: بل عبدناكم، فيقولون هذا.

وعلى قول مَن قال: هم الملائكة، فهم يقولون هذا؛ أي: اللهُ يشهدُ ويعلمُ أنَّا لم نعلم بها، ولم نرضَ، ولم نأمرْ.

* * *

(٣٠) ـ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾: قرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿تتلو﴾ بتاءَيْن، مِن التِّلاوة؛ أي: يقرأُ في كتابِه، وهو قول الفرَّاء[١].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٦٣).

وقيل: تَتْبَعُ.

وقال ابن زيدٍ: تُعاين[١].

وقيل: هو معنى ما رُوي: (يُمَثَّلُ لكلِّ عابدٍ معبودُه، فيُقال له: اتْبَعْهُ، فيتَّبِعُهُ، فيوردُهُ النَّارَ)[٢].

وقرأ الباقون: ﴿تَبۡلُواْ﴾ بالباء المعجمة مِن تحتِها بواحدة[٣].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: تَخْتَبِرُ[٤]؛ معناه: في هذا الموقف تَختبِرُ كلُّ نفسٍ ما قدَّمَتْ من عملٍ، حتَّى ترى تَنتفِعُ به أو لا تَنتفِعُ.

والمعنى: ظهور الأعمال؛ أي: هنالك تظهرُ للعاملين أعمالُهم الَّتي قدَّموها، وقوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [هود: ٧] أنه يرجع إلى ظهور أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾: أي: ورُدَّ العابدون والمعبودون

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٤).

(٢) روى نحوه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظهما: (يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت...».

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢١).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٨٤).

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٩)، عن مجاهد. وقد ورد هذا المعنى في كثير من كتب التفسير، وضبطت الكلمة في المطبوعات بالمبني للمجهول: (تُخْتَبَر)، لكن كلام الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٣٤٤) يدل على أنها بالمبني للمعلوم، حيث قال: ﴿تَبۡلُواْ﴾: تختبر وتذوق ما أَسْلَفَتْ من العمل فتعرف كيف هو، أقبيح أم حسن، أنافع أم ضارّ، أمقبول أم مردود؟ كما يختبر الرجل الشيءَ ويتعرّفه ليكتنه حاله.

إلى حكم اللهِ الذَّي هو مولاهم في الحقيقة، لا مولَى لهم غيرُه، فيحكم بينهم، ويتبيَّن الصَّادق مِن الكاذب.

وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: يضلُّ ما كانوا يقولون: نعبدُهم ليشفعوا لنا.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: إنَّما يقفون على خسرانهم إذا ذاقوا طعْمَ هوانِهم، فإذا رُدُّوا إلى اللهِ لم يجدوا إلَّا البعد مِن الله، والطَّرد عن الله، وذلك جزاءُ مَن آثرَ غيرَ اللهِ على اللهِ[1].

***

(٣١) ـ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

وهذه محاجَّة لهم بما يُبطِلُ اعتقادَهم وقولَهم بالشِّرك، يقول: قلْ يا محَّمد للمشركين: مَنْ يُنزِلُ مِن السَّماء ومَن يخرِجُ مِن الأرضِ رزقَكم، ومَنْ يدبِّرُ أمرَ ذلكَ؟

أمَّنْ يملِكُ أسماعَكُم وأبصارَكُم يصرِّفُها كيفَ يشاءُ، ولو أرادَ أنْ يسلبَها حسَّها لفعَل؟

ومَنْ يخرِجُ الولدَ الحيَّ مِن النُّطفةِ الميتةِ ـ وعلى القلب ـ ويخرِجُ الشَّجرةَ مِن النَّبات ـ وعلى القلب ـ والزَّرعَ مِن الحبَّة ـ وعلى القلب ـ والمؤمنَ من الكافر ـ وعلى القلب ـ ومَن يقدِّرُ أمورَ الخلائق؟

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٩٣).

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ ذلك اعتقادهم ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مِن تعجيزكم إيَّاه عن إعادة الموتى أحياءً في الآخرة كما كانوا في الدُّنيا.

وقال الإمام الزَّاهد أبو منصور رحمه الله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عقوبَته ونقمَته بالإشراك؟

ويحتمل: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادةَ غيرِه دونَه، وإشراكَ غيره في الألوهِيَّةِ به؟

ويحتمل: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ صرْفَ شكرِه إلى غيرِه، وقد أقررْتُم أنَّه هو المنعِم عليكم بهذه النِّعم؟

ويحتمل: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عصيانَه ومخالفتَه وقد عرفتُموه[1]؟

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ ولكن ظنًّا لا عن بصيرةٍ، ونُطقًا لا عن تصديقِ سريرة[2].

* * *

(٣٢) ـ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّ﴾: أي: فاعلُ ذلك كلِّه هو اللهُ الحقُّ، يحقُّ له الرُّبوبيَّةُ والألوهيَّة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾: أي: فليسَ بعدَ عبادتِه إذا عبدْتُم غيرَه إلَّا الضَّلالُ عن الحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾: أي: مِن أين تُصرَفون عن هذا الأمر بعدَ المعرفة.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٨).

(٢) انظر: «لطائف الإشارت» للقشيري (٢/ ٩٤).

وقال عطاء: فكيفَ تَصْرفون عقولَكم إلى عبادةِ مَن لا يَسمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يخلقُ ولا يرزقُ(١).

* * *

(٣٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: قرأ نافع وابن عامر: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هاهنا وفي آخر هذه السُّورة على الجمع، والباقون على التَّوحيد(٢)؛ أي: حَقَّ كلامُ ربِّك؛ أي: خبره.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾: وهم قومٌ بأعيانِهم، خرجوا عن طاعة الله تعالى، وعلمَ اللهُ منهم اختيارَ البقاءِ على الضَّلالة.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: وهو كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

* * *

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٨٨)، و«الوسيط» (٢/ ٥٤٧)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولفظه عندهم: (كيف تُصْرَف عقولكم...)، وهذا أحسن من لفظ المؤلف؛ لأنه موافق للفظ القرآن ﴿تُصْرَفُونَ﴾ بالمبني للمجهول، فتفسيرها بالمبني للمعلوم فيه بعدٌ.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: قل يا محمَّد لأهل مكَّة: هل مِن أصنامِكم مَن يبدأُ الخلْقَ في بطنِ أمِّه نطفةً وعلقةً ومضغةً، ثمَّ يعيدُه ببعثِه بعدَ الموتِ؟ فإنْ أجابوك فقالوا: الله، وإلَّا فقلْ لهم: اللهُ يبدأُ الخلقَ ثمَّ يعيدُه بعدَ الموت، فمِن أينَ تُصرَفون عن الحقِّ؟ استفهام بمعنى التَّوبيخ[1].

والخَلْق: اسمُ جنسٍ يصلح للجَمْع، وهو في الأصل مصدر أيضًا، فلا يُثنَّى ولا يُجمَع.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: قال مقاتلٌ: قُلْ: هل مِن شركائِكم الّلاتِ والعُزَّى ومناةَ والأصنامِ الَّتي تعبدونها أحدٌ يَهدِي إلى دين الإسلام؛ أي: فلا بُدَّ لهم مِن أن يقولوا: لا، إنَّها لا تعقلُ ولا تميِّز، ولا تضرُّ ولا تنفعُ، فقلْ لهم أنت ـ وذلك قوله تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾؛ أي: إلى الحقِّ[2].

والهداية تتعدَّى على ثلاثة أوجه، يُقال: هديتُه كذا، ولكذا، وإلى كذا.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾: قرأ ابنُ كثير وابن عامر وورش عن نافع: ﴿يَهَدِّي﴾ بفتح الهاء وتشديد الدَّال، وأصلُه: يهتدي، فأُدغمتِ التَّاء في الدَّال، ونُقلَتْ فتحتُها إلى الهاء لئلَّا يجتمع ساكنان.

وقرأ أبو عمرو ونافع في رواية غير ورش: ﴿يَهدِّي﴾ باختلاس فتحة الهاء وتشديد الدَّال[3].

---

(١) ذكر نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨) دون عزو.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٣) هي قراءة أبي عَمْرو، وقالون عن نافع، وهي أنهما يخفيان حركة الهاء، والنَّصُّ عن قالون بالإسكان، وقال اليزيدي عن أبي عَمْرو: كانَ يُشمُّ الهاء شيئًا من الفتح. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٢).

وقرأ عاصم[١]: ﴿يَهِدِّيٓ﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدَّال إتباعًا لكسرة الدَّال بعد الهاء.

وعن عاصم في رواية أبي بكر بكسر الياء لانكسار الهاء؛ لتتَّفق الحركات.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿يَهْدِي﴾ بإسكان الهاء وتخفيف الدَّال على الأصل الثلاثي[٢].

وأمَّا معناه: فقد قال عطاء: إنَّ محمَّدًا دعا قومَه إلى الحقِّ والرَّشاد، وهو أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ ممَّن لا يدعو إلى الحقِّ ولا يهتدي إلَّا أنْ يُهْدَى[٣].

وقال الحسنُ: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وذلك هو الله تعالى ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾؛ أي: يُعمَلُ بأمرِه ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ إلى خير؛ أي: هو جمادٌ لا يعرفُ هدًى مِن ضلالٍ، ولا خيرًا مِن شرٍّ، ولا نفعًا مِن ضُرٍّ[٤].

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ قيل: هو استثناءٌ منقطع، ومعناه: لكنَّه يُهْدَى؛ أي: يُحْمَلُ ويُنْقَلُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والهديةُ: ما تُنْقَلُ وتُحْمَلُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والهَدْيُ: ما يُنْقَلُ إلى الحرم، وهَدَى العروسَ: نقلَها إلى بيتِ زوجِها.

أي: هو لا يستطيعُ أنْ ينتقلَ بنفسِه، فكيفَ يهدِي غيره؟

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: إلَّا أنْ يُنطقَه اللهُ في القيامةِ، ويهديَه إلى القولِ بالحقِّ، كما تقدَّم ذكرُه في قوله: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨]، ﴿إِن

---

(١) في رواية حفص.

(٢) انظر جميع ما ذكر من قراءات في «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٦)، و«التيسير» (ص: ١٢٢).

(٣) ذكر نحوه ابن زنجلة في «حجة القراءات» (ص: ٣٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٩٣).

﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩]، فإذا فعل الله تعالى بهم ذلك صاروا كذلك، ويكون معناه: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾؛ أي: يجعلَهم اللهُ بحيث يهتدون إذا هُدُوا، ويجيبون إذا دُعوا[١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾: استفهامٌ بمعنى التَّوبيخ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: كذلك.

وقيل: معناه: كيف تقضون بالجَوْر، وصَرْف العبادة والشُّكر إلى مَن لا يملكُ شيئًا.

* * *

(٣٦) - ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: أخبرَ بالسَّبب الَّذي صاروا به إلى الضَّلال، فقالَ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أي: بغير دليل، نحو اقتدائِهم بأسلافِهم ظنًّا منهم أنَّهم مصيبون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾: لا ينفعُ في معرفةِ الحقِّ نفعًا مّا؛ أي: لا يدلُّ عليه، ولا يوجبه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: مِن الشِّرك، واتِّباع الظَّنِّ، وترك الحقِّ، فهو يجازيهم على ذلك، وهو وعيدٌ لهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال بعضُهم: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: هم كبراؤهم، يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤١).

وقال بعضُهم: هم أتباعُهم، فإنَّ الكُبراء عرفوا البراهين وعاندوا، والعوامَّ قلَّدوا ظنًّا منهم أنَّ الكبراء على الحقِّ(١).

* * *

(٣٧) ـ ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا يخرج على وجهَيْن:

أحدهما: ما كان هذا القرآن بالذي يحتمِل الافتراء من دون الله؛ لخروجِه عن طَوْقِ البشر ووُسْعِهم، كذلك الذي يُحِيْلُ لكونه مفترًى في نفسِه(٢).

والثَّاني: لِمَا أُودِعَ فيه من الحكمة والصِّدق، يدلُّ على كونِه مِن عند اللهِ؛ إذ كلامُ غيرِه يحتملُ السَّفه والكذب والاختلاف(٣).

وهذه الآية تتَّصل بقولِه: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾ ـ الآية ـ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾: نصبه بـ(كان)؛ أي: يصدِّقُ هذا القرآنُ الكُتبَ المتقدِّمة، ولو كان محمَّد هو الَّذي افتراه مِن عند نفسِه لم يخرج موافِقًا لها؛ لأنَّ محمَّدًا لم يعرف سائر الكتب، ولَمَّا خرج موافقًا لها دلَّ أنَّه مِن عند اللهِ جاء؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨].

---

(١) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٢) قوله: «كذلك الذي يُحِيْلُ لكونه مفترًى في نفسِه» كذا في النسخ، وعبارة «التأويلات»: (فذلك بالذي يحيل كونه مفترى بجوهره). انظر: «تأويلات أهل السنة» (ط: الرسالة ناشرون) (٢/ ٤٨٠).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٣).

وقوله تعالى: ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي: ما كُتِبَ لهم وعليهم.

وقال الحسنُ: ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: الوعدَ لِمَنْ أطاعَه بالنَّعيم المقيم، والوعيدَ لِمَنْ عصاه بالعذاب الأليم(١).

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: لا شكَّ فيه أنَّه كلامُ ربِّ الخلائق أجمعين.

* * *

(٣٨) ـ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: أم ينسبونه(٢)، على استفهام فعلِه(٣)، فيتَّصل بقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ [يونس: ٢]، أو يُضمَر هاهنا استفهام، وهو: أفيعترفون بهذا أم يقولون افتراه.

وقيل: بل معناه كما في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: وهذا أمرُ إعجاز؛ أي: أنتم أصحابُ لسانٍ وبيانٍ، وإنَّما أنا رجل منكم، فتكلَّفوا أنتم أن تأتوا بسورةٍ مثلِ هذا القرآن في نظمِه وصحَّة معانيه وزوال الاختلاف عنه، فاستعينوا بمَن استطعتم مِن خلق الله تعالى إنْ كنتم صادقين أنَّه مفترًى، وأنَّ محمَّدًا يقدر على الإتيان بقرآن غيره وتبديله.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٠١).

(٢) في (أ): «أم بينوه» وليست منقطة، وفي (ف): «أم ينسق به».

(٣) في (أ): «قوله».

وقال القشيريُّ رحمه الله: انسدَّتْ بصائرُهم، فلم يزدادوا بكثرة السَّماع إلَّا عمًى على عمًى، كما أنَّ أهلَ الحقيقة ما ازدادوا إلَّا هدًى على هدًى، فسبحانَ مَن جعلَ سماعَ خطابِه لقومٍ سببَ تحيُّرهم، ولآخرين مُوجِبَ تبصُّرهم(١).

***

(٣٩) ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾؛ أي: ليسَ تكذيبُهم القرآنَ لكونه مفترًى عندهم بيقينٍ، مِن غير إحاطةِ علمِهم به أنَّه كذلك، ولم تأتهم حقيقةُ ما تؤُول إليه عاقبةُ مَن كذَّب به مِن نزول النِّقمة بهم.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿تَأْوِيلُهُ﴾: ما يكون منه في الدُّنيا وما يكون منه في القيامة مِن العذاب(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: بل كذَّبوا بالبديهة مالم يحفظوا نظمَه ولا لفظَه، ولا نظروا فيه، ولا تدبَّروا ليعلموا معناه وتأويله وتفسيره(٣).

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: أي: مِن الأمم رسلَهم تسرُّعًا لا تثبُّتًا.

وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾: أي: الَّذين ظلموا نفوسَهم وعقولَهم كيف نزل بهم العذابُ، فليتَّقِ هؤلاء أن تكون عاقبتُهم كذلك.

وهو تسليةٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وتخويفٌ للمكذِّبين.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٩٦).

(٢) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٤٤).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٣).

(٤٠) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ قال الكلبيُّ ومقاتل: ومِن أهل مكَّة مَن سيؤمنُ بالقرآن ويصدِّق به[1].

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾: أي: لا يصدِّق أنَّه مِن عند الله.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بالمعاصي، وقيل: مَن يدوم منهم على فسادِ الكفر ممَّن يتوبُ منهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: على علمٍ بما يكون منهم، خلقَهم لا عن غفلةٍ وجهلٍ، لا يضرُّه فسادُ مفسِدٍ، ولا ينفعُه صلاحُ مصلحٍ.

ويحتمل أنَّه على الوعيد والتَّهديد[2].

* * *

(٤١) ـ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أي: فإنْ كذَّبوك قبلَ أن يكون إيمانُ مَن علمَ اللهُ أنَّه يؤمِنُ فقل لهم: لي عملي في التَّبليغ والتَّنبيه، ولكم عملكم الَّذي تُؤْثِرونَه لأنفسكم، وأنتم بريئون ممَّا أعمل وأنا بريء ممَّا تعملون، كلٌّ يُحاسَبُ على عملِه دونَ عملِ غيره.

وقال الكلبيُّ ومقاتل: نسخَتْها آيةُ القتال[3].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٣٩). وذكره عن الكلبي الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٠٤).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٤٥).

(٣) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٣)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٤٨). ورواه الطبري =

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: بَرِحَ[1] الخفاءُ، وكُشِفَ الغِطاءُ، فلا المحسنُ بجُرمِ المسيءِ مُعاقَب، ولا المسيءُ بحُكمِ المحسِنِ مخاطَب، بل كلٌّ بما يعملُه مُحاسَب[2].

***

(٤٢) - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: للرَّدِّ، لا للفهم، و(مِن): اسمُ جنسٍ، فصلح للجمع بمعناه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾: استفهام بمعنى الجحد؛ أي: لسْتَ بقادرٍ على إفهامِ مَن يتصامَم عن سماعِ الحقِّ، فلا يعقلُه ولا يفهمُه.

***

(٤٣) - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾: وحَّدَ الفعل لأنَّه واحد في اللَّفظ، وإن كان جمعًا في المعنى للجنس.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾: أي: كما ليس لك أنْ تُسْمِعَ الصُّمَّ، فتجعلَ لهم أسماعًا يعقلون بها عنك ما تقول، فليسَ لك أن تهدِي العُمْيَ إلى طريقٍ يسلكونَه وهم لا يبصرون، وهو كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية [القصص: ٥٦].

= في «تفسيره» (١٢/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٥٤)، عن ابن زيد.

(١) أي: زال.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٩٧).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: نفى في الأوَّل العقلَ، وفي الثَّاني البصر؛ لأنَّه بالبصر يُتوصَّلُ إلى اهتداء الطُّرُقِ والسُّلوك فيها، ألا ترى أنَّ البهائمَ قدْ تُبْصرُ الطُّرُقَ وتَسلكُ فيها، وتتقي بها المهالِكَ، ولا تَعقِل لِمَا ليس لها سماع العقل مع سماعها الصَّوت، فبظاهرِ البصرِ تبصِرُ الأشياء، وبظاهرِ السَّمع بدون العقل لا تعرفُ الأشياء[1].

***

(٤٤) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: أخبرَ أنَّ ما حلَّ بأولئك مِن عذاب الاستئصال فإنَّما حلَّ بهم بظلمِهم أنفسَهم، واللهُ تعالى مُنزَّه عن أنْ يظلمَ أحدًا مِن خلقِه.

وقيل: إنَّ اللهَ تعالى لا ينقصُ مِن ثواب العباد شيئًا، ولكنهم ينقصون ذلك بفعلِهم.

***

(٤٥) ـ ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾: أي: اذكر يومَ نحشرُهم إلى الموقف ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: وهي مقدارٌ مِن الزَّمان يُقسَم به اليومُ واللَّيلة على أربعةٍ وعشرين منها، ذكَّرَهم القيامة وما فيها من الجزاء ليخافوا ويتهيَّؤوا لها.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٤٦)، والعبارة الأخيرة فيه بلفظ: (ولا تعقل لما ليس لها سمع العقل، فلا تعقل لما يسمع القلب بعقل، وبظاهر البصر تبصِر الأشياء).

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في قبورِهم ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾[1].

وقال الضَّحَّاكُ: قصرَتِ الدُّنيا في قلوبِهم مِن هولِ ما استقبلوا، فكأنَّهم لم يلبثوا في الدُّنيا إلَّا ساعة[2].

وقوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾: يعرفُ بعضُهم بعضًا ساعةً، ثمَّ تنقطع المعرفة؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: قيل: هو حالهم حين خسروا.

وقيل: هو ابتداءٌ، ومعناه: قد هلكَ وغُبِنَ المكذِّبون بالقيامة اغترارًا بالحياة الدُّنيا، وهذه حالها.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: حيث اعتقدوا التَّكذيب بالقيامة.

ويحتمل أن يكون قولُه: ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ عطفًا على قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾، ويحتمل أن يكون عطفًا على قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾.

قال الإمام القشيريُّ رحمه الله: الأيَّام بعد مضيِّها في حكمِ اللَّحظةِ لمن أمكن فيها، ومتى يكون لها أثرٌ بعد تقضِّيها؟ والآتي من الوقت قريبٌ كأنْ قَد، والماضي مِن الدَّهر بعيدٌ كأن[3] لم يُعهَد[4].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٤)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٢١٠).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٤).

(٣) في (ر): «والآتي من الوقت قريب، وكان الماضي من الدهر بعيد كأن»، وفي «تأويلات أهل السنة»: «والآتي من الوقت قريب، وكأنّ قدر الماضي من الدهر».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٩٨). ووقع في (ر): «والآتي من الوقت قريب، وكأن الماضي من الدهر بعيد كأن لم يعهد»، وفي «اللطائف»: «والآتي من الوقت قريب، وكأنّ قدر الماضي من الدهر لم يعهد».

(٤٦) ـ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصلُه: وإنْ ما؛ (إن): للشَّرط، و(ما): صلة، والنُّون للتَّوكيد، ومعناه: وإنْ أريناك.

وقال مقاتل: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب؛ يعني: القتلَ ببدر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عذابهم(١).

فكان البعضُ هو القتلُ ببدرٍ، وسائرُ العذابِ نزلَ بهم بعد الموت.

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: بعدَ الموتِ، فنجزيهم بأعمالهم.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الإخبار؛ أي: ثم ليُخبركم أنَّ اللهَ شهيدٌ ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن الكفر والمعاصي، فيجزيهم عليها.

***

(٤٧) ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: قال مقاتل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ فيما خلا ﴿رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بالعدل، كما يُقضى بينَكَ وبينَ أمَّتك ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في أعمالهم، فلا يُنقصون من محاسنهم، ولا يزادون على مساوئهم(٢).

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: فإذا جاء رسولهم فكذَّبوه قضي بينهم وبين

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٤٠).

(٢) المصدر السابق، الموضع نفسه.

رسـولهم يـوم القيامـة، فيقول الله تعالـى: ألم يأتكم رسـلٌ بكتبـي؟ فيقولون: مـا أتانا منـك رسـولٌ ولا كتـابٌ، ثـم يُؤتَى بالرَّسـول فيقول: قـد أبلغتُهم كتابَك ورسـالاتِك، فيقـول الله تعالـى: مَـن يشـهدُ لك؟ فيقـول: الملائكـة، فتُدعَـى الملائكـة، فيقولون: نشـهدُ أنَّه قـد بلَّغ[1].

وقال عطيَّة العوفي: فإذا جاء رسولهم وبلَّغهم الرِّسالةَ، فكذَّبوه، قضي بينهم وبين رسولهم في الدُّنيا بالعدل، فعُذِّبَ المكذِّبون، ونجا الرُّسل والمؤمنون، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يُعذَّبُ أحدٌ بغير ذنبٍ، ولا على غير حجَّةٍ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥][2].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: لم يخلُ زمانٌ مِن شرعٍ، ولم يخلُ شرعٌ مِن حكمٍ، ولم يخلُ حكمٌ عمَّا يتعقَّبه مِن ثواب أو عقاب[3].

***

(٤٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: قال مقاتلٌ: لَمَّا قالَ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ يعني: من العذاب، قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ العذابَ نازلٌ بنا، فنزل هذا[4].

***

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢١٨) دون قوله: «فيقول الله تعالى: مَن يشهدُ لك...إلخ».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» مفرقاً (١١/ ٢١٧ و٢١٩).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٩٩).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٤٠).

(٤٩) ـ ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أنْ يملِّكَنيه، وهكذا لا أملكُ إنزالَ العذابِ بكم الآن.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾: قال مقاتل: قلْ يا محمَّد لكفَّار مكَّة: لا أملكُ لنفسي دفعَ سُوء عنها، ولا سَوق خيرٍ إليها، إلَّا ما شاء الله فيصيبني، فكيف أملكُ إنزالَ العذابِ بكم، ولكلِّ أمَّة وقتٌ معلوم للعذاب، مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، فإذا جاءَ وقتُ عذابِهم لا يتقدَّمون ساعةً حتَّى يُعذَّبوا ولا يتأخَّرون، فكذلك هذه الأمَّة[1].

والعذابُ: القتلُ ببدر.

* * *

(٥٠) ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: قيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ وإضمارٌ، وتقديرُه: ما ترَوْن وما تقولون ماذا يستعجِل منه المشركون إنْ أتاكم عذابُه الذي تستعجلونَه أخذًا بالنَّهار وباللَّيل، كيف تصنعون؟

وقال القشيريُّ رحمه الله: مَنْ عرَفَ كمالَ القُدْرةِ لم يأمَنْ مِنْ أخذِ الفَجأة، ومَن خافَ البياتَ لم يستلذَّ السُّبات، ومَنْ توسَّد الغفلة أيقظَتْه فجأة العقوبة، ومَنْ استوطأ مركبَ الزَّلَّة عثرَ به في وَهْدة المحنة[2].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٤١).

(٢) انظر: «لطائف الإشارت» للقشيري (٢/ ١٠٠).

وقالَتْ بنتُ الرَّبيعِ بنِ خُثَيْمٍ لأبيها: ما لَكَ لا تنام؟ فقالَ: إنَّ أباكِ يخافُ البيات(١).

***

(٥١) ـ ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾: استفهامٌ بمعنى التَّوبيخ؛ أي: بعدَما استعجلْتُم العذابَ إذا وقعَ آمنتم بالله، وهو غيرُ نافعٍ لكم؛ لأنَّه إيمانُ يأسٍ.

وقيل: ﴿ءَامَنتُم﴾؛ أي: صدَّقْتُم بالعذابِ، وكنتم تستعجلون به استهزاءً وتكذيبًا، وحين رأيتم صدَّقتم به.

وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾: أي: ويقال لهم ذلك، والألف المقطوعةُ في أوَّله استفهام بمعنى التَّوبيخ.

و﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أصلُه مِن قولِكَ: آنَ لَكَ أنْ تفعلَ كذا، أُدخلَتْ عليه الألف واللَّام للتَّعريف وجُعل كالاسم، وتُرك على الفتحة لأنَّه فعلٌ في الأصل، وهو كما رُوي: نهى النَّبيُّ ﷺ عن قِيْلٍ وقالٍ(٢). جُعلا كالاسمَيْنِ، وتُرِكا على ما كانا فِعْلَيْن.

يعني: يُقال لهم: آلآن تؤمنون وترجون الانتفاع به.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كُنتُم﴾ في مَهَلٍ لو أردْتُم فيه الإيمان لأمكَنكُم، ولم تفعلوا، والآنَ حين ارتفعَ الابتلاء ترجون الانتفاع بالإيمان الذي لا اختيار لكم فيه على الغيب، بل أنتم إليه مضطرون.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الورع» (٢٥٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٤، ٩٥٥).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٣)، ومسلم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وهذا الكلام في ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ منقول من «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٦٨).

أي: إنَّ هذا ممَّا لا يكون.

وهذه أشياء لم تكن بعدُ، وأخبرَ عنها بفعلٍ ماضٍ تنبيهًا على أنَّها كائنةٌ لا محالةَ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦].

* * *

(٥٢) ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسَهم بالشِّرك والتَّكذيب: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: ذوقوا هذا العذابَ، فإنَّه خالدٌ لكم لا يزول، تصيرون إلى القبر فتُعذَّبون فيه، ثمَّ تُبعَثون فتُحشرون إلى جهنَّم، فتُعذَّبون فيها خالدين، وهو جزاءٌ وِفاقٌ لكسْبِكُم.

* * *

(٥٣) ـ ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾: أي: ويستخبرونك يا محمَّد بعدَ هذا الاقتصاص منك عليهم: أحقٌّ ما تقولُ، وأنت فيه جادٌّ متيقِّنٌ للصِّدق فيه؛ أي: إنَّ هذا عجيبٌ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ﴾: أي: قلْ: نعم، أقسم بالله ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، و(إي) لا يُقال إلَّا مع الأيمان، ولا يُذكَر على الإفراد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: أي: بفائتين.

وقال الكلبيُّ: ويستخبرونَكَ ـ أي: أهلُ مكَّة ـ: أحَقٌّ ما جئْتَنا به مِن نزول العذاب بنا، والبعْثِ بعد الموت؟ قل: نعم، إي وربِّي إنَّ العذابَ نازلٌ بكم، وما أنتم عليه بفائتين[١].

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٢٣).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: أَحَقٌّ ما تدعونا إليه مِن التَّوحيد، وهو كقولهم لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]، وقولِهم لموسى عليه السلام: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧][1].

* * *

(٥٤) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أخبرَ أنَّه لو كان لكلِّ نفسٍ أشركَتْ جميعُ ما في الدُّنيا مُلكًا لها لافتدَتْ به عندَ نزولِ العذابِ به لشدَّة العذاب طلبًا للخَلاص، وإنْ كانَ الَّذي منعَ الكفَّار عن الإيمان هو حبُّهم الدُّنيا وحرصُهم عليها وبخلُهم بها، وقال الله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [يونس: ٧][2].

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾: هذا ابتداءٌ غيرُ معلَّقٍ بـ(لو)، ومعناه: أخفَوها؛ أي: عن أتْباعِهم.

وقيل: أي: أضمروها على ما كان منهم مِن التَّكذيب.

وقيل: أي: أظهروها، والإسرارُ لغةٌ في الإظهار والإخفاء جميعًا، وهو مِن الأضداد، وهو قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ [الأنعام: ٢٧] ونحوُ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾: أي: بالعدل؛ أي: يُجزى المحسنُ

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥١).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٥٢).

على إحسانه، والمسيءُ على إساءتِه، فلا يُنقَصُ مِن ثوابٍ ولا يُزادُ على عِقابٍ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ثمَّ قوله: ﴿وَأَسَرُّوا﴾ ﴿وَقُضِيَ﴾ ماضٍ ومعناه المستقبل؛ لأنَّه مِن أمور الآخرة، لكنَّها كائنةٌ لا محالة، فلذلك ذكرَه بصيغة التَّحقيق.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي: لا يُقبَلُ منهم صَرْفٌ ولا عَدْلٌ، ولا يقعُ فيما سبقَ مِن الوعيدِ خُلْفٌ، ولا تنفعُهم نَدامةٌ وإنْ صدَّقوها، ولا ينالهم كرامةٌ وإنْ طلبوها، ولا يجري عليهم ظلمٌ في الجزاء، كلَّا، بل هو اللهُ العَدْلُ في القضاء، والفَرْدُ في العَلاء، بنعت الكبرياء[١].

***

(٥٥) - ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: ليسَ للظَّالم مُلْكُ ما في الأرض ليفتديَ به، بل للهِ.

ووجهٌ آخر: أنَّه قادرٌ على تحقيقِ ما أَوعدَ به؛ لأنَّه مالكُ ما في السَّماوات وما في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: أي: كائنٌ، بالرَّحمة كانَ أو بالعذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله:

أي: لا ينتفعون بعلومِهم.

ويحتمل: لا يكتسبون سببَ العلمِ بالتَّأمُّل والنَّظر في الأدلَّة.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠١).

وقال في أوَّل الآية: فيه[١] دلالة البعث مِن وجهَيْن:

أحدهما: أنَّ مَن قدرَ على إيجاد السَّماوات والأرض لا عن شيءٍ قدرَ على إحياء الخلق بعدَ إفنائهم.

والثَّاني: أنَّ خلقَ السَّماوات والأرض وتعليقَ منافعِ بعضِها ببعض والإفضالِ على الخلق بأنواعِ النِّعم مِن كمال الحكمة، وقد أخبرَ أنَّه ما خلقَهما باطلًا، فلو كانَتا للفناءِ ولا حياةَ بعدَه كانَ يكون خارجًا عن الحكمةِ، ولا وجهَ له[٢].

* * *

(٥٦) ـ ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: تحقيقُ الأوَّل.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: يحيي القلوبَ بأنوار المشاهدات، ويميْتُ النُّفوسَ بأنواع المجاهدات.

قال: ويُقال: يحيي مَن أقبلَ عليه، ويميْتُ مَن أعرضَ عنه، يحيي بالرَّجاء ويميْتُ بالقنوط[٣].

* * *

(٥٧) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) في (أ): «إليه»، وفي (ر) و(ف): «إنه»، والمثبت من «التأويلات».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥٣ ـ ٥٤).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني: قريشًا ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يعني: في القرآن، وهي ما دعا إلى النُّسك والخشوع، وصرفَ عن الإثم والفسوق(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: هي النَّهيُ، قال الله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ﴾ [النور: ١٧]؛ أي: ينهاكم.

قال: وقيل: هي الَّتي تدعو إلى كلِّ مرغوبٍ، وتزجرُ عن كلِّ مرهوبٍ.

قال: وقيل: هي الَّتي تُلينُ كلَّ قلبٍ قاسٍ، وتُجلِّي كلَّ قلبٍ مُظلمٍ(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾: الشِّفاءُ: كالدَّواء لإزالة الدَّاء، وداءُ الجهل أضرُّ مِن داء البدن، وعلاجُه أعسرُ، وأطباؤه أقلُّ، والشِّفاء منه أجلُّ:

لكلِّ داءٍ دواءٌ يُستَطَبُّ بِهِ ... إلَّا الحماقةَ(٣) أعيَتْ مَنْ يُداويها(٤)

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: شفاءُ كلِّ أحدٍ على حسب حاله، فشفاء المذنبين بوجود الرَّحمة، وشفاء المطيعين بوجود النِّعمة، وشفاء العارفين بوجود القُرْبة، وشفاء الواجدين بوجود الحقيقة.

و[يقال]: شفاء العاصين بوجود النَّجاة، وشفاء المطيعين بوجود الدَّرجات، وشفاء العارفين بالقُرْب والمناجاة(٥).

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٥٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٠).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥٤).

(٣) في (ر): «الجهالة».

(٤) البيت مشهور ولا يعرف قائله، انظر: «العقد» لابن عبد ربه (٢/ ٢٢٦)، و«محاضرات الأدباء» للراغب الأصبهاني (١/ ٢٨)، و«أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: طبب).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٢)، وما بين معكوفتين منه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾: أي: إرشاد إلى الصَّواب ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ منه؛ أي: مِن الله تعالى على عبادِه، ببيان شرائع الدِّين والأمورِ الَّتي توصلُهم إلى جنَّته ونعمته.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: هم الَّذين ينتفعون بها.

وقيل: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: تخليصٌ مِن العذاب للَّذين يؤمنون به؛ أي: يصدِّقون بأنَّه مِن عند الله.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: الموعظةُ لأربابِ الغيبة ليتوبوا، والشِّفاء لأصحاب الحضور ليَطِيبوا.

قال: وقيل: الموعظةُ للعوامّ، والشِّفاء للخواصّ، والهُدى لخاصِّ الخاصّ، والرَّحمة لجميعهم، وبرحمته وصلوا إلى ذلك[1].

* * *

(٥٨) ـ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾: الفَضْلُ: الزِّيادة في النِّعمة، وفَضْلُ اللهِ: إفضالُه، كالنَّبات يجيء بمعنى الإنبات؛ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

أي: قلْ يا محمَّد لهؤلاء الَّذين هِمَّتُهم جمعُ الأموال وأسباب الرِّفعة في الدُّنيا، لا الإيمان: بفضل الله وبرحمته افرحوا، لا بالمال وأسبابِ الجلال والجمال، وهو قوله تعالى:

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾: قرأ الحسنُ بتاء المخاطبة[2]، وكان الكسائيُّ يَعيب هذه

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٢).

(٢) ذكرها عنه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٨)، وهي رواية رويس عن يعقوب. انظر: «حجة =

القراءة، والفرَّاء يجيزُها؛ لأنَّه رَدٌّ إلى الأصل، وهو قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «لتأخذوا مصافَّكم»[١].

وقراءة العامَّة بياء المغايبة.

واللام في أمر المغايبة لازمة، وفي المخاطبة جائزة.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: هو يرجع إلى قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، وذلك يرجع إلى ما سبق ذكرُه، وهو فضل الله ورحمته.

= القراءات» لابن زنجلة (ص: ٣٣٣)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٨٥).
ورويت عن أبي بن كعب رضي الله عنه رفعاً ووقفاً، والصواب الوقف، فقد رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٦٢ ـ تفسير) عن أُبيِّ بنِ كعبٍ، قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أَقرأَ عليكَ القرآنَ»، قال: قُلْتُ: سَمَّاني لك ربِّي؟ قال: «نَعَمْ»، فتَلَا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قال: بكتاب اللهِ وبالإسلامِ خَيرٌ مما يجمعون. والصواب أن المرفوع من هذا الحديث ينتهي عند قوله: «نعم»، أما الآية فقد جاء في كثير من الروايات أن الذي قرأها هو أبي رضي الله عنه، وأنه قرأ فيها: ﴿فلتفرحوا﴾ بالتاء، انظر: «مصنف ابن ابي شيبة» (٣٠٩٣٧) تحقيق محمد عوامة، و«مسند أحمد» (٢١٢٣٧)، و«خلق أفعال العباد» (٥٣٤)، و«سنن أبي داود» (٣٩٧٩)، و«شرح معاني الآثار» (٥٥٨٧). ويشهد لذلك أن الحديث رواه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩)، عن أنس رضي الله عنه، وينتهي عند قوله: «نعم».

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠). وقد رد الطبري كلام الفراء في «تفسيره» (١٢/ ١٩٨).

وحديث: «لتأخذوا مصافكم» كذا تناقلته كتب النحو والتفسير. انظر: «الجمل في النحو» للخليل (ص: ٢٦٧)، و«اللامات» للزجاجي (ص: ٩٣)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٣٦)، و«الكشاف» للزمخشري (٢/ ٣٥٣)، و«الإنصاف في مسائل الخلاف» (٢/ ٤٢٧).

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥) وصححه، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه بلفظ: «على مصافكم كما أنتم»، ولا شاهد فيه.

وقيل: هما يرجعان إلى القرآن؛ لأنَّها تتَّصل بالآية الأولى وهي في ذكر القرآن، وفيه الفضل والرَّحمة: أمَّا الرَّحمة فقد قال في الآية الأولى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، وأمَّا الفضل فقد قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما والحسن وقتادة وجماعة: فضلُ الله: الإسلام، ورحمتُه: القرآنُ[١].

وقال الضَّحَّاكُ على عكسه[٢].

وقال أبو سعيد الخدريُّ: فضلُ الله: القرآنُ، ورحمتُه: أن جعلَكم مِن أهلِه[٣].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: فضلُ الله: الإسلامُ، ورحمتُه: تزيينُه في قلوبكم؛ قال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧][٤].

وقال خالدُ بن مَعْدَان: فضلُ الله: الإسلامُ، ورحمتُه: سترُه[٥].

وقال عبد العزيز بن يحيى[٦]: فضلُ الله: النِّعمُ الظَّاهرة، ورحمتُه: النِّعمُ الباطنة.

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٦ ـ ١٩٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٧).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٦٤ ـ تفسير)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٥٨).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٥).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٥). وفيه: «السنة» بدل «ستره».

(٦) في المطبوع من «تفسير الثعلبي»: (الكسائي) بدل «عبد العزيز بن يحيى»، وفي مطبوع دار التفسير: «الكتاني»، وكلاهما محرف عن: (الكناني)، وهو كما أثبت المصنف هنا: عبد العزيز بن يحيى الكناني المكي المتكلم، كان من أهل الفضل والعلم، وله مصنفات عدة، وينسب له «كتاب الحيدة» =

وقال أبو بكر الورَّاق: فضلُ الله: النَّعماء، وهو ما أعطى وحَبَا، ورحمتُه: الآلاء، وهو ما صرفَ وزوَى.

وقال سفيان بن عيينة: فضلُ الله: التَّوفيقُ، ورحمتُه: العصمة.

وقال سهل بن عبد الله: فضلُ الله: الإسلامُ، ورحمتُه: السُّنَّة.

وقال الحسين بن الفضل: فضلُ الله: الإيمانُ، ورحمتُه: الجنَّة.

وقال ذو النُّون المصري: فضلُ الله: دخول الجنان، ورحمتُه: النَّجاةُ من النِّيران(١).

وروى أبيُّ بن كعبٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ قال: «بكتاب الله والإسلام»(٢).

وقيل: فضلُ الله: الإسلامُ، ورحمتُه: الثَّباتُ على الإسلام.

وقيل: فضلُ الله تعالى: الإسلامُ، ورحمتُه: أنْ جعلَنا مِن أمَّة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: فضلُ الله: ما أباحَ لهم مِن الخيرات، ورحمتُه: ما أزاح عنهم من الآفات.

وفضلُ الله: ما أكرمَهم به مِن إجراء الطَّاعات، ورحمتُه: ما عصمَهم [به] مِن ارتكاب الزَّلَّات.

= وأنكر الذهبي نسبته إليه، وكان ممَّن تفقَّه بالشَّافعي واشتهر بصحبته، وهو الذي ناظر بشراً المريسي عند المأمون في نفي خلق القرآن، وتوفي في حدود (٢٤٠هـ). انظر: «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢١٢)، و«طبقات الفقهاء» للشيرازي (ص: ١٠٣)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٥/ ٨٧٣)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١٨/ ٣٤٨).

(١) ذكر هذه الآثار الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٥).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٠٦٢)، والصواب وقفه على أبيٍّ كما تقدم قريباً.

وفضلُ الله: دوامُ التَّوفيق، ورحمتُه: تمام التَّحقيق.

فضلُ الله: ما اختصَّ به أهل الطَّاعات مِن صنوف إحسانِه، ورحمتُه: ما يختصُّ به أهل الزَّلات مِن وجوه غفرانه.

فضلُ الله: المعرفةُ في البداية، ورحمتُه: المغفرةُ في النِّهاية.

فضلُ الله: أنْ أقامَك لشهود الطَّلب، ورحمتُه: أنْ رزقَكَ الوجود بعد الطَّلب.

فضلُ الله: أنْ عرَّفك بشرط البرهان، ورحمتُه: أنْ أشهدَكَ بحكم البيان إلى أنْ تراه غدًا بكشف العِيَان.

فضلُ الله: الرُّؤية، ورحمتُه: إبقاؤهم في حالة الرُّؤية.

وقوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾؛ أي: بما أهَّلَكم له، لا بما تتكلَّفون مِن حركاتِكم وسكناتِكم، وتَصِلون إليه بنوعٍ مِن تصنُّعكم وتعمُّلكم.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِن الأموال الوافية، ويتَّصفون به من الأحوال الزَّاكية[1].

قال: ويُقال: الذي لك منه في سابق القسمة خيرٌ لك ممَّا تكلَّفْتَه مِن صنوف الطَّاعة والخدمة[2].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وفي الآية: أنَّ الله تعالى بإنزال القرآن تفضَّل؛ إذْ له ألَّا ينزِّل، وفيه: أنَّ أهل الفترة يُؤاخذون في حال فَتْرتهم[3].

---

(١) العبارة في «اللطائف»: «﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أي: ما تتحفون به من الأحوال الزاكية خير مما تجمعون من الأموال الوافية».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥٥).

(٥٩) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أضافَ إنزاله إلى السَّماء وإنْ كانت الأرزاقُ إنَّما تخرجُ مِن الأرض؛ لِمَا أنَّ أسبابَها متعلِّقة بالسَّماء مِن المطر والشَّمس والقمر، في الإنبات والإنضاج والتَّلوين، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وهو على هذا.

ويحتمِلُ قولُه: ﴿أَنزَلَ﴾؛ أي: خلقَ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقوله: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس: ٥٩]: مِن البَحيرة والسَّائبة والوَصيلة والحامي.

وقيل: ما جَعَلوا لله ممَّا ذَرَأَ مِن الحَرْثِ والأنعامِ[1]. وقد مرَّ بيانُ الأمرَيْن.

وفيه دليلٌ على أنَّ الحرام مِن رِزق الله كالحلال.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾: استفهام بمعنى الإنكار ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؛ أي: بل على الله تَكْذِبون.

وقال الكلبيُّ: قلْ يا محمَّد لأهل مكَّة: أرأيتم ما أنزلَ اللهُ لكم في الكتاب مِن رزقٍ حلالًا، فجعلْتُم ممَّا رزقَكم اللهُ حرامًا على النِّساء وحلالًا على الرِّجال، وهذا في شأن البَحيرة والسَّائبة والوصيلة والحامي، قُلْ: آلله أمركم به أم على الله تختلقونَ الكذبَ ما لم يأمُر به[2].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥٥).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٢٢) دون نسبة.

وقال مقاتل: قلْ لكفَّار مكَّة قريشٍ وخزاعةَ وثَقيفٍ وعامرِ بن صعصعةَ وبني مُدْلجٍ وعامر والحارث ابني عبد مناة: ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾؛ يعني: الحرثَ والأنعام، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ يعني: ما حرَّموا للآلهة من الأنعام، ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ بتحريمه، بل على اللهِ تقولون الكذب[1].

* * *

(٦٠) ـ ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: استفهامٌ بمعنى التَّوبيخ والتَّقريع، وأضمرَ في آخره: (بالله)؛ أي: وما ظنُّهم باللهِ في يوم القيامة، ماذا يفعلُ بهم جزاءً على افترائهم عليه؟

وقال الإمام الزَّاهد أبو منصور رحمه الله: فإنْ قيل: كيف أُوعدوا بيوم القيامة وهم لا يؤمنون بالبعث؟

قيل له: قد ألزمَهم الحُجَّة على كون[2] البعث بما أقام مِن الدَّلائل، وبما جعلَ في عقولهم من الإيمان به؛ إذْ ليسَ مِن الحكمة خلقُ الخلقِ للفناء خاصَّة.

وبعدُ فإنَّه قد يُوعَد المرء بما لا يَتيقَّنُ به، ويخوَّف عليه وإنْ لم يحطْ علمُه به.

ومعنًى آخر: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لو خرجَ الأمر حقًّا، وظهرَ ما قالَه رسولُ الله ﷺ مِن البعث صدقًا[3].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٤٢). وزاد في هامش (ر): «كقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ يقول: بل أنا خير» وعليها إشارة التصحيح.

(٢) أي: على حصول. وكلمة «كون» ليست في (أ). وفي «التأويلات»: (بكون).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٥٧).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: على كلِّ النَّاس بما ساقَ إلى الكلِّ مِن الرِّزق، كافرهم ومؤمنهم، وبما أخَّر عنهم العذابَ، وبما بعثَ إليهم الرُّسل والكتب من غير أن كانت منهم سابقةُ صنعٍ يستوجبون به ذلك، ومنه خصوص فضلِ الله على المؤمنين(١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَه وإنعامَه عليهم؛ لجهلهم بمواقع النِّعم الَّتي ساقَها إليهم.

* * *

(٦١) - ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾: واتِّصالُه بما قبلَه: إنَّ الله لذو فضل على النَّاس في الإمهال، وليس إمهالُه لخفاء أحوالهم عليه؛ لأنَّك يا محمَّد ما تكون في شأن؛ أي: أمر ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾؛ أي: وما تقرأ ممَّا أنزلَ عليك ﴿مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ولا تعمل أنت شيئًا وسائر النَّاس ﴿مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: عالميْنَ به شاهدين عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: تسرعون فيه وتنبسطون وتنتشرون.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: لا يغيب(٢).

وقرأ الكسائيُّ بكسر الزَّاي وغيره بالضَّم(٣)، وهما لغتان.

---

(١) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٣).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٣).

ومعنى العُزوب: البُعد والغيبة.

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: أي: وزنِ نملةٍ صغيرةٍ.

وقيل: الذَّرُّ: ما يَتراءى في الهواء عندَ وقوع الشَّمس في الكوَّة ونحوها.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾: قرأ[1] حمزة بالضَّم[2]، ردًّا على موضع قوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ زائدةٌ لتأكيد النَّفي، وتقديرُه: وما يَعزبُ عن ربك مثقالُ ذرَّة.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: قال أبو روق: هو اللَّوح المحفوظ[3].

وقيل: أي: هو مثبَتٌ عندَ اللهِ، كتبَه ملائكةُ اللهِ، وأحصاهُ اللهُ.

ويُقال: ردَّهم إلى كتابة ذلك عليهم لعدمِ اكتفائِهم في الامتناع عمَّا نُهُوا عنه برؤيتِهِ وعلمِهِ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: خوَّفهم بما عرَّفهم مِن اطِّلاعه عليهم في جميع أحوالهم، ورؤيتِه لِمَا يُسْلفونه مِن فنون أعمالِهم، والعلمُ بأنَّه يراهم يوجِبُ استحياءهم منه، وهذه حالةُ المراقبة، فالعبد إذا علم أنَّه يراه مولاه استحيى منه، وترك متابعة هواه، ولا يحوم حول ما نهاه، وأنشدوا في معناه:

كأنَّ رقيبًا منك حلَّ بمُهْجَتي ... إذا رُمْتُ تسهيلًا عليه تصعَّبا[4]

---

(١) في (أ): «قرأهما».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٣).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) البيت بلا نسبة في «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (١٦/ ٢٨٥)، و«مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري (٨/ ٣٦٥)، و«طريق الهجرتين» لابن القيم (ص: ٣٠٩).

وقال آخر:

أعاتِبُ عنك النَّفسَ في كلِّ خَصلةٍ تعاتِبُني فيها وأنتَ مقيمُ

وقال في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: فكيفَ يخفى عليه ذلك، أو يتقاصرُ عنه علمُه، وهو مُنشِئُه ومُوجِدُه؟ وببعض أحكامِه الجائزة عليه[1] مخصِّصُه[2].

* * *

(٦٢) - ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: ولَمَّا خوَّفَ بيومِ القيامة أعداءَه ذكرَ ما يعطي فيه أولياءَه.

قال ابنُ كيسان: أولياءُ اللهِ هم الَّذين تولَّى الله هداهم بالبرهان الَّذي أتاهم، وتولَّوا القيام له بحقِّه، والدُّعاءَ إليه عامَّةَ خلقِه[3].

وقيل: هم الَّذي يُوْلِيهِم اللهُ ثوابَه وكرامَته.

وقال القشيريُّ رحمه الله: الوليُّ على وزن فعيل، مبالغةٌ مِن الفاعل، وهو مَن توالَتْ طاعاتُه مِن غير أنْ يتخلَّلَها عصيان.

ويجوزُ أن يكونَ الفَعيل بمعنى المفعول هاهنا، كالجريح والقتيل، فيكون الوليُّ مَن يتوالى عليه إحسانُ اللهِ وإفضاله، ويكون في معنى كونه محفوظًا في عامَّة

(١) «عليه» ليست في (أ) ولا في مطبوع «اللطائف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٤).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٨).

أحواله مِن المحن، وأشدُّ المحن ارتكابُ المعاصي، فيعصمُه اللهُ تعالى دوام أوقاته عن الزَّلات[(١)].

وروي عن النَّبي ﷺ أنَّه سُئِلَ عن أولياء الله قال: «هم الَّذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله»[(٢)].

وقال عمر رضي الله عنه: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ مِنْ عبادِ اللهِ أناسًا ما هُمْ بأنبياءَ ولا شهداءَ يَغبِطُهُم الأنبياءُ والشُّهداءُ يومَ القيامةِ بمكانِهم مِن اللهِ تعالى»، فقال رجلٌ: مَنْ هُمْ يا رسولَ الله؟ وما أعمالُهم؟ نحبُّهم بذلك. قال: «رجالٌ يتحابُّون بِرُوْحِ اللهِ مِنْ غيرِ أرحامٍ بينَهم، ولا أموالٍ يتعاطَوْنَها بينَهم، فواللهِ إنَّ وجوهَهُمْ لَنُورٌ وإنَّهم لَعَلَى منابِرَ مِنْ نُورٍ، لا يخافونَ إذا خافَ النَّاسُ، ولا يحزنونَ إذا حَزِنَ النَّاسُ»، ثمَّ قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[(٣)].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٢) حديث حسن بشواهده، رواه ابن صاعد في زياداته على «الزهد» لابن المبارك (٢١٨)، والبزار في «مسنده» (٥٠٣٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٤)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وروي عن سعيد مرسلًا بإسناد أصح من إسناد الموصول، رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢١٧)، وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (١٥)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢١٠).
وله شاهد رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٥٩٩)، والبخاري في «الأدب» (٣٢٣)، وابن ماجه (٤١١٩)، من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، بلفظ: «خياركم الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل».

(٣) رواه أبو داود (٣٥٢٧). قال ابن كثير في «تفسيره»: (إسناد جيد، إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر رضي الله عنه).
قلت: وله شاهد رواه النسائي في «الكبرى» (١١١٧٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦١١٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٣)، عن أبي هريرة بإسناد صحيح.

وقال ابن زيد: أولياءُ اللهِ: هم الَّذين وصفَهم الله في الآية الثَّانية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣][(١)].

وقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن النَّار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفَوْتِ الجنَّة.

وقال مقاتل: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أن يدخلوا النَّار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أن يُخرجوا مِن الجنَّة[(٢)].

وقال ابن كيسان: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِن فوات ثواب الله[(٣)].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الحال ولا في المآل؛ لأنَّ حقيقةَ الخوفِ: توقُّعُ محذورٍ يصيب في المستقبل، أو ترقُّبُ محبوبٍ يزولُ في المستأنَف، وهم بحكمِ الوقْتِ ليس لهم تطلُّع في المستقبل، والحزنُ مِن الحُزونة، وهم في الحال في رَوح الرِّضا بكلِّ ما جرى[(٤)].

***

(٦٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: قيل: هو نصبٌ نعتًا لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٥).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٤٣).

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥١٣) بلا نسبة.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٥). وفيه: (...وهم في روح الرضا بكلّ ما يجري فلا تكون لهم حزونة الوقت).

وقيل: هو مبتدأٌ، وخبره: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

وقال الكلبيُّ: يتَّقون الشِّرك والمعاصي.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿ءَامَنُوا﴾: أقاموا بقلوبهم موجب المعارف، و﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف(١).

* * *

(٦٤) ـ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: مِن الملائكةِ عندَ قبضِ الأرواحِ ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ تتلقَّاهم لإدخال الجنَّة.

وروى أبو الدَّرداء عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «هي الرُّؤيا الصَّالحة يراها المسلمُ أو تُرى له»(٢).

وقال الضَّحَّاك: يعلمُ أينَ هو مِن قبلِ أنْ يموتَ(٣).

وقال الزُّهريُّ: هي البشارةُ قبلَ الموتِ(٤).

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هي قولُه لنبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧](٥).

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٦). وفيه: (قاموا بقلوبهم من حيث المعارف...).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٥١٠)، والترمذي (٢٢٧٣)، وقال: حديث حسن.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٥).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٦٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٦).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٣).

وقال الحسنُ: هي ما بشَّرَ اللهُ به المؤمنين في كتابه[١]، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ [التوبة: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: لمواعيدِه في كُتُبِه، وعلى ألسنةِ رسلِه.

وقيل: لهذه البشارة.

وقيل: لِمَا مَضى مِن سُنَّته في الأوَّلين مِن الإهلاك والاستئصال للمكذِّبين.

وقيل: لحُجَجِ اللهِ وبراهينِه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: ذلك التَّبشير.

وقيل: أي: ذلك الموعود هو الفلاح العظيم، لأنَّه نَيْلُ جميعِ ما يُرْجى، والأمنُ مِن كلِّ ما يُخْشَى.

وقال القشيريُّ رحمه الله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ إذا قاموا بما به أُمِروا، واستقاموا في ترك ما عنه زُجِروا، وبشَّرتهم الشَّريعة بالخروج عن عُهدة الإلزام، وبشَّرتهم الحقيقة باستيجابِ الإكرام بما كوشفوا به مِن أعلام هذه البُشرى في عاجلِهم، وأمَّا في آجلهم فالحقُّ يتولَّى ذلك، قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة: ٢١].

قال: ويُقال: البِشارة العظمى: ما يجدونه في قلوبهم مِن ظفرهم بنفوسهم، وسقوط مآربهم، والرِّضا بالكائن بتقدير ربِّهم، هذه هي النِّعمة العظمى، ووجدانُ هذه الحالة هي البشارةُ الكُبْرى[٢].

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٥٣).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٦).

(٦٥) ـ ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾: أضافَ النَّهيَ إلى قولِهم؛ لأنَّه هو السَّبب لحزنِه، ومعناه: لا تحزن بقولهم، وهو كقولك: لا أراك هاهنا، تضيفُ النَّهي عن الرُّؤية إلى نفسِك، ومعناه: لا تكن هاهنا فأراك، ومعنى الآية: لا تحزن بقولهم: متى هذا الوعد؟

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ﴾ تكذيبهم(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: هو ابتداءٌ بمعنى: فإنَّ العزَّة كلَّها لله، له المنعةُ والسُّلطان.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: أي: لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: بضمائرِهم وأفعالهم، وهو مُنْزِلٌ بهم عذابَه، فلا يمتنعون عنه.

وقال ابن المسيِّب: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾: يعزُّ مَن يشاءُ، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وعزَّةُ الرَّسولِ والمؤمنينَ باللهِ جميعًا، فهي كلُّها لله(٢).

وقال مقاتلٌ: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾: إنَّك مفترٍ كذَّاب(٣).

وقيل: في القرآن: إنَّه سِحر وإنَّه مُفترًى.

وقيل: في الله بما لا يليق به مِن الصَّاحبة والولد.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٥١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٥).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٣٩).

(٣) لم أجده هكذا، وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٤٣)، وفيه: (يعني: أذاهم).

(٦٦) ـ ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: أي: كلُّهم عبيدُه، يفعلُ بهم ما يشاء، ولا يَمتنِع مِن تعذيبِه مَن شاءَ تعذيبَه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ﴾: له وجوهٌ:

أحدُها: أنَّه استفهام، ومعناه: أيَّ شيءٍ يتَّبع الَّذين يدعون الأصنامَ شركاءَ لله؟ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾؛ أي: ما يتَّبعون إلَّا الظَّنَّ، وهو توهُّمهم شفاعةَ الأصنام لهم، حتَّى قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ [الزمر: ٤٣] ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾؛ أي: وما هم إلَّا يَكذِبون، وقيل: يقولون بالظَّنِّ.

والثَّاني: أنَّ ﴿مَا﴾ بمعنى: الَّذي، ومعناه: والذين يتَّبعون الذين يدَّعونهم شركاء ما يتَّبعون فيهم إلَّا الظَّنَّ.

والثَّالثُ: أنَّ ﴿مَا﴾ للنَّفي، ومعناه: ولا يتَّبعُ الَّذين يدعون مِن دون الله شركاء، وهو مفعول ﴿يَتَّبِعُ﴾ لا ﴿يَدْعُونَ ﴾؛ أي: الَّذين يتَّبعونهم ليسوا بشركاء، وإنَّما يتَّبعونهم ظنًّا أنَّها تنفعهم، وهو ظنٌّ كاذبٌ.

والرَّابع: أنَّ ﴿مَا﴾ للنَّفي، و﴿إِن ﴾ نفيٌ، وهو تكرارٌ لنفي شيءٍ واحدٍ للتَّأكيد، وهو كتكرار (قبل) في قوله: ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الروم: ٤٩].

***

(٦٧) ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾: وهو إخبارٌ عن قدرتِه على ما تعجزُ عنه أصنامُهم.

يقول: هو الَّذي جعلَ لكم اللَّيل تسكنون فيه إذا أويتم إلى منازلكم منصرفين من الحركة والاضطراب في طلب المعاش، وجعل النَّهار ذا إبصار؛ أي: يقع فيه الإبصار على المبصَرات، ويكون فيه بروزُ الأشياء للعيون بعدَ الاستتار بظلمة اللَّيل، وهو كقوله تعالى: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي: ذاتِ رضًا، و﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]؛ أي: ذي دَفْقٍ، وليلٍ نائم؛ أي: ذي نومٍ؛ أي: يُنام فيه.

وقال جريرٌ:

لقدْ لُمْتِنَا يا أمَّ غَيلانَ في السُّرَى ... وَنِمْتِ وَما لَيْلُ المَطِيِّ بنائِمِ[1]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: أي: لَعَلامَاتٍ على قُدرةِ اللهِ تعالى ووحدانيتِه لِمَن يسمعُ الوَعْظَ فيتدبَّرُه بقلبٍ حاضرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: الليل لأهل الغَفْلة بعدٌ وغيبةٌ، ولأهل النَّدم توبةٌ وأوبةٌ، وللمحبِّين زلفةٌ وقربةٌ[2].

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السَّلام: كَذَبَ مَن ادَّعى محبَّتي فإذا جَنَّ اللَّيلَ نام عَنِّي[3].

---

(١) انظر: «ديوان جرير» (٢/ ٩٩٣).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٧).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧١)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٣٣)، و«المنثور» =

(٦٨) ـ ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَـٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَـٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: وهذا تعجيبٌ مِن اللهِ تعالى مِن جرأةِ المشركين على الافتراء على اللهِ تعالى بإضافةِ الأولاد إليه.

وحاجَّهم في ذلك فقال: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: وهو ما كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله.

ثمَّ نزَّه نفسَه فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ تنبيهًا للعباد على تنزيهِه.

ثمَّ قال: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: فلا حاجةَ به إلى الولدِ الَّذي إنَّما يُتكثَّر به ويُتعزَّز به في الحياة وبعد الوفاة، فمَن كان مالكًا للسَّماوات والأرض لم يوصَف بالحاجة إلى التَّكثُّر والتَّعزُّز.

ثمَّ أخبرَ أنَّه لا سلطان لهم بهذا؛ أي: لا حجَّة.

وقوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: استفهامٌ بمعنى الإنكار.

وقال القشيريُّ رحمه الله: لا يجوز في صفةِ اللهِ تعالى الوِلادةُ لتوحُّده، وأنَّه لا قسيم له، ولا يجوز منه التَّبني أيضًا لتفرُّده، وأنَّه لا شبيهَ له[١].

= لابن الجوزي (ص: ٣).

وروي هذا القول عن الفضيل بن عياض. رواه الدينوري في «المجالسة» (١/ ٤٤٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٩).

وروي أيضًا عن أبي سليمان الديراني. رواه أبو طاهر السلفي في «الطيوريات» (٣/ ١٠٣٤).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٠٨).

وقال الإمام الزَّاهد أبو منصور رحمَه الله: إنَّ في الشَّاهد مَن اتَّخذ ولدًا إنَّما يَتَّخذُ لأحدِ أوجهٍ ثلاثةٍ: إمَّا لحاجة تمسُّه، أو لشهوة تغلبُه، أو لِمَا يَستنصرُ به على آخر ممَّن يخافه، فإذا كان له مُلْك السَّماوات والأرض، وملك ما فيهما، وكلُّهم عبيده وإماؤه، فلا حاجةَ تقع له إلى الولد؛ إذ هو الغنيُّ والمالك[1].

***

(٦٩) ـ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾: أي: الَّذين يقولون: للهِ ولدٌ، لا ينجونَ في الآخرةِ مِن العقوبةِ، ولا يصلون إلى ما رجَوا مِن الأصنام مِن الشَّفاعة.

***

(٧٠) ـ ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾: أي: هو متاعٌ لهم؛ أي[2]: تمتُّعٌ وانتفاعٌ بالدُّنيا الفانية القليلة مدَّةً قصيرة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾: وهذا ظاهر.

***

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٦٦).

(٢) «أي» ليست في (أ).

(٧١) ـ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾: هذه تسليةٌ للنَّبي ﷺ فيما نالَه مِن إيذاءِ قومِه بالتَّكذيب، وإعلامٌ للمشركين خبرَ المستعجِلين بالعذابِ: أنَّ الأمم الماضية استعجلوا فأُمْهِلوا إلى أنْ حَقَّ القولُ ثم أُخذوا، فليسَ إمهالي هؤلاء للعجزِ، بل لِمَا كانَ للأوَّلين حين وقعَ اليأسُ مِن إيمانِهم.

ومعنى قولِه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾؛ أي: واقرأْ يا محمَّد على قومِك المشركين خبرَ نوحٍ عليه السَّلام.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾: أي: شَقَّ عليكم وثَقُلَ ﴿مَّقَامِي﴾؛ أي: قيامي فيكم بحقوقِ اللهِ تعالى ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الَّتي أوحاها إليَّ، وجعلَها علاماتٍ لحقيَّة[1] هذا الدِّين.

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾: أي: اعتمدْتُ.

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾: قرأَ نافع بالوصل، مِن الجَمْع، وقرأ الباقون بالقَطْع، مِن الإجماع[2]، وهو العزم؛ أي: اعزموا على أمركم.

وقوله تعالى: ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾: قال الفرَّاء: أي: وادْعوا شركاءَكم، أضمرَ فعلًا آخر سوى الأوَّل[3]. وهو كقول القائلِ:

---

(١) في (ر) و(ف): «لحقيقة».

(٢) لنافع روايتان في ذلك، واحدة مثل بقية القراء، والثانية بفتح الميم، وقرأ بها أيضًا رويس بخلف عنه. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٣٢٨)، و«شرح طيبة النشر» لابن الجزري (ص: ٢٤٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٣).

علَفْتُها تبنًا وماءً باردا[١]

أي: وسقيتها ماء باردًا.

وقال آخر:

ورأيتُ زوجك في الوغى متقلِّدًا سيفًا ورمحا[٢]

أي: ومعتقِلًا رمحًا.

وقال الزَّجَّاج: هو مفعول معه؛ أي: مع شركائِكم[٣].

وقال بعضهم: (أَجْمِعوا)؛ أي: أَعِدُّوا، فيقع على الاسمين جميعًا[٤]: ﴿أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾؛ أي: آلهتكم، وقيل: أي: الَّذين يشاركونكم في التَّكذيب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾: هو نهيُ مغايبةٍ للأمر، ومعناه: لا تجعلوا أمركم عليكم غمة[٥].

---

(١) صدر بيت أنشده الفراء لبعض بني دُبَير ـ قبيلة من أسد ـ يصف فرسه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٦٤)، و«الكشاف» (٢/ ١٠٨)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٤٩٩). وعجزه:

حَتَّى شَتَتْ هَمّالَةً عَيْناهَا

(٢) البيت لعبد الله بن الزِّبَعْرى، وهو في ديوانه (ص: ٣٢)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٦٨)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٣)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣١) و«تفسير الطبري» (١/ ١٣٧). ويروى:

يا ليت بعلك قد غدا

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨).

(٤) بعدها في (ر): «وقوله تعالى».

(٥) قوله: «هو نهي مغايبة للأمر ومعناه لا تجعلوا أمركم عليكم غمة» من (ر).

قال المبرِّد: أي: فرِّجوا عن(١) أنفسِكم ولا تغمُّوها.

وقيل: أي: ضيقًا وغمًّا.

وقيل: أي: مغطًّى ملبَّسًا. قاله الأخفش(٢)، وأنشدوا لطرفة:

لَعَمْـرُكَ مـا أمـري علـيَّ بغُـمَّةٍ نهاري ولا ليلـي علـيَّ بِسَـرْمَدِ(٣)

وهو من قولهم: غُمَّ الهلال، وأصلُه: أنَّ مَن أضمرَ شيئًا فكَّر في إمضائه، وانتهزَ الفرصة فيه، فهو في غمٍّ منه والتباس، لا يدري أيتهيَّأ له إمضاؤه أم لا؟

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾: أي: افرُغوا إليَّ ممَّا تريدون بي، ومعناه: أتمُّوه، وهو كقوله تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢].

وإدخال (إلى) على معنى: أَلْقوا إليَّ ما استقرَّ رأيُكم عليه مفروغًا منه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾: أي: ولا تُمهِلون.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾: قولكم وعملكم ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾: واستعينوا بآلهتكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً﴾ يعني: أظهروا أمركم ولا تكتموا ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ﴾ امضوا ﴿إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: لا ترقبوا فيَّ أحدًا(٤).

وقال الضَّحَّاكُ: أي: انهضوا إليَّ ولا تؤخِّرون(٥).

---

(١) في (ف): «فرحوا».

(٢) ذكر نحوه الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٢٨)، ونقله الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٦٩) عن الكسائي.

(٣) انظر: «ديوان طرفة» (ص: ٢٩).

(٤) انظر: «تنوير المقباس» للفيروزابادي (ص: ١٧٧).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٦٩).

(٧٢) ـ ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾؛ أي: فإن أعرضتم ﴿سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ فتحتجُّوا به عليَّ لإعراضكم.

وقيل: أي: فلا ضرر عليَّ لأنِّي لم أَدْعُكم إلى الإيمان لأجرٍ آخذُه منكم يفوتُني إذا لم تؤمنوا، فإنَّما الضَّرر في ذلك عليكم بما يفوتكم مِن ثواب الله.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يقول: كيف أعرضْتُم عن قَبوله ولم أسألكم أجرًا على ذلك فيكونَ لكم عذرٌ في الإعراض، وهو كقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

وفيه دلالةٌ على منعِ أخذِ الأجر على تعليمِ العلم؛ لأنَّه لو جازَ ذلك لكان لهم عذرٌ ألَّا يبذلوا ذلك، ولا يتعلَّموا شيئًا مِن ذلك، وفيه هَدمُ شرائعِ اللهِ تعالى وإسقاطُها[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾: أي: المُنقادين.

وقيل: أي: مِن المخلصين.

* * *

(٧٣) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾: أي: أسكناهم في الأرض بعد إهلاك الَّذين قبلَهم، وأغرقنا المكذِّبين.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٠).

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾: أي: الَّذين أنذرَهم نوحٌ صلوات الله عليه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان أنذرَ نوحٌ جميعَ قومِه مَن آمن ومَن لم يؤمن، فيَحتمِل أن يكون معناه: فانظر كيف كان عاقبة مَن أجاب ومَن لم يجب.

ويحتمل أن يكون معناه: عاقبةُ الَّذين لم يقبلوا الإنذار ولم يجيبوا، وكانت بالهلاك والاستئصال[1].

* * *

(٧٤) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: أي: أقوامِهم؛ كصالحٍ إلى ثمودَ، وهودٍ إلى عاد، وغيرهما.

﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي: بالمعجزات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: أصرُّوا على التَّكذيب، وكان في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يؤمنون، وكذلك أرادَ منهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: نختم على قلوب الظَّالمين؛ أي: المجاوزين الحدَّ؛ أي: مَن علمنا منه اختيارَ الإصرار على الكفر خذلناه، وأوجدنا منه ذلك.

وقيل: أي: فما كان المتأخِّرون ليؤمنوا بما كذَّب به مَن قبلَهم مِن الأممِ كقوم عادٍ وثمود.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: فلم يكونوا ليصدِّقوا بالرَّسول والكتاب بما كذَّبوا به في أخذ الميثاق عليه[2].

---

(١) المصدر السابق (٦/ ٧١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٦٥)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٥٧)، عند تفسير قوله =

وقال الفرَّاء: لم يكونوا ليؤمنوا لك يا محمَّد بما كذَّبوا به في الكتاب الأوَّل. يعني: اللَّوح المحفوظ[١].

وقال الإمام الزَّاهد أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل: بما كذَّبوا به مِن قبلِ بعثِ الرَّسول، ويكون دليلًا على أنَّ أهل الفترة يُؤاخذون بالتَّكذيب في حالِ الفترة.

ويحتمِل: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾[٢] بعد إتيان البيِّنات ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ﴾ مِن قبلِ إتيان البينات[٣].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قصَّ اللهُ تعالى عليه نبأَ الأوَّلين، وشرح له أحوال جميع الغابرين، ثمَّ فضَّلَه على كافَّتهم أجمعين، فكانوا نجومًا وهو البَدر، وكانوا أنهارًا وهو البَحر، به انتظم عقدُهم، وبنورِه أشرقَ نهارُهم، وبظهورِه خُتِمَ عددُهم، فكان كما قيل:

يومُـك وجـهُ الدَّهـر مِـن أجلِـه ... حَـنَّ غَـدٌ والتَفَـتَ الأمْـسُ[٤]

= تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١] بلفظ: (فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهاً وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب). وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٣٤).

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٤).

(٢) بعدها في (ر) و(ف): «به».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧١).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٠)، والبيت عنده بلفظ:

يـوم وحسـب الدهـر مـن أجله ... حيّـا غـد والتفـت الأمـس

والبيت لابن الرومي كما في «ديوانه» (٢/ ١٩٩)، و«التذكرة الحمدونية» (٤/ ١٧٠)، و«الدر الفريد» للمستعصمي (٨/ ٢٦٥)، وصدره عندهم: =

(٧٥) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: ثمَّ أرسلنا مِن بعدِ الرُّسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون ـ لعنه الله ـ وأشرافِ قومِه ووزرائِه وأهل مشورته ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: بالعصا واليد وغيرهما، فتعظَّموا عن الانقياد لموسى وأخيه، وكانوا عُتاةً ومَرَدَة، لا يبالون مِن اكتساب الآثام.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التِّسع ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: مشركين[1].

***

(٧٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: أي: فلمَّا جاءَتْهم العصا ـ الَّتي التقمَتْ حبال السَّحرة وعصيَّهم ـ وسائرُ المعجزات، قالوا: هذا سحرٌ ظاهرٌ وتخييلٌ بيِّنٌ.

***

(٧٧) ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾: استفهامٌ بمعنى التَّقريع[2].

= ذلك عرس الدهر من أجله

(١) انظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٧٧).

(٢) في (ف): «التقرير».

وقوله تعالى: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾: وهو بلفظ الاستفهام، وقد ذَكَرَ عنهم أنَّهم قطَعوا القول به حيث قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦].

فيجوز أن يكونوا قطَعوا القول به مرَّة، وكذلك بلفظ الاستفهام على وجه الإنكار مرَّة، يعني: أتأتينا بهذا على مقابَلةِ سِحرنا مع كثرته وتقدُّمنا في صنعته؟! فذكرَ اللهُ تعالى ما ذكروا في الحالَتَيْنِ جميعًا.

ويجوز أن يكون معناه: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡ﴾ وتمَّ الكلام؛ أي: أتقولون هذا للحقِّ لَمَّا جاءكم، ثمَّ قال: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾، وهو استفهامٌ بمعنى التوبيخ، وتعجيبٌ مِن قولِهم، وليس بحكايةٍ لقولِهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾: أي: لا يفوزون في الدُّنيا ولا في الآخرة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: الفلاحُ: الظَّفرُ بالحاجةِ والغَلَبةُ، والسِّحرُ باطلٌ، فيكون مغلوبًا والحقُّ غالبٌ.

ويحتمل: والسَّاحرون في الدُّنيا لا يفلحون في الآخرة.

ويحتمل أن يكون معناه: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ بسحرهم في حال سحرِهم، وكذا: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، و﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فإذا ترَكُوا ذلك أفلَحُوا[١].

* * *

(٧٨) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٣).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾: أي: لِتصْرِفَنا، وقد لَفَتَهُ فالْتَفَتَ؛ أي: صَرَفَهُ فانْصَرَفَ.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾: لا نعرِفُ نبوَّةً ولا مَلِكًا ولا إلهًا غيرَ فرعون.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: المُلْك في أرضنا، فتعظموا علينا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾: أي: بمصدِّقين في دعوة النُّبوَّة ووعيد العذاب، أرادوا قطعَ أطماعِهما في إيمانِهم.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾؛ أي: عمَّا كان يعبدُ آباؤنا، وكانت لفرعون أصنامٌ صغارٌ صنعَها لهم، وأمرَهم بعبادتها، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: السُّلطان والمُلْك والشَّرف في الأرض؛ أي: في أرض مصر[(١)].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: وتكون لكما الألوهيَّة الَّتي كان يدَّعي فرعونُ لنفسِه؛ لأنَّ عندهم أنَّ مَن أُطيعَ واتُّبعَ فقد عُبِدَ ونُصِّبَ إلهًا[(٢)].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: رَكَنوا إلى التَّقليد فيما دانوا، فاستحبُّوا استدامة ما عليه كانوا، فلحقهم سوء العقيدة وسوء الطَّريقة حتَّى توهَّموا أنَّ الأنبياء إنَّما دعَوهم إلى الله لتكون لهم الكبرياء على خلق الله، ولم يعلموا أنَّهم إنَّما دعَوهم إلى اللهِ لله بأمرِ الله[(٣)].

* * *

---

(١) ذكر بعضه الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٧١)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٧٨).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٤).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٠).

(٧٩) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾: ولَمَّا جاء موسى بالعصا واليد البيضاء وصارَتِ العصا ثعبانًا قالوا لفرعون: إنَّه سِحْرٌ، فاستشارَهم، فأشاروا عليه بجمع السَّحرةِ، فأمرَ بذلك.

وإنَّما قال: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ للتَّعاون، ولئلَّا يفوتَه شيء مِن السِّحر بتخلُّف البعض.

* * *

(٨٠) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾: أي: فسترون إبطالَ اللهِ تعالى ذلك.

ولم يكن هذا أمراً بالسِّحر ولا رضًى به، لكنَّه تهديدٌ مِن الوجه الَّذي قلنا، والواثِقُ بالحجَّة يمكِّنُ الخصمَ مِن الابتداء بالشُّبهة، حتَّى إذا بلغَ الغاية جاءَ الحقُّ فدمغ الباطل، وليس لِمَنْ أعانَه اللهُ عزَّ وجلَّ غالبٌ.

* * *

(٨١) ـ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾: قرأ أبو عَمرو بالمدِّ على الاستفهام، وعلى قراءته: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ استفهام؛ أي: أيُّ شيءٍ جئْتُم به؟ ثم قال: ﴿آلسِّحر﴾؛ أي: أهو السِّحر؟

وقرأ الباقون بغيرِ مَدٍّ(١)، وعلى هذا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ بمعنى: الَّذي جئتم به، وهو مبتدأ، و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبرُه، ومعناه: هذا هو السِّحر الَّذي أضفتُموه إليَّ.

ومعنى قراءة المد: تجيئون بالسِّحر تقصدون به معارضةَ المعجزة، وهو إنكارٌ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾: أي: يجعله مغلوبًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: لا يجعلهم بأعمالهم الفاسدة صالحين، أو: لا يجعل أعمالَهم الفاسدة صالحةً(٢).

***

(٨٢) ـ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: قال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه اللهُ: الحقُّ حَقٌّ وإن لم يَحِقّ، والباطلُ باطلٌ وإنْ لم يَبطل، وقد قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨]، ولكن معناه: ليجعل الحقَّ في الابتداء حقًّا، فيصير حقًّا، ويجعل الباطل في الابتداء باطلًا، فيكون باطلًا؛ أي: بإبطاله الباطل يكون باطلًا، وبتحقيقه الحقَّ يكون حقًّا.

وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: برسالات رسلِه؛ إذ بهم يظهر الحقُّ من الباطل، وهم حُجَجُ الله في الأرض، وبالحُجَجِ يظهرُ الحقُّ مِن الباطل.

ويحتمل: بآياتِه الَّتي أَنزلَ عليه بها ظهورَ الحقِّ وبُطْلانَ السِّحر.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (١/ ٣٢٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٣).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٤).

ويحتمل: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: بمواعيده بظفَرِ موسى وقومِه وهلاكِ أعدائِه[1].

وقيل: إحقاقُ الحقِّ: إظهارُه وتمكينُه بالدَّلائل الواضحة والآيات اللائحة حتَّى يرجع الطَّاعن عليه حسيرًا والـمُناصب له كسيرًا.

وقيل في قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: هي مواعيده بقولِه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [القصص: ٥]، وقولِه تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآية [القصص: ٣٥]، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]، ثمَّ بيَّن الكلمةَ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: قال مقاتل: يعني القِبْط[2].

وقال القَفَّال: أي: فرعونُ وقومه؛ لأنَّه سمَّاهم مجرمين في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

والمجرمُ: مَنِ اعتادَ اكتسابَ المعاصي، يُقال: فلانٌ جريمُ أهلِه؛ أي: دائمٌ على الاكتساب لهم.

* * *

(٨٣) ـ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما:

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٤ ـ ٧٥).

(٢) في «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٤٥) أن الذين آمنوا بموسى عليه السلام أهل بيت أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط.

يعني: لم يصدِّق موسى إلَّا قليلٌ مِن قوم فرعون، وهم سبعون أهل[1] بيت مِن القبط مِن آل فرعون، والأمَّهات مِن بني إسرائيل، فجعل الرَّجلُ يتبع أمَّه وأخواله[2].

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾[3] يعني: أشراف قومه وجنده[4] أن يقتلهم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: لمخالف في أرض مصر ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: مع المشركين في النَّار، وهذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه الصلاة والسلام في قلَّة مَن آمنَ بِهِ.

وقيل: معنى الآية: فما صدَّق موسى إلَّا أعقابُ قومٍ مِن قوم موسى، وهم بنو

---

(١) في (ر) و(ف): «ألف».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٤٣)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٨٤). وروى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الذرية: القليل».

(٣) في النسخ: «وملئه» بدل ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾، والمثبت هو الصواب، وانظر التعليق الآتي.

(٤) كذا شرح المؤلف قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾، وهذا التفسير على ما جاء في النسخ ظاهر، لكنه على لفظ الآية يحتاج إلى بيان؛ لأنه فسر ضمير الجمع بضمير مفرد، فكان لا بد من بيان ذلك، قال الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٣٦٣): فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾؟ قلت: إلى فرعون، بمعنى آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له. ويجوز أن يرجع إلى الذرية، أي: على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم، ويدل عليه قوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ يريد: أن يعذبهم.
قلت: وهذا كله على عود الضمير في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ إلى موسى، أما على عوده إلى فرعون فالمعنى ظاهر، وعود الضمير على فرعون رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٤٦) عن ابن عباس، وهو الذي صححه المؤلف كما سيأتي، ورجحه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ١٣٧) بأن المعروف في القصص أن بني إسرائيل كانوا في قهر فرعون، وكانوا قد بشروا بأن خلاصهم على يد مولود يكون نبيًّا صفته كذا كذا، فلما ظهر موسى عليه السلام اتبعوه ولم يعرف أن أحدا منهم خالفه.

إسرائيل، كان الزَّمان بعدَ مجيء موسى امتدَّ على موسى حتَّى ماتَ كثيرٌ من الآباء وبقي أولادُهم فآمنوا به. وهو قول مجاهد(١).

والصَّحيح: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ مِن قوم فرعون ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ حقَّقوا أقوالهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] إلَّا يسيرٌ ممَّن قلنا: إنَّ أمهاتهم كنَّ إسرائيليَّات آمنوا ميلًا إليه مِن جهة قرابات الأمَّهات، ومع هذا كانوا خائفين مِن فرعون وأعوانه أن يفتنوهم عن دينهم؛ أي: يصرفوهم؛ إذ كان فرعونُ ـ إلى أن أهلَكَه الله ـ غالبًا في ملك مصر لأهلِها(٢) بالغَلَبة والقَهْر، مسرفًا مجاوز القَدْرَ في الكفر بادِّعاء الألوهيَّة، وقتل النُّفوس.

وقيل: هؤلاء النَّفر اليسير: امرأةُ فرعون، وخربيل مؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه(٣).

ثم قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ على الجمع له ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: أنَّه يرجع إلى الذُّرِّيَّة.

والثَّاني: أنَّه يرجع إلى فرعونَ، وكان ملكًا، وذكرَهُ مع أتباعِهِ، يُقال: قدمَ الخليفةُ مع أتباعِه وأنا أخافُ السُّلطانَ؛ أي: أخافُه وأتباعه.

والثَّالث: أنَّه ذَكَرَ فرعون، ومعناه: آل فرعون، أضمر الآل، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ أي: أهل القرية، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]؛ أي: يا أمَّة النَّبيِّ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٤٥).

(٢) كلمة «لأهلها» غير واضحة في (أ)، ووقع في (ف): «ملك الأرض لأهلها»، وفي (ر): «تلك الأرض لأهلها».

(٣) روى الطبري هذا القول في «تفسيره» (١٢/ ٢٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾: أخبرَ أنَّ موسى لم يضعفْ قلبُه لقلَّة مَن آمن مِن قوم فرعون، بل قال لِمَنْ آمنَ به منهم: على الله توكَّلوا، ولا تخافوا فرعونَ وملأه.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: فيه دلالة أنَّ الإيمانَ والإسلامَ واحدٌ؛ لأنَّه بَدأَ بالإيمان وخَتَمَ بالإسلام، وإنَّما جمعَ بينَهما لأنه يشير إلى زيادةِ فائدةٍ مع أنَّ الأصلَ واحدٌ، فإنَّ الإيمانَ هو اعتقادُ تركِ تضييع كلِّ حقٍّ، والإسلامَ اعتقادُ تسليمِ كلِّ حقٍّ، ولأنَّ الإيمانَ هو التَّصديق بكليَّة الأشياء فيما فيها الشَّهادة لله تعالى بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة، والإسلامَ هو جعلُ كلِّ الأشياء لله تعالى سالمة(١).

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: بيَّنَ أنَّه لا يُكتَفى بالأقوال، بل لا بدَّ مِن صدقِ الأحوال.

وحقيقةُ التَّوكُّل: توسُّلٌ يتقدَّمُه تنصُّل، ثمَّ يَعلمُ أنَّ نجاته بفضلِ الله تعالى تحصل، لا بما يأتي به من التَّكلُّف والتَّعمُّل(٢).

* * *

(٨٥) ـ ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: أجابوه إلى ما أمرَهم به.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قال مجاهدٌ: له معنيان:

أحدُهما: لا تعذِّبْنا بأيدي قوم فرعون، وهو كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٢).

والثَّاني: لا تعذِّبْنا بعذابٍ مِن عندك، فيقولَ قومُ فرعون: لو كانوا على حقٍّ ما عُذِّبوا، وما سُلِّطنا عليهم، فيُفْتَنوا فتنةَ كفرٍ وضَلالٍ[1].

***

(٨٦) ـ ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾: أي: أخرجْنا مِن بين أظهرِهم، فنأمنَهم ونعبدَك آمنين.

وقيل: أي: خلِّصنا مِن استعبادهم، وأخذهم[2] بالأعمال الشاقة والمهن الخسيسة.

***

(٨٧) ـ ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ ﴾: أي: هارون ﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾؛ أي: اتَّخذوا، وقيل: أي: تَمكَّنا.

و(مصر) لا تُصرَف؛ لأنَّه مؤنَّث معرفة؛ لأنَّها بلدة أو كورة أو أرض.

﴿ لِقَوْمِكُمَا ﴾؛ أي: لأجلِهم.

﴿ وَٱجْعَلُوا۟ ﴾: أي: أنتما وهم ﴿ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾: قال مجاهدٌ: أي: نحو الكعبة[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٦).

(٢) كذا في النسخ، ولعل الأولى أن يقول: (وأخذهم إيانا).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٨).

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: فيه إضمار؛ أي: اجعلوا بيوتكم قبلةً إلى الكعبة.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: إنَّ فرعون لَمَّا أتاه موسى عليه السلام بالرِّسالة أمرَ بمساجد بني إسرائيل فكُسِّرَتْ كلُّها، وكانت المساجدُ ظاهرةً، فأمرهما الله تعالى أن يَجعلا لقومِهما مساجدَ في جوفِ البيوت، ولا يظهروها[١].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: حافظوا عليها بشروطها.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: يا موسى، بشِّرْهم بقُرْبِ الخَلَاص.

وخصَّ به موسى لأنَّ هارون كان تابعًا له، وذلك أنَّ موسى صلوات الله عليه كان يأمرُ فرعونَ بأنْ يُرْسِل معه بني إسرائيل، فيَخرجوا مِن مصر إلى الشَّام بوعد الله تعالى أنْ يُوْرثهم إيَّاها ويجْعلَهم سكانَها، وكان فرعونُ يأبى عليه، وكان لذلك وقتٌ معلومٌ، فأمرَهما اللهُ تعالى أنْ يُقيْمَا بمصر مطمئنين متمكِّنين، لا يستعجلان، وأنْ يَأْمُرا بني إسرائيل بذلك، ويتَّخذوا مساجدَ في بيوتهم، ويصلُّوا فيها سِرًّا، منتظرين للفرج، وهكذا عادة المسلمين إذا حزبَهم أمرٌ فَزِعوا إلى الصَّلاة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويَحتمِل هذا الأمرَ بالانفصال مِن فرعون وقومه باتِّخاذ البيوت لهم في طرفٍ مِن المصر، حتَّى إذا أرادوا الخروج من عندهم قدروا على ذلك، ولا يكون المرورُ عليهم، وكان ذلك الانفصال مِن جهة القِبلة[٢].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: مَهَّدْنا لهم لعبادتنا مَحَالَّ وهي نفوسُهم، ولمعارفنا منازلَ وهي قلوبُهم، ولمحبَّتنا مواضعَ وهي أرواحُهم، ولمشاهدتنا معاهدَ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٤٤)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٨).

وهي أسرارُهم، فنفوسُ العابدين بيوتُ الخدمة، وقلوبُ العارفين أوطان المعرفة، وأرواحُ المهيَّمِين مشاهد الحِشمة، وأسرار الموحِّدين منازل الهمَّة[1].

***

(٨٨) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: ضاقَ صدرُ موسى مِن معاملةِ فرعون وقومه، فدعا عليهم فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ في هيآتهم في المحافل، وإذا ركبوا وبرزوا للنَّاس، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ مِن ذهب وفضَّة.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾: أي: يا ربنا أعطيتهم ذلك ليُضِلُّوا النَّاس عن طاعتك[2].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: أي: أهلِكْها وأذهبْ آثارَها؛ لأنَّهم

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٢).

(٢) كذا شرح المؤلف هذه الجملة ولم يصنع شيئاً، فهو لم يبين ما في اللام التي في ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ من الوجوه، ولا توجيه ذلك على كل وجه من الوجوه، وقد استوعب ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ١٣٩) ذلك فقال: (وقوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ يحتمل أن تكون لامَ «كي» على بابها على معنى: آتيتهم الأموال إملاء لهم واستدراجاً فكان الإيتاء كي يضلوا، ويحتمل أن تكون لام الصيرورة والعاقبة، كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] والمعنى: آتيتهم ذلك فصار أمرهم إلى كذا، وروي عن الحسن أنه قال: هو دعاء. ويحتمل أن يكون المعنى على جهة الاستفهام؛ أي: ربنا ليضلوا فعلتَ ذلك، وفي هذا تقرير الشنعة عليهم).

يستعينون بنعمتِكَ على معاصيك، وإنَّما أمرتَهم بأن يستعينوا بها على طاعتِك وسلوك سبيلِك.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: بلغَنا أنَّ الدَّراهم والدَّنانير صارت حجارةً منقوشة كهيئة الدَّراهم والدَّنانير[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل هذا وجهَين:

واجعل على قلوبهم قساوةً وغلظةً تنفِّر الأتباع منهم ومَن يقلِّدهم عن اتِّباعهم وتقليدهم، فيكون ذلك أهون علينا في استنقاذ الأتباع، وأَدْعى للأتباع إلى الإيمان.

الثَّاني: اطبعْ على قلوبهم[٢].

﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾: أي: ليرَوا ذلك، ويحتمِل الغاية؛ أي: إلى أن يروا العذاب الأليم، وكان كذلك فإنَّهم لم يؤمنوا إلى الغرق، وكان ذلك إيمانَ يأسٍ، فلم يُقْبَل.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ يحتمِل النَّصبَ جوابًا للأمر بالفاء، ويحتمِل عطفًا على قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾، ويحتمِل الجزمَ بالنَّهي على معنى الدُّعاء، وهو كقول الشَّاعر:

فلا يَنْبَسِطْ مِنْ بينِ عينَيْكَ ما انْزَوَى ... ولا تَلْقَني إلَّا وأنفُكَ راغِمُ[٣]

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٤٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٨).

(٣) البيت للأعشى. انظر: «ديونه» (ص: ١٧٨).

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾؛ أي: أهلكْهم كفَّارًا[١].

وقال مجاهد: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: بالضلالة، ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾: بالله تعالى بما يرون مِن الآيات ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾[٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا محمولٌ على أنَّ الله تعالى أخبرَ موسى عليه السلام أنَّهم لا يؤمنون، فيَسَعُه[٣] هذا الدُّعاء، كما أخبر الله تعالى نوحًا أنَّه لن يؤمن مِن قومِك إلَّا مَن قد آمن، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فأمَّا قبل أنْ يخبرَه بذلك فلا يسعه أن يدعوَ بهذا الدعاء، وهو إنَّما أرسلَه إليهم ليدعوهم إلى الإيمان[٤].

وهذه الآيةُ دليلٌ على أنَّ الدُّعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفرًا، ولا يكون رضًا بالكفر، ولا استحسانًا له، بل هو غاية استقباح له، فإنَّه لا يدعو به على أحدٍ إلَّا وعنده أنَّه أفحش جنايةٍ، وعليه أعظم عقوبةٍ.

* * *

(٨٩) ـ ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾: والدُّعاء كان مِن موسى عليه السلام وحدَه في الظَّاهر؛ فإنه قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ﴾، وإنَّما قال: ﴿دَّعۡوَتُكُمَا﴾ لوجوه:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٩).

(٣) قوله: «فيسعه» هنا معناه والله أعلم: فيسوغ له ويحق له.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٧٩).

أحدها: أنَّه يحتمل أنَّ هارون دعا أيضًا، وإنما ذُكر عن موسى لأنَّه كان أصلًا.

والثَّاني: يحتمل أنَّ هارون اقتدى به فيما دعا، واتَّبع ألفاظَه فيه، فكان الأصلُ موسى فأُضِيفَ إليه، ثمَّ كانت الإجابة لهما.

والثَّالث: أنَّ موسى عليه السَّلام يدعو وهارون عليه السَّلام يؤمِّنُ، والتَّأمينُ دعاءٌ، فإنَّ معناه: كذلكَ فليكُنْ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾: على ما أنتما عليه من الإبلاغ والوعظ إلى حلول الوقت، ولا تستعجلا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فرعون وقومه.

قرأ ابنُ عامر: ﴿ولا تَتَّبعانِ﴾ بتخفيف النُّون[1]، وهو إخبارٌ لا نهيٌ، وقرأ الباقون بالتَّشديد: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ نهيٌ، والنُّون للتَّأكيد، كما في الواحد: لا تقولَنَّ ولا تفعلَنَّ.

وقال ابن عبَّاس وابن جريج رضي الله عنهم: مكثَ فرعون بعد الدَّعوة أربعين سنة[2].

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: مِن شرط الدُّعاء صِدْقُ الافتقار في الابتداء، ثمَّ حُسْنُ الانتظار في الانتهاء، وكمالُه بالرِّضا بجريان الأقدار، بما يبدو مِن المسارِّ والمضارّ.

والاستقامةُ في الدُّعاء: سقوطُ التَّقاضي على الغيب، والخمودُ عن الاستعجالِ بُحسْنِ الثِّقة وجميل الظَّنِّ[3].

---

(١) هي رواية ابن ذكوان عن ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

(٢) رواه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٤١٥).
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٣) عن ابن جريج.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٣).

(٩٠) ـ ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾: أي: أجبنا دعاءَهما، وأمرنا بني إسرائيل بالخروج للوقت المعلوم، ويسَّرنا لهم أسبابَه، فلم يعلمْ فرعونُ وملؤُهُ بهم، ولا بخبرِ استعدادِهم للخروج؛ لإخفائِنا ذلك عنهم، وصَرْفِنا إيَّاهم عنهم باشتغالهم بدفن أبكارِهم، إذْ متنَ تلك اللَّيلة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾: أي: طلبوا لحاقَهم، وكذا قولُه: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠].

﴿بَغۡيٗا﴾: أي: استطالةً عليهم ﴿وَعَدۡوًا﴾؛ أي: ظلمًا واعتداءً.

قال قيس[١]: كانَ مع موسى عليه السلام مِن بني إسرائيل ستُّ مئة ألف، وكان مقدِّمة فرعون سبعَ مئة ألف، كلُّ رجل منهم على حصان، على رأسه بيضة، وبيده حَرْبَة، وهو خلفَهم في جمعٍ كثيرٍ، فلمَّا انتهى بنو إسرائيل إلى البحر قالوا: يا موسى، أين ما وعدتنا؟ هذا البحرُ بينَ أيدينا، وهذا فرعونُ على أثرنا وجنوده، فقال موسى للبحر: انفلقْ أبا خالد، قال: لن انفلق لك، أنا أقدمُ منك وأشدُّ خلقًا، فنُودي موسى: أنِ اضرِبْ بعصاك البحرَ، فضربَ، فانفلقَ البحرُ، وكانوا اثني عَشَرَ سِبْطًا، حتَّى كان لكلِّ سِبْطٍ طريقٌ[٢].

قال وهبٌ: وارتفعَ بينَ كلِّ طريقَيْن الماءُ كالجبل، وكانوا بني عمٍّ، لا يرى

---

(١) هو قيس بن عُبَاد، أبو عبد الله البصري، مخضرم مات بعد الثمانين، ووهم من عده في الصحابة. قاله في «التقريب».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٧٤).

بعضُهم بعضًا، ولا يسمعُ بعضُهم كلامَ بعضٍ، فأوحى الله تعالى إلى الجبال من الماء أن تشبَّكي، فظهرَتْ مشبَّكاتٌ حتَّى رأوا وسمعوا ومضوا، فعاد البحر إلى حالِه، فلمَّا انتهى أوَّل جنود فرعون هابَتِ البَحر[١]، ومُثِّلَ لحصان فرعون فرسٌ عليه جبريل، وفرعونُ لا يراه، فوجدَ الحصانُ ريحهَا، فانسلَّ خلفَ فرس جبريل في الماء، فقال فرعون: هابني البحرُ، فلمَّا دخل آخرُ جنود فرعون البحر وخرج آخرُ بني إسرائيل انطبقَ عليهم[٢].

فلمَّا ألجمَه الغرقُ، وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾: ﴿ٱلۡغَرَقُ﴾ بفتح الرَّاء: القُرْبُ مِن الهلاكِ بغَمرةِ الماء، والغَرْقُ بتسكينها: الهلاكُ فيها.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿إنَّه﴾ بالكسر على الابتداء، فقوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ كلامٌ، وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ ابتداءُ كلامٍ آخر، وهو كالبدل عن الأوَّل، وقرأ الباقون بفتحها[٣] لوقوع ﴿ءَامَنتُ﴾ عليها.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ أي: المؤمنين، وقيل: أي: المخلصين، وقيل: أي: المنقادين.

* * *

(٩١) ـ ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: أي: قال جبريل: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ استفهام بمعنى التَّوبيخ، وأضمر فيه: آلآن آمنْتَ؛ أي: عندَ الغرق، وهي

---

(١) «البحر» من (ف).

(٢) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٢٥٥).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٠)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٣).

حالة اليأس، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ أمرَ اللهِ بالإيمان ﴿قَبْلُ﴾ هذه الحالة، ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ في أرض مصرَ بالدُّعاء إلى عبادة غير الله.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي: أبعدَ طول الإمهال، والإصرارِ على ذميم الأفعال، والرَّكض في ميدان الاغترار، وفَوْت وقت الاعتذار، هيهات هيهات، لقد استوجبْتَ أنْ يُرَدَّ عذرُك في وجهِكَ، فلا لِعُذرِكَ قَبولٌ، ولا لك إلى ما تَرومُه وصولٌ[١].

وروى ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: لَمَّا قال فرعون: لا إلهَ إلَّا الله، أتاهُ جبريلُ فحشا فاه بالتُّراب؛ خشيةَ أنْ تدرِكَه رحمةُ الله تعالى[٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لم يُقبَلْ إيمانُ فرعونَ في ذلك الوقت لوجهَيْنِ:

أحدهما: أنَّ إيمانَه عندَ خوفِ الهلاكِ إيمانُ دفعِ البأس، لا إيمانُ حقيقةٍ، وهو كإيمان الكفرة في الآخرة.

والثَّاني: أنَّ الإسلامَ تسليمُ النَّفس إلى الله تعالى، فإذا آمنَ في وقتٍ خرجَتْ نفسُهُ مِن يدِه لم يَصِرْ مُسْلِمًا نفسَه إلى الله تعالى؛ إذ ليسَ نفسُه في يدِه فيُسْلِمَها[٣].

وعن كعبِ الأحبار قال: أمسك فيضُ[٤] مصرَ عن الجري، فقالَتِ القبطُ لفرعونَ: إنْ كنْتَ ربًّا فأجرِ الماء، فركبَ وأمرَ جنودَه بالرُّكوبِ، وكان مناديه ينادي كلَّ ساعةٍ: ليقفْ فلانٌ بجنوده قائدًا لهم، فجعلوا يقفون على درجات، حتَّى بقي

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٤).

(٢) روى نحوه الترمذي (٣١٠٧) وقال: حديث حسن، و(٣١٠٨) وقال: حسن صحيح من هذا الوجه.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٨٠ ـ ٨١).

(٤) في (ف): «نيل».

هو وحجَّابُه ووزراؤُه، فأمرَهم بالوقوف، فتقدَّمهم وحدَه بحيث لا يرونَه، ونزلَ عن دابَّته، ولبس ثيابًا، فأتاه جبريل وهو وحده يستفتي: ما قولُ الأميرِ في عبدٍ لرجلٍ، نشأَ في مالِه ونعمتِه، ولا سيِّدَ له غيره، فكفرَ نعمتَه، وجحدَ حقَّه، وادَّعى السِّيادة دونَه، فكتبَ فرعون فيه: يقول أبو العبَّاس الوليدُ بنُ مصعب بن ريَّان: جزاءُ العبد الخارج على سيِّده الكافر نعماءَه أن يغرقَ في البحر، فأخذَه جبريل ومرَّ، فلمَّا ألجمَه الغرق وأيقنَ بالهلاك ناولَه جبريلُ خطَّه وغرَّقه.

قال كعب: ورماه الماءُ كأنَّه ثور إلى السَّاحل(١).

***

(٩٢) ـ ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

وقوله(٢) تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾: أي: نلقِيْكَ على نَجْوَةٍ مِن الأرض؛ أي: ارتفاعٍ ﴿بِبَدَنِكَ﴾؛ أي: جسدًا لا روحَ فيه.

وقيل: أي: مع درعك، والبَدَنةُ والبَدَنُ: الدِّرعُ.

وقيل: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ مِن النَّجاة، وهي الخَلاص؛ أي: تخلصُ مِن دوابِّ البحر، فنخرجُكَ ولم تأكلْكَ.

وروي أنَّ بني إسرائيل قالوا: ما ماتَ فرعونُ، ولا يموتُ أبدًا، فألقاه البحرُ بأمر الله تعالى إلى السَّاحل، فعاينوه وأيقنوا بموتِه(٣).

---

(١) الخبر من الإسرائيليات، وذكره عن كعب الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٤٧)، ودون عزو الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٣٦٨)، وفيه (فعرفه) بدل «فغرقه».

(٢) في (ف): «فذلك قوله».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٠) عن قيس بن عباد، وسيأتي قريباً عن السدي.

وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾: أي: لتكونَ لِمَنْ بقيَ مِن بعدِكَ علامةً، فتزولَ وساوسُ الشَّيطان وخُدَعُه عن الضَّعَفة بتوهُّمِهم حياتَه أو خلاصَه عن الهلاك؛ إذ كانَ عندَهم إلهًا معبودًا، وتكون آيةً يستدلُّون بك على ما يلزمُهم مِن الانقيادِ للأنبياء، والإجابةِ لدعوتِهم، وإلَّا حَلَّ بهم ما حلَّ به.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾: أي: فعلْنا ذلكَ بفرعونَ مع تكبُّرِه وإسرافِه ودعواه الإلهيَّةَ، فنحنُ على إهلاك هؤلاء المشركين الذين هم دونَه لقادرون، ولو فكَّروا لعلموا ذلك، لكنَّهم غافلون.

وقال السُّديُّ: قالَتْ بنو إسرائيل: إنَّ فرعونَ لم يغرقْ، وإنَّه يدركُنا الآنَ ويقتُلُنا، فأوحى اللهُ تعالى إلى البحرِ فقذَفَه، فأخذَ بنو إسرائيلَ أسلحتَهم[1].

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: لم يكنِ الماءُ ينبذُ الغريقَ قبلَ فرعونَ، فلمَّا أغرقَ اللهُ عزَّ وجلَّ فرعونَ أمرَ الماءَ بنَبْذِ الغريق[2].

وذُكِرَ أنَّ في قراءة أبي حنيفة رضي الله عنه: (فاليومَ نُنَحِّيكَ) بالحاء المهملة مِن تحتها[3]، مِن التَّنحية، وهي التَّبعيد، (بيدَيْكَ): تثنية اليدِ[4]، (لتكونَ لِمَنْ خلقَكَ)

---

(١) لم أجده هكذا، وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٤) عن السدي: قوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾: لبني إسرائيل آية.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٤)، وإسناده ضعيف.

(٣) نسبت لأبي بن كعب ومحمد بن السميفع ويزيد البربري. انظر: «المحتسب في شواذ القراءات» لابن جني (١/ ٣١٦). وذكره ابن الجزري في «النشر» (١/ ١٦) عن ابن السميفع وأبي السمال مثالاً على ما نقله غير الثقة، مما غالب إسناده ضعيف.

(٤) ذكرها ابن كمال باشا في «تفسيره» ولعله أخذها من المؤلف.

بالقاف[1] (آيةً)؛ أي: نبعدك عن الرَّحمة بما كسبَتْ يداكَ مِن الجفوة، لتكون من خالقِكَ لخلْقِهِ آيةً.

***

(٩٣) ـ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ﴾: أي: مكنَّاهم بعدَ إغراق فرعون وقومه مكانًا حَسنًا محمودًا، وأنزلناهم منازلَ فرعونَ وقومِه، وأورثناهم أرضَ الشَّام وهي منازل الصِّدق. قاله قتادة[2].

وقال الحسن: أي: مصر، وهو منزلٌ صالحٌ آمنٌ خصْبٌ[3].

وقال الضَّحَّاكُ: مصر والشَّام[4].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٖ﴾؛ أي: صدَّقنا لهم بها ما وعَدْنا بقولنا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [القصص: ٥].

ويحتمل: مبوَّأَ أهلِ صدقٍ، كما قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٖ﴾ الآية [الإسراء: ٨٠][5].

---

(١) نسبت لعلي رضي الله عنه، انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٣٠١)، و«البحر المحيط» (١٢/ ١٧٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٧٢)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٥).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣١١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٥).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٨٢ ـ ٨٣).

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾: أي: الأقواتِ والأطعمة المستطابة.

ويحتمل: الـمَنَّ والسَّلوى.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: قيل: فما اختلفوا في نبوَّة محمَّد ﷺ إلى أن جاءَهم هو، فحينَئذٍ كفرَ بعضُهم به وآمنَ بعضُهم.

و﴿ٱلْعِلْمُ﴾: معرفتُهم به قبلَ خروجِه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقيل: بل كانوا مختلِفِيْنَ في كثيرٍ مِن أمورِ دينِهم قبلَ الـمَبْعَثِ، طلبًا للرِّئاسة، وبغيًا مِن بعضهم على بعضٍ، حتَّى ألجأَهُم ذلك إلى القتال، تعسُّفًا في التَّأويل، وتعصُّبًا للمذاهب، وقوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾؛ أي: الكتاب والأحكام، فاختلفوا بعد فراقِهم موسى عليه السَّلام، على الوجه الَّذي قُلْنا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: فيَمِيزُ المحقَّ من الـمُبْطِلِ، فيجزي كلًّا منهم على استحقاقِه، ويُنزله منزلةَ استيجابه(١)، على حكم وعده ووعيده.

وقيل: أراد به اليهود الَّذين كانوا في عصر النَّبيِّ ﷺ، أنزلَهم الله تعالى منزلةَ كرامةٍ وفضلٍ، فما اختلفوا في محمَّد حتَّى جاءَهم العلمُ عيانًا؛ أي: المعلوم، وهو محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: يقول: أَدَلْنَا لهم الأيام، وأكثَرْنا عليهم الإنعام،

---

(١) في (أ): «وينزل منزله استجابة» ولم تنقط الأخيرة، وفي (ف): «وينزل منزله الاستحباب»، وفي (ر): «وينزل منزلة استحباب». وكلها غير ظاهرة، والمثبت من «تفسير ابن كمال باشا» وقد نقل كلام المؤلف بحرفه.

وأكرَمْنا لهم المقام، وأتَحْنا لهم فنونَ الحسنات، وأدْرَرنا عليهم جميع الخيرات، فلمَّا قابلوا النِّعمةَ بالكفرانِ، وأصرُّوا على البغي والعُدوان، أذقناهم سوءَ العذاب، وسدَدْنا عليهم أبواب ما فتحْنا لهم مِن التَّكريم والإيجابِ، ذلك جزاءُ مَن حادَ عن طريقةِ الوِفاق، وجنحَ إلى جانبِ الشِّقاقِ[1].

***

(٩٤) ـ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: يقول: إنَّ قصَّة فرعون وموسى على ما اقتَصَصْتُه عليك، فإنْ كنْتَ شاكًّا فيه ﴿فَسْـَٔلِ﴾ المؤمنين مِن أهل الكتاب عن ذلك ﴿ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: أي: مِن الشَّاكِّيْنَ.

وتكلَّمَ النَّاسُ في هذه الآية وأكثروا؛ لأنَّ ظاهرَها مشكِلٌ؛ فإنَّ النَّبيَّ عليه الصلاة والسلام لم يكن يشكُّ فيما أُنْزِلَ عليه.

قال أكثرُ المفسِّرين: الخطابُ للنَّبي عليه الصلاة والسلام، والمرادُ غيرُه ممَّنْ شكَّ فيه، والعربُ تفعل كذلك، وفيه المثل السَّائر: إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة[2]. ومثله في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ويدلُّ عليه قوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤] على الجمع.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٥).

(٢) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٢٩).

وقال القتبي: الخطابُ لغيرِه، وهو مَن شكَّ فيه.

قال: كان النَّاس على عهد النَّبيِّ ﷺ أصنافًا:

منهم كافرٌ مكذِّب لا يرى إلَّا أنَّ ما جاءَ به باطل.

ومؤمنٌ مصدِّق يعلم أنَّ ما جاءَ به حقٌّ.

وشاكٌّ في الأمرِ لا يدري كيف هو؟ يقدِّم رجلًا، ويؤخِّر أخرى.

فخاطَبَ اللهُ تعالى هذا الصِّنفَ مِن النَّاسِ، فقالَ: إنْ كنْتَ أيُّها الشَّاكُّ في شَكٍّ ممَّا أنزلْنا إليك من الهدى على لسان محمَّد، فسَلِ الأكابرَ مِن أهلِ الكتاب والعلماء الَّذين يقرؤون الكتاب مِن قبلِكَ، مثل عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الدَّاري وأشباههم، شهدوا على صدقِه، ولم يُرِدِ المعاندين منهم(١).

وقيل: خرجَ هذا الكلامُ مخرجَ المبالغةِ في شِبْهِه(٢)، وهو كقولِكَ لعبدِكَ: إنْ كنْتَ عبدي ـ وتعلَمُ أنَّه كذلك ـ فانتهِ إلى أمري، وإلَّا فأسألِ النَّاسَ يخبروك أنَّك عبدي، وهو لا يشكُّ في عبوديَّته لسيِّده(٣).

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٦٨)، وفي آخره تقديم وتأخير: (ولم يرد المعاندين منهم فيشهدون على صدقه).

(٢) في (أ): «في تثنيته»، وفي (ر): «في شبه»، وفي (ف): «تَبْيِيْنُه». ولعل المثبت هو الصواب؛ أي: فيما يشابهه من الكلام وأسلوب الخطاب، وعلى عادة العرب في مثله. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٩) ولعله أول القائلين بهذا الوجه من التأويل، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٤٩)، و«تفسير السمعاني» (٢/ ٤٠٤)، و«وغرائب التفسير وعجائب التأويل» لتاج القراء الكرماني (١/ ٤٩٤) وضعفه، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٥٠).

(٣) ولم يرتض هذا بعض العلماء، فقد ضعفه تاج القراء الكرماني كما ذكرنا، ووجه تضعيفه ما قاله أبو العباس الرازي في «مباحث التفسير» (ص: ١٦٠) بقوله: لا وجه له؛ لأن قول القائل لعبده: إن كنت =

وتقديرُ هذه الآية على هذا: قدْ أخبرْناكَ بما تعلمُ أنَّك لا تشكُّ فيه، فإنْ كنْتَ في شَكٍّ فيه فاسألِ العلماءَ به، ثمَّ يعودُ حقيقة الأمر إلى أنَّ ما أخبرناك به صِدقٌ، ينبغي للكفَّار أنْ يصدِّقوك، فإنْ لم يصدِّقوك فلْيَسألوا غيرَكَ مِن أهل الكتاب.

والأمورُ إذا وقعَتْ فيها المبالغةُ خرجَ الخطاب فيها إلى ما لا يكون، قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]؛ أي: لو جازَ كونُ هذه الأشياء لكانت في هذه الحالة.

فكذا هذا معناه: لو كنْتَ ممَّنْ يلحقُكَ شَكٌّ فيما أخبرناك به، فسألْتَ أهلَ الكتاب، لأزَالُوا عنك الشَّكَّ بتصديقِهم إيَّانا فيما أخبَرْناك به، وهو كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ أي: لَئِنْ كنْتَ ممَّن يجوزُ ذلك عليك لبطلَ عملُكَ.

وقيل: علم الله تعالى أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام لا يشكُّ، فإنَّما خاطبَه بهذا ليقول: أنا لا أشكُّ؛ لِيُثاب على ذلك، كما قال لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]؛ لِيُثَابَ على ذلك.

وقد رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لجبريل: «أنا لا أشكُّ، ولا أسألُ»(١).

وقال الزُّهريُّ: نزلَتِ الآيةُ في السَّماء، ومعنى قوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾: الملائكة.

= عبدي فأطعني، يقوله وهو متيقن أنه عبده، فيلزم أن الله تعالى يعلم أن نبيه ﷺ شاك؛ لأنه قال: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ كقولنا: إن كنت غلامي.

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠٢١١)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٨)، عن قتادة مرسلًا.

وقال عبد العزيز بن يحيى: أي: فإنْ كنْتَ في ضِيقِ صَدْرٍ مِن تعنُّتِ الكفَّار لِمَا أُنْزلَ عليك، فاسألْ أهلَ الكتابِ: كيفَ صبرَ الأنبياءُ على أذى قومِهم، وكيف كانَتْ عاقبةُ أمرِهم[1].

* * *

(٩٥) ـ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: هي خطابُ رسولِ اللهِ ﷺ ظاهرًا، والمراد به غيره، أو هي خطابُ غيرِه، وهو على ما مرَّ في الأولى.

وإنْ حُمِلَتْ على خطابِه وإرادَتِه فقد مَرَّ مرَّات أنَّ العِصمةَ لا تزيلُ النَّهيَ، بل قيام النَّهيِ شرطٌ لتحقُّقِ العصمة.

* * *

(٩٦ ـ ٩٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾: وهي تسليةُ رسول الله ﷺ وإزالةُ ضِيقِ صَدْرِه بتأخُّر إسلام قومِه.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٠).

ويحتمِلُ قولَه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى قولِه: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾ [الانعام: ١١١].

وحاصلُه: أنَّ مَن علمَ اللهُ منه اختيارَ الكُفْرِ وإصرارَه عليه شاء له الكُفْرَ فلا يؤمِنُ أبدًا(١).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ عندَ البأسِ فيؤمنون به، ولا ينفعُهم، أو في القيامة فلا يُقبَل منهم.

* * *

(٩٨) ـ ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ الآية: أي: فهلَّا، وهو تحريضٌ، و﴿قَرْيَةٌ﴾؛ أي: أهلُ قرية؛ أي: فهلَّا آمنَ أهلُ قريةٍ مِن الَّذين عُوجِلوا بالعذاب، فكان ينفعهم إيمانهم ويُقبَل منهم، وهاهنا مُضمَر: ولم يؤمنوا فضرَّهم كفرُهم ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾.

﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: والخزيُ: الهوانُ الَّذي يفضحُ صاحبَه.

وقال الحسنُ: لم يكن ذلك فيما خلا ـ أنْ يؤمِنَ أهلُ قرية بأسرها حتَّى لا يشذَّ أحدٌ منهم ـ إلَّا قوم يونس؛ أي: فهلَّا كانت القُرى كلُّها هكذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي: إلى حضورِ آجالِهم.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٨٥).

وأكثر المفسرين على أن إيمان قوم يونس لم يكن حين عاينوا هذا العذاب، لكنَّ يونسَ صلوات الله عليه أخبرَهم بدنوِّ نزول العذاب بهم، وفارقَهم، وتلك حالةٌ لم يَزُلِ التَّكليفُ فيها عنهم، فراجعوا عقولَهم، فأبصروا رشدهم، فآمنوا، فانصرفَ العذابُ الَّذي كان أشرفَ عليهم عنهم.

وكان ذلك مخالفًا لحالةِ فرعونَ حين أدركَه الغرقُ؛ لأنَّه آمنَ في حالِ معاينةِ العذابِ، وهي حالةُ زوالِ التَّكليف عنه، فلم ينفَعْهُ الإيمانُ، كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ لا يدلُّ على حصولهم في العذاب، بل يقع ذلك على إشراف العذاب عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] كان الإنقاذُ منها حالةَ الإشراف عليها، لا الحصولِ فيها.

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ قومَ يونسَ عليه السَّلام كانوا بنِيْنَوى مِن أرضِ الموصِل، فلمَّا فقدوا نبيَّهم قذفَ اللهُ في قلوبِهم التَّوبة، فلبسوا المسوحَ، وخرجوا فنزلوا على تلٍّ، وفرَّقوا بينَ كلِّ بهيمةٍ وولدِها، وعجُّوا أربعين ليلةً، فلمَّا علمَ اللهُ تعالى الصِّدق مِن قلوبِهم، كشفَ عنهم العذابَ، وتابَ عليهم، ومتَّعهم إلى حين الموت[1].

وقال وهبٌ: قال يونسُ لقومِه: إنَّ أجلَكُم أربعون يومًا وليلة، فإنْ لم تستجيبوا له عذَّبكم عذابًا يفنيكُم ويستأصلُكُم. قالوا: فإنَّ آيةَ ما بينَنا وبينك الأجل، فإنْ رأيْنا أسبابَ العذابِ صدَّقْناك، فدخلوا مدينتهم يأتمرون وينتظرون في أمره، فلمَّا مضى مِن الأجل خمسة وثلاثون يومًا غامَتْ عليهم السَّماء غيمًا أسودَ هائلًا، يدخِّنُ دخانًا شديدًا، ثمَّ يهبط حتَّى يغشى مدينتهم، حتَّى اسودَّتْ سطوحُهم منه، فلمَّا رأَوا ذلك

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٨٨).

قد تتابعَ عليهم أيقنوا بالهلاك، فنقلوا يونسَ إليهم[(١)]، فنزلَ بينَ أظهرِهم، وبرزوا إلى الصَّعيد بأنفسِهم ونسائِهم وصبيانِهم ودوابِّهم، فعجُّوا إلى ربِّهم، وفرَّقوا بين دوابِّهم وأولادِها، فحنَّ بعضُها إلى بعضٍ، وعلَتْ أصواتُها، وفعلوا ذلك عمدًا لتختلط أصواتُها بأصواتِهم، وحنينُها بحنينِهم؛ ليرحمَهم ربُّهم، فرحمَهم، واستجابَ لهم، وقَبِلَ توبتَهم، وكشفَ العذابَ عنهم، فذلِكَ قولُه تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ [يونس: ٩٨][(٢)].

وقال مقاتل: كان العذابُ فوقَ رؤوسِهم قدْرَ ميلٍ[(٣)].

فكشفَ اللهُ عنهم يومَ عاشوراء يومَ الجمعة، فحذَّرَ اللهُ تعالى أهلَ مكَّة أنهم إنْ آمنوا عندَ نزولِ العذابِ لم ينفعْهم، كما لم ينفعِ الأممَ الخالية إلَّا قومَ يونسَ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: تداركَتْهم الرَّحمة الأزليَّة فيما أَجْرَى عليهم [من] توفيق التَّضرُّع، فكشَفَ عنهم العذابَ، وبرحمَتِه وصلوا إلى تضرُّعِهم، لا بتضرُّعِهم وصلوا إلى رحمتِه[(٤)].

* * *

(٩٩ ـ ١٠٠) ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) في (ف): «فلقوا ما قال يونس إليهم»، وفي (ر): «فلقوا يونس إليهم».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٥١).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٥٠).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٦)، وما بين معكوفتين منه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾: أخبرَ عن كمالِ قُدْرَتِهِ ونفوذ مشيئتِه: أنَّه لو شاءَ لآمنَ مَن في الأرض كلُّهم فلا يبقى فيها إلَّا مؤمنٌ موحِّدٌ، ولكنَّه شاءَ أنْ يؤمِنَ به مَن عَلِمَ منه اختيارَ الإيمانِ به، وشاءَ ممَّنْ عَلِمَ منه أنَّه يختارُ الكُفْرَ ولا يؤمِنُ به ألَّا يؤمِنَ به.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾: استفهام بمعنى النَّفي؛ أي: لا تملكُ أنت يا محمَّد أنْ تكرِهَهم على الإيمان؛ لأنَّ الإيمانَ يكونُ بالاعتقادِ والإقرار، ولا يمكن الإكراه على الاعتقاد.

وقيل: كان هذا بمكَّة حين لم يُؤمَروا بالقتال، ثمَّ أُمِروا بالمدينة بالقتال، وهو إكراهٌ على الإيمان.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: كان رسولُ الله ﷺ حريصًا على إسلام أبي طالب وقومِه، فأبى اللهُ ذلك عليه إلَّا مَن علم في سابق علمه أنَّه يؤمِنُ، فأنزل الله تعالى قولَه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠][(١)].

قال عطاء: أي: بمشيئةِ الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢][(٢)].

وقال عطيَّةُ العوفيُّ: أي: بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه[(٣)].

وقال عبد العزيز بن يحيى: أي: بعلمِ الله وتوفيقِه[(٤)].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٢٤)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٨٠).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٣).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٩٨) (ط: دار التفسير)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٠) عن سفيان.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٣)، وفيه بدل «عبد العزيز بن يحيى»: (الداني)، وفي الطبعة =

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا تحتمِلُ الآية إلَّا هذا[1]، ولا تحتمِلُ الأمرَ والإطلاقَ؛ لأنَّه كم مِن مأمورٍ بإيمانٍ لم يُؤْمِن به، فلم تحتملِ الأمر، ولا تحتملُ الإباحةَ، لأنَّه لا يُباحُ تركُ الإيمان في حالٍ[2].

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: هذا مبتدأٌ، ومعناه: ونجعل الإثم، وقيل: العذاب.

وقيل: أي: جزاءَ الرِّجس؛ أي: الكفرَ.

وقيل: الرِّجس: الشَّيطان؛ قال عليه الصلاة والسلام في دعاء الخَلاء: «اللَّهمَّ إنِّي أعوُذ بك مِن الرِّجْسِ النَّجِس، الخبيثِ المُخْبِث، الشَّيطانِ الرَّجيمِ»[3].

أي: ويسلِّط الشَّيطانَ على الَّذين لا يستعملون عقولَهم، ولا يعملون بما تدعوهم إليه.

* * *

(١٠١) ـ ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

= الأخرى (١٤/ ٢٩٨): (الكتاني)، وكلاهما تحريف عن الكناني، وهو عبد العزيز بن يحيى المذكور، وقد سبق مثل هذا التحريف مراراً. انظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى في هذه السورة: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

(١) أي: لا يحتمل قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ سوى المشيئة والإرادة، كما هي العبارة في «تأويلات أهل السنة».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٨٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٩٩) من طريق عُبَيْدِ الله بنِ زَحْرٍ، عن عليِّ بنِ يَزِيدَ، عن القاسمِ، عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً. قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٤٤): هذا إسناد ضعيف، قال ابن حبان: إذا اجتمع في إسنادِ خبرٍ عبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم فذاك مما عملته أيديهم.

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: أي: قل يا محمَّد للمشركين: انظروا أيُّ شيءٍ في السَّماوات والأرض مِن العِبَرِ؟ مِن مجيء اللَّيل والنَّهار، ومجرى النُّجوم والأفلاك، ونتاج الحيوان، وخروج الزُّروع والثِّمار، ووقوف السَّماوات والأرض بغير عمادٍ، وكلُّ ذلك تدبيرٌ يقتضي مدبِّرًا لا يُشبِهُ الأشياء، ولا يُشْبِهُه شيءٌ.

وقيل: أي: فيها عجائبُ الصُّنع الذي أنتم مقرُّون بأنَّ اللهَ تعالى خلقَها، فإنَّكم إذا نظرْتُم علمْتُم أنَّه مِن صُنْعِ مَن لا يجوز أنْ يكونَ له في مُلْكِه شريك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ﴾: يجوزُ أنْ تكونَ (ما) نفيًا، ويجوز أن تكونَ استفهامًا ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾: الرُّسل ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وما ينفعُ ذلك إذا لم يستدلُّوا به فيؤمنوا.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: الأدلَّة وإنْ كانت ظاهرة فما تغني إذا كانت البصائرُ مسدودة، كما أنَّ الشَّمس وإنْ كانَتْ طالعةً فما تغني إذا كانَتِ الأبصارُ عن الإدراكِ بالعَمى مردودة، كما قيل:

وما انتفاعُ أخي الدُّنيا بمُقْلَتِهِ ... إذا استوَتْ عندَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ[1]

***

(١٠٢) ـ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي: فلينتظرْ

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٧). والبيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص: ٣٦٣) ت: عبد الوهاب عزام.

هؤلاء المتَّبعون للهوى والظَّنِّ، التَّاركون للنَّظر والاستدلال في الشِّرك والتَّكذيب، أنْ[1] ينزلَ عليهم مِن عذابِ اللهِ ما نزلَ على الأممِ الخاليةِ المكذِّبة أنبياءَها.

وقال قتادة: إلَّا مثلَ وقائعِ اللهِ عزَّ وجلَّ في الأوَّلين قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ[2].

وقال يمان بن رئابٍ: ﴿مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾؛ أي: مثل عذابهم، والعربُ تسمِّي العذابَ: أيَّامًا، والنَّعيم: أيَّامًا؛ قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]؛ أي: بنِعمِ اللهِ، وكلُّ ما مضى عليك مِن خير أو شرٍّ فهو أيَّامٌ؛ لوقوعه في الأيَّام[3].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: أي: إنجازَ وعدِه لي في إنزال العذاب بكم إنْ أقمْتُم على تكذيبي.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمَه الله: يحتمِل: هل ينتظرون بي يومًا مِن الهلاك إلَّا مثلَ ما انتظر الَّذين خَلَوا مِن قبلِهم برسلِهم مِن الهلاك.

ويحتمل: هل ينتظرون نزولَ العذاب بهم إلَّا مثل ما انتظرَ أولئك مِن نزول العذاب بهم.

ويحتمل: هل ينتظرون مِن تأخيرهم الإيمانَ إلى وقتِ نزولِ العذاب بهم إلَّا مثلَ ما أخَّرَ أولئك، وهو يخرج على الإياس من إيمانهم.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: ثمَّ نخبركم أنَّ مِن سُنَّتِنا إذا أنزلْنا العذابَ بقومٍ أنْ نُخْرِجَ مِن بينِهم رسولنا والذين آمنوا معَه.

---

(١) في (أ) و(ر): «إلا أن».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩١).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٣) دون نسبة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أي: ننجِي المؤمنين مِن العذابِ في كلِّ زمانٍ.

﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾: ظاهرُه: واجبًا علينا، وحقيقتُه: وَعْدًا منَّا مؤكَّدًا لا خُلْفَ فيه؛ لأنَّ العبادَ لا يجبُ لهم على اللهِ تعالى شيءٌ.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه اللهُ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾؛ أي: أنجيْنا؛ لأنَّه لا رسولَ بعدَ رسولِنا محمَّد ﷺ(١).

فهذا مستقبلٌ بمعنى الماضي، وفي بعضِ الآيات ماضٍ بمعنى المستقبَل.

***

(١٠٤) ـ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: وهم المذكورون في أوَّل السُّورة: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾.

﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾: ما هو؟(٢) أو في دينِ الإسلام الَّذي علمْتُم ما هو، لكن شككْتُم أحقٌّ هو أم لا؟ فها أنا أكشفُ لكم ماهيتَه وحقيقتَه.

أمَّا الأوَّل: فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الأصنامَ والجنَّ والملائكة ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾؛ أي: يميتُكم، وهو الذي يحييكم، فهو القادر على كلِّ شيءٍ على الكمال، فله استحقاقُ العبادة دونَ غيرِه، وهو إشارةٌ إلى بيانِ حقيقة دينِه.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٠).

(٢) في (أ): «ما هو ديني ما هو».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمِل: إنْ كنتم في شَكٍّ مِن دينِ الإسلام أحقٌّ هو؟ شككْتُم في دينكم أيضًا، فإنْ لم تجيبوني إلى هذا الدِّين الذي لا شكَّ فيه، ودعوتُموني إلى دينِكم مع الشَّكِّ فيه، فهو سَفَهٌ.

ويحتمل: إنْ كنْتُم في شكٍّ مِن ديني الَّذي أدينُ به وأدعوكم إليه، فأنا لا أشكُّ فيه، فلا أعبدُ الذين تدعون مِن دون اللهِ، هذا مضمَرٌ.

ويحتمل: إنْ كنْتُم في شكٍّ مِن ديني وما أعبد، فلا تعبدون ذلك ولا تدينون به، فأنا لا أعبد ما تعبدون ولا أدين ما تَدينون، وهو كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦][1].

وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أمرني الله تعالى به، فقال: كُنْ مِن المؤمنين، ولذلك عطف عليه ما هو بصيغة الأمر.

* * *

(١٠٥) ـ ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وهو **قوله تعالى:** ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: أَخْلِصْ عملَك[2].

وقيل: أي: قوِّم إقبالَك وتوجُّهَكَ على ما أُمِرْتَ به.

وقيل: أي: أقمْ نفسَكَ لله خالصةً سالمةً، لا نَصِيْب فيها لغير الله. وهذا قول الإمام أبي منصور رحمه الله[3].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٠ ـ ٩١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٤).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩١).

وقيل: أي: أقمْ وجهَكَ في الصَّلاة نحو الكعبة.

وقال أيضًا: أقمْ نفسَكَ على ما عليها شهادةُ[1] خِلْقتها، إذ خِلْقةُ كلِّ نفسٍ تشهدُ على وحدانيَّة الله تعالى وأُلوهيَّته.

وقال أيضًا: أقمْ وجهَ أمرِكَ لِمَا تَدِيْنُ به وتُقِيْمُ عليه[2].

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مستقيمًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: قيل لي ذلك، عطفًا على الأوَّل، وكذلك قوله تعالى:

* * *

(١٠٦) - ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: لا تدعُ غيرَ اللهِ إلهًا.

وقيل: أي: لا تعبدْ.

وقيل: أي: لا تَدْعُهُ بحوائجِكَ.

وقولُه: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ أي: لا يقدر على نفعٍ ولا ضرٍّ، وهو صفةُ الأصنام.

فإنْ قيل: ولِمَ قال: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، وهو لو نفعَ وضرَّ لم تجزْ عبادتُه؛ لأنَّها لا تحقُّ إلَّا لله وحدَه؟

---

(١) في (أ) و(ر): «بشهادة»، والمثبت من (ف) و«التأويلات».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩١).

قلْنا: معناه: ما لا ينفعُك ولا يضرُّك نفعَ الإلهِ وضرَّه؛ ولأنَّ عبادةَ ما لا ينفعُ ولا يضرُّ أخسرُ للصَّفقة، وأبعدُ عن الشُّبهة[١].

* * *

(١٠٧) - ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾: أي: وقيل لي ذلك أيضًا، وهو عطفٌ على الأوَّل.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: يُصِبْكَ اللهُ بفاقَةٍ في معيشَتِكَ، أو آفةٍ في جسدِكَ، فلا كاشفَ لذلك الضُّرِّ إلَّا هو[٢].

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾: يُصبْكَ بسعةٍ وغنًى وصحَّةِ جسمٍ ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾: فلا مانِعَ لرزقِه ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: يخصُّ به مَن يشاءُ مِن خلقِه.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: غفورٌ لِمَنْ تابَ مِن شركِه، رحيمٌ بإنعامِه على جميعِ خَلْقِهِ.

أمرَه أنْ لا يخافَ شيئًا مِن الأصنام أو أحدًا مِن أولئك الأقوام في مجاهرتهم[٣] بخلاف دينِهم، بل يخافُ اللهَ إنْ دعا مِن دونِه ما لا يضرُّه وما لا ينفعُه؛ لأنَّ اللهَ تعالى إن أصابَه بضرٍّ فلا كاشفَ له غيره، وإنْ أصابَه بخير فليس إلى أحدٍ سوى الله ردُّه، وهو الغفورُ الذي يسترُ الذُّنوب، والرَّحيم بمَنْ يتوب.

---

(١) في (ف): «وأبعد للشبهة»، وكلمة: «وأبعد» كذا في (ر) و(ف)، وغير واضحة في (أ).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٣٥)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزابادي (ص: ١٠٧).

(٣) في (أ) و(ف): «مجاهدتهم».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وفي الآيات نقضٌ على المعتزلة، فإنَّه قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ وهم يقولون: أرادَ اللهُ مِن الكافر الإيمانَ، وهو ردَّه فلم يؤمِن، وتسميتُه فضلًا يدلُّ على أنَّه ليس على الله شيءٌ، فإنَّ الفَضْلَ هو فعلُ ما ليسَ عليه[1].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾؛ أي: إنْ كنتُم في غطاءٍ مِن الذَّنب، فأنا في ضياءٍ مِن الغَيْب، أنتم في ظلمةِ الجهل، وأنا في شموس الفَضْل، أنتم في سُدفَةِ[2] الضَّلالة، وأنا في خِلْعة الرِّسالة وعلى نور الدِّلالة، أنتم في وَهْدَة العوج، وأنا ثابتٌ على سواء النَّهج.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾: أي: وقيل لي: أخلصْ قصدَكَ للدِّين، وجرِّدْ قلبَكَ عن إثباتِ كلِّ ما لحقَه قهر التَّكوِيْن.

وقال في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية: كما تفرَّد بإبداع الضُّرِّ واختراعِه فلا شريك يعضدُه، كذلك توحَّدَ بكشْفِ الضُّرِّ وصرفِهِ فلا نصير ينجدُه.

وقال: عَذُبَ الضُّرُّ حيث كان بفعلِه، فما أوجبَ عينَ الضُّرِّ منَ الحزنِ والحرَبِ[3]، أبدلَ مكانَه إضافتُه إلى فعلِه السُّرورَ والطَّرب[4].

***

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٢).

(٢) في (ر): «شدفة». والسُّدفة: الظلمة، والشدفة بمعناها. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: سدف وشدف).

(٣) الحَرَب: الغضب. انظر: «التاج» (مادة: حرب).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١١٨ ـ ١١٩).

(١٠٨) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: أي: المذكورون في أوَّل هذه السُّورة، وهم مشركو قريشٍ ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: يعني جاءكم محمَّد ﷺ بالقرآن[١].

وقيل: أي: ببيان ما يحقُّ عليكم أن تعتقدوه، وتقولوا به، وتعملوا عليه.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله ـ بعدَما ذكَرَ أنَّ الحقَّ هو محمَّدٌ ﷺ ـ: وقيل: هو القرآن، ويُشْبِه أن يكون هو الدِّينَ الذي شكُّوا فيه؛ أي: قد جاءكم ما يزيلُ عنكم ذلك الشَّكَّ إنْ لم تكابروا في الحججِ والبراهين[٢].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾: أي: فمَنْ سلَكَ سبيلَ الرَّشاد المؤدِّي إلى الحقِّ الَّذي جئْتُ به فإنَّما يهتدي لنفسِه بما يفوزُ مِن رضاءِ خالقِه ومِن ثوابِه، بالنَّعيم المقيم الَّذي لا يشوبُه كَدَرٌ ولا يلحقُه غِيَرٌ.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾: عن هذا السَّبيلِ فوقعَ في غيرِه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾: على نفسِه؛ أي: ضرُّه على نفسِه باعوجاجِه عن طريقِ الحقِّ، لا يَضرُّ خالقَه بضلالِه، كما لا ينفعُه باهتدائِه.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾: قال الحسنُ: أي: بحفيظٍ يحفظُ أعمالَكم، إنَّما أنا نذيرٌ، واللهُ الحافظُ عليكم أعمالكم[٣].

وقيل: أي: لسْتُ مسلَّطًا على إدخالِ الإيمانِ في قلوبِكُم، وإنَّما أنا مبلِّغٌ مُرْشِدٌ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٣٦)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزابادي (ص: ١٨٠).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٢ ـ ٩٣).

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢/ ١٢٨)، والواحدي في «البسيط» (٨/ ٢٠٥).

(١٠٩) ـ ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾: أي: لسْتَ عليهم بوكيلٍ مسلَّطٍ على قلوبِهم فتتصرَّفَ فيها، ولكنَّكَ مبلِّغٌ فاتَّبعْ وحيَنا.

وقال الحسنُ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: مِنْ دِيْنِه الَّذي بيَّنه في كتابِه[1].

ثمَّ عزَّاه فقال: ﴿وَاصْبِرْ﴾: على ما تسمعُ منهم مِن الأذى والتَّكذيبِ لك ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ تعالى، فيأتيَكَ أمرُهُ ونهيُه وحكمُه، وما وعدَكَ مِن إظهارِ دينِه[2] ونصرِكَ.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ في عدلِ حُكمِه، وإنجازِ وعدِه، وصدقِ كلماتِه.

وقيل: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنَّه لا يلحقُه في حكمِه زللٌ ولا خللٌ، ولا يمنعُه عن إمضائِه مانعٌ.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كان مِن حكمِه أمرُه بالقتال، ونَسَخَ بِهِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[3].

وقال الضَّحَّاكُ: حكَم بالقتل يومَ بدر وأُحُد والأحزاب.

وقال أنسٌ رضي الله عنه: لَمَّا نزلَتْ هذه الآية بعثَ رسولُ الله ﷺ إلى الأنصار، فجمَعهم ولم يجمعْ معهم غيرهم، وقال: «إنَّكم ستجدون بعدي أَثَرةً فاصبروا حتَّى

---

(١) نحوه بلا نسبة في «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٣٦).

(٢) في (ر) و(ف): «دينه الذي بينه».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٣٧). وقال ابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (ص: ١٦١): روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هذه الآية منسوخة بآية القتال، وهذا لا يصح عن ابن عباس، وقد بينّا أنه لا يتوجه النسخ في مثل هذه الأشياء، لأن معنى الآية: ما أنا بوكيل في منعكم من اعتقاد الباطل وحافظٍ لكم من الهلاك إذا لم تعملوا أنتم لأنفسكم ما يخلصها.

تلقَوْني على الحوض»، قال أنسٌ رضي الله عنه: فلم يصبروا[١].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾؛ أي: وَقِفْ عندَ جَرَيان أحكامِنا، وانسلِخْ عن مرادِكَ بالكليَّة، ليجريَ عليكَ ما نريدُ مِن القضيَّة[٢].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: سورةُ يونس كلُّها مكيَّة إلَّا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ فإنها مدنيَّة نزلَتْ في اليهود[٣].

وبالله العونُ والتَّوفيقُ[٤].

***

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٠٣) عن أنس دون سند. ورواه البخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩) دون ذكر الآية. وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ٨٦): ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند، والقصة المذكورة متفق عليها من حديث عبد الله بن زيد في أثناء حديث، ومن حديث أسيد بن حضير، ليس فيه كون الآية سبب ذلك، بل سببه قسمة غنائم حنين.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٠).

(٣) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣).

(٤) في (أ): «تم الجلد الأول من تفسير التيسير بعون الله تعالى وحسن توفيقه، في تاريخ سنة ٩٦٩»، وفي (ر): «نجز النصف الأول من تفسير القرآن العظيم للإمام أبي حفص عمر النسفي الحنفي رحمه الله تعالى وغفر له ولكاتبه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، آمين».

سُورَةُ هُودٍ

سُورَةُ هُودٍ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسمِ الله الذي أنزل الكتاب المُحكَم المُفصَّل المبيَّن، الرَّحمنِ الذي جعل العاقبة للمتَّقين، الرَّحيمِ الذي لا يُضيعُ أجرَ المحسنين.

وروى أبيُّ بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «مَن قرأ سورة هود أُعطِيَ مِن الأجر عشرَ حسناتٍ بعددِ مَن صدَّقَ بنوحٍ وكذَّبَ به وبهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى عليهم السَّلام، وكان يوم القيامةِ إنْ شاءَ اللهُ مِن السُّعداء»[1].

وهذه السُّورة مكيَّة، وهي مئة وثلاثٌ وعشرون آية، وقيل: اثنتان وعشرون، وقيل: إحدى وعشرون.

والاختلاف في سبع آيات: ﴿بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، ﴿مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾ [هود: ٨٢]، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ [هود: ١٢١]، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦]، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

---

(١) رواه الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٦٣). وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقال ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٤): مصنوع بلا شك. وانظر: «الفتح السماوي» (٢/ ٧٢٤)، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

وكلماتُهـا ألفٌ وتسـع مئة وسـبع عشـرة، وحروفها سـبعة آلاف وسـبع[١] مئة وسـبعة وثلاثون[٢].

وانتظامُ هذه السُّورة بسورة يونس: أنَّ هذه السُّورة تشتمل على ما اشتملَتْ عليه تلك السُّورة مِن محاجَّات المشركين وشُبَهِهم وإنكارهم، وأقاصيصِ الأمم الخالية، وغيرِ ذلك من المعاني.

وانتظامُ أوَّل هذه السُّورة بآخر تلك السُّورة: أنَّه ذكرَ هناك اتِّباع ما يُوحَى إليه، وذكر هاهنا صفة الكتاب الذي أُوحيَ إليه، ولأنَّ اختتامَ تلك ببيان أنَّ له الفصلَ والأحكام، وافتتاح هذه ببيان أنَّ منه التَّفصيلَ والإحكام.

* * *

(١) ـ ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الٓر﴾ مرَّتْ الأقاويلُ فيه في تلك السُّورة.

قال الإمام القشيريُّ رحمه الله: الحروفُ الثَّلاثة قَسَمٌ بثلاثةٍ مِن صفاتِ اللهِ تعالى؛ أي: بانفرادي بالرُّبوبيَّة، ولطفي بِمَنْ عرفَني بالأحديَّة، ورحمتي على كافَّة البريَّة: أنَّ هذا ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: حُفِظَتْ عن التَّغيير والتَّبديل ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ ببيانِ نُعوتِ الحقِّ ممَّا يتَّصف به من جلال[٣] الصَّمديَّة، وما تعبَّد به الخلقَ مِن أحكام العبوديَّة، ثمَّ ما ألاح[٤] لقلوب المحبِّين فيه مِن لطائف القربة في عاجلِهم،

---

(١) في (أ) و(ف): «وست»، وانظر التعليق الآتي.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٦٣)، وفيه: وكلمها ألف وتسع مئة وخمس عشرة كلمة، وحروفها سَبعة آلاف وخمس مئة وسَبعة وسِتُّون حرفاً كحروف يونس.

(٣) في (ف): «النعوت».

(٤) في (أ): «لاح».

والبُشرى بما وعدَهم به مِن عزيز لقائِه في آجلِهم، وخصائصهم الَّتي امتازوا بها عمَّن سواهم[١].

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾: أي: هذا كتاب.

وقيل: أي: هذه السُّورة المسمَّاة ﴿الٓر﴾ كِتَابٌ ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: نُظمَتْ نَظمًا مُحْكمًا، لا يلحقُه خَللٌ ولا تناقضٌ في النَّظم والمعنى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾؛ أي: جُعلَتْ فُصولًا؛ حلالًا وحرامًا، وأمرًا ونهيًا، وترغيبًا وترهيبًا، ومواعظ وأمثالًا، لكلِّ معنًى منها فصلٌ غير مختلطٍ بغيره، حتَّى يُتمَكَّنَ مِن تَدبُّرِها كلِّها.

وقال الحسنُ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالأمر والنَّهي، و﴿فُصِّلَتۡ﴾ بالثَّواب والعقاب[٢].

وقال قتادةُ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ من الباطل، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالحلال والحرام[٣].

وقال مجاهدُ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالجملة، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾: بُيِّنَتْ بِذِكْرِ آية آية[٤].

وقيل: ﴿فُصِّلَتۡ﴾؛ أي: بُيِّن فيها ما بالناس إليه حاجةٌ في أمور دينهم.

وقيل: ﴿فُصِّلَتۡ﴾: أُنْزِلَتْ متفرِّقة شيئًا بعدَ شيء.

وقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: أي: أنزلَه ربٌّ حكيمٌ مُحْكِمٌ للأمورِ، واضعٌ

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٩).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٧٩)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٥).

(٤) ذكره بهذا اللفظ القرطبي في «تفسيره» (١١/٦٦)، وبنحوه الماوردي في «النكت والعيون» (٢/٤٥٦). ورواه مختصراً الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٥) ولفظه: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ قال: فُسِّرَتْ.

كلَّ شيءٍ موضعَه، خبيرٌ عالمٌ بحقيقةِ الأشياء، وأنزلَه اللهُ تعالى، لم يفْتَرِه محمَّدٌ ولا تقوَّلَه، ولا قالَتْه الشَّياطينُ، ولا الكهنةُ، ولا الشُّعراء.

وقيل: ﴿خَبِيرٍ﴾ بوجوه المصالح فيها، لم يُنْزِلْها جملةً، بل مفصَّلًا لِمَا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: لم تُنْسَخْ بكتابٍ كما نُسخَتِ الكتبُ والشَّرائع بها(١).

وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾: فُسِّرَتْ(٢).

ثمَّ في قولِه: ﴿مِن لَّدُنْ﴾ أنَّه صلة قوله تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾؛ أي: الإحكام والتَّفصيل مِن الله تعالى.

وقيل: هي صلة قوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ أي: هو منزَّل مِن عند الله.

وقال الإمام الزَّاهد أبو منصور رحمه الله تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ﴾ فلا يأتيها الباطلُ مِن بين يدَيْه ولا مِنْ خلفِه، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: ثم بَيَّنَتْ ما يؤتى وما يُتَّقى، وما لهم وما عليهم(٣).

وفيه بيانُ جوازِ تأخُّر البيان لأنَّ (ثم) للتَّراخي(٤).

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٤٢)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ١٨١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٥)، عن مجاهد، وقد أشرنا إليه قريباً.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٤).

(٤) المرجع السابق (٦/ ٩٦).

(٢) ـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: أي: وممَّا فُصِّلَ فيه ألَّا تعبدوا.

ويجوز أنْ يكونَ نصبًا بـ(أنْ)، و(أنْ) مع الفعل مصدرٌ، ومعناه: تركُ عبادتِكم غيرَ الله ممَّا فُصِّلَ فيه.

ويجوز جزمًا بالنَّهي، وتقديرُه: قلْ يا محمَّد: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، ومِن تفصيلِه أنِّي أقول لكم: لا تَعْبُدُوا غيرَ الله.

﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾: فإنَّني لكم مِن اللهِ مخوِّف بالعذاب إنْ عصيْتُموه، ومُبَشِّرٌ بالثَّواب إنْ أطعْتُموه.

* * *

(٣) ـ ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: عطف على الأوَّل، وهو دليلٌ أنَّ الأوَّلَ جزمٌ على النَّهي، وهذا عطفُ الأمرِ على النَّهي، وهو أولى مِن تأويل مَن أوَّلَه على إعراب النَّصب.

ومعناه: سَلُوا ربَّكم أنْ يغفر[1] ما أسلفْتُم مِن الذُّنوب بالشِّرك.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾: أي: ارجعوا إليه بالإخلاص له.

والاستغفارُ ينتظِم النَّدمَ على ما سلف، وإحسانَ العمل في المؤتنَف، حتَّى يكون الإنسانُ راجعًا بعملِه إلى ربِّه، ولهذا قدَّمَ ذِكْرَ الاستغفارِ على ذِكْرِ التَّوبةِ،

---

(١) في (أ) و(ف): «يستر».

وتقديره: اطلبوا مغفرةَ ربِّكم بالإسلام، والنَّدمِ على سالف الإجرام، والثَّبات على الطَّاعة في باقي الأيَّام، وارجعوا إلى اللهِ تعالى بالإخلاصِ والاستسلام، على الثَّبات والدَّوام.

وقيل: أي: اطلبوا المغفرة بأنْ تجعلوها عوضَكم، ثمَّ توصَّلوا إلى مطلوبِكم بالتَّوبة واجعلوها سببَكُم، فالمغفرةُ أوَّلٌ في الطَّلب وآخرٌ في السَّبَب.

وقيل: معناه: استغفروا ربَّكم مِن ذنوبِكم السَّالفة، ثمَّ توبوا إليه في المستأنَف متى وقعَتْ منكم المعصيةُ.

وقوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾: هو جوابُ الأمرِ، وتقديرُه: إنْ تفعلوا ذلك يعمِّرْكُمُ اللهُ تعالى في الدُّنيا، فتتمتَّعون بالأرزاق المباحة والملاذِّ المحلَّلة متاعًا حسنًا، لا تَذُمُّون عاقبتَه كمتاع المشركين.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهو مدَّة العمر لكلِّ إنسان.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ أي: تستحسِنون في الآخرة ذلك التَّمتُّع، وأمَّا الكفَّار فإنَّهم لا يستحسنون في الآخرة ما مُتِّعوا به في الدُّنيا؛ لأنَّ تمتُّعَهم في الدُّنيا كان للدُّنيا، وتمتُّعَ المسلمين كان للتَّزوُّد للآخرة(١).

وأصلُ التَّمتُّع: إطالةُ الشَّيء والمدُّ فيه، يُقال: حبلٌ ماتع؛ أي: طويل، ومَتَعَ النَّهارُ؛ أي: ارتفعَ، وقال اللهُ تعالى خبرًا عن نوح عليه السَّلام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٣]، وقال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ـ١٢]، فهذا كلُّه مِن المَتاعِ الحَسَنِ.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٥).

وقال الفرَّاء: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: وتوبوا إليه؛ لأنَّ الاستغفارَ هو التَّوبة، والتَّوبة هي الاستغفارُ(١).

وقال الكلبيُّ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ أي: صلُّوا لربِّكم(٢).

وقال مقاتلٌ: فدعا رسول الله ﷺ أهل مكَّةَ إلى التَّوبة والاستغفار وعبادة الله تعالى، فأبَوا فابتلاهم اللهُ تعالى بالقَحْطِ سَبْعَ سنين، ثمَّ أكلوا العِظام المحرَّقة والجِيَفَ والكلاب(٣).

﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾: قال أبو العالية: أي: مَن كثرَتْ طاعاتُه في الدُّنيا زادَتْ درجاتُه في الآخرة؛ لأنَّ الدَّرجات تكون بالأعمال(٤).

وقيل: أي: يُؤْتِ كلَّ ذي إفضال على النَّاس جزاءَ إفضالِه، سُمِّيَ جزاءُ الفضلِ فضلًا كما يُسمَّى جزاءُ السَّيئةِ سيئةً.

وقيل: أي: ويؤتِ كلَّ ذي فَضْلٍ فضيلةً في الدِّين بعملٍ صالحٍ جزاءَ فضيلتِه وعملِه.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: أي: مَن زادَتْ حسناتُه على سيِّئاتِه دخلَ الجنَّة، ومَن زادَتْ سيِّئاتُه على حسناتِه دخلَ النَّارَ، ومَنِ استوَتْ حسناتُه وسيِّئاتُه كان مِن أهلِ الأعراف، ثمَّ يدخلون الجنَّة(٥).

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٤)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٤٥).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٥٥).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧١).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٧).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٧).

وقال مجاهد: هو ما يحتسبُه الإنسانُ مِن كلامٍ يقولُه بلسانِه، أو عملٍ يعملُه بيدِه ورجلِه، أو ما يجتهد فيه من طاعة(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتملُ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ ما آتاه بفَضْله.

ويحتمل: [وَيُؤْتِ] كلَّ ذي فضلٍ في الدُّنيا فضلَه في الآخرة(٢).

وهو كما روي: «أهلُ المعروفِ في الدُّنيا هم أهلُ المعروف في الآخرة»(٣)؛ أي: يُجعَلون أهل الشَّفاعة، فيَصطنعون المعروف إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أصلُه: تتولَّوا، حذفت إحدى التَّائين تخفيفًا؛ أي: وإنْ تُعْرضوا عمَّا فُصِّلَ لكم مِن هذه المعاني وتصرُّوا على الشِّرك.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٧).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٦)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٤٢٩)، والإمام أحمد في «الزهد» (٢٣٦٨) عن أبي عثمان النهدي مرسلًا.

ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٢١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٣٧٥) من حديث قبيصة بن برمة الأسدي رضي الله عنه.

ورواه البزار في «مسنده» (٥٩٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٥٦، ٤٩٣١)، و«المعجم الصغير» (٧٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه الطبراني في «المعجم الصغير» (١٩٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ورواه ابن الجوزي في «العلل» (٨٣٤ ـ ٨٤١) من حديث عمر وابن عمر وأبي موسى وسلمان وأبي الدرداء وابن عباس، ثم قال: (هذا حديث لا يصح)، ثم ذكر عللها.

﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾؛ أي: عظيمٍ شديد، وهو يوم القيامة، لِمَا فيه مِنَ الأهوال وجزاء الأعمال.

وقيل: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾: قتلُهم يوم بدر.

* * *

(٤) ـ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾: هذا وعيد يوم القيامة.

وقوله: ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: على مجازاتِكم على أعمالِكم وغير ذلك.

وقال القشيري رحمه الله: ابتدِئوا باستغفاركم، ثمَّ توبوا بترك أوزاركم، والتَّنقي عن إصراركم.

قال: ويقال: استغفروا من الذُّنوب، ثمَّ توبوا عن توهُّم نجاتِكم باستغفاركم؛ لعلمكم بأنَّ نجاتكم تكرمةٌ لا بأعمالكم.

وقال أيضًا: استغفروا لطلب حظوظكم من عفونا، فإذا فعلتم ذلك فتوبوا عن طلب كلِّ حظٍّ ونصيبٍ، وارجعوا إلينا، واكتفوا بنا راضين بما نختارُه مِن التَّجاوُز عنكم أو غير ذلك ممَّا نختارُه لكم.

وقال في قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾: هو إعطاءُ الكفايةِ مع زوالِ الحِرْصِ.

وقيل: هو القناعةُ بالموجودِ.

وقيل: هو أنْ لا يحوجَه ولا يجعلَ لأحد عليه مِنَّة، لا سيَّما لِلَئيم.

وقيل: هو أنْ يوفِّقه لاصطناع المعروف إلى المستحقِّين.

وقيل: هو أنْ تُقضَى على يدَيْه حوائجُ النَّاسِ.

وقيل: هو أنْ لا يُلمَّ في حال شبابِه بزلَّة، ولا يتَّصفَ في حال مشيبه عن الله بغفلة.

وقيل: هو أنْ يكون راضيًا بما يجري عليه في حالَتَي العسر واليسر.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾: هو أنْ يَسترَ عليه فضلَه حتَّى لا يلاحِظَ حالَه ومقامَه، بل ينظر إلى نفسه وإلى ما هو منه وله بعين الاستحقار والاستصغار.

وقيل: هو أنْ يرقِّيه عن التَّعريج في أوطان البشريَّة إلى مناجاة شهود الأحديَّة، فيُنقَّى[1] عن شُحِّ البشريَّة، والتَّكدُّر بما يبدو مِن مفاجأت التَّقدير.

وقال في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: تنقطع الدَّعاوى عند الرُّجوع إلى الله تعالى، وتَنتَفي الظُّنون، ويحصل اليأسُ مِن غير الله تعالى، ويبقى العبد بنعتِ الاضطرار في وصف الانتظار[2].

* * *

(٥) ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: أخبر عن معاداة المشركين للنَّبيِّ ﷺ وجهلِهم باللهِ في ظنِّهم أنَّهم يَسْتَخْفون منه، فقال: ﴿أَلَآ﴾؛ أي: تنبَّهوا على أحوال المشركين، وقِفوا على جهلِهم، فإنَّهم يُسرُّون العداوة في قلوبِهم، وهو كقولهم: طَوَى كَشْحَهُ.

ووجهُ ذلك: أنَّ مَن ثنَى الشَّيء ـ أي: عطَفَه وطواه ـ خفيَ في أثنائه ما يقع فيه، وخفيَ باطن الشَّيء المطويِّ، فجعلَه مثلًا لإضمار العداوة في الصَّدر.

---

(١) في (أ): «فينتفي».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٣).

﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾: أي: يقصدون بذلك إخفاء ذلك على الله تعالى جهلًا منهم.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: أي: اعلموا أنَّهم حين يتغطَّون بثيابِهم ويُدخلون رؤوسَهم فيها ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يعلمُ اللهُ ما يضمرون، فكيف وهم بارزون؟! ولكنَّهم أهلُ جهلٍ، ومَن كان هذا حالُه لم يُستَبْعَدْ منه أنْ يُشرِكَ بالله غيرَه.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: سرائرها وضمائرها.

ووجه آخر: أنَّهم كانوا إذا احتاجوا في أمرٍ مِن الأمور أنْ يَمرُّوا بالنَّبيِّ ﷺ طأطؤوا رؤوسَهم وتغشَّوا ثيابهم فيها؛ لِئلَّا يراهم النَّبيُّ ﷺ فيحتاجوا إلى الدُّخول عليه أو التَّسليم عليه، فأخبرَ اللهُ عن ذلك وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، وهو عبارةٌ عن شِدَّةِ خَفْضِ الرَّأس، حتَّى يحتاجُ صاحبُها إلى أنْ ينحنيَ فيثنيَ صدرَه.

فيقول: أَلَا حينَ يفعلونَ هذا ويضمُّون إليه في بعضِ الأحوالِ أنْ يغطُّوا رؤوسَهم بثيابهم ليُخفوا أشخاصَهم مِن النَّبيِّ ﷺ يعلمُه اللهُ، ويعلم ما يسرُّون في منازلهم عليه وما يعلنون فيه.

ووجه آخر: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ أي: يَحْنون صدورَهم لتنخفضَ رؤوسُهم وتتطامَنَ آذانُهم، فلا يصلَ إليها ما يَقرأُ عليها رسولُ الله ﷺ مِن القرآنِ، وهو كقوله تعالى في قصَّةِ نوحٍ عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧].

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ أي: يُخفون ما في صدورِهم مِنَ الشَّحناء والعداوةِ[١].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٨).

نزلَتْ في الأخنس بن شَرِيقٍ الثَّقَفي، كان رجلًا حلوَ الكلامِ، حلو المنطق، يلقى رسولَ الله ﷺ بما يحبُّ، وينطوي بقلبِه على ما يكرهه(١).

وقال قتادة: أي: يحنون صدورَهم، وأخفى ما يكون الإنسانُ إذا حنى صدرَه وتغطَّى بثوبه، وأضمر همَّه في نفسِه(٢).

وقال مجاهد وعكرمة: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ بشكٍّ(٣) في الله عزَّ وجلَّ وفي رسوله(٤).

وقال السُّديُّ: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ أي: يعرضون بقلوبِهم عنك، من قولهم: ثنيْتُ عناني(٥).

وقال مجاهدٌ: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِن العداوة، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِن الوِفاق، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بما في القلوب من الخير والشَّرِّ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ليستَخْفوا منه إنْ كانت الآيةُ في المنافقين

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٧)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٦٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصرح ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٧٦) أنه من طريق أبي صالح عن ابن عباس. وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٣٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٦٥)، عن الكلبي، وعلى هذا فلعله من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٨١)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٩).

(٣) في (ر): «أي يعرضون بقلوبهم شك»، وليست هذه العبارة في خبر مجاهد وعكرمة بل هي عن السدي كما سيرد.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٩٩) عن مجاهد، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٢١) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٧)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٦٠).

فهو الاستسرار والاستتار مِن رسولِ اللهِ ﷺ؛ لأنَّهم كانوا يُظهرون موافقَتَه ويضمرون مخالفَتَه، وإن كانت الآيةُ في المشركين فهو على الاستسرار والاستتار مِن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم كانوا لا يبالون بمخالفة رسول الله ﷺ، وعندهم أنَّ اللهَ لا يطَّلِعُ على ما يسرُّون.

وفيه دلالة على نبوَّة محمَّدٍ ﷺ؛ حيث أخبر عن ضمائرِهم، فثبتَ أنَّه علِم ذلك بالله[1].

* * *

(٦) - ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾: أي: وما مِن شيء مِن الحيوانات التي تدبُّ على الأرض إلَّا واللهُ تعالى متكفِّل برزقِها؛ أي: بما يُقيمُها؛ إذ الحيُّ مِن الخلقِ لا بُدَّ له ممَّا يقيمُ حياته، ولا قيام للحيوانات إلَّا بكفايتها[2]، وهي رزقُها.

قال مجاهدٌ: ما جاءَها مِن رزقٍ فمِنَ اللهِ، وربَّما لم يرزقْها حتَّى تموتَ جوعًا، ولكن ما كان مِن رزقٍ فمِنَ اللهِ، و﴿عَلَى﴾ بمعنى (من)[3]، كقوله تعالى: ﴿ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾: أي: ويعلمُ مستقرَّها مِن الأرضِ

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٧).

(٢) في (ر): «بكلفتها»، وفي (ف): «بتكلفاتها».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠١).

حيثُ تأوي إليه، وموضعَها الذي تموتُ فيه، أو تُدفَن فيه فتُسْتَودعُ فيه إليه إلى حين تَنْبَعث.

وقال مجاهدٌ: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الأرحام، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الأصلاب[١].

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: أي: في اللَّوحِ المحفوظِ مكتوبٌ.

وقيل: يُكتَب الآنَ موجودًا، كما كُتِبَ في اللَّوح المحفوظِ معلومًا؛ يعني: مَن كانت هذه قدرتُه، وهذه صفتُه في الإحاطة في الأشياء، كيفَ يخفى عليه ما يفعلُه هؤلاء المشركون مِن ثني صدورِهم ظانِّين أنْ يخفى عليه ذلك؟

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ باللَّيل، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ بالنَّهار في معايشِها، ويُشْبه أن يكون هذا إخباراً عن العلم بها في كلِّ حالٍ مِن سكونِها وحركتِها، يخبرُ أنَّه إذا لم يَخْفَ عليه كونُ كلِّ دابَّة في بطن الأرض، وما كان في الأرحام، وما استُودِعَ في الأصلابِ، كيف تخفى عليه أعمالُكم الَّتي عليها العقاب ولكم بها الثَّواب[٢].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أراحَ القلوبَ عن تعبِ التَّقسيم، والأفكارَ عن نَصَبِ التَّفكير[٣] في باب الرِّزق، حيث قال: ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، فسكنَتِ القلوبُ لَمَّا تحققَّتْ أنَّ الرِّزقَ على الله تعالى.

قال النَّبيُّ ﷺ: «إذا أُحِيْلَ أحدُكُمْ على مَلِيءٍ فَلْيَحْتَلْ»[٤].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٦).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٩٩).

(٣) في جميع النسخ: «الترحم»، والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٤) رواه البخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظهما: «إذا أُتبع أحدكم على مليء فليتْبع».

ويقال: إذا كان الرِّزقُ على اللهِ فمِنَ المحالِ طلبُهُ مِن غيرِ اللهِ.

قال: ولم يقل: (ما يشتهِيْهِ ومقدار ما يكفِيْهِ)، بل هو موكولٌ إلى مشيئتِه، فمِن موسَّعٍ ومِن مُقتَّرٍ[1].

* * *

(٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: فسَّرناه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] في (سورة الأعراف).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: بيَّنَ أنَّ خَلْقَ العَرْشِ والماءِ كان قبلَ خَلْقِ السَّماواتِ والأرض.

والعرشُ: شِبْهُ سريرِ المَلِكِ، لتطوفَ الملائكةُ به، ويحفُّون حولَه، ويمجِّدون اللهَ تعالى ويعظِّمون مِن حولِه، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ الآية [الزمر: ٧٥].

وفي وقوفِ العرشِ على الماءِ، والماءِ على غيرِ قَرار، أعظمُ اعتبارٍ على كمالِ قُدْرةِ الملِكِ الجبَّار، ولو شاءَ لجعلَ العرشَ على غيرِ قَرار، كما جعلَ الماءَ ـ الَّذي هو أدعى للقرار وأحوجُ إليه ـ على غير قرار.

وعن كعب الأحبار أنَّه قال: لَمَّا أرادَ اللهُ تعالى خَلْقَ الماءِ خَلَقَ ياقوتةً خضراء،

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

ثمَّ نظرَ إليها بالهيبة فصارَتْ ماءً، ثمَّ خَلَقَ الرِّيحَ فجعلَ الماءَ على متنِها، ثمَّ وضعَ العَرْشَ على الماء(١).

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: خلقَ جميعَ ذلك ليعامِلَ عبادَه معاملةَ المختبِر لهم، مظاهرةً في الاحتجاج عليهم؛ ليمتثلوا أمرَه، ويؤدُّوا على نعمِهِ شكرَه، ويستدلوا بآياتِه على وحدانيَّتِه وقدرَتِه على ما يشاء، وفي ذلك إثباتُ البعثِ لِيُجازيَ المحسِنَ على إحسانِهِ، والمسيءَ على إساءَتِه.

ومعنى الابتلاءِ: فعلُ ما يظهرُ به الشَّيء وإنْ كان معلومًا، أَلَا ترى أنَّ الرَّجلَ قد يخالفُ الرَّجلَ في جودة فضَّته ورداءتها، وهو عالمٌ بحقيقةِ ما يقول، فيقول لصاحبِهِ: تعالَ ندخلْها النَّارَ، فننظرَ أجيِّدة هي أم رديئة.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: أَيُّكم أعملُ بالطَّاعة.

وقال مقاتلٌ: أَيُّكم أتقى لله.

وقال الحسنُ: أَيُّكم أزهدُ في الدُّنيا وأتركُ لها(٢).

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: أحسنُ الأعمالِ ما غابَ عن ملاحظةِ عاملِهِ.

وقال: هو ما ينظرُ إليه صاحبُه بعين الاستصغار والاستقلال.

وقيل: أحسنُ الأعمال ما لا يطلبُ صاحبُه عليه عوضًا.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٦٢). وظاهر أنها من الإسرائيليات.

(٢) ذكر هذه الآثار الثلاثة الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٩).

وقيل: ما غاب عنه صاحبُه لاستغراقِه في شُهود المعبود[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وصلَ هذا بما ذكرَ مِن خلقِ السَّماوات والأرض؛ لأنَّ ذلك ذُكِرَ أساسًا لهذا؛ أي: خلقناها على الاتِّساق والانتظام دلالةً على الخالق القادر، وكان خلقُها للمُمْتَحنِيْن، وما خُلِقَتْ لأنفسِها، لأنَّها للفناء، ولو كان لذلك ـ لا للابتلاء ـ كان عبثًا، وبالابتلاء ظهرَ المحسِنُ والمسيءُ، وجزاءُ ذلك بعدَ البعثِ.

ولو قلْتَ يا محمَّد للمشركين: إنكم مبعوثون للجزاء على ما انكشفَ بالابتلاء، أنكروا وتعجَّبوا، وقالوا: ما هذا القولُ إلَّا سحرٌ ظاهرٌ؛ أي: خديعةٌ منكم لنا، ومنعٌ عن لذَّات الدُّنيا وزينتِها، واجترارٌ إلى الانقيادِ لكم والدُّخولِ في طاعتكم.

وقال الإمام الزَّاهد أبو منصور رحمه الله: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ نفسُ هذا الكلام لا يحتمِل أنَّه يُسمَّى سحرًا، لكن معناه: أنَّه إذا أخبرهُم بِه، وأقام الحُججَ والبراهينَ عليه، قالوا للحججِ والبراهينِ عليه: هذا سحرٌ.

ويحتملُ وجهًا آخر: وهو أنَّه بيانُ سَفهِهِم، أنَّهم اعتادوا نسبةَ كلِّ شيءٍ إلى السِّحرِ حتَّى الأشياء الَّتي لا تحتملُ السِّحرَ، وهي الأخبارُ، لأنَّ السِّحرَ إنَّما يكون في تقليب الأشياء، فأمَّا فيما يُخبِرُ عن شيءٍ يكون فلا[٢].

***

(٨) ـ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٠١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾: أي: حينٍ معلوم ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾؛ أي: استعجَلُوه على سبيلِ الاستهزاءِ، يعنونَ أنَّ هذا الوعيدَ بالتَّعذيب على التَّكذيب ليسَ بحقٍّ.

ثمَّ أخبرَ أنَّه لا معنى لاستعجالِهم، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾؛ أي: بكثرةِ أعوانٍ، ولا بحيلةِ محتالٍ، ولا بقوَّةٍ مِن قِبَلِهم، ولا مِن قِبَلِ آلهتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: أي: يحيقُ بهم، يعني: ينزلُ بهم، ماضٍ بمعنى المستقبل؛ لأنَّه كائنٌ لا محالةَ، فألحقَه بالحاصِلِ الموجود.

* * *

(٩) ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾: أي: إذا أعطينا المشرك المكذِّب باللهِ عزَّ وجلَّ منَّا سَعةً في الدُّنيا، وصحَّةً في الجسم، ووفورًا في الولدِ؛ لِيَشْكُرَ بها لنا، ويستعينَ بها على طاعتِنا.

﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾: لكفرانِه، فأذقناه ضِيقًا وسُقْمًا ونَقْصًا في المال والولد.

﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾: لأنه يئس وكفر نعمتنا[1]، وقال: أهانني ربِّي فلا أعبدُ ربًّا يهينُني، كأنَّه يَئِسَ مِن زوالِ ما حلَّ به، فهو لذلكَ معرِضٌ عن ربِّه، لا يتوقَّع خيرًا، ولا يأملُ فَرَجًا.

وجاءَ في التَّفسير: أنَّ ﴿الْإِنْسَانَ﴾ هو عبدُ اللهِ بنُ أبي أميَّة المخزومي، أذقْنَاه رحمةً منَّا: رخاءً ونعمةً، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾؛ أي: سلبْنَاها منه، ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ في الشِّدة، ﴿كَفُورٌ﴾ في النِّعمة[2].

---

(١) في (ر): «بنعمتنا»، وفي (ف): «نعمتنا»، بدل: «لأنه يئس وكفر نعمتنا».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٥٩).

(١٠) ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾: أي: ولَئِنْ أزلنا[1] البأساءَ بالنَّعماء لم يَرَ أنَّ ذلكَ استدعاءٌ للشُّكرِ، ولكنَّه يقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾؛ أي: الأحوال السَّيِّئة الَّتي كانت تَسُوؤني؛ أي: كان ذلك سُوءًا أصابني وذهبَ، كما يكون هذا بأكثر الأحوال، ويصيبُ أكثرَ النَّاس تتلوَّن عليهم الأمورُ، فلا يعتبرُ بما يُمْتَحَنُ به وبما يُنْعَمُ عليه، فلا يقابلُ البأسَ بالصَّبرِ، ولا النِّعمةَ بالشُّكرِ، إعطاءً للعبوديَّةِ حقَّها، ولكنَّه في حال البؤس يحيل ذلك على أنَّ اللهَ تعالى أهانَه، وفي حالة النِّعمة يعدُّها اتِّفاقًا حسنًا، يحمدُ عليه زمانَه.

﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾: أي: مِن عادتِهِ الفرحُ والبَطَرُ بالنِّعمة، والفخرُ بها على الكافَّة، حتَّى يخرجَ بذلك إلى تكذيبِ الأنبياء، وجحودِ البعثِ والجزاءِ.

***

(١١) ـ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: هو استثناءٌ منقطعٌ، معناه: لكن الذين صبروا على المكاره، وصبروا عن المعاصي، وعملوا الطَّاعات.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: أي: مغفرة الذُّنوب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: ثوابٌ عظيمٌ.

ويجوزُ أنْ يكونَ على حقيقةِ الاستثناءِ، ويكونَ الإنسانُ المذكور في الآية الأولى بمعنى: النَّاس؛ لأنَّه اسمُ جنسٍ فيصلح للجَمْعِ، فيكون معناه: أكثرُ النَّاسِ على كذا، وقومٌ مستثنًى منهم.

---

(١) في (أ): «أبدلنا».

وعلى القولَيْنِ جميعًا يخرج قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، إلى قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ الآية [العصر: ٢].

* * *

(١٢) ـ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾: قال مقاتلٌ: إنَّ أهلَ مكَّةَ قالوا: ائتِنا بكتابٍ ليسَ فيه سبُّ آلهتِنا، ولا مخالفةُ آبائِكَ، فهمَّ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يَدعَ سبَّ آلهتِهم، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ[1].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: وهذا على النَّهي؛ أي: لا تتركْ بعضَ ما يُوحَى إليك، وهو كما يقولُ الرَّجل لآخرَ: لعلَّكَ تريدُ أنْ تفعلَ كذا، وهو ينهاه عنه.

ويتضمَّنُ له البشارةَ بالأمن ممَّا يخافُ أنْ يلحقَهُ مِن جهتِهم، ولزومَ التَّبليغ، وذلك أنَّ الأخيار إذا ابتُلوا بالأشرار فقد يؤذَنُ لهم بمفارقتِهم، وتركِ الأمرِ فيهم، فبيَّنَ أنَّه ليس له ذلك، وعليه التَّبليغُ مع ذلك[2].

وقوله تعالى: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ الضَّائقُ يُذْكَرُ للضِّيْقِ العارض، والضِّيْقُ يُذْكَرُ للضِّيْقِ اللازم، وكان ما يلحقُه مِن كلامِهم أمرًا عارضًا، فلذلك قال: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٣).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٠٥).

﴿أَن يَقُولُواْ﴾؛ أي: بأنْ يقولوا.

قال مقاتلٌ: قالَ هذا عبدُ الله بن أبي أميَّة: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾[1]، وكان للمال عندَهم خطرٌ ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]؛ أي: ليصدِّقَه بما يقول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمَّد ﴿نَذِيرٌ﴾: مخوِّف مبلِّغ، ليس بيدك الإتيانُ بالأموالِ وإنزالُ الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ أي: حافظ لكلِّ ما يقولون فيك؛ إذ هو الحفيظ عليهم لا أنت، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٤]، ونظيرُ هذه الآية: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

***

(١٣) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: (أم) كلمةُ عطف على استفهامٍ بألفٍ، وتقديره: أيكذِّبونَكَ أمْ يقولون: افتراه.

وقيل: أيكتَفُون بما أوحينا إليك أم يقولون: افتراه.

والمفسِّرون يقولون: معناه: بل يقولون افتراه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾: أي: مثل القرآن ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾؛ أي: على زعمكم أنَّ القرآن مفترًى.

وهذا أمرُ إعجازٍ كما مرَّ في (سورة البقرة)، وهذه الآية نزلَتْ قبلَ قولِه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، ونزل أوَّلًا قولُه تعالى: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٩) دون نسبة.

[الطور: ٣٤]، وهو كُلُّ القرآن، فلمَّا ظهرَ عجزُهم عنه تحدَّاهم بعشر سورٍ، ثمَّ لَمَّا ظهرَ عجزُهم عنها تحدَّاهم بسورةٍ، فلمَّا ظهرَ عجزُهم لزمَتْهم الحُجَّة بالكليَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: مِنَ الجنِّ والإنسِ ليُعِينوكم على الإتيان بعشر سورٍ مثلِه، في نظمِه ومعانيه، والأخبارِ الصَّادقة عن الأمور الماضية والآتية، والإطْلاع على ما في ضمائركم، فأتوا بما فيه هذه المعاني، والإطْلاع على ما في ضمير محمَّد[1].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أنَّه افتراه مِن عندِه، ولسانُكم مثلُ لسانِه.

* * *

(١٤) ـ ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: له وجهان:

أحدهما: فإنْ لم يستجِبْ لكم أيُّها المشركون أحدٌ مِن العرب ولا مِن غيرهم ممَّنْ استعنْتُم به، عِلْمًا منه بالعجزِ، وأنتم عاجزون أيضًا، فاعلموا حينَئذٍ أنَّ القرآنَ أُنزِلَ مِن عندِ اللهِ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أنزلَه بعلمِه؛ أي: وهو عالمٌ بإنزالِه على ما يكون حجَّة على خلقه.

ويحتمل: أنَّه أنزله بالأنباء[2] الَّتي هو عالمٌ بها، يُعلمُها مَن شاءَ مِنْ خلقِهِ، فاستدِلُّوا بذلك على أنَّه لا إلهَ إلَّا هو.

---

(١) في (أ): «على ما في ضميرهم».

(٢) في (أ): «بالأشياء».

ويحتمل: وإذ عجزتم عن معارضته فاعلموا أنَّ محمَّدًا محقٌّ في دعوى الرِّسالة، فلا يجوز أن يكون كاذبًا فيما يخبرُكُم به: أنَّه لا إلهَ إلَّا هو وحدَه، دونَ أصنامِكم، فهل أنتم مسلمون؟ آنَ لكم أنْ تؤمنوا بالله وتصدِّقوه.

ووجه آخر: فإنْ لم يستجبْ هؤلاء المشركون لكم يا محمَّد ويا أصحاب محمَّد إلى ما دعوتموهم إليه مِن معارضة القرآن على نظمِه، فتيقَّنوا أنتم بلجاجهم وإصرارهم، ودُوموا على علمِكم بأنَّ القرآن مِن عندِ اللهِ، وأنْ لا إلهَ إلَّا هو، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: منقادون لله، مخلصون له، دائمون على الإيمان والإحسان؟

* * *

(١٥) ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: أي: الدَّاعي لهؤلاء المشركين إلى الدَّوام على الشِّركِ الدُّنيا وزينتُها.

وقال الفرَّاء: تقديرُه: مَن يُردِ الحياةَ الدُّنيا، فلذلك قال في جزائه: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ بحذف الياء للجزم[1].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: اختُلف فيها:

فقال بعضُهم: الآيةُ في الكفَّار، يعملون أعمالًا هي في الظَّاهر صالحةٌ؛ مِن التَّصدق على الفقراء، وعمارات الطُّرق، واتِّخاذِ القناطر والرِّباطات، يقول: نوفِّ إليهم جزاءَ أعمالهم في الدُّنيا، وهم فيها لا يُنقَصون، وهو ما وُسِّعَ عليهم في الدُّنيا.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٦).

وجائزٌ أنْ يكون: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: نردُّ عليهم أعمالَهم التي عملوها في الدُّنيا فلا نقبلُها(١).

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾؛ أي: لا يُنقَصون ما قُدِّرَ لهم مِن الرِّزق إلى انقضاء مدَّتهم بشركهم بالله جلَّ جلاله(٢).

* * *

(١٦) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾: خالدين فيها بشركهم.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: ما هو طاعةٌ عندهم.

وقال بعضُهم: هي في المؤمنين الذين عملوا الصَّالحات مراءاةً للخَلْق، نوفِّ إليهم جزاءَ أعمالهم فيها من الذِّكْرِ والشَّرفِ، وما طلبوا بأعمالهم في الدُّنيا من المباهاة وغيرها، وبطلَ ما كانوا يعملون في الآخرة؛ لأنَّهم عملوها لغير الله تعالى، فلا يُجزَوْنَ بأعمالِهم تلك، وإلى هذا ذهبَ ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما(٣).

قال(٤): وروي عن النَّبي ﷺ أنَّه سُئِلَ: ما بالُ العبدِ المعروفِ بالخير يُشدَّد عليه الموت، والرَّجل المعروف بالشَّرِّ يُهَوَّنُ عليه الموت؟ فقال: «المؤمنُ تكون له الذُّنوب فيُجازَى بها عندَ موتِهِ، فيفضي إلى الآخرة ولا ذنبَ عليه، والكافرُ يكون له

---

(١) في (ر): «رياء»، وهي سقط من (ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٠٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٧).

(٤) أي: الماتريدي.

حسناتٌ، فيُجازَى بها عند الموت، يخفَّفُ عنه كَرْبُ الموتِ، ثمَّ يفضي إلى الآخرة، وليسَتْ له حسنةٌ». أو كلام هذا معناه.

وعلى هذا معنى الآية: أنَّهم لا يستوجبون بتلك الأعمال إلَّا النَّار؛ لأنَّه إذا راءى بها لم يخلِصْها لله تعالى، وضيَّع أمرَه، ومَنْ ضيَّعَ فرائضَ اللهِ تعالى استوجبَ التَّعذيب عليه، وله العَفْوُ، وليسَ في الآيةِ أنَّه لا محالةَ يعذِّبهم بعمل المراءاة[1].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمَه الله: يقولُ: مَن قنع هنا بالدُّنيا التي الدَّناءة صفتُها، مننًّا عليه بإمتاعِ أيَّامٍ تقلُّ مدَّتها، لكن يَعقبُ أَرْيَ كمالها شَريُ زوالِها، ويتبعُ طعمَ عسلِها سمُّ حنظَلِها[2].

***

(١٧) ـ ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾: استفهامٌ بمعنى النَّفي، والآيةُ في بيان عدم التَّسوية بينَ المؤمنين وهم المذكورون في هذه الآية، وبينَ المشركين وهم المذكورون في الآية الأولى.

معناه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾؛ أي: حجَّةٍ وبيان، وهم المؤمنون بمحمَّد والقرآن، فهم على حجَّة بمجيء محمَّد عليه السلام ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ أي: ويتبعُ محمَّداً[3]

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٠٧ ـ ١٠٨).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٨). والأري: العسل، والشري: الحنظل.

(٣) في (أ): «ويتلوه محمد»، وفي (ر) و(ف): «ويتبع محمد»، والصواب المثبت.

الذي هو البيِّنة ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[١]؛ أي: مَن يشهدُ بصدقِه، هو جاءَ به[٢]، وهو القرآنُ.

﴿قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾؛ أي: ولهذا المؤمن مع هذا الشَّاهد شاهدٌ قبلَه، وهو كتابُ موسى التَّوراةُ الَّذي أنزلَه الله تعالى إمامًا لبني إسرائيل يقتدون به، ورحمة لهم أنقذَهم اللهُ تعالى به من النَّار في الآخرة، ومِن استعباد فرعون وقومه في الدُّنيا، وفي التَّوراة الشَّهادةُ بمحمَّدٍ، والبشارة به، والإخبار بصفتِه وصفةِ أمَّتِه.

يقولُ: أفمَنْ اجتمَعَتْ له هذه الحجج ـ وهي النَّبيُّ والقرآنُ والتَّوراةُ ـ الشَّاهدةُ المبشرة فآمنَ بها[٣]، كمَنْ أعرضَ عن النَّذير[٤]، ومالَ إلى الحياة الدُّنيا وزينتِها، فهذا هو الجوابُ المحذوفُ، وبه النَّظمُ بينَ الآيتَيْنِ.

وقال الحسنُ بن عليٍّ وعبدُ الرَّحمن بن زيدٍ: الشَّاهد هو النَّبيُّ ﷺ، وقوله: ﴿مِّنْهُ﴾: مِنَ اللهِ تعالى[٥].

وقال ابن عبَّاس ومجاهد وإبراهيم والفرَّاء والزَّجَّاجُ: هو جبريلُ يتلو القرآنَ على محمَّد عليهما السلام[٦].

---

(١) في (أ) و(ف): «شاهد به».

(٢) في (ر): « وهو ما جاء به».

(٣) في (ر) و(ف): «الشاهدة بمحمد والبشارة به والإخبار بصفته وصفة أمته فآمن بذلك».

(٤) في (ف): «التدبر».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٤ ـ ٢٠١٥) عن الحسين بن علي رضي الله عنه، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٩) عن ابن عباس ومجاهد وإبراهيم، وابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٤) عن ابن عباس ومجاهد، وقال عقب خبر ابن عباس: وروي عن أبي العالية وأبي صالح ومجاهد وإبراهيم وعكرمة والضحاك وعطاء الخرساني وخصيف نحو ذلك.
وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٣).

وقال الحسنُ وقتادةُ: شاهدٌ مِن النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، هو لسانُه[١].

وقال مجاهدٌ: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ قال: ملَكٌ يحفظُه ويسدِّدُه[٢].

وقال ابنُ حبيبٍ: ورأيْتُ في بعض التَّفاسير: الشَّاهدُ صورةُ النَّبيِّ ﷺ ووُجُهه ومخايلُهُ؛ لأنَّ مَنْ كانَ له حِسٌّ صحيحٌ ونظرَ إليه علمَ أنَّه ليسَ بوجهِ كذَّابٍ متخرِّصٍ، ولا ساحرٍ، ولا كاهنٍ، ولا مجنونٍ[٣]. ويؤيِّد هذا التَّفسير قولُه: ﴿مِّنۡهُ﴾.

وقال مقاتلٌ: ليس الَّذي هو على بيانٍ مِن ربِّه كالَّذي موعدُه النَّار[٤].

فجعلَ جوابَه فيما بعدَه، والأوَّلُ جوابُه فيما قبله، وهو كقوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ [الزمر: ٩]، قيل: جوابُه فيما قبله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقيل: فيما بعده: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾: قيل: هم أصحابُ محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقيل: هم أصحاب موسى أهلُ الكتاب الَّذين آمنوا بمحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وقوله: ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن، وقيل: أي: بمحمَّد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾: ففي الهاء قولان أيضًا كالأوَّل.

---

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٤).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٦٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٨٦)، والرازي في «تفسيره» (١٧/ ١٦١) دون نسبة.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٦).

﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: أي: الفرق والأصناف، وهم اليهود والنَّصارى والمجوس والمشركون.

﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾: أي: إن لم يُسلمْ.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: أي: شكٍّ ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: لا يقصدون التماسَ الحقِّ، فيكونَ همُّهُم التَّصديقَ بما قامَتْ به دلائلُه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ البيِّنةُ لأقوامٍ برهانُ العلمِ، ولأقوامٍ بيانُ الحقيقة على القطع والجزم، يُشهدهم الحقُّ ما لم يُطْلِع عليه غيرَهم، فهو كما قيل:

ليلِي مِنْ وجهِكَ شمسُ الضَّحى ... وإنَّما السُّدْفَة في الجوِّ
والنَّاس في الظُّلمة مِن ليلِهم ... ونحنُ مِن وجهِكَ في الضَّوِّ[1]

* * *

(١٨) - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: أي: لا أظلمُ على نفسِه وعقلِه ممَّنْ كَذَبَ على اللهِ، فنفَوا عنه كلامَه، وأضافوه إلى غيرِه.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٢٩)، والبيتان ورد نحوهما في «لطائف الإشارات» (١/ ٥٦) برواية:

ليلي من وجهك شمس الضحى ... وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلا ... م ونحن في ضوء النهار

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: في موقف القيامة ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾؛ أي: الملائكة الَّذين كتبوا أعمالهم، وقيل: الأنبياء، وقيل: أهل الجمع:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: قالوا: إن له أضدادًا وأندادًا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: هذا إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى، وتعليمٌ للخَلْقِ أنْ يلعنوهم، وهم المشركون الواضعون العبادةَ في غير موضعِها، والضَّارُّون أنفسَهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: تُعرَضُ أعمالُهم على أنفسِهم عندَ ربِّهم، كقوله تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]؛ أي: عندَ ربِّهم؛ إذِ الأمرُ والنَّهيُ كان لأنفسِهم، فكانَ عرضُهم لهم(١).

* * *

(١٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: يمنعون النَّاس عن دينِ اللهِ وطريقِ طاعتِه بالتَّحريف وإدخال الشُّبَهِ.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أي: يطلبونها(٢) ـ أي: للسَّبيل، وهي مؤنَّثة سماعًا ـ تعويجًا؛ أي: يطلبونَ أنْ يَعْدلوا بالنَّاس عنها.

﴿وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾: أي: جاحدون.

* * *

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١١١ ـ ١١٢).

(٢) في (ر) و(ف): «يطلبون بها».

(٢٠) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: هو جواب قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: فائتين هربًا؛ أي: لا يتخلَّصون من عذابِه ولو ساروا حيث ساروا في الأرض.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: يتولَّون نصرَهُم، وردَّ العذابِ عنهم في الدُّنيا والآخرة، بل ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: يواصَلُ ولا يقطع[1]، ويزادون عذابًا على عذابٍ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال الكلبيُّ: يضاعف على الرُّؤساء ضعفَ ما على غيرِهم مِنَ الأتباع[2].

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾: أي: كانوا يستثقلون أنْ يسمعوا القرآنَ، وأنْ ينظروا إلى عجائب خلقِ اللهِ تعالى بالاعتبار.

وفي متعارَف الكلام: ما أستطيعُ أنْ أسمعَ كلامَ فلانٍ، أو أنظرَ إلى فلانٍ، إذا كان مستثقَلًا.

ودلَّتِ الآيةُ أنَّ الاستطاعةَ الَّتي هي علَّة الفعلِ ـ وهي قدرةُ الفعل حقيقةً ـ تكون مع الفعل؛ فإنَّ الله تعالى نفى ذلك عنهم حيث انتفى عنهم الفعل، فأمَّا الاستطاعة الَّتي هي سلامةُ الأسباب والآلات فقد كانت ثابتةً لهم، فإنَّهم كانوا ذوي أذانٍ وعيونٍ.

* * *

---

(١) في (ر): «مواصلا لا ينقطع».

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٤٤) بلا نسبة.

(٢١) ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾: أي: أوردوا أنفسَهم الهلاكَ والعذابَ، حذرًا مِن غير أن اعتاضوا مِن أنفسِهم مِن أعراض الدُّنيا بدلًا، بل تعبوا في الدُّنيا بعبادة الأصنام، ووردوا الآخرة وقد فقدوها[١] ولم يحصلوا منها ومن عبادتها على نفعٍ، وكانوا مفترين في أنَّها آلهةٌ وشفعاءُ وشهداء.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: أي: بطلَ افتراؤُهم فلم يجلبْ ثوابًا[٢].

* * *

(٢٢) ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾: (لا جرم) كلمةٌ تقولُها العرب بمعنى: لا بُدَّ، ولا محالةَ، وكثرَتْ في الكلام حتَّى صارَتْ بمعنى: حقًّا.

وقيل: (لا) نفيٌ، و(جرم)؛ أي: كَسَبَ، يعني: كَسَبَ كفرُهم خسرانَهم[٣].

وقيل: (جرم) ؛ أي: قطع؛ أي: لا قطعَ لهم عن الخسران.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿لَا جَرَمَ﴾ نعم[٤].

---

(١) في (أ): «فقدروها» بدل من «وقد فقدوها».

(٢) لم أجده عن ابن عباس، وقاله الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٨٤) ولفظه: (بطل افتراؤهم في الدنيا فلم ينفعهم في الآخرة شيئًا).

(٣) هذا قول الزجاج، لكنه يحتاج لتفصيل أكثر، فالمعنى عليه: أن ﴿لَا﴾ ردٌّ لقولهم؛ أي: ليس ذلك كما وصفوا ﴿جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: جَرَمَ فعلُهم هذا أن لَهُم النارَ؛ أي: كسب فعلهم أن لهم النارَ. فتكون ﴿أَنَّ﴾ في موضع نَصْبٍ، و﴿جَرَمَ﴾ بمعنى كَسَب. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٠٧ و٢٢٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٩).

وقال الضَّحَّاكُ: لا شكَّ[١].

وقال النَّضر بن شميل: ذلك[٢].

وقال مجاهد: حقًّا؛ أي: إنَّهم في الآخرة هم الأعظمون خسرانًا، والأشدُّون عذابًا وهوانًا.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: أولئك الَّذين خسرَتْ صفقتُهم، وبارَتْ بضاعتُهم، لَقُوا الهوانَ، وذاقوا البأسَ والحرمان[٣].

***

(٢٣) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾: ذكرَ الأولياءَ بعدَ ذِكْرِ الأعداءِ. ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟﴾ اختلفَتْ ألفاظُ المفسِّرينَ فيه:

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: أي: أنابوا إلى ربهم[٤].

وقال مجاهدٌ: أي: اطمأنُّوا إلى ذِكْرِ ربِّهم[٥].

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٤٥) بلا نسبة. وذكر ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٠) عن الضحاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال: لا كذب.

(٢) في (أ): «لكن»، وفي (ر): «لك».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٣٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٤).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٩).

وقال قتادة: أي: خضعوا وخشعوا[(١)].

وقال الحسنُ: الإخباتُ: الخشوعُ للمخافةِ الثَّابتة في القلب[(٢)].

وقيل: الإخباتُ: سكونُ الجوارحِ خضوعًا للهِ تعالى، والخَبْتُ: الأرضُ المستويةُ الواسعةُ[(٣)].

* * *

(٢٤) ـ ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾: والفريقان هما المذكوران في هذه الآية، وهما المشركون والمؤمنون، فالأعمى والأصم هو المشرك، عَمِيَ بعين قلبه فلم ينظر نظر اعتبار، وصُمَّ بسمع قلبه فلم يسمع إلى الوعظ للادِّكار، والبصيرُ والسَّميع هو المؤمن، أبصَروا الحقَّ بعيون قلوبِهم، وسمعوا بآذان القلوب مواعظ ربِّهم.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾: استفهامٌ بمعنى النَّفي.

وإنَّما ثنَّى ـ وإنْ ذكرَ أربعةَ أسماءٍ وهي جمعٌ ـ لأنَّ الأعمى والأصم من صفة إنسانٍ واحدٍ، وكذا السَّميع والبصير لواحدٍ، فكانا اثنين.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٠).

(٢) في (أ): «الإخباتُ والخشوعُ المخافةُ»، وفي (ر): «الإخباتُ والخشوعُ للمخالفة»، وفي (ف): «الإخباتُ والخشوعُ للمخافة»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١١/ ٩٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٢٧)، وفيه: واشتقاقه من الخَبْتِ مِن الأرْضِ، وهي المكان المنخْفِض منها، فكل مُخْبِت متواضع.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي: تتَّعظون، استفهام بمعنى الأمر؛ أي: اتَّعِظوا.

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾: وذكرَ قصصَ الأنبياءِ تنبيهًا على ما يلزم[١] رسول الله ﷺ من الصَّبر على أذى قومِه المشركين، وتحذيرًا للمشركين أنْ ينزلَ بهم في تكذيب رسول الله ﷺ ما نزل بالأوَّلين في تكذيب المرسلين، وتبشيرًا للمؤمنين بالنَّصر والنَّجاة والتَّمكين.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: سُمِّيَ نوحًا لكثرة نياحه على نفسِه[٢].

وذُكر[٣] أنَّه مرَّ بكلبٍ فقال: ما أقبحَهُ! فأوحى الله تعالى إليه: أنِ اخلقْ أنتَ أحسنَ منه، فأخذَ يبكي وينوحُ على نفسِه حتَّى أوحى اللهُ إليه: يا نوحُ، كم تنوحُ[٤]؟

فإذا كان في طول عمرِه فعلَ فعلةً واحدةً أو قالَ كلمةً واحدةً لم يؤذَنْ له فيها، فناحَ على نفسِه إلى أنْ سُمِّيَ بالنَّيَّاحِة، فكيفَ حالُ مَن لا يذكرُ يومًا مضى مِن عمرِهِ في مدَّةِ تكليفِه إلَّا على ذنوبٍ كثيرةٍ؟

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: قرأ ابنُ كثير وأبو عَمرو والكسائيُّ:

---

(١) في (أ): «تنبيها في تكذيب رسول» بدل: «تنبيها على ما يلزم».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٤٤).

(٣) في (ر) و(ف): «وذلك».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٤٤)، والقشيري في «لطائف الإشارات» (٢/ ١٣١)، دون نسبة، والظاهر أنه من أباطيل أهل الكتاب.

﴿أنِّي لكم﴾ بالفتح؛ لوقوع فعلِ الإرسال عليه، وقرأ الباقون بالكسر على الابتداء[1]، وتقديرُه: فقلنا له: قل لهم: إنِّي لكم ﴿نَذِيرٌ﴾؛ أي: مخوِّف لكم، ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: مظهِرٌ ذلك.

* * *

(٢٦) - ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ قيل: لئلَّا تعبدوا، وقيل: بأن لا تعبدوا، ثمَّ هو يحتمِلُ النهيَ، ويحتمِل النَّصب؛ لوقوع فعل الإرسال أو الإنذار على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ الأليمُ في الظَّاهرِ صفةُ العذاب، وإنَّما خُفِضَ ولم يُنصبْ للمجاورة.

وقيل: هو صفةُ اليومِ، وتقديرُه: عذاب يومٍ أليمٍ عذابُه، كما يُقال: أخشى عذابَ يومٍ شديدٍ عذابُه، وهو كقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]؛ أي: عاصف الرِّيح.

وهذا اليوم يجوز أن يكون في الدُّنيا، ويجوز أن يكون في الآخرة.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هو الغرق والطُّوفان[2].

* * *

(٢٧) - ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٤).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٤٦) دون عزو.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾؛ أي: قال أشرافُ قومِه الَّذين يتكلَّمون عمَّن دونهم: ما نراك إلَّا إنسانًا مثلنا، والَّذي[1] تدَّعيه مِن النُّبوَّة يوجبُ فضلًا لكَ علينا يُلْزِمُنا أنْ نكون أتباعًا لك، وإنَّما أنت آدميٌّ مثلنا، ولم يتَّبعْكَ مِن قومِكَ خيارُ قومنا وعقلاؤنا فيلزمَنا اتِّباعهم، بل سَفِلتُنا وسُقَّاطنا.

والرَّذْلُ: الحقيرُ، وجمعُه: الأرذال، وجمعُ الجمعِ: الأراذل.

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾: قرأ أبو عَمرو: ﴿بادئ﴾ مهموزًا، ومعناه: أوَّلَ الرَّأي؛ أي: اتَّبعوك بأوَّل رأيهم مِن غير أن يستشيروا أو يتأمَّلوا[2].

وقرأ غيرُه: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ بغير همزة[3]؛ أي: ظاهر الرَّأي؛ أي: بما بدا لهم مِن غير تأمُّل.

وقيل: ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾؛ أي: بأوَّل الرُّؤية وبظاهر الرَّأي يعرفهم أنَّهم أراذل، وما نرى لك يا نوحُ ولا لمنْ اتَّبعَك علينا فضلًا نِلْتموه لمخالفتنا في دينِنا فنتبعَكم طلبًا لذلك الفضل، بل نظنُّكم كاذبين في دعوى الرِّسالة.

والأظهرُ أنَّ الأراذل جمع الأرذل[4]، فقد قال تعالى في سورة الشعراء خبرًا عنهم: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

---

(١) قوله «الذي» معطوف على الكاف في «نراك»؛ أي: (وما نرى الذي...).

(٢) في (ف): «يعتبروا».

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٤).

(٤) في (ف): «الأرذال جمع الأراذل» بدل من «الأراذل جمع الأرذل».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وهكذا كان الكفَّار يردُّون على الرُّسل بهذا: أنتم بشرٌ مثلُنا، وجوابُ ذلك ما قال خبرًا عنهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، وجواب قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾: أنَّ هؤلاء لَمَّا لم يتَّبعوا الرُّؤساء الذين هم أرباب الأموال والنِّعم، واتَّبعوا الرُّسل الَّذين لم يرَوا في أيديهم ذلك، دلَّ أنَّهم إنَّما اتَّبعوهم بالحُجَج والبراهين(١).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ دلَّ أنَّهم كانوا يردُّون الدَّلالات الباهرة بالظُّنون الكاذبة.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: أنكروا نبوَّته لمشاكلتِه إيَّاهم في الصُّورة، ولم يعلموا أنَّ المباينةَ بالسَّريرة والسِّيرة لا بالصُّورة.

ونظروا إلى مَنْ آمنَ به بعين الاستحقار، وشاهَدوهم بالاستصغار، وما استصْغَرَ أحدٌ أحدًا برؤية الفضل عليه إلَّا سلَّطَه اللهُ عليه، والمرءُ بأصغَرَيْه، وبالمعاني الامتيازُ لا بالمباني، قال الشَّاعرُ:

تـرى الرَّجـلَ النَّحيـف فتزدَرِيْـهِ ... وفي أثوابِـهِ رجـل يزيـرُ(٢)

فـإنْ أكُ في شراركـمُ قليـلًا ... فـإنِّي في خياركـمُ كثيـرُ(٣)

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٢١).

(٢) في (ف): «مزير».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٣٢)، ونسب البيت الأول للعباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه. انظر: «الحماسة ـ شرح المرزوقي» (٣/ ١١٥٣)، ونسب لكثير عزة، انظر: «أمالي القالي» (١/ ٤٧)، و«زهر الآداب» للقيرواني (٢/ ٤١٠)، ونقل التبريزي في «شرح الحماسة» =

(٢٨) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾: أي: قال نوحٌ: يا قومِ أخبروني إنْ كنْتُ على بيانٍ وحجَّةٍ ووضوحٍ مِن ديني، وكان اللهُ آتاني رحمةً مِن عندِه، بأنْ جعلَني رسولاً إليكم، ووعدني النَّصر عليكم، واشتبهَتْ عليكم تلك الرَّحمة، وخفيَتْ حتَّى صرْتُم كالعُمْي عنها، أيتهيَّأ لي أنْ أُلزِمَكُمْ إيَّاها؛ أي: أَقهَرَكم وأُكرهَكم على فهمِها ورؤيتِها بأبصارِ قلوبِكم، وأنتم لها كارهون؟!

ويحتمِل أنْ يكونَ المراد مِن الرَّحمة: ما أنعمَ الله عليه مِن الهدى، يقول: إنْ كانَ اللهُ تعالى هداني فأردْتُ أنْ أُشركَكُم فيها، وخفيَ عليكم هذا فظننْتُم بي غير الحقِّ، أيتهيَّأ لي أنْ ألزمَكُم هذه النِّعمة، فأوصلَها إليكم على كرهٍ منكم؟!

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: على دِينٍ.

وقال الضَّحَّاك: أي: على بصيرةٍ.

وقال عطاء: على أمرٍ ظاهرٍ مكشوفٍ[1].

= (٣/ ٨٩) عن أبي رياش عزوه لمعاوية بن مالك الكلابي معود الحكماء.

وفي «سمط اللآلي» لأبي عبيدة البكري (١/ ١٩٠) ذكر الخلاف في نسبة البيت إلى من ذكرنا، وزاد نسبته إلى ربيعة الرقي، وصحح أنه لمعاوية بن مالك.

والبيت الثاني ذكرته بعض المصادر السابقة، وأهملته أخرى.

(١) لم أقف على هذه الأخبار، والأول ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٩٧)، والسمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٤٦) بلا نسبة.

وقال مقاتلٌ: على معرفة(١).

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾: قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: يعني: الرِّسالة والعاقبة(٢).

وقال مقاتل: هدًى(٣).

وقوله تعالى ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ عن عاصمٍ بضمِّ العين وتشديد الميم؛ أي: عمَّاها اللهُ تعالى عليكم؛ أي: أخفاها، والباقون بتخفيف الميم وفتح العين(٤)؛ أي: خَفِيَتْ، يُقال: عَمِيَ عليَّ خبرُ فلان؛ أي: التبس.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ الصُّبحُ لا خللَ في ضيائِهِ لكون الحاضرين عُميانًا، فالسَّيفُ لا خللَ في إمضائه لكونِ ضاربِيْه صبيانًا(٥).

* * *

(٢٩) - ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾: أي: لا أطلبُ منكم على

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٩)، وفيه: «﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ يعني: بيان».

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٢/ ٤٦٦)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٩٨)، بلفظ: (النبوة).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٩).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٤).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٣٢).

تبليغِ الرِّسالة مالًا، فلا تهمةَ عليَّ فيما أدعوكم إليه، ولا صورتي صورةُ مَن يطمعُ في أموالكم، والرِّياسةِ في أمور الدُّنيا عليكم، فتظنُّوا بي الكذبَ، وما أَجري إلَّا مِن اللهِ بوعد الله، فللَّه أعملُ، ومنه أرجو، وما أنا بطارد الَّذين آمنوا بي واتَّبعوني ـ والطَّردُ: الإبعادُ على وجهِ الهوان ـ إنِّي إذا كنْتُ لا أسألُكم شيئًا مِن أموالكم، فأراذلكم وأفاضلُكم عندي سواء؛ لأنِّي داعٍ للجميع، فمَنْ أجابني قبلْتُه.

وقولُهم: اتَّبعوك باديَ الرَّأي، فعليَّ العمل بظاهر ما أرى، فأكتفي بظاهر إيمانهم، وأَكِلُ باطنهم إلى الله، فإنَّهم ملاقوه، وصائرون إليه، فيسألهم عن أعمالهم، ويجزيهم على وفق صنيعهم، ويطردهم عن رحمتِه إنِ استحقوه بمخالفةِ باطنهم ظاهرَهم.

وقيل: سألوه طردَهم ليؤمنوا به؛ أَنَفةً مِن أن يكونوا معهم. وهذا عن ابن جريج(١).

ثمَّ قال: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾: فتظنُّون أنَّ النَّاس يتفاضلون بالأحساب والأنساب، لا بالأعمال والأحوال.

وقيل: تجهلون أنَّهم خير منكم.

***

(٣٠) ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٨٥)، وذكره الواحدي في «تفسيره» (١١/ ٤٠٣).

وقولـه تعالـى : ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: مَـن يمنعُنـي مِن عـذابِ اللهِ ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: فتُخْطِـرون[1] ببالكم فتعلموا أنَّـه لا يجـوزُ لـي طردُهـم والحـال هذا.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: طردُ مَن قرَّبه اللهُ وأدناه يوجِبُ لصاحبه الخِزْيَ في الدُّنيا، والصَّغارَ في عُقباه[2].

***

(٣١) ـ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى : ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: ولا ادَّعي أنَّ عندي خزائنَ الأموالِ فأبذلَها لكم لتتَّبعوني، وأستميلَكم بها لتُطيعوني.

وقيل: ما عندي خزانةُ الهداية لأهديَكم أنا إلى الحقِّ دون الأراذل، ولا أعلم الغيب فأخبرَكم بما تسألونني عن الأمور الكائنة من بعدُ مِن النِّعم والمحن لتطلبوها وتتحرَّزوا عن المخاوف، ولا أقول: إنِّي ملَك من السَّماء أخبركم بأخبار السَّماء، ولا أقول لهؤلاء الَّذين تحتقرهُم أعينكم ـ وقد زَرَيْتُ عليه زِرايةً؛ أي: عِبْتُهُ، وأزرَيْتُ عليه؛ أي: قصَّرْتُ به، وازدريْتُهُ؛ أي: احتقرْتُهُ ـ ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾؛ أي: إيمانًا ﴿ٱللَّهُ

---

(١) في (أ): «فتخطروني».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٣٣).

﴿أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ﴾ قلوبِهم مِن الصِّدق وغيره، وعليه أحدُ تأويلات قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾؛ أي: ما في قلوبهم، ولو طردتهم فأنا إذًا مِن الظَّالمين أنفسَهم بطردِ مَن أُمِرْتُ بقَبولِه.

* * *

(٣٢) ـ ﴿قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾؛ أي: خاصمْتَنا فبالَغْتَ فيها ـ وقد جادَلَه يجادِلُه؛ أي: خاصمَه ليُرجِعَهُ عمَّا هو عليه، وأصلُهُ الجَدْلُ، وهو الفَتْلُ(١) ـ وليس ذلك ممَّا يُثْبِتُ عندَنا صدقَكَ في دعوى رسالتِكَ فيُخافَ إنذارُك.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾: مِن العذابِ على مخالفتِنا إيَّاك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾؛ أي: صادقًا في ذلك.

* * *

(٣٣) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: (إنَّما) كلمةُ تحقيقٍ، ومِن تحقيقِه أنْ يكونَ له دونَ غيره؛ أي: ليسَ الإتيانُ بالعذابِ إليَّ، وإنَّما يأتي اللهُ به إنْ شاءَ، وإنْ شاءَ صرفَه عنكم، وما أنتم بفائتين(٢) عنه إن تأخَّر عنكم حتَّى يلحقَكُم، بل يلحقُكُم متى شاءَ.

* * *

---

(١) تحرفت في النسخ إلى: «القتل»، والصواب المثبت. انظر: «القاموس» (مادة: جدل).

(٢) في (أ): «بغائبين».

(٣٤) ـ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: النُّصح نقيضُ الغش، وهو إمحاضُ إرادةِ الخيرِ في الدلالة.

وقيل: هو إعلامُ موضعِ الغيِّ ليُتَّقى، والرُّشدِ ليُقْتَفى[1].

يقول: نصحْتُكُم، ولكن لا ينفعُكُم نصحي إذا لم تقبلوه وأراد الله إغواءَكم، هو اللهُ ربُّكم؛ أي: مدبِّركم ومُقِيمكم في الدُّنيا إلى وقت إهلاكِكم، ثمَّ إليه تُرجَعون فيحاسبُكم ويجازيكم.

* * *

(٣٥) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾: قال مقاتلٌ: هذا كلامٌ اعترضَ في قصَّة نوح سلام الله عليه، والمعنى: أم يقول أهلُ مكَّة: افترى محمَّدٌ القرآنَ؛ أي: اختلقَه مِن تلقاء نفسِه، قل يا محمَّد: إنْ اختلقْتُه فعليَّ جزاءُ جرمي، وأنا بريء ممَّا تجرمون أنتم. ثم رجعَ إلى قصَّة نوحٍ عليه السَّلام[2].

وقيل: تقديرُه وتلفيقُه: أفيؤمِنُ أهلُ مكَّة بما أخبرْتَهم يا محمَّدُ مِن قصَّة

---

(١) في (ر): «ليتبع»، وسقطت من (ف).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨١).

نـوحٍ تقريـرًا لحالـك، أم يقولـون: اختَلَقـه؟ فإنْ قالـوا ذلك فقـلْ: إنِ افتريتُـهُ فعليَّ عقـابُ ذنبـي، وأنتـم بريئـون مـن جُرمـي لا تُؤاخـذون بـه، وأنـا أيضًـا بـريءٌ مِـن جُرمكـم لا أؤاخَـذ به.

وقال الإمام أبو منصور رحمة الله عليه: قال بعضهم: هو قولُ قومِ نوحٍ: إنَّ نوحًا افترى على الله أنَّه أرسلَه إليهم، فأجابَهم بما أجابَ[1]. فعلى هذا القصَّة منتظِمة.

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.

وقـولـه تـعـالـى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾؛ أي: أوحينا إليه فقلْنا له: لن يصدِّقَكَ بعدَ هذا منهم إلَّا مَن قد آمن[2]، فلا تحزن ولا تبأس، هو حزنٌ في استكانةٍ، وهو افتعال مِن البؤس؛ أي: فلا تتصوَّر بصورةِ مَن أصابه البؤس بما فعلوا، ولَمَّا أُخْبِر بذلك وأيسَ مِن إيمانهم دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: دلَّتِ الآيةُ أنَّ للإيمانِ حكمَ التَّجدُّد؛ فإنَّ قولَه: ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ استثناءٌ ممَّن لا يؤمِن في المستقبل، فكان إثباتًا لإيمانهم في حادث الوقت.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ يحتمِل الكفر؛ لأنَّ الأنبياء كانوا يحزنون

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٢٧).

(٢) في (أ): «أسلم».

بكفر المشركين؛ قال الله تعالى لنبيِّنا عليه السلام: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣].

ويحتمِل أنَّهم كانوا همُّوا بقتله والمكرِ به، فقال: لا تحزن بما كانوا يسعَون في هلاكك؛ فإنِّي أكافيهم(١).

***

(٣٧) ـ ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾: أي: بحِفْظنا إيَّاك حفظَ مَن يراك ويملكُ دفعَ السُّوء عنك.

وقيل: بأعين أوليائنا مِن الملائكة الموكَّلين بك.

﴿وَوَحۡيِنَا﴾؛ أي: أَمْرِنا وتعرِيْفنا صفتَها وقدرَها وهيئاتِها.

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: في الكافرين بسؤال النَّجاة، وقيل: بسؤال الإيمان، وقيل: في سؤال بعض أهلِك مِن جملتهم.

﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾: أي: كلُّهم حقَّ القولُ عليهم بأنَّهم لا يؤمنون، وبإغراقنا يُغرقون، وهو تعريفٌ للمشركين في عهد النَّبيِّ ﷺ المستعجِلين العذابَ أنَّ اللهَ تعالى لا يعذِّبُهم عذابَ الاستئصال إلَّا إذا كان في معلومِ الله أنَّهم لا يؤمنون، ولا يخرجُ مِن أصلابهم مَن يؤمن.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أي: قمْ بشرطِ العبوديَّة في صنع السَّفينة بأمرنا

---

(١) في (ر): «مكافئكم»، وفي (ف): «كافيهم».

وتحقُّق شهودِنا، وأنَّك بمرأى منَّا، ومَن علِم اطِّلاع الحقِّ عليه لم يلاحِظ نفسَه ولا غيرَه، ولا سيَّما وقد تحقَّق بأن المجريَ هو الله سبحانَه وتعالى.

ثمَّ قال له: راعِ حقَّ الأدب فيما لم يكن لكَ إذنٌ منَّا في الشَّفاعة لأحد، فلا تخاطبْنا فيه(١).

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾: أي: وكان يصنعُ السَّفينة؛ أي: يعملُها، وكلَّما مرَّ عليه أشرافُ قومِه ﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾؛ أي: مِن نوح.

وقيل: مِن صنعِه(٢).

وقيل: كانوا يقولون: صرْتَ نجَّارًا بعدَ النُّبوَّة، على طريق الاستهزاء.

وقيل: السُّخريةُ: إظهارُ خلافِ الإبطان على جهةٍ يُفهَم منها استضعاف(٣) عقلِ مَن يُسْخَر منه(٤)، ومنه(٥) التَّسخيرُ، وهو التَّذليل والاستضعاف.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٣٥).

(٢) في (ر): «صنعته».

(٣) في (ر): «استصغار».

(٤) في (أ): «به».

(٥) في (ف): «وهو من».

وقيل: لَمَّا كانت هائلةً طويلةً عريضةً واسعةً، ولا ماء هناك يحمِل مثلَها، كانوا يتضاحكون ويتعجَّبون من عملِها، فقال نوحُ: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾.

قال الزَّجَّاج: أي: إنْ تستجهلونا فإنَّا نستجهِلُكم[1].

وقيل: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ في الدُّنيا ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب.

وقيل: فإنَّا نُظهرُ[2] عاقبة هذا العمل بما تعملون إذا نزلَ بكم العذاب.

وقيل: إنَّا كنَّا نسخرُ منكم إذْ نكتُمُكم حقيقةَ عملِنا، ولا نكشِفُ لكم عمَّا يُراد بكم منه.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أعدَّ[3] نوحُ عليه السَّلام السَّفينة في سنتَين، وكانت مِن السَّاج، فجعل لها ثلاثةَ أبواب، بعضها أسفلَ من بعض، وجعل لها ثلاثة بطون، فجعل في البطن الأسفل الوحوش والسِّباع، وجعل في البطن الأوسط الأنعام والدَّواب، وركب هو ومَن معه البطن الأعلى مع ما يحتاجُ إليه مِن الزَّاد[4].

وقال مقاتلٌ: وحمل معه جسدَ آدمَ، وجعلَه معترضًا بينَ الرِّجال والنِّساء[5].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥٠).

(٢) في (أ): «نظهر منكم».

(٣) في (ر) و(ف): «اتخذ».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٦٦)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٧٤).

(٥) قطعة من خبر رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٢)، ومن طريقه الطبري في «تاريخه» (١/ ١١٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٦)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

وفي تفسير مالك بن سليمان الهروي: أنَّ الحيَّة والعقرب أَتَيا نوحًا عليه السلام، فقالَتا: احملْنا، فقال نوحٌ صلوات الله عليه: إنَّكما سببُ الضُّرِّ والبلاءِ[1]، فأنا لا أحملكما، قالَتا: احملْنا فإنَّا نضمنُ لَكَ أنَّا لا نضرُّ أحدًا ذكرَكَ، فمَنْ قرأَ حين خاف مضرَّتهما: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] ما ضرَّتاه[2].

***

(٣٩) ـ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: يتَّصل هذا بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾، ولقوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ وجهان:

الرَّفع إذا جعل معناه: فسوف تعلمون أيُّنا يأتيه عذابٌ يخزيه.

والنَّصب إذا جعل تقديرُه: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يخزيه؛ أي: يفضحه، وهو الغرقُ، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: يجب عليه عذابٌ دائم؛ أي: عذاب الآخرة، وهو قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

***

(٤٠) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

---

(١) في (ر): «الضر في البلاد».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٠).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾: أي: فعمل السَّفينة وفرغ ومضى زمانٌ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾؛ أي: حضر وقتُ مجيء أمرِنا بإهلاكِهم ﴿وَفَارَ﴾؛ أي: ارتفع الماء من الأرض لشدَّةِ الاندفاعِ[1] ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾.

قال الحسن: كان تنورًا لحوَّاء، حتَّى صار إلى نوحٍ، فقيل له: إذا رأيْتَ الماءَ يفورُ مِن التَّنُّور فاركبْ أنت وأصحابُك السَّفينة[2].

وقال مقاتلٌ ومجاهدٌ: تنور الخابزة في منزل نوحٍ[3].

وقال الشَّعبيُّ: اتَّخذَ نوحٌ السَّفينة في جوف مسجدٍ بالكوفة، وكان التَّنُّور على يمين الدَّاخل فيه، ممَّا يلي بابَ كندة[4].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: التَّنُّورُ وجهُ الأرض[5].

وبه قال الزُّهريُّ وسفيان بن عيينة[6].

---

(١) في (ر): «شدة ارتفاع»، وفي (ف): «شدة اندفاع»، وفي (أ): «بشدة اندفاع»، والمثبت من «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٤).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨٢)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٨) عن مجاهد.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٦٨)، وروى بعضه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٥)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٨) عن محمد بن علي، وقال: وروي عن حذيفة والشعبي ومجاهد نحو ذلك.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩).

(٦) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٦٨)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٤١٤).

وقال قتادة: التَّنُّورُ أشرفُ موضعٍ في الأرض(١).

وقال الضَّحَّاك: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾؛ أي: انبجسَ من وجه الأرض(٢).

وقال عليٌّ رضي الله عنه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾؛ أي: طلع الفجر(٣).

وقال عطاء: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾؛ أي: طلعت الشَّمس(٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: في رواية حفصٍ عن عاصم: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين؛ أي: من كلِّ صنفٍ من البهائم والسباع ودوابِّ البر والبحر والهوامِّ والطُّيور ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وهو مفعولٌ ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ وهو توكيد له.

وقرأ الباقون: ﴿مِنْ كلِّ زوجَيْن﴾ على الإضافة(٥)؛ أي: مِن كلِّ صنفٍ له ذكر وأنثى، والزَّوج واحدٌ له شكلٌ، والزَّوجان ذكر وأنثى.

وقال الحسن في قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]: السَّماء زوجٌ والأرضُ زوجٌ، والشِّتاءُ زوجٌ والصَّيف زوجٌ، واللَّيل زوجٌ والنَّهار زوجٌ، حتَّى يصير الأمرُ إلى اللهِ الفَرْدِ الَّذي لا يشبهُهُ شيءٌ(٦).

وكان اللهُ أرادَ أنْ يكون عندَه في السَّفينةِ أصلٌ لكلِّ حيوانٍ لتتناسلَ إذا زال الطُّوفان، لأنَّ الباقي كان يهلك بالغرق.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٨).

(٤) رواه سعيد بن منصور في «تفسيره» (١٠٨٨) عن علي رضي الله عنه.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٣)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٤).

(٦) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٩)، وروى عنه (٢١/ ٥٤٧) قال: الشمس والقمر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطفٌ على الأوَّل، يعني: واحملْ أهلَكَ، وهم أولادُه ونساؤُه.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ﴾؛ أي: الوعيد.

وقيل: أي: الحكمُ بالهلاك، وهذا المستَثنى ابنُه كنعان وامرأتُه.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾؛ أي: واحملْ مَن آمنَ، عطف على الأوَّل، وهو للجمع؛ أي: والَّذين آمنوا.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: قال الأعمش: هم سبعة[١]. وقال ابن جريح: ثمانية[٢].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ثمانون نفسًا[٣].

ولما خرجوا من السفينة بالجودي سكنوا قرية وهناك موضعٌ يُقال له: سوق الثَّمانين[٤].

وقيل: كانوا عشرة، وهم نوحٌ وبنوه الثَّلاثة ونساؤهم ونفرٌ آمنوا به.

وقال الكلبيُّ: كان في السَّفينة ثمانون نفسًا[٥]؛ نوحٌ وامرأتُه سوى الَّتي غرقَتْ، وثلاثة بنين له: سام وحام ويافث، وثلاث نسوة لهم، واثنان وسبعون إنسانًا سواهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٦٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٢).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق الكلبي.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٤٥).

وروى أبو أمامةَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لم يكن في السَّفينة مع نوح غير ثمانية؛ نوح وامرأته وبنوه وكنائنهم»[١].

وقال سعيد بن المسيِّب: ولدُ نوحٍ ثلاثةٌ؛ سام وحام ويافث، ووُلِدَ لكلِّ واحدٍ منهم ثلاثةٌ، فولد سام العرب وفارس والرُّوم، وولد يافث يأجوج ومأجوج والتُّرك والصَّقالب، وولد حام السُّودان والقبط[٢] والبربر[٣].

* * *

(٤١) ـ ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾؛ أي: وقال نوحٌ: اركبوا في السَّفينة، وهو الأظهر.

ويحتمل: وقال الله تعالى: اركبوا فيها وقولوا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾.

ويحتمل ألَّا يكون هذا على معنى التَّكلُّم به، ولكن على معنى ما يُقال للرَّجل: سِرْ على اسم الله، وافعل كذا بسم الله، دعاء له؛ أي: افعلْه مباركًا لك فيه.

وقوله تعالى: ﴿مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ وحفص عن عاصم: ﴿مَجْرَاهَا﴾ بفتح الميم ومعناه: جريانها.

---

(١) قال الزيلعي في «تخريج الأحاديث والآثار» (٢/ ١٤٦): (غريب، ورواه الطبري في «تفسيره» موقوفًا على قتادة). وكذا قال ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ٨٦) وقال: (لم أره مرفوعاً). وهو من قول قتادة في «تفسير الطبري» (١٢/ ٤١٠).

(٢) في (أ): «والنبط».

(٣) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٥١) عن سعيد عن قتادة.

وقرأ الباقون بضمِّ الميم[١]، ومعناه: إجراؤها.

وقيل: ﴿مَجْرَىٰهَا﴾: موضعُ جريانها، ووقتُ جريانها، وبالضَّمِّ: موضعُ إجرائِها ووقتُ إجرائِها.

وفي إعرابِه وجهان: الرَّفع لأنَّه خبر الباء[٢]، والنَّصبُ بنزع الخافض: عند مجريها[٣]، أو: في مَجْريها[٤].

﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بالضَّم بالإجماع، وهو من الإرساء، وهو الثَّبات، وله ثلاثة معانٍ أيضًا: الإثبات، وموضع الإثبات، ووقت الإثبات.

وإعرابُه أيضًا النَّصب والرَّفع على ما مرَّ، فالرَّفع على الإخبار، والنَّصب على التبرُّك[٥] والتَّكلُّمِ بالتَّسمية.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٣)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٤).

(٢) كذا قال، والمعروف في مثله العكس، أي: الجار والمجرور هو الخبر، والاسم الظاهر المتأخر مبتدأ، ويجوز أيضاً الرفع على أنهما فاعلان لـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ كونه حالاً. انظر: «الكشاف» (٢/ ٣٩٤ـ ٣٩٥)، و«البحر المحيط» (١٢/ ٢٥٩)، و«روح المعاني» (١١/ ٤٥٥).

(٣) وليس المراد بنزع الخافض هنا ما هو معروف من كونه حرف الجر، بل المراد به حذف المضاف الذي هو كلمة: عند، وقد ذكر غيره من الأئمة هنا في الحذف كلمة: وقت، وتفصيل المسألة: أن ﴿مَجْرَىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ إذا اعتبرا مصدرين ميميين بمعنى الإجراء والإرساء، فيقدر مضاف محذوف هو كلمة (عند) أو (وقت)؛ كما في قولك: أتيتك خفوقَ النجم، و: جئتك مقدَمَ الحاج، فإن التقدير: وقت خفوقه، ووقت قدوم الحاج، إلا أنه لما حذف المضاف سد المضاف إليه مسده وانتصب انتصابه، وهو كثير في المصادر، ويكون انتصابهما بما في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ من معنى الفعل، والتقدير: متبركين بسم الله وقت الإجراء والإرساء، أو عندهما. وفي إعرابهما وجوه أخر، انظر المصادر السابقة.

(٤) أي: أنهما منصوبان على الظرفية الزمانية أو المكانية، وهي التي تكون بتقدير حرف الجر (في). انظر المصادر السابقة.

(٥) في (ر) و(ف): «الترك».

وقـال الضحَّـاك: كان نـوحٌ صلوات الله عليـه إذا أرادَ أن تجري قال: بسـم الله، فجرَتْ، وإذا أراد أن ترسـو قال: بسـم الله، فرسَـتْ، والإرسـاء: إمسـاكُ السَّفينة بما تقفُ به(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمَه الله: ويحتمل أنَّها بسم الله تجري وبه تقف، وأنَّها ليست كسائر السُّفن الَّتي بأهلها تجري وبهم تقف، وهم الَّذين يتولَّون إجراءَها ووقفَها، وسفينةُ نوح عليه السَّلام كان جريها بالله وبه رُسوُّها، لا صنعَ لهم في ذلك، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، وما كان في تصرُّف(٢) النَّاس لم يجرِ في مثل هذه الحال سالمة(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي: غفورٌ لنا رحيمٌ بنا، يسترُ علينا الزلَّات، ويرحمنا بالنَّجاة.

وقال الكلبيُّ: ركب فيها نوح عليه السلام لعشرٍ مضَيْن مِن رجبٍ، وخرجوا منها يومَ عاشوراء(٤).

* * *

(٤٢) ـ ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٣).

(٢) في (ف): «تصريف».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٣٣).

(٤) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٠) عن قتادة، وورد نحوه في حديث مرفوع رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٩) عن عبد الغفور بن عبد العزيز عن أبيه. قال الشيخ أحمد شاكر: خبر هالك من نواحيه جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾: أي: ركبوا في السَّفينة فجرَتْ بهم في أمواجٍ عظيمةٍ هائلةٍ تشبه الجبال؛ أي: كانت الأمواج ترفع السَّفينة، وكانت السَّفينة كالموج العظيم الَّذي يشبه الجبال.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾: أي: كان معتزلًا عنه: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: من الكافرين؛ لأنَّ حالَته كانت ملتبِسةً عليه؛ لأنَّه كان ينافقه.

وقيل: علِمَ كفرَه، ولكن معنى ندائه: يا بُنَيَّ أسلِمْ ولا تكن ثابتًا على الكفر مع الكفَّار، واركبْ معنا تسلَمْ.

* * *

(٤٣) ـ ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: أي: قال ابنه كنعان: سألتجئ إلى جبل يمنعني من الماء ويمسكني.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: أي: لا مانعَ اليومَ من عذاب اللهِ الَّذي نزلَ بأمرِه ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾؛ أي: إلَّا الله الَّذي قد رحمنا بما آمنَّا مِن الغرق.

وقيل: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: لا معصوم؛ كما في قوله تعالى: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي: مرضيَّة، وقوله تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]؛ أي: مدفوق، وقال الشَّاعر:

بطـــيءُ القيـــامِ رخيـــمُ الـــكلا ــمِ أضحَـــى فـــؤادِي بـــه فاتنـــا[١]

أي: مفتونًا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾؛ أي: إلَّا مَن رحم اللهُ، وإنَّما يرحمُ اللهُ مَن أسلَمَ، فأسلِمْ تسلَمْ، وكان هذا حين فار التَّنُّور قبلَ أنْ يصيرَ[٢] الغرقى بحالٍ يعاينون أسبابَ الآخرة، فيكونَ إيمانُهم إيمانَ يأسٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾: قيل: أي: حالَ بينَ كنعان وبين الالتجاء بالجبل الموجُ.

وقيل: حالَ بينَ نوحٍ وبينَ ابنِه الموجُ.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمة الله عليه: أي: صارَ من المغرقين، أو كان في علمِ الله تعالى أنَّه يغرق، لا أنَّه كان مِن المغرقَيْن قبلَ ذلك، وعلى هذَيْن الوجهَيْن قولُه في إبليس: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤][٣].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أخطأ المسكين من وجهَيْن:

أحدهما: أنَّه رأى الهلاك مِن الماء، وكان من الله تعالى.

ورأى النَّجاة والعصمة من الجبل، وهي من الله جلَّ جلاله.

---

(١) انظر: «الصحاح» (مادة: فتن)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٧١).

(٢) في (أ) و(ر): «قبل أن يصير الطوفان بحال يصير».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٦/ ١٣٤).

قال: ويقال: احتمل أنْ لو قيل له: يا نوح؛ غرَّقنا العالم بدعائِكَ، فلا عليكَ إنْ غرَّقنا ولدًا لك في جملتِهم[١].

وذكرَ الشَّيخ الإمام أبو بكر الفارسيُّ[٢] في «تفسيره» قال: رُوِي عن عكرمة أنَّه قال: لمَّا قال نوح لابنه كنعان: اركب معنا؛ قال: سآوي إلى جبل أتَّخذ فيه[٣] قبَّة من صُفْر، وحملَ فيها الطَّعام والشَّراب، وردمَ بابَها، فلمَّا علا الماءُ فوقَها؛ ألقى الله تعالى عليه البول، فجعل يبولُ ولا ينقطع حتَّى امتلأَتِ القبَّة، فغرَّق الله تعالى الكفَّارَ بالماء وغرَّقه ببوله[٤].

* * *

(٤٤) ـ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾؛ أي: نشِّفي ماءَكِ الَّذي يخرج منك ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾؛ أي: احبسي ماءَك، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾؛ أي: نقصَ ونشَّفته الأرض، وصار ما نزل من السَّماء هذه البحورَ، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: هلكَ مَن هلكَ ونجا مَن نجا، واستقرَّت

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٣٨).

(٢) أحمد بن محمد بن أيوب أبو بكر الفارسي الواعظ المفسر، نزيل نيسابور، كان يحضر مجلسه نحو عشرة آلاف، أخذ عنه أبو عبد الله الحاكم، توفي سنة (٣٦٤هـ). انظر: «طبقات المفسرين» للسيوطي (ص: ٣١).

(٣) «فيه» ليس في (أ) و(ف).

(٤) ذكر نحوه القشيري في «لطائف الإشارات» (٢/ ١٣٩) دون نسبة.

السَّفينة بعدَما طافَتِ الأرضَ كلَّها في ستَّة أشهر[١] ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ وهو[٢] جبلٌ بأرض الموصل، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾؛ أي: سُحقًا، ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: قوم نوح الَّذين غرقوا.

وقالوا: معنى الآية: جرت بهم السَّفينة إلى أن تناهى[٣] الأمر وبلغ هذا المبلغ.

الابتلاع: الازْدِراد، والإقلاع: الإمساك، والغيض: النَّقص متعدٍّ، والاستواء: الاستقرار، وقُضِيَ الأمر: فُرِغ منه، والبُعْد: الهلاك.

وما ذُكِرَ في الآية من القول فيحتمل أن تكون الملائكةُ قالَتْ ذلك لفظًا، وقد وضع الله تعالى فيها[٤] فهمًا، ويحتمل أن يكون عبارة عن بلوغ الأمر ذلك المبلغَ وجَرْيِه على ما جَرَى؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وفي الآيةِ من عجيْبِ البلاغة وجوهٌ كثيرةٌ:

منها: أنَّه خرجَ مخرجَ الأمرِ على معنى التَّعظيم لفاعلِه؛ لأنَّه مِن غير معاناة ولا لُغوب.

ومنها: حسنُ تقابلِ المعاني.

ومنها: حسنُ ائتلافِ الكلام.

ومنها: حسنُ البيانِ في تقرير الحال.

---

(١) رواه بنحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٢)، والطبري في «تاريخه» (١/ ١١٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٦) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) في (أ): «وقيل».

(٣) في (أ): «يتناهى».

(٤) «فيها» من (أ). والضمير فيها يعود على الأرض والسماء المخاطبين.

ومنها: الإيجازُ مِن غير إخلال.

ومنها: سياق القصَّة في أوجز خطبة.

إلى غير ذلك ممَّا دلَّ عليه هذا الكلام مِن الحُسْن العجيب واللُّطْف البديع.

وقال الضَّحَّاك: مطرَتِ السَّماءُ أربعين يومًا اللَّيل والنَّهار، وخرج ماء الأرض أربعين يومًا، فارتفع الماءُ على كلِّ جبل خمسة عشر ذراعًا، وسارَتْ بهم السَّفينةُ، وطافَتْ بهم في الأرضِ كلِّها ستَّة أشهرٍ لا تستقرُّ على شيءٍ، حتَّى أتَتِ الحرَمَ وطافَتْ أسبوعًا، ورُفِع البيت الَّذي بناه آدم إلى السَّماء السَّادسة، وهو البيت المعمور(١).

وقال قتادة: بعثَ نوحٌ عليه السَّلام الغرابَ لينظرَ، فوجد جيفةً فوقعَ عليها، فبعثَ الحمامة فأتَتْه بورق الزَّيتون، فأُعْطِيَتِ الطَّوْقَ في عنقِها والخضابَ في رجلها(٢).

***

(٤٥) ـ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: أي: دعا اللهَ تعالى فقال: ربِّ؛ إنَّ ابني مِن أهلي، وقد وعدتني إنجاءَ أهلي، ووعدُكَ الصِّدق لا خُلْفَ فيه، وأنت الحاكمُ بالعَدْل لا يشوبُ حكمَكَ زللٌ

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٢)، والطبري في «تاريخه» (١/ ١١٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٦) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٠١)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٣).

ولا خطأٌ فترجعَ، وقد حكمْتَ بإنجاء أهلي، وهذا ابني مشرِفٌ على الهلاك، فعرِّفني السَّبب فيه لأكونَ على علمٍ، فيسكنَ له قلبي.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كان هذا ابنَه مِن صُلْبِهِ[١].

وقال مجاهد: كان ابن امرأته[٢].

وقال قتادة: سألْتُ عنه الحسن فقال: والله ما كان ابنه، قلْتُ: إنَّ الله تعالى أخبر عنه أنَّه قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى﴾ وأنت تقول: لم يكن ابنه، وإنَّ أهل الكتاب لا يختلفون في أنَّه كان ابنه، فقال الحسن: ومَنْ يأخذ دينَه مِن أهل الكتاب[٣].

وقال: إنَّ نوحًا قال: ﴿مِنْ أَهْلِى﴾ ولم يقلْ: منِّي[٤].

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الوعدَ بالعذاب هو الصِّدق، ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ قضيْتَ لقومٍ بالنَّجاةِ ولقومٍ بالغرقِ.

* * *

(٤٦) - ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان عند نوح أنَّ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٥).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٥)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٧).

(٤) هذه زيادة على الخبر السابق ذكرها عن الحسن الواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٣٤)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٣٩٦). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٢) عن أبي جعفر الباقر.

ابنه كان على دينه؛ لِمَا أنَّه كان يُظهرُ الموافَقة له، وإلَّا لا يحتمِل أنْ يقولَ: إنَّ ابني مِن أهلي، ويسألَه نجاته، وقد سبق عنه النَّهيُ عن سؤال مثلِه؛ لقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، فكان سألَ على الظَّاهر الَّذي عندَه، كما كان أهل النِّفاق يظهرون الموافقة لرسولِنا ويُضمِرون خلافَه، ولم يَعلَمْ بذلك حتَّى أطلَعَه اللهُ تعالى عليه، فكذلك حال نوح عليه السَّلام، ولم يكن قوله: ﴿لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ تكذيبًا لقوله: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾، لكن معناه: هو مِن أهلك على ما عندك، وليس هو من أهلك الذي بشَّرْتُك بنجاتهم(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾: قرأ الكسائيُّ على الفعل؛ أي: ﴿عَمِلَ﴾ ابنُك عملًا ﴿غيرَ صالحٍ﴾؛ أي: كفرَ وما أسلَمَ، فأفسدَ وما أصلحَ.

وقرأ الباقون: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ﴾ بالتَّنوين ﴿غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ بالرَّفع(٢)، وله وجهان:

أحدهما: إنَّ سؤالَك هذا عملٌ ليسَ بصالحٍ، وهذا عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما ومجاهد وإبراهيم(٣).

وقيل: ﴿عَمَلٌ﴾ نعتُ الابنِ، مصدرٌ أُقيمَ مقامَ الفاعل؛ قاله الزَّجاج(٤)، وأنشد قول الخنساء:

ترتَعُ ما رَتَعَتْ حتَّى إذا ادَّكَرَتْ ... فإنَّما هيَ إقبالٌ وإدبارُ(٥)

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٣٦).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٥).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٣٣ _ ٤٣٤).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥٥).

(٥) انظر: «ديوان الخنساء» (ص: ٣٨٣).

أي: مقبلةٌ ومدبرةٌ.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعدْتُك أنْ أُنْجِيَهُمْ[١].

وقال الضَّحَّاكُ: أي: ليسَ مِن أهلِ دينِكَ ووِلَايَتِكَ[٢].

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: أخبرْتُكَ عن حالِ ابنِكَ إذْ كنْتَ غيرَ عالم به، فلا تسألني بعدَها ما ليس لك به علم؛ أي: معرفةُ باطنه حتَّى آذنَ لك فيه ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بأحكامي الَّتي منها ألَّا تسألني ما لم آذنْ لكَ فيه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ هو كما قال لنبيِّنا محمَّد عليه السَّلام: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وإنْ كان في علمِهِ أنَّه لا يكون مِنَ الجاهلين، وهو لِمَا ذكرنا مرَّات أنَّ العصمةَ لا تمنع النَّهيَ عن الشَّيء، بل بالنَّهي تظهر العصمة[٣].

* * *

(٤٧) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: أنْ أعودَ إلى ما لا أعلمُ بالإذن في سؤالِه.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٣٢).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٣٨).

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: أي: وإنْ لم تسترْ عليَّ ما مضى من هذا السُّؤال، ولم ترحمني بقَبول إنابتي، أكنْ مِن الهالكين.

وهذا ثناءٌ مِنَ اللهِ تعالى على نبيِّه نوح، وتعريفٌ لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليهما وسلَّم تعظيمَ الأنبياء قبلَه أمرَ اللهِ، وتَوَقِّيهم عن تقصيرٍ يقعُ منهم أو انبساطٍ وإنْ قَلَّ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾؛ أي: بالعصمة عن العَود إلى مثلِه ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ هو طلبُ المغفرةِ والرَّحمةِ بالكناية، وهو آكدُ وأبلَغُ مِن قوله: (اللَّهم اغفرْ لي وارحمْني)؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ قطعُ رجاءِ المغفرةِ والرَّحمةِ مِن غيرِه، وإخبارٌ أنَّه لا يملِكُ أحدٌ ذلك غيرَه، وليس في قوله: (اغفرْ لي وارحمْني) قطعُ كونِ ذلك مِن غيرِه، بل هو يدلُّ على طلبِ المغفرةِ والرَّحمة لا غيرَ، وعلى ذلك سؤالُ آدم وحوَّاء: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣][(١)].

* * *

(٤٨) ـ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: قلْنا له؛ لأنَّه قال: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾.

وقيل: قالَتِ الملائكةُ بأمرِنا.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٣٨).

﴿يَنُوحُ ٱهْبِطْ﴾؛ أي: انزل من السَّفينة إلى الأرض.

وقيل: مِن الجوديِّ إلى قرار الأرض.

﴿بِسَلَٰمٍ﴾؛ أي: تحيَّةٍ؛ كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، وهو الثَّناءُ الحسَنُ.

وقيل: أي: بسلامةٍ مِن الآفاتِ.

﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾: جمعُ بَرَكَةٍ؛ وهي ثبوتُ الخيرِ بتمامه[١]، وهو في حقِّه تكثيرُ ذرِّيَّتِه وأتباعِه، وجعلُ أكثرِ الأنبياء مِن ذرِّيَّتِه، وأئمَّةِ الدِّين في القرون الباقية مِن نسلِهِ، وسائرُ المنافعِ.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أرادَ الأممَ الَّذين كانوا مِن بعدِه، فإنَّه لم يكنْ معَه يومَئذ إلَّا نفرٌ يسيرٌ، ودلَّ هذا أنَّ دينَ الأنبياءِ جميعًا دينٌ واحدٌ وإنِ اختلفَتْ شرائِعُهم، فإنَّه جعلَهم ممَّن معَه على اختلافِ شرائعِهم[٢].

ثمَّ يجوز أن يكون هذا السَّلام ممَّا سألَ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ﴾، والبركات ممَّا سألَ: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وقولـه تعالـى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ هذا ابتـداء كلام[٣]؛ أي: أُمَمٌ مِـنَ الكفَّار مِن نسلِكَ أُمَتِّعُهـم فـي الدُّنيا إلى انقضـاءِ آجالِهم، ثـمَّ يصيبُهم في الآخرة عـذابٌ أليمٌ في النَّار.

* * *

(١) في (أ): «ونمائه».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٤٠).

(٣) «كلام» ليس في (أ) و(ف).

(٤٩) ـ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي: هذه الأنباءُ مِن أنباءِ الغيبِ؛ أي: مِن أنباءِ الأممِ السَّالفة التي يَغيبُ العلمُ بها عمَّن لم[1] يعرِّفْه اللهُ تعالى.

﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾: نقصُّها عليك؛ لِتَقِفَ عليها بعدَ أنْ كُنْتَ أنتَ وقومُكَ لا تعلمُونها؛ إذْ كنتم أُمِّيِّين.

ويحتمِل أنْ يكونَ العربُ لم يعرفوا خبرَ الطُّوفان أصلًا، فإنَّ بعضَ الملاحدة والفلاسفة ينكرون ذلك إلى يومِنا.

ويحتمِل أنَّهم عرفوا قصَّةَ الطُّوفانِ لشهرَتِه، لكن لم يعرفوا قصَّة الابنِ الَّذي غرقَ، وهذا أولى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾؛ أي: على ما أُمِرْتَ به ونُهِيْتَ عنه.

وقيل: على أذى الكفَّار.

وقيل: كما صبرَ الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾: قيل: اتَّقَوا الشِّرك، فإنَّه ذكر هذا بمقابلةِ قولِه: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ وهم الكفَّار.

---

(١) في (ف): «لا».

وقيل: أي: الذين اتَّقَوا الشِّركَ والمعاصيَ، ولهم العاقبةُ الحميدةُ المطلقة، وقد مرَّ بيان[1] هذه القصَّة بتمامها في (سورة الأعراف).

* * *

(٥٠) ـ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾: عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾: مرَّ تفسيرُه وشرحُه في (سورة الأعراف).

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على اللهِ في إضافتكم إليه الشُّركاء.

* * *

(٥١) ـ ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾: أي: خلَقَني.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما أقولُ لكم فتتدبَّروه، فيتبيَّنَ لكم صِدْقي.

وقال الإمام أبو منصور رحمة الله عليه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ يحتمِلُ: في تسميتِكُم الأصنامَ آلهةً، ويحتمِل: في قولِكم: الله أمرنا بها، ويحتمِل: في إنكارِكم الرِّسالة، أو البعْثَ بعدَ الموت.

---

(١) في (ر) و(ف): «سياق».

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ اللهَ واحدٌ، وأنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ[١].

* * *

(٥٢) - ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: مرَّ تفسيرُه في أوَّلِ هذه السُّورة، وقدَّم الاستغفارَ على التَّوبة لأنَّ المغفرةَ هي الغرضُ، والتَّوبةَ سببٌ يُتوصَّلُ به إليها، فقدَّمَ ذِكْرَ الغرضِ على السَّببِ.

وقيل: استغفروا بالإيمان، ثمَّ ارجعوا بأعمالِكم وأموالِكم إليه دونَ غيرِه.

وقوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾: أي: يُرسِل المطرَ في وقتِه مدرارًا لا ينقطع، والمدرارُ: الكثيرُ[٢] الذي لا ينقطع، والمدرارُ: الكثيرُ المتتابع، و(مِفْعَال) صفةُ مبالغة؛ كقولهم: مِتجار ومِعطار ومِطعام[٣] ومِغوار.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿مِّدْرَارًا﴾: متتابعًا[٤].

وقال مقاتلُ بن حيَّان[٥]: دائمة.

وقال ابن كيسان: غزيرًا كثيرًا[٦].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٤٢).

(٢) «الكثير» ليس في (أ).

(٣) في (أ): «ومطعان» بدل من «ومعطار ومطعام».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٦٣).

(٥) في (ر) و(ف): «بن سليمان بن حيان»، ولم أجد القول الآتي بهذا اللفظ عن أي منهما، وقاله أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ١٨٦).

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٤) عن مقاتل بن حيان وابن كيسان.

وقوله تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾: أي: يَهَبْ لكم أموالًا وأولادًا زيادةً على ما حصلَ عندَكم اليومَ مِن ذلك، فتقدروا على دفعِ أعدائِكم بكثرةِ عددِكُم، وكانوا في قوَّةٍ فوُعِدوا الزِّيادة على ذلك.

وقال مقاتلٌ: حبسَ اللهُ تعالى عنهم المطرَ ثلاثَ سنين، وأعقمَ أرحامَ نسائِهم، فلذلك قال ذلك(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾: أي: لا تُعْرِضوا عن الإيمان مُذْنِبين.

وقال القشيريُّ رحمه الله: ثمَّ توبوا بعد الاستغفار مِن توهُّمكم أنَّ نجاتكم باستغفاركم، بل تحقَّقوا أنَّكم لا تجدون نجاتكم إلَّا بفضلِ ربِّكم، فبفضلِه وصلْتُم إلى استغفاركم، لا باستغفارِكُم وصلْتُم إلى نجاتِكُم.

وقوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ الاستغفارُ: قَرْعُ بابِ الرِّزْق، فإذا رجعَ العبدُ إلى اللهِ تعالى بحسْنِ تضرُّعِه فتحَ اللهُ تعالى عليه أبوابَ رحمتِه، ووفَّر عليه أسبابَ نعمتِه(٢).

***

(٥٣) - ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: أي: بحجَّةٍ واضحةٍ على دعوى رسالَتِكَ لِتُلْزِمَنا تصديقَكَ والانقيادَ لك.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨٥).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٤١).

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾؛ أي: مِن أجلِ قولِك؛ كما يُقال: كسوْتُكَ عن عُرْيٍ؛ أي: مِنْ أجلِ عُرْيِكَ.

وقيل: الباء و(عن) متناوبان[1]، قال تعالى: ﴿فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ أي: عنه، وقال هاهنا: ﴿عَن قَوْلِكَ﴾؛ أي: بقولِكَ.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾: أي: بمصدِّقين.

* * *

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: أي: ما نقولُ إلَّا أصابَكَ بعضُ آلهتنا بجنونٍ؛ أي: خَبَلٍ في عقلِكَ؛ قالَه ابنُ عبَّاس والحسنُ ومجاهد[2].

وقيل: أي: ما نظنُّ وما نقولُ فيما بيننا إذا ذكرنا حديثَكَ إلَّا أنَّ بعضَ أصنامِنا الَّتي نعبدُها أصابَكَ بجنون، عقوبةً لك على الدُّعاء إلى تركِها ورفضِ عبادتِها.

فقال هودٌ: ليسَ هو كما تقولون، وأنا أُشهِدُ اللهَ تعالى وأُشهِدُكم أنِّي بريءٌ مِن شركِكم، غيرُ موافقٍ لكم على دينِكم، فاستعمِلوا الحيَلَ أنتم وآلهتُكم الَّتي تزعمون

---

(١) في (أ): «متساويان».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، وذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٤٦) عن الحسن.

أَنَّها اعترتني بسوءٍ في الإساءةِ بي وإيصالِ المكاره إليَّ، ثمَّ لا تؤخِّروا ذلك؛ لننظرَ هل يمكنكم أو يمكن آلهتكم أن يفعلوا بي شيئًا مِن السُّوء؟

وهذا دليلُ صحَّة نبوَّتِه؛ لأنَّه قال ذلك لثقته بوعدِ الله بحفظِه ونصرتِه.

فإنْ قالوا: لِمَ قالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾، وقد قالوا أقولًا غيرَ ذلك؟

قلْنا[1]: معناه: في سببِ الخلاف، ويدلُّ عليه ظاهر الحال.

فإنْ قالوا: لِمَ قالَ: ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾، وليسوا بأهلٍ للشَّهادةِ؟

قلْنا: لتقومَ الحجَّة عليهم، لا بهم[2].

***

(٥٦) ـ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾: أي: فوَّضْتُ أمري إلى اللهِ تعالى، مدبِّري ومدبِّركم، ومُقِيمي ومُقِيمكم، لا أعتمدُ إلَّا عليه، ولا أخافُ غيرَه؛ إذ كلُّ شيءٍ في قبضةِ قدرَتِه وسلطانِه.

وقوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾: أي: ما مِن[3] نفسٍ تَدِبُّ على الأرض إلَّا هو قاهرٌ لها مصرِّفٌ لها على ما يريدُه بها.

---

(١) في (ف): «قلنا قالوا قولاً».

(٢) في (ف): «لا لهم» وليست في (ر).

(٣) «ما من» من (ف).

والأخذُ بالنَّاصية كنايةٌ عن الإذلالِ والقَهْر، وكانت العربُ إذا أسرَتْ رجلًا فأرادَتْ إطلاقَه جزَّت ناصيتَه؛ ومثلُه قولُه تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: قيل: أي: إنَّ ربِّي يدلُّ على صراطٍ مستقيمٍ. وقيل: يحثُّ عليه. وقيل: يحملُكم عليه.

وقيل: هو بغير إضمارٍ، ومعناه: إنَّ ربِّي على الحقِّ لا يَعدلُ عنه.

* * *

(٥٧) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أصلُه: فإن تتولَّوا، سقطَتْ إحدى التَّاءين تخفيفًا؛ أي: فإنْ تُعرِضوا بعدَ هذا عن الإيمان بالله لم يلزمْني مِنْ تَبِعَةِ إعراضِكُم شيء[1].

وقولُه تعالى: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾: مِن الدُّعاء إلى الإيمان ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ أي: ويهلكُكم اللهُ بعدَ هذا، ويجعلُ غيرَكم خَلَفًا عنكم .

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾: ولا يدخلُ مُلْكَه بإهلاكِكم نقصٌ، ولا تقدرون على أن تضرُّوه أو تضرُّوا أولياءَه بكيدِكُم.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾: أي: لا يخفَى عليه شيءٌ، ولا يذهبُ عنه شيءٌ، ولا يفوتُه.

---

(١) في (أ): «بشيء».

وقيل: أي: بكلِّ شيءٍ حفيظ، فيحفظُ أنبياءَه وأولياءَه.

وقيل: أي: يحفظُ الأعمالَ فيُجازي عليها.

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي: أمرُنا بإهلاكِ عادٍ ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: شديد، وأصله: الكثيف الثَّقيل، وهو هاهنا استعارةٌ عن الشِّدَّةِ والهولِ، وهو ما نزلَ بهم مِن عذابِ الدُّنيا.

وقيل: هو عذابُ الآخرة أيضًا في حقِّ المؤمنين.

وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا يدلُّ على أنَّ مَن نجا نجا برحمةِ اللهِ تعالى لا بعملِه، ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «لا يدخلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا برحمةِ اللهِ»، قيل: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «ولا أنا، إلَّا أنْ يتغمَّدني اللهُ برحمَتِهِ»[١].

ثم يحتمِل قولُه: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ أي: ببعثِ هودٍ إليهم حتَّى اتَّبعوه فنجَوا لذلك.

ويحتمل: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ أي: بتوفيقنا إيَّاهم للإيمان حتَّى نجَوا به[٢].

* * *

(٥٩) ـ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٤٦).

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: بالنَّبيِّ والحُجج[1] ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأنَّهم إذا عصَوا هودًا فقد عصَوا كلَّ الرُّسل؛ لأنَّ كلَّ الرُّسل يدعون إلى الله تعالى، فعصيانُ واحدٍ منهم عصيانُ الكلِّ.

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: أي: كلِّ متكبِّر مخالف؛ وهم رؤساؤهم.

قال السُّدِّيُّ: الجبَّار: الَّذي يقهَرُ النَّاسَ ويُجْبِرُهم على ما أراد[2].

وقال عكرمةُ: الجبَّار: الَّذي يقتلُ على الغضب[3].

وقال أبو عوسجةَ: الجبارُ: المتجبِّر، وهو المتكبِّر، والعنيدُ: هو المعاند المخالف[4].

وقال القُتَبي: العَنود والعَنيد والعانِد: المعارِضُ لك بالخلاف عليك[5].

وقال أبو عبيدة: العَنيد والعَنود والعاند: الجائر[6].

وفي الآيةِ تسليةُ النَّبيِّ ﷺ فيما كان يقاسي مِن البلاء، وتقويةٌ للمؤمنين فيما نُدبوا إليه مِن حُسْنِ الرَّجاء، والوعدُ بتبديل ما كانوا يلقونَه مِن الشِّدَّة والرَّخاءِ.

***

---

(١) «بالنبيِّ والحجج» ليس في (ف).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٨٧)، والواحدي في «تفسيره» (٢١/ ٣٩٧).

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٣٧٧) دون عزو، وعزاه الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢١٠) للكلبي.

(٤) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ١٤٧).

(٥) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٠٥).

(٦) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٩٠).

(٦٠) ـ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي: أُلحقـوا، واللَّعنـة: الطَّـرد، ومعنـاه: لُعِنـوا فـي الدُّنيـا والآخـرة، طُـرِدوا وبُعِّـدوا عن رحمـةِ الله.

ثمَّ بيَّن السَّبب فقال:

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾: أي: هلاكًا، منصوبٌ على المصدر بإضمار الفعل، وقد مرَّ سياق القصَّة في (سورة الأعراف).

* * *

(٦١) ـ ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾: عطفٌ على قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾: مرَّ تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أي: ابـتـدأ خلقَكم مـن الأرض، فخلقَ أباكم آدم مِن التُّراب، وجعلَكم عمَّارَها؛ أي: سكَّانها[1]، وعامر الأرض: ساكنها، قال الشاعر:

فإنَّـكَ مِـنْ بيـتٍ لِعَيْنـيَ مُعْجِـبٌ   وأعجـبُ في عَيْني مِن البَيْتِ عَامِرُه[2]

---

(١) في (أ): «ساكنيها».

(٢) البيت لعبد الله بن الدمينة، وهو في «ديوانه» (ص: ١٨٣)، و«أمالي القالي» (١/ ٧٨)، برواية: «وأحسن في عيني» بدل «وأعجب في عيني».

وقيل: أي: القائمين بعمارتها بالزِّراعة والغرس والبناء والحفر.

وقيل: أي: عمَّركم فيها؛ أي: جعل لكم فيها أعمارًا.

وقيل: أعمرها لكم[١]؛ أي: جعلها لكم مدَّة عمركم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾: أي: اسألوا مغفرتَه بالإيمان ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: ارجعوا إليه بالنَّدم وسؤال الثَّبات.

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ﴾: أي: إلى مَن رجاه ﴿مُّجِيبٞ﴾ لمن دعاه.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: أعاشكم[٢].

وقال الضَّحَّاكُ: أطالَ عُمُرَكم[٣].

وقال مجاهدٌ: أعمرَكم، من العُمرى[٤].

وقال قتادة: أسكنكم فيها[٥].

وكان هود عليه السَّلام يسكنُ وادي القرى بين المدينة والشَّام[٦]، وكانت عاد باليمن.

***

---

(١) «لكم» من (أ).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٦).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٦)، والماوردي في «تفسيره» (٢/ ٤٧٩)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٥٥).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٤٨). ومعناه: أعمرَكم فيها، ويرِثُها منكم بعد انصرامِ أعماركم.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٦).

(٦) كذا قال، والصواب أن هذه مساكن ثمود قوم صالح.

(٦٢) ـ ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾: أي: كنَّا نرجوك للانتفاع بك، ونتوقَّع القوَّة فيما بيننا(١) مِن جهتك، فأُخْلِفَ رجاؤُنا.

وقيل: كنْتَ ترحمُ الضَّعفاء وتعودُ المرضى ونحوَ ذلكَ قبلَ ادِّعائِكَ النُّبوَّة، فصرْتَ تخالفُنا وتسفِّهُنا.

وقوله تعالى: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: الَّذين كانوا أكملَ عُقولًا منَّا، وأبصرَ بالأمور كلِّها، وهو استفهامٌ بمعنى الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾: أي: في(٢) شكٍّ مُريبٍ مُوقِعٍ للرِّيبة فيك؛ أي: التُّهمة؛ أي: ونحن فيما تدعونا إليه مِن ترك عبادة آلهتنا وإفرادِ ربِّك بالعبادة في شكٍّ يوجِبُ اتِّهامك فيما تضيفه إلى اللهِ تعالى(٣)؛ إذْ ليسَ يجوزُ أنْ يكونَ آباؤنا يجهلونَ الحقَّ ويتركون الدِّين الَّذي يرضَى اللهُ تعالى به.

* * *

(٦٣) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: أي: أجابهم عن قولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى

---

(١) في (أ) و(ر): «القوة في ديننا».

(٢) بعدها في (أ) و(ف): «كلِّ».

(٣) في (أ): «إلى آدم».

شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فقال: أخبروني عنكم؛ إنْ كنْتُ محقًّا في دَعوى الرِّسالة، وكنْتُ على بيانٍ مِن ربِّي في أنَّه لا إلهَ غيرُه، وأنَّه أرسلني إليكم، وأمرَني بإنذارِكم، وكان الله تعالى أعطاني من عندِه كرامةً، وخصَّني بها مِن الإيمان والرِّسالة، أيجوز لي مع هذا أنْ أعصيَ ربِّي فأُقصِّرَ في تبليغ رسالته، وأقابل رحمتَه بمعصيتِه فأستحقَّ نزولَ عذابِه وسَخطِه؟! فمَن ينصرُني حينَئذٍ فيمنعَ عنِّي عذابَه؟ فما تزيدونني بهذا الاحتجاج[1] غيرَ أنْ أضلِّلَكم وأَضلِّل[2] آباءكم.

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: أي: غير بصارةٍ[3] في خسارتِكم[4].

وقال الحسينُ بنُ الفضل: غير نسبتي إيَّاكم إلى الخسارة[5].

وقال الإمام الزَّاهد أبو منصور رحمه الله: قال بعضُهم: فما تزيدونني بمجادلتكم إلَّا خسرانًا.

وقيل: فما تزدادون بمعصيتكم إيَّاي إلَّا خسرانًا لأنفسِكم.

وقال القتبيُّ: ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: غير نقصان[6].

---

(١) في (أ): «الاجتماع».

(٢) أي: أنسبكم أنتم وآباؤكم إلى الضلال إذ تعبدون غير الله. وتحرفت العبارة في (ر) و(ف) إلى: «أضلَّكم وأضلَّ».

(٣) في (ر) و(ف): «مضارة».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٩٣) (ط: دار التفسير)، وانظر: «تنوير المقباس» للفيروزابادي (ص: ١٨٧)، وفيه: «﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾: فما ازداد إلا بصيرة في خسارتكم».

(٥) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٦)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٥٧).

(٦) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٠٥).

وقال أبو عوسجة: هو من الخسران [يقال: خسَّرتُه]؛ أي: ألزمْتُه الخسران[١].

***

(٦٤) ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: إذا أُضيفَتْ جزئيَّةُ الأشياء إلى الله تعالى فهو على تعظيمِ تلك الجزئيَّات المضافة إليه.

فإذا أُضيفَتْ إليه كليَّة الأشياء فهو على إرادة تعظيم الله تعالى وتبجيلِه؛ نحو قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٩١][٢].

وقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ يقول: إنْ شكَكْتم في أمري فهذه آيةُ اللهِ معجزةٌ تبيِّن لكم صدقَ نبوَّتي.

والآيةُ فيها أنَّ اللهَ تعالى أخرجَها لهم[٣] من الصَّخرة وهم يشاهدونها، وخرجَتْ وهي حاملٌ كما طلبوا، وكانت تشربُ يومًا تنفردُ به ولهم يومٌ، وتأتي هي المرعى يومًا والوحشي يوماً، وقد مرَّتْ قصَّتُها في (سورة الأعراف).

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٥٠) وما بين معكوفتين منه، ومعنى ألزمته الخسران: نسبته إلى الخسران، ومثله: فسَّقتُه وفجَّرتُه؛ إذا نسبتَه إلى الفسق والفجور. انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ١٧٦).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٥١).

(٣) «لهم» ليس في (أ).

وقوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾: قيل: بمنعٍ عن الشُّربِ، فقد قال: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وقيل: بعَقْرٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[1]: أي: عاجلٌ إنْ مَسَسْتموها بسوء.

وقال أبو موسى الأشعريُّ: أتيْتُ مصدرها[2] الَّذي اضطُرَّتْ إليه فلم تجدْ منفذًا، فإذا هو ستُّون ذراعًا[3].

* * *

(٦٥) ـ ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي: فعقرَها أخو ثمود قُدار بن سالف، ومعه مِصْدَع بن مَهْرَج.

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾: أي: بلدكم.

وقيل: أي: في دار الدُّنيا، ولو أراد بها المنازل لقال: في ديارکم.

وقيل: أراد بالواحد الجمع؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥]، وتقديرُه: ليتمتَّعْ كلُّ واحدٍ منكم في دارِه.

والتَّمتُّع: التَّلذُّذ بالمدركَات الحسيَّة.

يقول: أمهلَكُم اللهُ تعالى ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ بلا زيادةٍ، ثمَّ تُعذَّبون، وهو العذابُ القريبُ الَّذي ذكرْتُ لكم.

---

(١) بعدها في (ر): «فيأتيكم عذاب».

(٢) تحرفت في (أ) و(ر) إلى: «مقدرها»، والمثبت من (ف) والمصادر.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٩٧)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٦)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ١٢١) و(٣/ ٣٢٧). وليس في المصادر: «الذي اضطرت إليه».

﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أي: مكذوبٍ فيه.

ورُوِي أنَّه قال لهم: تمتَّعوا في دارِكُم ثلاثةَ أيَّام، ثمَّ يجيء هلاكُكُم، فتصبح ألوانُكم في أوَّلِ يومٍ مصفرَّة، وفي اليوم الثَّاني محمرَّة، وفي اليوم الثَّالث مسودَّة، ثمَّ تُستأصَلون في اليوم الرَّابع(١).

فكان كما قال؛ لأنَّهم عقروا النَّاقة يوم الأربعاء، واستُؤصِلوا يوم السَّبت.

* * *

(٦٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: أي: بالعذاب ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ أي: أخرجناهم مِن بينهم.

وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فسَّرناها في قصَّة عاد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾: قرأ الكسائيُّ ونافع في روايةٍ بنصب الميم على الظَّرف، والباقون بالخفض على الإضافة(٢).

والخزيُ: الفضيحةُ بالعذابِ المُهين المستأصِل.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩١٣) عن معمر. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٨٤) عن السدي و(١٠/ ٢٩٥) عن قتادة.

وهو قطعة من حديث طويل رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٨ ـ ٤٦٢) من حديث عمرو بن خارجة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: القادر على إهلاك مَن يريد، المنيعُ سلطانُه[١] مِن أنْ يغالبَه العبيد[٢].

وقيل: ﴿ٱلْقَوِيُّ﴾ في نصرة أوليائِه، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: المنتقِم مِن أعدائه لأوليائِه.

* * *

(٦٧) ـ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾: يُقال: صاحَ بهم جبريل، ويُقال: الصيحةُ: النِّداء بوقوع العذابِ ونزولِ الصَّاعقة.

وقيل: هو الصَّوت الهائل الذي يجيء فلا تتمالكُ له القلوب، بل تنفطرُ وتنخلع، فيموت السَّامعون لها.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: الصَّيحة: الصَّاعقة.

وقيل: هي اسمٌ لكلِّ عذاب، ولا يُدرَى كيف كان؟ أو كان عذابهم قَدْر صيحةٍ مِن سرعة وقوعِه بهم، أو لمَّا رأوا العذاب صاحوا فيما بينهم، فلمَّا جاءتهم الصَّيحة ماتوا[٣].

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾: أي: صاروا.

وقيل: كان العذابُ باللَّيل؛ فلذلك قال: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: ساقطِيْن على الوجوه.

وقيل: ساقطين على الرُّكب.

---

(١) في (أ): «بسلطانه».

(٢) في (أ): «العنيد».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٥٢).

وقيل: لازِقِيْن بالأرض.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ميِّتين[١].

وقال قتادة: هالكين[٢].

وقال مجاهد: جامدين[٣].

وقال ابن كيسان: ساقطين كجثوم الطَّائر.

* * *

(٦٨) ـ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾؛ أي: كأنْ لم يقيموا فيها، غَنِيَ بالمكانِ ـ مِن حدِّ علم ـ: إذا أقامَ به[٤].

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾: فبذلك استحقُّوا هذا العذاب ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾؛ أي: هلاكًا.

وقرأ الكسائيُّ وحده بالتَّنوين والخفض موافقةً للأوَّل، والباقون تركوا تنوينه وفتحوه، ونوَّنوا الأوَّل[٥]؛ لأنَّ (ثمودًا) إنْ جُعِلَ اسمَ قبيلةٍ لم يُصرَف لاجتماع

---

(١) في (ر) و(ف): «ساكتين». والخبر ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢١٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٢).

(٣) في (ف): «خامدين»، وهكذا ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢١٦) عن ابن عباس، وهو قول مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٤٧ و٢٨٩) وبعض المفسرين، والمثبت من (أ) و(ر) وكذا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٥٢) دون نسبة.

(٤) «به» ليس في (أ) و(ف).

(٥) لكن حمزة وحفصاً منعاه الصرف في الأول أيضاً. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

التَّعريف والتَّأنيث فيه، وإن جُعِل اسمًا للقوم صُرِف؛ لأنَّ العلَّتَيْن لم تجتمعا، ولمَّا جاز صرفُه وتركُ صرفِه اختير الصَّرف في النَّصب دون الرَّفع والجرِّ؛ لأنَّ النَّصبَ أخفُّ الحركات.

***

(٦٩) - ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: ﴿رُسُلُنَآ﴾؛ أي: الملائكة.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: جبريل وملكان[١].

وقال الضَّحَّاك: كانوا تسعة.

وقال السُّدِّيُّ: كانوا أحدَ عشرَ ملَكًا على صورة الغِلمان الحسان[٢].

كانوا نزلوا لإهلاكِ قومِ لوطٍ وقراهم بنواحي الشَّام، وإبراهيمُ كان ببلاد فلسطين فمرُّوا به، ولوطٌ كان ابن أخي إبراهيم[٣]، فجاؤوا إبراهيم بالبشرى:

قيل: البشارة بهلاك قوم لوط.

وقال الحسن: البشارة بأنَّ اللهَ تعالى يهَبُ له إسحاق ولدًا، ويجعله رسولًا إلى عبادِه، وبعدَه يعقوب نافلة[٤].

---

(١) في (ر) و(ف): «جبريل وميكائيل». والمثبت من (أ)، وهو الموافق لما ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٧)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٦٦)، ولفظهما: «جبريل وميكائيل وإسرافيل».

(٢) ذكره عن الضحاك والسدي: الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٧)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٦٦).

(٣) في (ف): «ابن عم إبراهيم وكان ببلاد فلسطين» بدل: «ابن أخي إبراهيم».

(٤) ذكره دون نسبة مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٢٩٠)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٩٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٧).

وقيل: بسلامته وسلامة قومِه مع هلاك قوم لوط.

وقيل: بدوام الخُلَّة والوصلة.

وقيل: بسلام الله.

وقيل: هو سرٌّ بين الحبيبَيْن لا اطِّلاع عليه للغير، قال قائلُهم:

بينَ المحبِّيْنَ سرٌّ ليسَ يفشيْه ... قولٌ ولا قلمٌ للخَلْقِ يحكيْهِ[(١)]

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾: نصبٌ بوقوعِ القولِ عليه، كأنَّه قال: أظهَروا سلامًا، أو: قدِّموا سلامًا، وما يجري مَجراه.

وقيل: ﴿قَالُواْ﴾ مقرَّر على نظمِه، و﴿سَلَٰمًا﴾ منصوبٌ بإضمار الفعل؛ كأنَّهم قالوا: نسلِّم عليك سلامًا، أو قالوا: نسلِّم سلامًا؛ لأنَّ السَّلام بمعنى السَّلامة، وهو كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] أنَّه نصبٌ على إضمارِ الفعلِ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾: أي: عليكم سلامٌ.

وقال: الفرَّاء: قال حين نَكِرهم: ﴿سلام﴾؛ أي: هو سلام ـ أي: سلامةٌ ـ إن شاء الله، مَن أنتم[(٢)]؟

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾: أي: وَلَد بقرةٍ، سُمِّي به لتعجيلِ أمرِهِ بقُرْبِ مِيلادِه.

قال ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة: أي: نَضيجٍ[(٣)].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٣٩)، و«لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢١).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦٨).

وقال الحسن: أي: مشويٌّ[١].

وقال ابن عرفة: مشويٌّ بالرِّضاف. والرَّضيف: الحجرُ المحمَّى، وهو (فعيل) بمعنى مفعول، وقد حنذَه؛ أي: شواه تحتَ الأرض بالحجارة المحمَّاة.

وقيل: هو السَّمين الَّذي يسيل منه الوَدكُ[٢].

ومعنى ﴿فَمَا لَبِثَ﴾؛ أي: فما مكَثَ؛ إذ كان عندَه طعامٌ مُعَدٌّ للأضيافِ كلَّ يوم، أو عجَّل تقديم الطَّعام، فأمرَ بذبحِ عجلٍ وحنَّذه، وجعل قرب المدَّة بسبب التَّعجيل كعدم اللَّبْث مبالغةً مجازًا.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فيه دليلٌ على أنَّ الأدبَ إذا نزل الضَّيف هو تقديمُ الطَّعام قبلَ المحادثة والمساءَلَة، ولو كان إبراهيم عليه السلام اشتغلَ بذلك عرف أنَّهم ملائكةٌ، فلم يشتغلْ باتِّخاذ الطَّعام[٣].

* * *

(٧٠) ـ ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾: أي: لمَّا رآهم لم يمدُّوا أيديَهم إلى الطَّعام للأكل ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكرهم، يقال: نَكَر وأنْكَر واستَنْكَر، قال الأعشى:

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٧٠) عن سفيان.

(٢) الودك: دسم اللحم. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: ودك).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٥٤).

وأنكرَتْني وما كانَ الَّذي نَكِرَتْ   مِنَ الحوادثِ إلَّا الشَّيْبَ والصَّلَعَا[١]

وقال أبو العالية: يقال: نَكِرَ بقلبِهِ، وأنكرَ بعينِهِ[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي: أضمرَ، وقيل: أي: أحسَّ.

وقيل: أنكرَهم حين لقيَهم لا يعرفهم، قال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، وازداد ذلك حين لم يتناولوا طعامَه، فأضمر في قلبِهِ خوفًا، وكان القوم إذا نزل بهم ضيفٌ فلم يأكلْ طعامَهم ظنُّوا أنَّه لم يَجِئْ بخيرٍ، وأنَّه يحدِّث نفسَه بشرٍّ[٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾: لمَّا علمَتِ الملائكةُ أنَّه استشعرَ خوفًا منهم أمَّنوه بأنْ كشفوا له الأمر فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ أي: لإهلاكهم.

وقيل: إنَّهم دَعَوُا اللهَ تعالى بإحياءِ العجلِ، فطَفِر حيًّا إلى مرعاه؛ أي: وثبَ[٤].

* * *

(٧١) ـ ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ هي سارة بنت هاران بن ناحور، بنت عمِّ إبراهيم بن آزر بن ناحور.

---

(١) نسب للأعشى في الكثير من كتب الأدب والتفسير، وهو في «ديوانه» (ص: ١٥١). غير أن أبا عبيدة ذكر في «مجاز القرآن» (١/ ٢٩٣) عن يونس عن أبي عمرو أنه هو الذي زاد هذا البيت في شعر الأعشى، وقال: فأتوب إلى الله منه.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١١/ ١٦٣).

(٣) في (ف): «وأنه يحدث شرًا».

(٤) في (أ): «ذهب».

وقيل: كانت قائمةً مِن وراء السِّتر تنظرُ إلى الملائكةِ وإبراهيم.

وقيل: كانت قائمةً على رؤوسِهم تخدمُهم على الطَّعام، وكانت عجوزًا فلم يكنْ بذلك بأسٌ، حكاه الإمامُ أبو منصور رحمه الله، وقال: لسنا ندري أين كانت قائمة(١).

وقوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قيل: ضحكَتْ تعجُّبًا لِمَا أشرفَ من العذاب على قوم لوط وهم غافلون، فإنَّه وصلَه بقوله: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠].

وقيل: ضحكَتْ سرورًا بما زالَ مِن الرَّوع عنها وعن إبراهيم بظهورهم ملائكةً.

وقيل: ضحكَتْ تعجُّبًا مِن امتناع الأضياف عن الأكل.

وقال وهب: ضحكَتْ تعجُّبًا مِن أن يكون لهما ولدٌ وقد هَرِمَا، وعلى هذا يكون في الآية تقديمٌ وتأخيرٌ: فبشرناها بإسحاق فضحكت.

وقال مقاتل: ضحكَتْ من خوف إبراهيم منهم وهم عدد قليلٌ، وهو بينَ خَدَمِه وحَشَمِه(٢).

وقال عكرمة: أي: حاضَتْ، تقولُ العربُ: ضحكَتِ الأرنبُ: إذا حاضَتْ(٣).

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٥٥).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٩٠).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٢). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥٥) عن ابن عباس. وتعقب هذا القول ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية بقوله: (وأما ما قيلَ: إنَّ (ضحِكَت) بمعنى: حاضَت. رُدَّ بأن التعجُّبَ بعدَه يبعِدُه، إذ لا يُعجَبُ من الولادةِ في زمن الحيضِ...). وللآلوسي في «روح المعاني» (١٢/ ١٦ ـ ١٧) مناقشة حسنة بين المؤيدين لهذا القول والمعارضين له فلتنظر ثمة.

وقيل: ضحكَتْ سرورًا بالبشارة بالولد، وقد بلغت ثمانيًا وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مئة وعشرين سنة.

وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾: أي: على ألسنةِ الرُّسلِ ـ وهم الملائكة ـ بولدٍ اسمُه إسحاق ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾: قرأ حمزةُ وابنُ عامر وعاصم في رواية حفصٍ: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنَّصب، والباقون بالرَّفع(١)، وهو على الابتداء.

ووجه النَّصب: أنَّ المعطوف على المخفوض بخافضٍ وبينهما حائلٌ يُحتاج فيه إلى إعادة الخافض، فيقال: مررْتُ بزيدٍ ومِن بعده بعبدِ اللهِ، فإذا لم يأتوا بالباء في (عبد الله) نصبوه، كأنَّهم أرادوا: ورأيْتُ مِن بعدِه عبدَ الله.

ووجه آخر: أنَّ قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ بمنزلةِ قوله: فوَهَبْنا لها إسحاقَ، فعطفَ عليه ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنَّصب.

وقيل: الوراء: النَّافلة، فإنْ صحَّ هذا، وإلَّا فظاهر ما يُفهَم مِن وراء وهو الخَلْف، يدلُّ على البشارة بالنَّافلة أيضًا، فإنَّه يكون بعدَه.

ودلَّت الآيةُ أنَّ الذَّبيح هو إسماعيل، فإنَّ الله تعالى بشَّر إبراهيم عليه السَّلام بأن يكون لإسحاق ولدٌ، وكان يعلمُ أنَّه لا يموت حتَّى يُولَد له ذلك، فلا يكون على هذا في الأمرِ بذبح هذا الولد امتحانٌ؛ إذ يعلم أنَّه لا يتحقَّق فيه الذَّبح للحال، فتعيَّن للابتلاء الولد الآخر؛ وهو إسماعيل.

***

(٧٢) ـ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: لمَّا بُشِّرَتْ بإسحاق تعجَّبَتْ، فقالَتْ: يا ويلَتَا،

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٥).

فافتتحَتْ بالدُّعاء بالويل على ما جرَتْ به العادة، وكأنَّها قالَتْ: يا عجباً.

﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾: أي: مُسنَّة، لم تدخلها الهاء لأنَّها وُضِعَتْ للأنثى خاصَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾: أي: زوجي، ونصب ﴿شَيۡخًا﴾ على الحال، أو على القطع؛ لأنَّه نكرةٌ نُعِتَ بها معرفة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾: ولم يكن هذا إنكارًا لقدرةِ اللهِ تعالى، بل هذا ممَّا يَرِدُ مثلُه على النَّفس إذا سُمِعَ بغتة، على ما عليه طبعُ البشريَّة.

وقد يكون التَّعجُّب من جهة تمنِّيها لسرعة كون ذلك، فتقول: أنَّى يكون هذا؟ فمتى يكون قريبًا أو بعيدًا؟ وأُحوَّل شابَّة وزوجي شابًّا، أو نكون على حالِنا؟ فإنَّه عجبٌ عادة.

* * *

(٧٣) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾: أي: لا عجبَ أنْ يَرزقَ اللهُ مثلَكُما(١) ولدًا.

وقوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾: يحتمِلُ أن يكون إخبارًا؛ أي: أنتم أهلُ بيتٍ نزَّل الله عليكم الرَّحمة والبركات بما آتى مِن النُّبوَّة وتمَّمَ مِن النِّعمة.

ويحتمِل الدُّعاء؛ أي: واصل(٢) الله لكم يا أهلَ البيت.

---

(١) في (ف): «منكما».

(٢) في (ر): «وأسأل».

وفيه ردٌّ على مَن أنكرَ مِن الرَّافضة أنْ يكونَ أزواجُ النبيِّ ﷺ مِن أهلِ البيت في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾: قال الحسن: أي: محمودٌ كريمٌ(١).

وقيل: أي: محمودٌ على نعمِه عند خلقِه، وكريمٌ منعِم على عبادِه، فأنتم أولى بهذه النِّعمة إذ كنتم أهل خلَّته وموالاته.

ثمَّ أوَّل القصَّة ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، وفي هذه الآية ذكرَ الرَّحمة والبركات، وهي إتمام التحيَّة، ولمَّا قالوا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ بقي هذا الدُّعاء على ألسنة هذه الأمَّة في الصَّلوات: «كما صلَّيْتَ وباركْتَ ورحمْتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»(٢).

والبركة: الزِّيادة والنَّمو، وقد استجيب ذلك، فبنو إسرائيل منهم، وهم الخلْقُ الكثير، والعربُ مِن أولاد إسماعيل، وهم الجمُّ الغفير.

* * *

(٧٤) ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾: أي: الخوف، راعَه يروعُه: إذا أفزعَه وخوَّفَه، وهو ما مرَّ: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

---

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ١٥٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٩٠) دون نسبة.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٩٩١)، والبيهقي في «سننه» (٢/ ٣٧٩)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفيهما: «وترحمت». وبنحوه رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأصل الحديث رواه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه، دون ذكر الرحمة.

﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾: وهو ما بينَّا، فأضمر جوابَ (لمَّا) هاهنا، وهو: انبسطَ لمعارضَتِهم وصفتهم[١].

﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾: أي: جعل يجادلهم، قال الحسن: يجادلُ رسُلَنا مِن الملائكةِ[٢].

واختُلِفَ في ذلك الجدال:

قال الحسن: هو قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٣٢][٣].

وقال قتادة: أيُعذِّبُون إنْ كان فيهم خمسون من المؤمنين؟ قالوا: لا حتَّى نزلهم إلى عشرة، فقالوا: لا[٤]، وذلك قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

وقيل: جادلَهم ليعلَمَ بأيِّ شيءٍ استحقُّوا عذاب الاستئصال، وهل ذلك واقعٌ بهم لا محالة، أم على سبيل الإخافة لِيُقبِلوا إلى الطَّاعة؟

وقيل: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾؛ أي: يسألُنا إمهالَهم رجاءَ أنْ يسلِموا، أو سمَّاه جدالًا لأنَّه كان يحرص في السُّؤال حِرْصَ المجادل عنه[٥].

وقال القشيريُّ رحمة الله عليه: كانَتْ مراجعةُ إبراهيمَ مع اللهِ تعالى في أمرِ قومِ

---

(١) «وصفتهم» ليس في (أ).

(٢) ذكره عن الحسن الماوردي في «تفسيره» (٢/ ٤٨٧)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونقله الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٠) عن عامة أهل التفسير.

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٢١)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٠).

(٥) «عنه» من (ف).

لوطٍ بحقِّ اللهِ تعالى، لا لحظِّ نفسِه، فسَلَّمَ(١) له الجِدال، وهذا يدلُّ على علوِّ شأنِه حيثُ تجاوزَ عنه ذلك(٢).

* * *

(٧٥) ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾: الحليمُ: البطيءُ الغضبِ، والأوَّاه: الدَّعَّاء، وقيل: الرَّحيم.

وقيل: المتأوِّه أسفًا على ما فاتَ قومَ لوطٍ مِن الإيمان، والمنيب: الرَّاجع إلى اللهِ جلَّ جلالُه بالإخلاص، وهذا مدحٌ له وبيانٌ أنَّ سؤالَه كان عن رحمةٍ ورِقَّةٍ، ولم يكن معارَضةً ولا اعتراضًا على قضيَّةٍ.

* * *

(٧٦) ـ ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾: أي: قيل له: تولَّ عن هذا الجِدال والسُّؤال؛ لأنَّ العذابَ نازلٌ بهم لا محالةَ.

﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: أي: عذاب ربِّك، وقيل: أمرُ الله تعالى بالعذابِ.

﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾: أي: سيأتيهم عذابٌ لا يُرَدُّ ولا يُدفَع بالشَّفاعة، فسَكَتَ وتركَ السُّؤال.

* * *

(١) في (أ): «فسمى»، والمثبت من باقي النسخ و«اللطائف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٤٧).

(٧٧) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾: أي: ساءَه مجيئُهم؛ أي: حزَنَه، والكنايةُ ترجع إلى الرُّسل.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾؛ أي: ضاقَ نفسُه عن هذا الحادث[1]، وذِكْرُ الذَّرْعِ مَثَلٌ، وهو المساحة في الحقيقة، وكأنَّه قَدْرُ البَدَنَ مجازًا؛ أي: بَدَنُه ضاقَ قَدْرُه عن احتمالِ ما وقعَ؛ أي: لمَّا صار هؤلاء الملائكةُ مِن عند إبراهيم إلى لوط في صورة البشر، ورآهم حِسانَ الوجوه، خافَ عليهم مِن قومِه أنْ يقصدوهم في منزلِه ولا يمكنُه دفعُهم، ولم يمكنْه التَّصريح به للأضياف، وساءَه وضعفَ عنه احتمالُه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل أنْ يكونَ قولُه: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ لمكان الأضياف، ويحتمِل أنْ يكون كلاهما بهلاك قومِه، ويحتمِل أن يكون أحدهما في هذا، والآخر في ذلك[2].

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾: أي: شديد، ولا تُستعمل إلَّا في الشَّرِّ، مأخوذٌ مِن العِصابة؛ كأنَّه التفَّ على النَّاس بالشَّرِّ، أو التفَّ بعضُ شرِّهِ ببعض.

وقيل: هو مِن إحاطةِ شرِّه بالنَّاس، ومنه عِصابة الرَّأس، وعُصْبَةُ الرَّجلِ: قرابتُه المحيطون[3] به.

***

---

(١) في (أ): «عن هذه الحادثة».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٦٠) بنحوه.

(٣) في (أ): «قرائبه والمحيطون».

(٧٨) ـ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾: قال ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة والسُّدِّيُّ: أي: يُسرعون في المشي[(١)].

وقال الضحَّاك: يسعون[(٢)].

وقال الفرَّاء: هو مشيٌ بينَ الهرولَةِ والجَمْزِ[(٣)].

وإنَّما أسرعوا إلى الأضياف لمَّا أعلمتهم امرأة لوط ـ وكانت كافرةً ـ فقالَتْ: ما رأيْتُ أحسنَ وجوهًا، ولا أطيبَ ريحًا، ولا أنظفَ ثيابًا منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: كنايةٌ عن إتيانهم الذُّكْران.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾: قال مجاهدٌ: بناتُ قومي؛ لأنَّ النَّبيَّ كالأبِ لقومِه، وأزواجُه أمَّهاتُهم، وأولادُهم كأولادِه[(٤)].

وقال مقاتلٌ وجماعة: أرادَ بنات صُلْبِه[(٥)].

﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾؛ أي: أحلُّ لكم بالنِّكاح.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٠ ـ ٥٠١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٧)، وفيه: «يهرعون؛ أي: يسرعون بسيرهم. والإهراع: الإسْرَاع فيه، شبيه بالرِّعدة».

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٤)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٢).

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٩٢).

وقال الحسين بن الفضل: أي: على شرط إسلامكم[١].

وقال آخرون: لعلَّه في ذلك الوقت كان يُباح للمشركِ المسلمةُ[٢]، وكان ذلك في ابتداء الأمر جائزًا في هذه الأمَّة، فالنَّبيُّ ﷺ زوَّج ابنتَه مِن عتبةَ بن أبي لهبٍ وأبي العاص بن الرَّبيع وكانا كافرَيْن[٣].

ثمَّ قوله: ﴿أَطْهَرُ﴾ لا يدلُّ على أنَّ إتيان الذُّكران كان طاهرًا، لكنَّهم اعتقدوا طهارةَ ذلك، فبنى ذلك على زعمِهم، وهو كما رُوِيَ أنَّ أبا سفيان بن حرب قال يوم أُحُد: أعْلُ هبل، فقال النَّبيُّ ﷺ لِعُمرَ: «قل: الله أعلى وأجلُّ»[٤].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل أن يكون هذا تعريفًا لهم خُبْثَ ذلك الفعلِ، ويكون معنى قوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: هذا أقلُّ خبثًا مِن ذلك؛ أي: الزِّنى بالبنات دون إتيان الذُّكران في الخبث، وكانوا يعتقدون حرمةَ الزِّنى، فبيَّن[٥] أنَّ هذا يزول بالنِّكاح، وذاك لا يزول بحال[٦].

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾: أي: لا تُخجلوني في أضيافي، ولا تفضحوني فيهم.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ١٩١).

(٢) في (أ): «كان ينكح المشرك المسلمة».

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٥٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٣٩).

(٤) رواه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٥) في (أ): «فسر»، وفي (ف): «فتبين».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٦١). وهذا كلام مردود، وإغراق في التأويل، فكيف يظن بهؤلاء أنهم يرون الزنا حراماً ثم يستحلون ما أقبح منه وهو إتيان الذكور، ومن أين عرف هذا القائل أن هؤلاء القوم الذين بلغوا غاية السوء أنهم كانوا يحرمون الزنا وهم كافرون أصلاً بالله فاعلون لأقبح القبائح، ثم كيف يتصور أن يدعو نبي لفاحشة من أجل بيان ما أفحش منها؟

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾: أي: مهتدٍ إلى طريق الحقِّ، فينهاكم عن هذا، ويدفعَكم عن أضيافي.

وقال عكرمة: أليسَ منكم رجلٌ رشيدٌ[(١)] يقول: لا إله إلَّا الله[(٢)]؟

* * *

(٧٩) ـ ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾: قال محمَّد بن إسحاق: أي: لسنَ لنا بزوجات[(٣)].

وقيل: أي: ما لنا فيهنَّ مِن حاجةٍ، فجعلوا تناول ما لا حاجةَ لهم فيه كتناول ما لا حقَّ لهم فيه.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾: مِن إتيان الذُّكور[(٤)].

* * *

(٨٠) ـ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾: أي: عُدَّة، وجوابُه محذوفٌ، وهو أبلغ؛ لأنَّ النَّفس تذهبُ فيه كلَّ مذهب.

وقيل: هو كلمة تمنٍّ؛ أي: ليتَ لي بكم قوَّة.

---

(١) «رشيد» ليس في (أ).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٣) عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٥٨) عن عكرمة إلى أبي الشيخ.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٣).

(٤) في (أ): «الذكران».

وقوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: مجازٌ عن عشيرةٍ يلتحقُ بهم ويستعينُهم[١].

وفي الخبر: «ما بعثَ اللهُ تعالى بعدَه نبيًّا إلَّا وهو في كثرةٍ مِنْ عشيرَتِهِ ومَنَعَةٍ تسكينًا لقلبِهِ»[٢].

وقيل: لو أنَّ لي بكم قوَّة على هدايتكم لهديْتُكم، وعن هذه الحالةِ أنجيْتُكُم.

* * *

(٨١) ـ ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ قيل: قالوا: إنَّ ركنَكَ لشديدٌ، وإنَّا رُسُلُ ربِّك أُرسِلْنا لإهلاك قومِكَ، فلا تخفْ، فلن يصلوا إليك بمساءَةٍ فينا.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: وكان لوطٌ عليه السَّلام أغلقَ بابَه، والملائكةُ في دارِه، وقومُه على الباب يناظرونه، فقال جبريل صلوات الله عليه: إنَّا رسلُ ربِّك فافتحِ البابَ، ففتحَ ودخلوا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾[٣] [القمر: ٣٧]؛ أي: أعميناهم أو[٤] محوناها.

---

(١) في (ف): «ويستغيث بهم»، وفي (ر): «وأستغيث بهم».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٠٩٠٣)، والترمذي (٣١١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥١٨).

(٤) في (أ): «أعميناها و» بدل من «أعميناهم أو».

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع: ﴿فَاسْرِ﴾ بالوصل مِن سَرَى، والباقون بالقطع مِن أَسْرَى[١]، وهما لغتان في اللازم، والتَّعديةُ هاهنا بالباء.

فخرج وأهله وأولاده والمؤمنون معه ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: بطائفةٍ مِن اللَّيل[٢].

وقال الضَّحَّاك: ببقيَّة من الَّليل. وقال قتادة: بصدْرِه. وقال الأخفش: بعد جنح[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿امْرَأَتُكَ﴾ رفعًا بدلًا عن قوله: ﴿أَحَدٌ﴾، والباقون بالنَّصب على الاستثناء[٤].

والنَّهي عن الالتفات أمرٌ بالإسراع ليتباعدوا عن القوم فلا ينالهم أثرُ عذابهم.

وقيل: أي: لا تشتغل قلوبُكم بما خلَّفتم من المال والمتاع، وامضوا مُخِفِّين مسرعين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾: مِن العذاب؛ لأنَّها كافرةٌ مثلهم.

فقال لوط لجبريل: متى وقتُ هلاكهم؟ قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ فقال لوط: أريدُ أسرَعَ مِن ذلك، فقال جبريل عليه السَّلام: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾: استفهامٌ بمعنى الإثبات.

***

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٥).

(٣) ذكره الأقوال الثلاثة الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٣).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٥).

(٨٢) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: أي: العذاب الَّذي أَمْرْنا به ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾؛ أي: جعلَ جبريلُ أعلى قريتِهم سافلَها بأمرِنا، على ما مرَّ سياقُ القصَّة في (سورة الأعراف).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾: أي: وأمطرنا عليهم بعد التَّقليب أحجارًا من سِجِّيل.

قيل: حجارة صلبة ليسَتْ مِن جنس حجارة البرَد.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما وقتادة: هو فارسيٌّ معرَّب سَنْك وكَلْ[1]، كالدِّيباج والجاموس.

وقال أبو عبيدة: هو شديد من الحجارة[2].

وقيل: هو مثل السَّجْلِ في الإرسال عليهم[3]؛ أي: الدَّلو.

وقيل: السَّجل: هو الإرسال.

وقيل: هو من السِّجِلِّ ـ المشدَّد باللَّام ـ وهو الكتاب؛ أي: حجارة كَتَبَ عليها اللهُ تعالى أن يعذِّبهم بها.

---

(١) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن أبي شيبة (٢٩٩٧٨)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٨)، وزاد بعضهم فيه: (حجر وطين). وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٧٠٠)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٦) عن قتادة قال: (السجيل: الطين).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٩٦).

(٣) «عليهم» ليس في (أ).

وقال الفرَّاء: طينٌ طُبِخَ حتَّى صار كالأرحاء، و﴿مَّنضُودٍ﴾؛ أي: يتبعُ بعضُها بعضًا[١]، كالمتاعِ المنضودِ بعضُها على بعضٍ.

وقيل: كانت منضودة في السَّماء معدَّة.

***

(٨٣) ـ ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾: نُصِبَتْ لأنَّها نعتُ قوله تعالى: ﴿حِجَارَةً﴾؛ أي: معلَّمةً في خزائن الله تعالى الَّتي لا يُتصرَّف فيها إلَّا بإذنِهِ بعلاماتٍ تعرفُها الملائكةُ إذا أُمِرُوا أنْ يمطروها.

وقال الحسنُ: أي: مختومةً[٢].

وقال الرَّبيع بن أنس: مكتوب على كلِّ حجرٍ اسمُ مَن رُمي به، وكذا قال عكرمة[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾: أي: لم تكنْ لتُخطئَهم.

وقيل: اتَّبعَتْ المتفرِّقين عنهم في الأمصار والأسفار.

وقيل: مِن مشركي قريش، وسأل النَّبيُّ ﷺ جبريلَ عن هذا فقال: «يعني: من ظالمي أمَّتِك»[٤].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٥١٦).

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ١٦٥)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٩٤)، بلا نسبة.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٤)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٥١٩) من حديث أنس رضي الله عنه بلا إسناد. قال الولي العراقي: ذكره الثعلبي بغير إسناد، ولم أقف له على إسناد. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٧٢٠).

وقوله تعالى: ﴿بِبَعِيدٍ﴾؛ أي: بمكان بعيد.

(٨٤) - ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: عطف على قوله: ﴿نُوحًا﴾.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾: مرَّ تفسيرُه.

﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾: كانوا مشركين، فدعاهم إلى التَّوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى، ثمَّ نهاهم عن ظلم النَّاس في الكيل والوزن، وحذَّرهم سوء عاقبتِه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾: أي: أراكم في الخِصْب وسَعَةِ الرِّزق[1]، وكثرة النِّعم، ورُخص الأسعار، على وجهٍ لا ضرورةَ بكم معه إلى نقصِ الكيل والوزن، فاستَبْقُوا نعمةَ الله عليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: محيطٍ بكم عذابُه، كما قال: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، ويوم شديد[2]، و﴿يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٧٧]، إنِّي أخاف عليكم إنْ تلقَّيتم هذه النِّعم بالكُفْران وظلمِ النَّاس أنْ يأتيَكُم عذابُ يومٍ محيطٍ بكم، فلا تتخلَّصون عنه.

***

(١) في (أ): «في الخصب والسعة والرزق».

(٢) كذا في النسخ، وليست آية.

(٨٥) ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾: أي: أتمُّوها بالعَدْلِ.

أعاد الأمر بالإتمام بعد تقديم النَّهي عن ضدِّه، وهو كقولك: صِلْ قرابَتْك ولا تقطَعْها، فيكون الجمعُ بينَ الأمر والنَّهيُ عن ضدِّه دليلًا على تأكُّد وجوبه.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾: أي: ولا تنقصوا النَّاس ما استحقُّوه عليكم بالعقود.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾: العِثِيُّ: المبالغةُ في الإفسادِ، من حدِّ عَلِمَ.

وجعلَ هذه المعاملةَ إفسادًا في الأرض لأنَّه تبديلُ حكمِ الدِّين، واللهُ تعالى أصلحَ الأرضَ بالأمرِ بالمعاملات الَّتي إذا عملوا بها اعتدلَتْ أحوالُهُم، وزالَ التَّظالم عنهم، فمَن غيَّر هذا فقد أفسد.

***

(٨٦) ـ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾: أي: ما يبقيْهِ اللهُ تعالى لكم بعدَ إيفائِكُم حقوقَ النَّاس بالقِسْط في الكيل والوزن أحمدُ عاقبةً، وأكثرُ بركةً ممَّا تبقونه لأنفسِكُم مِن فضلِ الخيانة.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: قيل: هو متَّصل بقوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ ... وَلَا تَبۡخَسُواْ... إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

فيحتمـلُ أنَّهـم كانـوا يقـرُّون بـأنَّ اللهَ تعالـى خالقُهـم ومالكُهم، كما قـالَ في حـقِّ مشـركي العـرب: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، والإقـرار بالألوهيَّـة لله يوجـب طاعتَـه فيما أمـرَ ونهى.

ويحتمل أنَّه متَّصل بقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: هي خيرٌ لكم؛ إنْ صدَّقتموني فيه وعملْتُم به حصلَ لكم هذا الخيرُ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: إنَّ ما[1] أبقى اللهُ لكم مِن الثَّواب في الآخرة خيرٌ لكم مِن الأموال في الدُّنيا.

وقيل: طاعةُ اللهِ الَّتي يبقَى ثوابُها خيرٌ لكم مِن هذا[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: قال: إنِّي لسْتُ أشهدُ بياعاتكم حتَّى أعلمَ ببخسِكُم، وإنَّما أعرفُ ذلك بإخبارِ اللهِ تعالى، وفيه إثباتُ رسالتِه.

وقيل: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: بمسلَّطٍ عليكم أجبركم على هذا، وإنَّما أنا مبلِّغٌ منذِرٌ.

وقيل: وما أنا بمأمورٍ بحفظِكُم فأُؤاخَذَ بفعلِكُم.

***

(٨٧) ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾: قيل: كان شعيبٌ صلوات الله عليه يصلِّي الصَّلوات،

---

(١) في جميع النسخ: «مما»، والمثبت من «تأويلات أهل السنة».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٦٨).

وكانوا يقولون له: ما تستفيدُ بهذا؟ فكان يقول: إنَّها تأمر بالمحاسِنِ وتنهى عن المساوئ، كما عرَّف اللهُ تعالى عبادَه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فقالوا له على وجه الاستهزاء به: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ﴾؛ أي: تأمرُنا بترْكِ عبادةِ ما كان يعبدُ آباؤنا، وأنْ نتركَ التَّبسُّط في أموالنا بما نشاءُ مِن إيفاءٍ ونَقْصٍ؟

وقيل: أدينُكَ[1] يأمرُكَ بهذا؟ وسُمِّي الدِّين بها[2] لأنَّها أعظمُ شرائعِ الدِّين، وما خلَتْ عنها شريعةُ أحدٍ مِن المرسَلِيْن.

وقيل: كانوا يكسرونَ الدَّراهم الصَّحيحة، فكان تبايعُهم بالمكسور عدداً، وبالصِّحاح وزنًا[3]، فيقعُ البَخْسُ بهذا.

وقيل: كانوا يقطعون أطرافَها، فيستفضلون القُرَاضات، ويتبايعون بالباقي على أنَّه درهمٌ تامٌّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾؛ أي: السَّفيه الضَّالُّ، وهذه التَّسمية على القَلْبِ على وجْهِ الاستهزاء؛ كما يُقال للحبشيِّ: أبو البيضاء، وهو كقولِ خزنة جهنَّم لأبي جهلٍ لعنه الله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال الشَّاعر:

فَقُلْتُ لسيِّدنا يا حليـ ـمُ إنَّكَ لم تأسُ أسوًا رَفِيْقَا[4]

---

(١) في (ر) و(ف): «أربك».

(٢) في (ر) و(ف): «بهذا».

(٣) في (ر): «بالمكسور عددًا والصحاح وزنا».

(٤) البيت لشييم بن خويلد. انظر: «الحيوان» (٣/ ٨٢)، و«البيان والتبيين» (ص: ١٠٧)، و«لسان العرب» (مادة: خفق). ودون نسبة في «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١١٨)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٢٥٨).

وقيل: معناه: إنَّك عندَنا حليمٌ رشيدٌ، ولسْتَ تفعلُ بنا ما يقتضيه حالُك، فتسفِّهُنا وتمنعُنا عمَّا كان عليه آباؤنا العقلاء، وهذا ليس بفعل الحليم الرَّشيد، وهو كقول قوم صالح: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ [هود: ٦٢].

* * *

(٨٨) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾: أي: على حجَّة وبيان في التَّوحيد والصَّلوات.

﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: أي: أعطاني ذلك مِن عنده عطاءً حسنًا.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾: أي: أخالفَكُم في تركِ ما أمرتُكُم به ميلًا إلى فعلِ ما أنهاكُمْ عنه، بل لا آمرُكُم بشيءٍ إلَّا عملْتُ به، ولا أنهاكم عن شيءٍ إلَّا انتهيْتُ عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾: أي: ما أُريدُ إلَّا الإصلاحَ في الأرض ما قدرْتُ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: أثبتَ الإرادةَ والفعلَ مِن نفسِه، والتَّوفيق مِن ربِّه، وهو الجمعُ بينَ الطَّاعة والاستطاعة، وهو مذهبُ أهل السُّنَّة والجماعة، وهو خلافُ قولِ القدريَّة والجبريَّة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: أي: عليه اعتمدْتُ لَمَّا كان[1] لا يَتمُّ شيءٌ إلَّا بتوفيقِه، وأُنيبُ إليه في المستقبلِ؛ أي: أرجعُ إليه في تمام ما أَنويه.

وجوابُ هذا الكلامِ محذوفٌ؛ أي: أتسفِّهونني على ذلك كلِّه وتشاقُّونني عليه؟ وهو استفهامٌ بمعنى التَّوبيخ.

وقيل: الجواب على هذا التَّقدير: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أفأعدِلُ عن عبادتِه مع هذه الحالةِ الدَّاعيةِ إليها الموجبةِ لها.

وقيل: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي: نبوَّة.

وقيل: توفيقًا للأعمال الصالحة.

وقيل: أي: كفايةً في المعاش، وهو كما مرَّ.

﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ ومعناه: إنْ كنْتُ على بيانٍ أهتدي به إلى أمور الدِّين، وكفافٍ أُصلحُ به أمور الدُّنيا؛ فأنا مستغنٍ عن أموالِكُم، فلا آمركُم بالإيفاءِ ولا أنهاكم عن البَخْسِ طمعًا في مالِكُم، بل إرشادًا لكم إلى إصلاحِكُم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الرزق الحسن: ما كُفي صاحبُه كدَّ طلبِه، ولم يُصِبْه نَصَبٌ بسببِهِ.

ويقال: الرِّزق الحسن: ما وُجِدَ غيرَ مرتقَبٍ[2] ولا محتسَبٍ ولا مكتسَبٍ[3].

---

(١) «لما كان» من (أ).

(٢) في (ف): «ما وجد من غير تعب» وفي (ر): «ما وجد عن غير مرتقب».

(٣) «ولا مكتسب» ليس في (أ). وهذه الألفاظ لم ترد في «اللطائف».

ويقال: الرِّزق الحسن: ما يستوفيه شهودُ الأرزاق[١]، ويجبُ طلبُه عنِ المنعِم بوجودِ الإرفاقِ[٢].

وقال في التَّوكل: هو تركُ التَّدبير لشهود التَّقدير، والثِّقة بالموعود عندَ عدم الموجود، ويتبيَّنُ ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسبابِ.

وقيل: هو السُّكون والثِّقة بالمضمون.

ويقال: سكونُ القلبِ بمضمونِ الرَّب[٣].

***

(٨٩) ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾: قال الحسنُ وقتادةُ: أي: لا يحملنَّكُم[٤].

وقال الزَّجَّاج: أي: لا يكسبنَّكم شقاقي؛ أي: معاداتي ومخالفتي[٥].

وقد شاقَّه مشاقَّة؛ أي: صار في شقٍّ، وخصمُهُ في شقٍّ.

---

(١) في (أ): «الرزاق».

(٢) العبارة في «اللطائف»: (ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التنعم بوجود الرّزّاق. ويقال: الرزق الحسن ما لا ينسى الرزّاق، ويحمل صاحبه على التوسعة والإنفاق).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

(٤) ذكره عنهما الماوردي في «تفسيره» (٢/ ٤٩٨)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٤)، عن قتادة.

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٧٤).

وقوله تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾: أي: لا يحملنَّكم ذلك أنْ تُصِرُّوا على الكفرِ، فيصيبَكُم مثلُ ما أصابهم.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾: أي: لم يبعدِ العهدُ بما جَرَى عليهم.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمَه الله: ذكَّرَهم حالَ هذهِ الأمم؛ لأنَّهم كانوا يقلِّدون آباءَهم، فيقول: فعلوا ذلك لكن أصابَهم ما أصابَهم، فاجتنِبوا ذلك.

ويقول أيضًا: إنْ قلَّدْتُم الَّذين عبدوا الأوثان فهلكوا، فهلَّا تقلِّدون الَّذين لم يعبدوها فنَجَوا[1].

***

(٩٠) ـ ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾: قد فسَّرناه في هذه السُّورة مرارًا.

﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ بمن استغفرَه وتابَ إليه ﴿وَدُودٌ﴾ مِن الوُدِّ؛ وهو الحُبُّ، ويجوزُ أن يكون بمعنى الوادِّ، ويجوز أن يكون بمعنى المودود، فإنَّ الفَعول[2] يصلح لهما.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٧٣).

(٢) في (أ): «الفعل»، وفي (ر) و(ف): «المفعول». والصواب المثبت. قال الزجاجي في «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص: ٥٢): (الوَدُود يجوز أن يكون فَعولًا بمعنى فاعل ويجوز أن يكون فَعولًا بِمَعْنى مفعول).

ومن العلماء من جمع المعنيين معاً، قال ابن القيم في «التبيان في أيمان القرآن» (ص: ١٤٦): (والتحقيقُ: أنَّ اللفظ يدلُّ على الأمرين؛ على كونه وادًّا لأوليائه، مودُودًا لهم، فأحدهما بالوَضْع، والآخر باللزوم. فهو الحبيبُ المُحِبُّ لأوليائه، يحبُّهم ويحبُّونه).

وقوله: (فأحدهما بالوَضْع، والآخر باللزوم)، شرحه في قول الزجاجي: (والله تعالى وصف نَفسه في مَوَاضِع بأنَّه يُحِبُّ، ولا يُحِبُّ إلا وهو أيضا مَحْبُوب مودود عند أوليائه).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: حُقَّ أن يُوَدَّ؛ إذْ منه كلُّ إحسانٍ، والنَّاس جُبِلُوا على حبِّ مَنْ أحسنَ إليهم.

ويجوز: ودودٌ لِمَنْ توسَّل إليه(٣).

* * *

(٩١) ـ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾: أي: لا نفهمُ لأنَّك تُحِيْلُنا على أمورٍ غائبةٍ.

﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال الحسنُ: أي: مَهينًا(٢).

وقال سفيانُ: أي: ضعيفَ البصر(٣).

وقال سعيدُ بنُ جبيرٍ وقتادةُ: أي: أعمى(٤).

وقيل: أي: ضعيف البدن.

وقيل: أي: لا مالَ لك ولا أعوان، فلا تقدِر أنْ تحملَنا(٥) على مرادِكَ، ولا تُمنع عنَّا إن قصدْناكَ.

---

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٧٤).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٢٠٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥٣).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥٢) عن سعيد بن جبير، وذكره الواحدي في «تفسيره» (١١/ ٥٣٤) عن قتادة.

(٥) في (ر): «تحيلنا».

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾: أي: عشيرتُكَ، وهم على دينِنا.

﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾: قيل: لرمَيْناكَ بالحجارةِ، وقيل: لسبَبْناكَ، وقيل: لقتلْناكَ.

وقيل: لطردْناكَ؛ كقولهم: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وهو مِن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وهو طردُهم وإبعادُهم عن الاستماعِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾: أي: في نفسِكَ، وإنَّما نُعِزُّ[1] رَهْطَكَ، ونكرَهُ إبخاسَهُمْ فيك.

* * *

(٩٢) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أكرمُ عندكم وأعزُّ مِنَ اللهِ الَّذي بعثني إليكم، وألزَمَكُم إعزازي والانقيادَ لي؟ استفهامٌ بمعنى الإنكار.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾: أي: جعلْتُم أمرَ اللهِ ظهرًا[2]؛ أي: تستخفُّون به فلا تسمعون مواعظَه، وتكذِّبون بآياتِه، ولا تأتمرون بأمرِه، وتعبدونَ غيرَه.

تقول العربُ: جعلْتَ حاجتي وراءَ ظهرِكَ، وفي ضدِّه: جعلْتَ حاجتي نُصْبَ عَيْنِكَ، وأمامَ وجهِكَ. ومجازُه: جعلَه حيثُ لا يراه، فيسهو عنه وينساه.

والظِّهريُّ منسوبٌ إلى الظَّهر، كالدُّهريِّ ـ بالضَّم ـ منسوب إلى الدَّهر، والسُّهليِّ ـ بالضَّم ـ منسوب إلى السَّهل، وتغييرُ الحركاتِ في النِّسبة كثير.

---

(١) في (أ): «نعزز».

(٢) في (أ): «ظهريًا»، وفي (ر): «ظهيرًا».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يعني: عالم بالكليَّة، يجازيكم عليها.

* * *

(٩٣) ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾: أي: اثبُتوا على ما أنتم عليه، فإنِّي عاملٌ على مكانتي؛ أي: منكم العصيان، ومنِّي الإبلاغ، وهو صيغةُ أمرٍ معناه التَّهديد.

وقيل: أي: اعملوا فقد مُكِّنْتُم في الدُّنيا من العمل.

وقيل: أي: على تمكُّنٍ منكم مِن عملِكم وتثبُّت فيه؛ كما قالَ نوحٌ صلوات الله عليه: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾: وفي قصَّة نوحٍ عليه السَّلام: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٩]؛ ليتَّصلَ بالفاء فيصيرَ كالجواب، وهاهنا بحذفها، وهو استئناف؛ أي: سوف تعلمون الَّذي يأتيه عذابٌ يفضحُه، والَّذي هو كاذب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: أي: وانتظروا ما يكون مِن حكمِ اللهِ تعالى بيني وبينكم، ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: منتظِرٌ مراقبٌ لكم.

* * *

(٩٤ ـ ٩٥) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾: مرَّ تفسيرُ هذه الكلمات مرَّات.

وقال هاهنا: ﴿وَأَخَذَتِ﴾ على تأنيث اللَّفظ، وقال في قصَّة صالح عليه السَّلام على تذكير المعنى، فإنَّه في معنى الصياح، ومرَّ سياق القصَّة في (سورة الأعراف).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: سوفَ تعلمون في العاقبة مَن يأتيه منَّا عذابٌ يخزيه، نحن أو أنتم؟ وتعلمون أيضًا مَنِ الكاذب منَّا، نحن أو أنتم؟ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن الفريقَيْن يدَّعي على الفريق الآخر الكذبَ، فارتقبوا هلاكي، وأنا أرتقب هلاككم، وارتقبوا لِمَن العاقبةُ منَّا، لنا أو لكم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾: هلَكَ كلُّ واحدٍ مِن الفريقَيْنِ بالصَّيحةِ.

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: لم يُعذَّب بعذابٍ واحدٍ إلَّا قومان؛ قومُ شعيب، وقومُ صالح، فأمَّا قومُ صالح فأخذتهم الصَّيحةُ مِن تحتِهم، وقومُ شعيبٍ مِن فوقِهم، فنشأَتْ لهم سحابةٌ فيها عذابُهم فلم يعلموا، كهيئة الظُّلَّة فيها ريحٌ، فلمَّا رأَوْها أَتَوْها يستظلُّون تحتَها مِن حرِّ الشَّمس، فسالَ عليهم العذابُ مِن فوقِهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩][1].

* * *

(٩٦) ـ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾: الآياتُ والسُّلطانُ

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٦/ ١٧٧).

واحدٌ عندَ بعضِهم، وهو المعجزات، لكن كُرِّرَ لاختلافِ الصِّفتَيْن؛ لأنَّها سمِّيَتْ آياتٍ مِن جهة العبرة العظيمة، وسمِّيت سلطانًا من جهةِ القوَّة العظيمة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل أن تكون الآيات هي الأوامرَ والنَّواهيَ، والسُّلطان: هو البراهين(١).

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: الآيات: هي المعجزات الباهرة، والسُّلطان المبين: استيلاؤه على قلبِ مَن رآه(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، لم يرَهُ أحد إلَّا أحبَّه، ولم يأخذْهُ في الله فشلٌ ولا ضعفٌ، لطمَ وجهَ فرعون وهو رضيعٌ، ووكزَ القِبطيَّ حتى أتى عليه، وأخذَ برأس أخيه يجرُّه إليه، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ولم يعاتبْه اللهُ تعالى في شيءٍ من ذلك، بل تجاوز عنه لِمَا أعطاه مِن السُّلطان والقوَّة(٣).

* * *

(٩٧) - ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

وقوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾: أي: الأشراف مِن قومِه، والإرسال إليه يكون إرسالًا إلى العامَّة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: في كلِّ ما أمرَ به ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾؛ أي: بمؤدٍّ إلى الحقِّ والصَّواب.

* * *

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٧٨).

(٢) في (ر): «أحبه»، وفي (ف): «خص به».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٥٥).

(٩٨) ـ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يتقدَّمهم، فيكون قُدَّامهم وهم خلفَه؛ لأنَّهم رضُوا بأن يكون قائدَهم في الدُّنيا إلى خلافِ ما دعا إليه موسى.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾: أي: يوردُهم إيَّاها، وذُكِرَ بصيغة الماضي إلحاقًا بالكائن المتحقِّق؛ لأنَّه يكون لا محالةَ.

والإيرادُ: الإدخالُ.

قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ما في القرآنِ مِن الورودِ في ذِكْرِ جهنَّم، فهو الدُّخول فيها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، واللهِ لَيَرِدَنَّها كلُّ برٍّ وفاجرٍ، ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢][1].

وقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾: أي: المُدْخَل[2] المَدْخُول.

* * *

(٩٩) ـ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي: وأتبعَهم اللهُ ما أنزلَ بهم[3] مِن العذاب لعنًا لهم في الدُّنيا، ويوم القيامة يُلعَنون أيضًا في النَّار وقبل

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٥٢)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٣).

(٢) في (أ): «الداخل».

(٣) في (ر): «ما يُرْدِيهم».

دخولها، وهو لعنُ الخلائقِ إيَّاهم في الدُّنيا وفي الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقيل: هو الطَّرد في الآخرة عن الرَّحمة، فلم يُرحَموا لا في عذاب الدُّنيا ولا في عذاب الآخرة.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: هو الطَّرد في الدُّنيا عن الإيمان، وفي الآخرة عن الجِنان[1].

وقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ هو في اللُّغة لمعنيَيْن؛ الرِّفد: العَوْن، والرِّفد: العطاء، وجعلَه بمقابلةِ ما لأهل الجنَّة مِن المعونة والعطيَّة، كما ذكر البشارة بالنَّار في حقِّ الكفَّار بمقابلة بشارة المؤمنين بالمسارِّ والمبارِّ.

* * *

(١٠٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾: أي: ذلك النَّبأ، وهو الخبر العظيم ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾؛ أي: نخبرُك بأمورِها نُتبعُ بعضَها بعضًا، وهي القُرى الَّتي سكنَها الأمم الخالية، منها ما هو الآن عامرٌ قد بادَ أهلُه وخلَفَهم غيرُهم ككفار فرعون[2]، ومنها ما هو حصيدٌ؛ أي: مستأصَلٌ خراب؛ كقُرَى قومِ لوطٍ ونحوها.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿قَآئِمٌ﴾: يُرَى له أثرٌ، و﴿وَحَصِيدٌ﴾: لا يُرى له أثرٌ[3].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٥٦).

(٢) في (ف): «كفار» بدل من «ككفار فرعون».

(٣) رواه هكذا الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٧) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦٧)، =

وقال مجاهد: ﴿قَآئِمٌ﴾؛ أي: خاوية على عروشها، و﴿وَحَصِيدٌ﴾: مستأصَل(١).

وقال قتادة: ﴿قَآئِمٌ﴾: لم يذهب أصلًا، و﴿وَحَصِيدٌ﴾: قد ذهب أصلًا(٢).

وقال محمَّد بن كعب القرظي: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾: جدرانها وحيطانها، ومنها ﴿حصيد﴾: ساقط(٣).

* * *

(١٠١) - ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: أي: ما عذَّبناهم بغيرِ ذنبٍ، ولكن ظلموا أنفسَهم بالشِّرك وتكذيب الرُّسل.

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾: أي: فما نفعَتْهم، ولا دفعَتْ عنهم ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: أصنامهم الَّتي اعتقدوها آلهةً معبودة.

﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: أي: العذابُ الَّذي أمَر به.

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: قال مجاهد وقتادة: أي: غيرَ تخسيرٍ(٤).

= وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «القائم: قرى عامرة. والحصيد: قرى خامدة».

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٨).

(٢) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٣) روى أوله ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٢).

(٤) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٣).

وقيل: أي: غيرَ هلاك[1]؛ أي: ما زادَتْهم الأصنام إلَّا الخسار والهلاك؛ لأنَّ عبادتهم إيَّاها أفضَتْ بهم إلى ذلك.

***

(١٠٢) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: أي: وكما أخذنا هذه القرى الَّتي سمَّيناها ـ أي: أهلَها ـ نأخذ أهلَ سائرِ القرى إذا ظلموا بالشِّرك.

***

(١٠٣) ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي: فيما فعلْنا بهم وأخبرْنا عنهم عبرةٌ لِمَن اتَّقى وخشيَ عقوبةَ العُقبى.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: أي: يُجمَع فيه النَّاس، وَحَّدَ النَّعتَ للتَّقدُّم كما يُوحَّد الفعل، والمراد: جمعَ النَّاس وغيرهم فيه من الملائكة والجنِّ والشَّياطين والحيوانات، لكن خصَّ النَّاس بالذِّكر لأنَّهم المقصودون بالجمع.

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: أي: يشهدُه أهلُ السَّماوات وأهل الأرضين.

***

---

(١) في (ف): «إهلاك».

(١٠٤ ـ ١٠٥) ـ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾: أي: وما نؤخِّر هذا اليومَ إلَّا لأجلٍ معلومِ العدد عندنا؛ لأنَّه لا يتقدَّم ولا يتأخَّر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾: قرأ عاصمٌ وابن عامر وحمزةُ بغيرِ ياءٍ في الوصل والوقف اتِّباعًا لخطِّ المصحف، وهو لغةُ هُذيل، يقولون: لا أدرِ، وقرأ الباقون بالياء في الوصل، والحذفِ في الوقف، إلَّا ابنَ كثير فإنه يقف بالياء أيضًا[1].

ونصبُهُ بإضمار: وذكِّرهم ﴿يَوْمَ﴾ وهو مضاف إلى ﴿يَأْتِ﴾ وهي إضافةٌ غير محضة؛ لأنَّه إلى فعلٍ لا إلى اسم[2]، وإنَّما جازَ لأنَّ اليوم اسم زمان، والزَّمان مع الفعل يتناسبان مِن حيثُ إنَّ الفعلَ لا ينفكُّ عنه، ويتصرَّف[3] بتصرُّفه، ولا يكون موجودًا إلَّا وقتًا واحدًا كالزَّمان لا يبقى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: أي: لا تتكلَّم، حُذِفَتْ إحدى التَّاءين تخفيفًا؛ أي: لا يشفعُ أحدٌ لأحدٍ إلَّا بإذنِ اللهِ تعالى، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والهاء في قوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ ترجعُ إلى اللهِ تعالى؛ كما في قوله: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ﴾ [هود: ١٠٣]، وقد ذكر قبلَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٢].

وقيل: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ﴾ يرجعُ إلى اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٧).

(٢) في (ر) و(ف): «الفعل لا إلى الاسم».

(٣) في (ف): «ولا ينصرف».

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، لكنَّ الجمعَ إلى اللهِ تعالى، فكان قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ راجعًا إلى ذلك المدلول.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾: أي: فممَّن يُشهَدُ ويُجمَعُ له شقيٌّ ومنهم سعيدٌ، وحُذِفَ تكرار (منهم) اختصارًا؛ كما في قولك: بينَ فلان وفلانٍ عداوةٌ.

* * *

(١٠٦) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾: كلمةُ (أمَّا) لتمييزِ نوعٍ مِن نوعٍ، أو شخصٍ مِن شخصٍ.

﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: مأواهُم النَّار ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾: قال الكلبيُّ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: الشَّهيق: أوَّلُ صوتِ الحمار، والزَّفيرُ آخرُه[١].

وقال الضحَّاك: الزَّفير: حين ينهق، والشهيق: حين يفرغ من نهيقه[٢].

وقال مقاتل: الزَّفيرُ: أوَّلُ نهيق الحمار، والشَّهيقُ: آخرُه[٣].

وقال أبو العالية: الزَّفير: في الحلق، والشَّهيق: في الصَّدر[٤].

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٧١) لكن على العكس بين الزفير والشهيق، ولفظه قريب مما سيأتي عن الضحاك.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٩) عن الضحاك ومقاتل بلفظ مطابق لما سيأتي عن مقاتل.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٩٨).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٧).

وقال الخليل: الزَّفير: إخراج النَّفَس، والشَّهيق: ردُّ النَّفَس[١].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في روايةٍ: الزفير: صوت شديد، والشهيق: صوت ضعيف[٢].

وقيل: الزَّفير: النَّفَسُ العالي للتَّحسُّر على الشَّيء الَّذي فات، والشَّهيقُ: كأنَّه أعلى في النَّفَس من الزَّفير.

وقيل: الزَّفيرُ: ترديدُ النَّفَس مع الصَّوتِ مِنَ الحزن حتَّى تنتفخ الضُّلوع، وزفرَتِ النَّار: إذا سُمِعَ لها صوتٌ في شدَّة توقُّدها، والشَّهيق: الصَّوتُ الفظيع يخرجُ مِن الجوف بمدِّ النَّفَس، وأصلُه الطُّولُ المفرِط، مِن قولهم: جبلٌ شاهق؛ أي: ممتَدٌّ[٣] طولًا.

وقيل: ذلك إذا قيل لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فصاروا لا يتكلَّمون، ولم يبقَ لهم إلَّا أصواتٌ منكَرة لا حروفَ معها.

* * *

(١٠٧) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ نَصبٌ على الحال مِن فعلِ الزَّفير.

قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾: كلمةٌ تُذْكَر[٤] للتَّأبيد؛ كقولك[٥]: لا أكلِّمك

---

(١) انظر: «العين» للخليل (باب الهاء والقاف والشين) (٣/ ٣٦١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٧).

(٣) في (ف): «ممتنع».

(٤) في (ر) و(ف): «كله يذكر».

(٥) في (أ) و(ف): «كما يقال».

ما حنَّتِ النِّيْبُ[١]، وما أطَّتْ[٢] الإبل، وما أورق الشَّجر، وما أينع الثَّمرُ، وما جنَّ ليلٌ، وما سالَ سيلٌ، وما طرَقَ طارقٌ، وما نطَقَ ناطقٌ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾: قيل: الاستثناءُ يرجعُ إلى الموحِّدين منهم، لأنَّ الأشقياءَ صنفان[٣]؛ كفَّار مخلَّدون فيها، وموحِّدون مذنبون مُخرَجون[٤] منها بعدَ مدَّة.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: مَن كان منهم مِن أهل القِبلَةِ، فإذا أرادَ اللهُ تعالى أخرجَهم[٥].

وقال قتادة: إنَّ قومًا يصيبُهم سَفْعٌ مِن نارٍ بذنوبٍ اقترفوها، ثمَّ يخرجهم الله تعالى منها[٦].

وقال ابن كيسان: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في الفريقَيْن مِن تعميرِهم في الدُّنيا قبلَ مصيرِهم إلى الجنَّة والنَّار[٧].

وقال الزَّجَّاجُ: في هذه الآية أربعةُ أقوال؛ قولان لأهل اللُّغة الكوفيِّين والبصريِّين، وقولان لأهل المعاني، فأمَّا أحد قولَي أهل اللُّغة:

فهو أنَّ ﴿إِلَّا﴾ هاهنا بمعنى: سوى؛ كما يُقال في الكلام: ما كان معنا رجلٌ إلَّا

---

(١) النيب: جمع ناب، وهي المسنَّة من النُّوق. انظر: «الصحاح» (مادة: نيب).

(٢) الأطيط: هو صوت الرحل والإبل من ثقل أحمالها. انظر: «الصحاح» (مادة: أطط).

(٣) في (ر) و(ف): «لأن الأشقياء صنفين»، وفي (أ): «كان الأشقياء صنفين».

(٤) في (أ) و(ف): «يخلدون... يخرجون».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٩).

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٩٨)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٧٩).

(٧) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٠)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٥٩).

زيدٌ، و: لي عليك ألفُ درهم إلَّا الألفان التي عليكَ لي[١]، فيكون معناه على هذا: ما دامَتِ السَّماوات والأرض سوى[٢] ما شاءَ ربُّك من الخلود فيها أبد الآبدين، حتى لا يخرجوا منها قط ما دامت عليها أضعاف مدة السماوات والأرض إلى ما لا تنقطع فيه الأوهام[٣].

والثَّاني: الاستثناءُ مِن الإخراج مع أنَّه لا يريدُ أنْ يخرجَهم: أنَّه لو شاء أنْ يخرجَهم لأخرجَهم، ولكنَّه حكم أنَّهم خالدون فيها، ولا تبديل لحكمه.

وأما القولان لأهل المعاني:

فأحدهما: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ مِن مقدارِ توقيفِهم على رؤوسِ قبورِهم للمحاسبة.

والثَّاني: وقع الاستثناء على الزِّيادة في النَّعيم والعذاب، وتقديرُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ مِن زيادة النَّعيم وزيادة العذاب[٤].

---

(١) قوله: «لي عليك ألفُ درهم إلاَّ الألفان التي عليكَ لي» كذا جاءت العبارة في النسخ، ولفظ الزجاج: (لك عندي ألف درهم سوى الألفين ـ وإلا الألفين ـ اللذين لك عِنْدِي)، والمعنى من حيث الاستدلال متقارب.

(٢) في (أ): «إلا».

(٣) قوله: «من الخلود فيها أبد الآبدين...» إلى هنا وقع بدلًا منه في (أ): «من مقدار توقيفهم على رؤوس قبورهم للمحاسبة»، ولعله سهو من الناسخ أو سبق نظر، فإن هذه العبارة ستأتي في مكانها.
أما عبارة الزجاج فقد جاءت مختصرة مفيدة للمعنى دون كل هذه الإطالة حيث قال: (سوى ما شاء ربك من الخلود والزيادة). وكذا نقل عنه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٠)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٦١) ولفظه: (سوى ما شاء ربك أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٧٩ ـ ٨٠). ولعل أحسن الأقوال هو الأول؛ أي: (سوى ما شاء ربك من الخلود والزيادة)، ليتوافق مع قسيمه الآتي في أهل الجنة، فإنه هناك لا شك أنه للزيادة، لا =

وقيل: الاستثناء واقعٌ من العذاب المذكور في الآية، وهو الزَّفير والشَّهيق؛ أي: لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ مدَّة[1] السماوات والأرض إلَّا ما شاءَ ربُّك مِن نقلِهم من هذا إلى نوعٍ آخر مِن العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: أي: حكمه ماضٍ في الفريقَيْن على ما يريدُه، لا اعتراضَ لأحدٍ عليه في حكمِه.

* * *

(١٠٨) - ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ في رواية حفصٍ بضمِّ السين، والباقون بفتحها[2].

وسَعِدَ يَسْعَدُ سَعادَةً لازمٌ مِن حدِّ (علم)، وسَعَدَهُ يَسْعَدُهُ متعدٍّ مِن حدِّ (صنع).

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾: هو على ما فسَّرناه في الآية الأولى.

وقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾: أي: غير مقطوعٍ[3]، وقد جَذَّ جَذًّا؛ أي: قطع، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨]؛ أي: قِطعًا؛ أي: أعطاهم الجنَّة عطاءً غيرَ مقطوعٍ، ودلَّ[4] أنَّ الاستثناء ليس للنُّقصان، فكان للزِّيادة.

= للنقصان عن مدة دوام السماوات والأرض، ولا لعدم الزيادة على تلك المدة.

(١) في (ف): «ما دامت».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٦).

(٣) في (ر) و(ف): «منقطع».

(٤) في (ر) و(ف): «وذلك».

(١٠٩) ـ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾: أي: لا تكُ في شكٍّ فيما يعبدُ هؤلاء المشركون مِن دون الله أنَّه باطل، فإنَّهم ما يعبدون إلَّا كما يعبدُ آباؤُهم مِن قبلُ؛ تشبُّهًا بهم، وإبقاءً لعادتهم، لا بحجَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾: أي: أنصباءهم، ووحَّد لأنَّه جنسٌ فيصلُح للجمع[1]؛ أي: من العذاب ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ مِن قَدْرِ استحقاقِهم.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: نصيبَهم مِن خيرٍ أو شرٍّ[2].

والخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، والمرادُ به الأُمَّة.

* * *

(١١٠) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾: أي: في الكتاب؛ وهو التَّوراة، واختلاف قومه فيه كان من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّه آمن به بعضُهم، وكفرَ بعضٌ.

والثَّاني: أنهم زادوا فيه ونقصوا منه، وهو ما ذكر من التَّحريف.

والثَّالث: في تأويله على ما أحبُّوه، وتقريرُه على مقتضاه.

---

(١) في (ف): «للواحد والجمع».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٠٠)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٩).

وهذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ، يقول: يا محمَّد؛ اختُلِفَ فيما أُنْزِلَ عليك[1]، فلا يشقَّنَّ عليك، فقد اختُلِفَ فيما أُنْزِلَ على مَن قبلَكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: أي: قولٌ سبقَ منه؛ لأنَّه لا يعاجلُهم بالعذاب، بل يمهلُهم إلى أنْ يبلغَ الكتابُ أجلَه.

وقوله تعالى: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: بالعذاب المستأصِل.

وقال الإمام أبو منصور رحمة الله عليه: ويحتمِل: ولولا أنَّه كان مِن حُكمِه أنَّهم إذا اختلفوا في الكتاب والدِّين، وصاروا بحيث لا يهتدون إلى شيء، أنْ يبعثَ رسولًا يبيِّنُ لهم الدِّين، ويدعوهم إلى الهدى ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بالهلاك[2].

ثمَّ قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يجوز أن يكون في كفَّار عصر رسول الله ﷺ، ويحتمل أن يكون في قومِ موسى عليه السَّلام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾: أي: مِن العذاب.

وقيل: من الدِّين؛ لأنَّهم يقلِّدون آباءهم.

و﴿مُرِيبٍ﴾: نعت ﴿شَكٍّ﴾، وهو الموجبُ اتِّهام الرَّأي فيه[3].

***

(١١١) ـ ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فيه أربع قراءات:

قرأ ابنُ كثير ونافع بتخفيفهما.

---

(١) في (ف): «إليك».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٩٠).

(٣) في (ف): «وهو المخيب اتهام الرأي فيهم».

وقرأ ابنُ عامر وحمزة وحفص عن عاصم بتشديدهما(١).

وقرأ أبو عمرو والكسائي بتشديد ﴿إِنَّ﴾ وتخفيف ﴿لَمَا﴾.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بتخفيف ﴿إنْ﴾، وتشديد ﴿لَّمَا﴾(٢).

أما تخفيفهما: فـ(إنْ) للتَّأكيد، وأصلُه التَّشديد، وخُفِّف للتَّفسير فبقي ناصبًا كما كان، و(لَمَا): الَّلامُ لامُ التَّأكيد، و(ما) صلةٌ زائدةٌ مؤكِّدة، و﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ لام توكيد أيضًا، وهو جمعٌ بينَ تأكيدَيْنِ، وتقديرُه: وإنَّ كلًّا مِن الأممِ المتقدِّمة من المتَّفقين(٣) والمختلفين في كتاب موسى وكتابك يوفِّيهم ربُّك يا محمَّد جزاءَ أعمالهم، والجزاءُ مُضْمَر.

وكذلك تأويلُ تشديدِ الأوَّل وتخفيف الثَّاني.

ويجوز على هاتَيْن القراءَتَين أنْ تكون ﴿لَمَا﴾ المخفَّفة لام ابتداء، و(ما) بمعنى الَّذي، ويكون نظير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢].

وأمَّا تشديدهما فـ﴿إِنَّ﴾ للتَّأكيد، و﴿لَّمَّا﴾ بالتَّشديد له وجوهٌ:

منها: قول الفرَّاء: وهو أنَّ أصله: (لَمِنْ مَا)(٤)، فاجتمعَتْ ثلاث ميمات، حتَّى أُدغِمَتْ

---

(١) في (ف): «بتشديهم».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٦).

(٣) «من المتفقين» من (أ).

(٤) في (ر) و(ف): «صلة لمن ما»، وفي (أ): «أصله أن ما»، والصواب المثبت. و(مِن) على هذا القول هي الجارة، و(ما) هي الموصولة أو الموصوفة، وهي واقعة على مَن يعقل. هذا على قول الفراء، وذهب غيره منهم المهدوي إلى أن (مَن) هي الموصوفة أو الموصولة، و(ما) زائدة، ثم في كلا الوجهين صنع ما سيأتي من الحذف، قال هذا أبو حيان في «البحر» (١٢/ ٣٧٥) ثم تعقبه بقوله: =

ثمَّ خُفِّفَتْ، فصارَتْ (لَمَّا)، وتقديرُه: وإنَّ كلًّا مِن المتَّقين والمختلفين لَمَّا ليوفيَنَّهم، وتكرار لام التَّوكيد في موضعَيْن[(١)] على طريق قولهم: إنِّي لبحمدِ اللهِ لصالحٌ[(٢)].

ومنها: قول الزَّجَّاج: (وإنَّ [كلًّا] لَمًّا) بمعنى جمعًا، مِن قولِكَ: لممْتُ الشَّيءَ ألُمُّه لَمًّا؛ أي: جمعتُه[(٣)]، و(لَمًّا) على وزن فَعْلَى، بمعنى جمعًا فلم ينصرف؛ كما تقول: تَتْرَى، وتقديره: وإنَّ كلًّا جَمْعًا ليوفيَنَّهم.

وعليه قراءة الزهريِّ: (لَمًّا) بالتَّنوين[(٤)].

ومنها: قول المازنيِّ: إنَّها في معنى: لَمَا[(٥)] المخففة، شُدِّدَتْ للتَّأكيد[(٦)].

وأمَّا تخفيف ﴿إِنْ﴾ وتشديد ﴿لَّمَّا﴾: فـ(إنْ) للنَّفي؛ كما في قولِه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الطارق: ٤]، و﴿لَّمَّا﴾ في معنى إلَّا؛ كقولك: سألتك لَمَّا فعلْتَ؛ بمعنى: إلَّا فعلْتَ، وعليه قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]؛ أي: ما كلُّ نفسٍ إلَّا عليها حافظ، وتقديرُه هاهنا: ما كلُّهم إلَّا ليوفينَّهم، وهو اختيار الزَّجَّاج[(٧)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: أي: عالمٌ، وهو وعدٌ ووعيدٌ للفريقَيْن.

= (وهذان الوجهان ضعيفان جدًّا...)، وانظر باقي كلامه ثمة.

(١) في (أ): «موضعهم».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩ ـ ٣٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨٢).

(٤) ذكرها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٠)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٩٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٢). وهي قراءة شاذة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٦٦).

(٥) في (أ): «لما». وهي سقط من (ف).

(٦) ذكر الزجاج هذه القول ورده. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨١)، وانظر: «البسيط» للواحدي (١١/ ٥٧٢).

(٧) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨١).

(١١٢) ـ ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾: أي: استقمْ على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ كما أُمِرْتَ به مِن التَّبليغ والإنذار والوعظ والصَّبر على ما قلَّدْتَه، قال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [الشورى: ١٥].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هو المذكور في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [الأحقاف: ١٣]، فقوله: ﴿قَالُواْ﴾ إقرارٌ، والاستقامةُ عليه أنْ يَجعلَ في نفسِه وجميع أمورِه الرُّبوبيَّةَ والألوهيَّة للهِ جلَّ جلاله، ويأتيَ ما يجبُ أنْ يُؤتَى، وينتهيَ عمَّا يجبُ أنْ ينتهيَ عنه، ويتَّبع أمرَه ونهيَه[١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: أي: وليَستقمْ مَن تابَ معَكَ[٢] مِن الشِّركِ ورجعَ إلى اللهِ تعالى بأعمالِه مخلصًا بها على إيمانِهم وإخلاصِهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾: أي: لا يحملنَّكم إمهالُ اللهِ تعالى على مجاوزةِ أمرِه.

وقيل: لا تطغَوا في الاستقامةِ، فتخرجوا عن حدِّها بالزِّيادة على ما أُمرْتُم به فرضًا أو نفلًا.

وقيل: أي: لا تطغينَّكُم النِّعمة فتخرجوا عن الاستقامة، والطُّغيانُ: تجاوزُ المقدارِ في الفساد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾: يرى أعمالَكم، ويعلمُ أسرارَكُم، ويوفي جزاءَكُم.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ما نزلَتْ على رسول الله ﷺ في جميعِ القرآنِ

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٩١).

(٢) في (أ): «واستقم ومن تاب» وفي (ف): «واستقم مع من تاب» بدل: «وليستقم مَن تاب معك».

آيةٌ كانَتْ أشدَّ عليه ولا أشقَّ مِن هذه الآية. ولذلك قال لأصحابِه حين قالوا: قد أسرعَ الشَّيْبُ فيك يا رسولَ اللهِ، قال: «شيَّبتني هودٌ والواقعةُ وأخواتهما»[1].

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾؛ أي: على القرآن[2].

وقال السُّدِّيُّ: الخطابُ له والمرادُ أُمَّتُهُ[3].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: يحتمل أن تكون السِّين في (الاستقامة) سينَ الطَّلب؛ أي: سلْ مِن الله تعالى الإقامةَ لكَ على الحقِّ.

ويحتمل أنْ يكونَ معنى قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾: فأَقِمْ، يقال: استقام وأقام؛ كما يقال: استجاب وأجاب.

قال: ويقال: المستقيمُ: مَن لا ينصرفُ عن طريق الله تعالى ما لم يصلْ إلى اللهِ تعالى، يَصِلُ سيرَهُ بِسُراه[4]، وورعَهُ بتقواه، ويبالغُ في تركِ هواه.

قال: ويقال: استقامةُ النُّفوس في نفي الزَّلَّة، واستقامةُ القلوبِ بنفي الغفلة، واستقامةُ الأرواحِ بنفي العلاقة، واستقامةُ الأسرار بنفي الملاحظة.

واستقامةُ العابدين: ألَّا يدَّخروا نفوسَهم عن العبادة، ولا يخلُّوا[5] بأدائِها، يقضون عسيرها[6] ويسيرها.

---

(١) ذكره بتمامه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٢)، وروى المرفوع منه الترمذي (٣٢٩٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٩٩) عن سفيان.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٢)، والواحدي في «تفسيره» (١١/ ٥٧٦).

(٤) في المطبوع من «لطائف الإشارات»: «بمسراه».

(٥) في النسخ: «يخلون»، والمثبت من «اللطائف».

(٦) في النسخ: «غيرها»، والمثبت من «اللطائف».

واستقامة الزَّاهدين: ألَّا يرجعوا إلى دنياهم، يتركون قليلَها وكثيرَها.

واستقامة التَّائبين: ألَّا يُلِمُّوا بعد التَّوبة بزلَّةٍ، فيدَعون صغيرَها وكبيرَها[1].

* * *

(١١٣) ـ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: الرُّكون ـ مِن حدِّ (علم) ـ في اللغة: السُّكون إلى الشَّيء بالمحبَّة له والميل إليه.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: لا تميلوا[2].

وقال أبو العالية: أي: لا ترضَوا بأعمالِهم[3].

وقال قتادة: أي: لا تلحقوا بالمشركين[4].

وقال ابن حيان: لا تسكنوا[5].

وقال السُّدِّيُّ: أي: لا تداهنوا[6].

وقال سفيان الثَّوريُّ[7]: مَنْ لاقَ[8] لهم دواةً، أو برى لهم قلمًا، أو ناولَهم

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٠).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٣) عن ابن كيسان.

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٣)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٧٧).

(٧) في (ف): «وقال السدي».

(٨) في النسخ «ألاق»، والصواب المثبت، لأن (لاق الدواة) أي: أصلح مدادها. انظر: «القاموس =

قرطاسًا يكتبون عليه، دخل في هذا؛ قال الله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي: وأعوانهم(١).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: لا تعملوا بأعمالهم، لا تمدحوهم على أعمالهم، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف عليهم، لا تأخذوا شيئًا مِن حرامِ أموالهم، لا تمكِّنوهم مِن قلوبِكم، لا تخالطوهم، لا تعاشروهم؛ كلٌّ ذلك محتملٌ(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾: جوابُ النَّهي بالفاء فنُصِبَ لذلك ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ وفي النظم تقديمٌ وتأخيرٌ: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ... ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا تُعانُون(٣) بدفعِ العذابِ عنكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: يتولَّونكُم ويدفعون عنكم.

وقيل: هو مقرَّرٌ على نظمِه، ومعناه: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ولا أولياء لكم حينئذٍ يتولَّون(٤) دفعَه عنكم ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

* * *

(١١٤) - ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

= المحيط» للفيروزأبادي (مادة: ليق)، أما (ألاق) فلا تستخدم لهذا المعنى. انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (مادة: ألق).

(١) ذكره الإمام أحمد في «الورع» (ص: ٩٣)، وأبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٤٣٤)، ويروى مرفوعًا: رواه الإمام أحمد في «الورع» (ص: ٩٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وذكره الديلمي في «الفردوس» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦١).

(٣) في (ف): «تعاونوا».

(٤) في (أ) و(ف): «مولون».

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾: قال سعيدُ بن جُبيرٍ: الطَّرفان: الغَداة والعَشيُّ، فصلاةُ طَرفي الغَداة: صلاة الفجر، وطَرفي العشيِّ[(١)]: الظُّهر والعصر[(٢)].

وفي الخبر: سها رسولُ الله ﷺ في إحدَى صلاتَي العشيِّ؛ إمَّا الظهر وإمَّا العصر[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: جمع زُلْفَةٍ؛ وهي المنزلة، وأراد بالزُّلفَةِ: ساعات اللَّيل؛ وهي كالمنازل والمراحل المزدلفة؛ أي: المقترنة[(٤)]، وأرادَ بذلك صلاة المغرب والعشاء؛ قاله الحسن وقتادة[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال ابنُ عبَّاس والضحَّاك وقتادة والسُّدِّيُّ وعطاء والحسن: أي: الصَّلوات الخمس[(٦)].

وروى عثمانُ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ: «الصَّلوات الخمسُ الحسناتُ يذهبْنَ السَّيِّئات»[(٧)].

---

(١) في (ر) و(ف): «وفي طرفي العشاء».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٢) عن مجاهد ومحمد بن كعب القرظي.

(٣) رواه مسلم (٥٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (ر) و(ف): «المقتربة».

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٩ ـ ٦١٠).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦١٢ ـ ٦١٣) عن ابن عباس وابن مسعود والحسن والضحاك ومحمد بن كعب القرظي ومسروق.

(٧) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (٥١٣)، والبزار في «مسنده» (٤٠٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨١٧)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٣٢٣)، وصحح إسناده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨٥). ولفظ البيهقي والضياء أقرب إلى لفظ المصنف.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ: «الصَّلواتُ كفَّارةُ الخطايا، فاقرؤوا إنْ شئتُم: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾»[١].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: الصَّلواتُ نفسُها تكفِّر الخطايا، وقيل: يَذْكرُ ما ارتكبَ من الذُّنوب فيندمُ عليها، فذلك المكفِّر[٢].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: عظةٌ للمتَّعظين.

وقيل: النَّـهي عـن الرُّكون إلى الَّذين ظلموا، والأمر بإقامة الصَّلاة، عظةٌ للذَّاكرين اللهَ بقلوبِهم وألسنتهم، فهم يذكرون فضلَه وعدلَه وثوابَه وعقابَه، فيرجعون ويخشعون فيتَّعظون ويستقيمون.

وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: نزلَتِ الآيةُ في أبي اليَسَر عَمرو بن غَزِيَّة الأنصاريِّ[٣]؛ وكان رجلًا يبيعُ التَّمر، فأَتَتْهُ امرأةٌ تبتاعُ تمرًا، فراودَها عن نفسِها، ثمَّ ندم، وأتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إنِّي راودْتُ امرأةً عن نفسِها، ونلْتُ منها ما نالَ الرُّجلُ مِن امرأتِهِ إلَّا الجماع، فقال النَّبيُّ ﷺ: «انتظِرْ ما يأمرني فيه ربِّي»، فحضرَتْ صلاةُ العصر، فصلَّى النَّبيُّ ﷺ العصرَ، فلمَّا فرغ أتاه جبريلُ بهذه الآية،

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٠٧)، ومن طريقه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٨١)، ورواه الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١٨٩٨)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٠٤).

(٢) في (أ): «فذلك التكفير». وانظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ١٩٤)، وفيه: (فذلك يكفر).

(٣) قال ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٥٥٣): انفرد الكلبي بتسميته غزيّة بن عمرو. ووردت القصة لنبهان التمار، ولأبي اليسر كعب بن عمرو. وأغرب الثعلبي في تفسيره، فسمى أبا اليسر عمرو بن غزيّة، كأنه رأى القصة وردت لهما، فظنه واحدًا، فإن كان ضبَطَه حُمل على أن عمرو بن غزية كان يكنى أبا اليسر أيضاً، فيستدرك على مصنّفي المشتبه، فإنّهم لم يذكروا من الصحابة إلا أبا اليسر كعب بن عمرو.

فقال النَّبيُّ ﷺ: «أينَ أبو اليسر؟» فقال: هذا يا رسول الله، فقال: «أشَهِدْتَ معنا هذه الصَّلاة»، قال: نعم، قال: «فإنَّها كفَّارةٌ لِمَا عملتَ»، فقام عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، أهذا له خاصَّة أم لنا عامَّة؟ قال: «بل لكم عامَّة»[1].

وقال مقاتل: نزلَتْ في أبي مقبل عَمرو بن قيس التَّمَّار[2]، أتتْهُ امرأةٌ في السُّوق تريد التَّمر، فقال لها: إنَّ هذا التَّمر ليس بجيِّد، وفي البيت تمرٌ أجود مِن هذا، هل لكِ فيه؟ قالَتْ: نعم، فذهبَ بها إلى بيتِه، فقبَّلها وجعل يدورُ حولَها، والمرأة تقول له: اتَّقِ الله، فتركها، وسُقط في يدِه، فأتى أبا بكر رضي الله عنه فسألَ عن ذنبِه، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: استرْ على نفسكَ وتبْ إلى الله، فأتى عمرَ رضي الله عنه فسألَه، فقال له كذلك، فأتى النَّبيَّ ﷺ فسأله، فأنزل الله جلَّ جلاله هذه الآية[3].

---

(١) القصة بمجملها صحيحة، فقد روى نحوها البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
والبخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
ومسلم (٢٧٦٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. وليس في الصحيحين تعيين صاحب القصة.
وكذا رواه بنحوه دون تعيينٍ الإمامُ أحمد في «مسنده» (٢٢٠٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٩٣١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وسياقه قريب مما سيأتي عن مقاتل.
ورواه الترمذي (٣١١٥) من حديث أبي اليسر قال: (أتتني امرأة تبتاع تمراً...) فذكره، قال الترمذي: حسن غريب، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره.
وقد وقع في صاحب القصة اختلاف قدمنا بعضاً منه عن «الإصابة»، ومما قيل في اسمه: كعبُ بنُ عمرٍو أبو اليَسَرِ، وقيل: إنَّه عمرُو بنُ غَزِيَّةَ بنِ عمرٍو الأنصاريُّ أبو حَبَّةَ التَّمَّارُ، وقيل: ابنُ مُعَتِّبٍ رجلٌ من الأنصارِ، وقيل: أبو مُقْبِلٍ عامرُ بن قيس الأنصاريُّ، وقيل: نبهانُ التمَّارُ، وقيل: عبَّادٌ.
وقال الحافظ أيضاً في «الفتح» (٨/ ٣٥٧) بعد أن ذكر الاختلاف عليه: وأقوى الجميع أنه أبو اليسر.
(٢) في «تفسير مقاتل»: «عمر بن قيس».
(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٢). وانظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا =

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: الحسناتُ: ما يجودُ به الحقُّ، والسَّيِّئات: ما يُذنِبُ به العبدُ.

وقيل: حسناتُ النَّدمِ يُذْهِبْنَ سيِّئات الجُرم.

وقيل: حسناتُ العِرفان يُذْهِبْنَ سيِّئات العصيان.

وقيل: حسناتُ العناية يُذْهِبْنَ سيِّئات الجناية[1].

* * *

(١١٥) ـ ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: قيل: واصبرْ على أمرِ اللهِ والصَّلاة لـه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، فإنَّه إحسانٌ، ﴿ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقيل: واصبرْ على أداءِ ثِقلِ الرِّسالة، وعلى ما ينالك مِن الأذى بتبليغِها ولا تُكافِهم، فإنَّه إحسانٌ.

وقيل: اصبر على ترك[2] المعاصي، وأحسنِ الأعمال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: المصلِّين[3].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: الصَّبر: تجرُّعُ كاساتِ التَّقدير مِنْ غير تعبيس.

= فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية.

(١) في (ر): «الخيانة». وانظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦١).

(٢) في (أ) و(ف): «عن» بدل: «على ترك».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٤)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٨٤).

وقيل: الصَّبر: حبس النَّفس على معانقةِ الأمرِ ومفارقةِ الزَّجر.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: العالِمين أنَّ الأجرَ على الصَّبر والطَّاعةِ بفضلِ اللهِ، لا بفعلِ العبدِ[1].

* * *

(١١٦) - ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾: بيَّن أنَّه لم تُهْلَكِ القرونُ الَّتي ذَكَرَ قصصَها إلَّا بظلمِهم، فقال: فهلَّا كانَ مِن القرون الماضية ذو عقلٍ وتدبيرٍ وبقيَّةُ خيرٍ ينهون قومَهم عن الفسادِ في الأرض؛ وهو إظهارُ الكفرِ والمعاصي، والتَّظالمُ والفسادُ وسفكُ الدِّماء ونهبُ الأموال وانتهاكُ الحُرم؛ ليمتنِعوا عن ذلك كلِّه.

وتحقيقُ هذا التَّوبيخِ نفيُ وجودِ ذلك؛ أي: لم يكنْ[2] فيهم أولو بقيَّة يفعلون هذا إلَّا قليلًا منهم، ولم يقبلِ الباقون قولَهم، وهذا القليلُ هم المؤمنون بالأنبياء الذين قال الله فيهم: (أَنْجَينا فلاناً والذين آمنوا معه)[3].

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ [هود: ١١٦]؛ أي: نُعِّموا. والمترَفُ: المنعَّم، والتُّرْفة: النِّعمة.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٢).

(٢) في (ر): «يوجد».

(٣) في (ف): «أنجيناه والذين آمنوا معه»، وفي (ر): «فأنجينا الذين أمنوا معه».

أي: إنَّ المتنَعِّمِيْنَ الذين نشؤوا في اللَّذات لم ينهوا عن الفسادِ، ولم ينتهوا بأنفسِهم، بل اتَّبعوا ما أُترِفوا فيه من الأموال والأحوال، وكانوا مجرمين مشركين مستكثِرين من المعاصي.

ودلَّت الآية أنَّ أكثر ما يميل إلى الكفر والباطل هم المترفون، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

* * *

(١١٧) ـ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾: أي: ليس مِن صفةِ ربِّك أنْ يُهلِكَ القرى ظالمًا؛ أي: بغير ذنبٍ منهم؛ أي: لم يهلِكْ أهلَ القرى الذي[1] عُذِّب في هذه السُّورة وهو ظالم، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقيل: قوله: ﴿بِظُلۡمٖ ﴾؛ أي: بظلمٍ منهم؛ يعني: بشرك[2] الله.

﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾: فيما بينهم، لا يتظالمون.

ودلَّ أنَّ هذه القرى لو تكافَتْ عن الظُّلم لم يُهلَكوا.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: المصلِحُ: مَن قامَ بحقِّ ربِّه دونَ حظِّ نفسه.

وقيل: المصلحُ: مَن اهتمَّ لنفسِه، فآثرَ نجاتَه على هلاكِه.

وقيل: هو المصلحُ قلبَه لمعرفةِ سيِّده، والمصلحُ سرَّه لمشاهدةِ سيِّده[3].

---

(١) في (ر) و(ف): «التي».

(٢) في (أ): «يعني شرك»، وفي (ر): «أي: بشرك».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٣).

(١١٨ ـ ١١٩) ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: أي: متَّفقةً على الإيمان والطَّاعات؛ كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾: أي: ولكن شاءَ أن يكونوا مختلِفينَ لَمَّا علِمَ منهم اختيارَ ذلك، فلا يزالونَ مختلفينَ هكذا كما شاءَ، إلَّا مَن رحمَ اللهُ فعصمَه عن الاختلاف لمَّا علمَ منه اختيارَ الحقِّ، ووفَّقه للنَّظر والاستدلال فأدرك الحقَّ.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: أي: لِمَا هم عليه مِنَ الاختلاف.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: أي: مضى[١] قولُ ربِّك فيهم بما علمَ منهم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال عكرمة ومجاهد: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني: أهلَ الأهواء ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني: أهلَ السُّنَّة والجماعة[٢].

وقال عطاءُ بنُ أبي رباح: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني: اليهودَ والنصارى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وهم الحنيفيَّة، للرَّحمة خلقَهم[٣].

---

(١) «مضى» من (أ).

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٣) عن مجاهد، وروى نحوه (١٢/ ٦٣٥) عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٤).

وقال ابن عبَّاس والضَّحَّاك ومجاهد وقتادة: وللرَّحمة خلقَهم؛ يعني: الذين رحمَهم[١].

قال الحسن: وللاختلاف خلقَهم[٢]، وبه قال مقاتل بن حيَّان ويمان بن رئاب وعطاء[٣].

قال النَّبيُّ ﷺ: «اعْمَلوا فكلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»[٤].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ولو شاءَ الحقُّ لجعلَهم أربابَ الوِفاق ثمَّ لم يوجبوا لمملكتِه زينًا، ولو شاءَ لجعلَهم أربابَ الخلاف ثمَّ لم يوجبوا لجلالِه شينًا.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لأنَّه كذلكَ أرادَ بهم ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ في سابقِ حكمِه، فعصمَه عن الخلافِ في حاصلِ عمرِه.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ كلًّا لِمَا أقامَهم به ونصبَهم له وأثبتَهم فيه؛ مِن وفاقٍ وشقاق، وجحودٍ وتوحيد.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ أي: لا تبديلَ لقولِه، ولا تحويلَ لحكمِه[٥].

* * *

(١٢٠) ـ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٦).

(٣) ذكره عنهم الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٤)، والواحدي في «تفسيره» (١١/ ٥٨٩).

(٤) رواه البخاري (٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٣).

وقولـه تعالـى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: أي: وكلَّ القَصص.

وقيل: أي: وكلَّ الَّذي تحتاج إليه نخبرُكَ به مِن أخبار الرُّسل.

و﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: ﴿مَا﴾ بدلٌ عن ﴿وَكُلًّا﴾. قاله الزَّجَّاج(١).

وقيل: ﴿وَكُلًّا﴾؛ أي: ومن كلٍّ.

ومعنى الآية: ونقصُّ عليك الأقاصيص كلَّها مِن أخبار الرُّسل تثبيتًا لفؤادِكَ؛ أي: تسكينًا له، وتقويةً على الاستقامةِ، وتبليغِ الرِّسالة، وتقريرِ الحُجَجِ، والصَّبرِ على أذى الكفَّار، والاستقامةِ على الصَّبر بإقامة الصَّلوات.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ يعني: نسدِّد(٢). وقال الضَّحَّاك: نقوِّي. وقال ابن جريج: نصبِّر(٣).

وقال بعضهم: نُطيِّب.

وقولـه تعالـى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾: أي: فـي هـذه السُّـورة مـا يحـقُّ تدبُّرُه والعمـلُ به.

وقال الحسن: أي: في هذه الدُّنيا الحججُ والبراهين(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: المؤمنون هم الذين ينتفعون(٥) به.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨٤).

(٢) في (ف): «نشدد».

(٣) ذكر هذه الأقوال الثلاثة الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٥)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٩١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٦).

(٥) في (أ): «هم المنتفعون».

وقيل: لِمَن همُّه الإيمان بالله والعملُ بشرائعِه، لا لِمَن أُترِف فيها، واتَّبعَ ما أُترِف فيه.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: قصَّ على نبيِّنا قصصَ الجميع، ولم يذكر قصَّته لأحدٍ تشريفًا له وتخصيصًا.

وقال: ولم يكنْ ثباتُ قلبِه بما قُصَّ عليه، ولكنْ كان استقلالُ قلبِه بمَن كان يقصُّ[1] عليه، وفرقٌ بينَ مَن يستقلُّ بما يسمعُ، وبينَ مَن يستقلُّ بمن منه يسمعُ. وأنشدَ لبعضهم:

وحدَّثْتَنِي يا سعدُ عنها فزِدْتَنِي جنونًا فزِدْني مِن حديثِك يا سعدُ[2]

***

(١٢١ ـ ١٢٢) ـ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾: أي: قل يا محمَّد للمشركين: اعملوا على تمكُّنكم ما أحببتُم، إنَّا عاملون بما أُمِرنا، وهذا أشدُّ وعيدٍ وتهديد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾: قال ابنُ جريجٍ: انتظروا ما يَعدُكُم

---

(١) في (ف): «قص» بدل: «كان يقصُّ».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤). والبيت مختلف في نسبته، فنسب للعباس بن أحنف كما في «زهر الآداب» للقيرواني (١/ ٢١٤)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٣/ ٢٤٦).

ونسب لابن أبي عيينة كما في «الحماسة المغربية» (٢/ ٩٦٤).

ونسب لعبد الله بن المعتز كما في «المنتحل» للثعالبي (ص: ٢١١).

الشَّيطان من الغرور، فإنَّا منتظِرون ما يعدُنا به الرَّحمنُ[(١)] مِنَ النَّصر والعلوِّ[(٢)].

وقال بعضهم: انتظروا ما أُوعدْتُم به على الكفر، فإنَّا منتظرون ما وُعِدْنا به على الإيمان.

***

(١٢٣) - ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: هو العالمُ بعواقب الأمور وبغيب السَّماوات والأرض، وهو ما غاب عن حسِّ العباد، فليس يخفى عليه شيءٌ من أفعال المشركين وأقوالهم، فيحاسبُهم بها ويجازيهم عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾: أي: الأمور كلُّها، فهو جنسٌ؛ أي: لا يَنفُذُ فيها إلَّا حكمُه، وهو المستحقُّ لذلك الإفرادِ بالعبادة.

﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ يا محمَّد بإخلاص ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ غيرَ خائفٍ سواه، ولا راجٍ غيرَه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: فيثيبُ المؤمنين المطيعين، ويعاقب الكافرين والعاصين.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: عمَّى على العباد العواقب، وأخفى عليهم السَّوابق[(٣)]، وألزمَهم القيامَ بما كلَّفهم في الحال، فقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ فإنْ تقسَّمَ القلبُ

---

(١) في (أ) و(ف): «يعدنا الله».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٤٨).

(٣) في (أ): «عليهم السوائق»، وفي (ف): «رؤياهم السوابق». ولفظ «اللطائف»: (دونهم السوابق).

وترجَّمَ الظَّنُّ فتوكَّل عليه؛ أي: استدفِعِ البلاءَ عنكَ بحسنِ الظَّنِّ ودوامِ الرَّجاء.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾: بـل أحـاطَ بـكلِّ شـيءٍ علمًـا، وأمضـى في كلِّ أمـرٍ حكمًا[١].

وقال كعبُ الأحبار: فاتحة التَّوراة فاتحةُ سورة الأنعام إلى قوله: ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، وخاتمة التَّوراة خاتمة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾... الآية[٢].

وبالله العونِ.

أتممْتُ هذه السُّورةَ بتوفيق اللهِ المعبود، الرَّبِّ الذي يحقُّ له الرُّكوع والسُّجود، الملك[٣] الذي يربِّي بفضلِه الوالد والمولود، ولا يَعزُبُ عن علمِه الموجود والمفقود.

فنسألُه الأمانَ عن[٤] وساوسِ المطرود، وخاتمةَ السَّعادة ببركات سورة هود، والحمد لله ربِّ العالمين.

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٤٧).

(٣) في (ر) و(ف): «الرب».

(٤) في (ف): «عند».

سُورَةُ يُوسُفَ

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم اللهِ الَّذي جعلَ أحسنَ القَصص قصَّةَ يوسف، الرَّحمنِ الَّذي جعل المُلْكَ بعدَ السِّجنِ حصَّةَ يوسف، الرَّحيمِ الَّذي كشفَ بالتَّقوى والصَّبر غَصَّةَ يوسف.

وروى أُبيُّ بن كعبٍ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «علِّموا أرقاءَكم سورةَ يوسفَ، فإنَّه أيُّ امرئٍ مسلمٍ تعلَّم سورةَ يوسفَ وعلَّمَها مِلكَ يمينِه وأهلَه هوَّن الله عليه سكراتِ الموتِ، وأعطاه اللهُ تعالى القوَّةَ ألَّا يحسدَ مسلمًا»(١).

وسورة يوسف مكِّيَّةٌ، وهي مئةٌ وإحدى عشرة آية، وألفٌ وسبع مئةٍ وسبعٌ وسبعون كلمةً، وسبعة آلاف ومئة واثنان وستُّون حرفًا.

وانتظام أوَّل هذه السُّورة بآخر السُّورة الَّتي قبلَها: أنَّه افتتحَ هذه السُّورة بقوله: ﴿الٓر﴾ معناه: أنا الله أرى من العرش إلى الثَّرى، فلي غيب السَّماوات العُلى والأراضي السُّفلى، ولسْتُ بغافلٍ عمَّا يعمل الورى.

ووجهٌ آخر: أنَّه قال في أواخر تلك: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال في أوائل هذه السُّورة: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وهذه إحدى القَصص، وقد قُصَّتْ أحسن القصص.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٤٨٠)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٩٩). قال ابن كثير في «تفسيره»: حديث منكر من سائر طرقه. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

وانتظامُ كلِّ هذه السُّورة بتلك السُّورة: أنَّ السُّورتَيْن في تسليةِ النَّبيِّ ﷺ على ما أصابَه مِن الأذى والنَّوائب، وفي تلك السُّورة ذكرُ ما لقيَ الأنبياءُ مِن الأجانب، وفي هذه السُّورة ما لقي يوسف عليه السلام مِن الأقارب.

* * *

(١) ـ ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الٓر﴾ ذكرنا فيها أقاويل المفسِّرين في أوَّل (سورة يونس).

وقيل: معناه: أنا الله أرى مِن العرش إلى الثَّرى.

وقيل: أنا الله أرى ما نزل بيوسفَ مِن البلوى، من الجبِّ والسِّجن والشَّكوى، ثمَّ جعلتُه ملك الدُّنيا، وجمعتُه مع شيخِه المبتلَى.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: أي: تلك الآياتُ أو السُّور[1] المنزَلة قبلَ هذه السُّورة، وهي آيات الكتاب.

وقيل: أي: تلك الآياتُ المكتوبةُ في اللَّوح المحفوظ الموعودة لك.

أو: تلك الآيات الَّتي أخبرَتِ الأنبياءُ بإنزالها عليك هي آيات الكتاب.

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى: هذه؛ كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، وأوردنا دليلَه؛ أي: هذه السُّورة، أو: هذه الآيات.

أو: ﴿الٓر﴾ هذه الحروف الَّتي هي اسمُ هذه السُّورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾؛ أي: فيه بيانُ ما بالنَّاس من حاجةٍ إليه في دينِهم.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: يعني: فيه بيانُ الحلالِ والحرامِ[2].

---

(١) في (ر): «والسورة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥) عن مجاهد.

وقال قتادةُ: فيه بيان الرُّشد والضَّلال[١].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: فيه بيانُ الحقِّ والباطلِ، والعدلِ والجَورِ[٢].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: في إنزالِ الكتاب عليه وإرسالِ الرَّسول إليه تحقيقٌ لأحكام المحبَّة، وتأكيدٌ لأسباب الوُصلةِ؛ فإنَّ مَن عُدمَ حقيقة الوصولِ استأنسَ بالرَّسول، ومَن بقي[٣] عن شُهودِ الأحبابِ تسلَّى بورود الكتاب[٤].

***

(٢) ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾: أي: الكتابَ ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾؛ أي: كلامًا مجموعًا بلسانِ العرب ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: لتعقلوا عن الله خطابَه، فتتدبَّروه وتعملوا بما فيه.

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: لا تدري بأيِّ لسانٍ كانَ في اللَّوح المحفوظ، غير أنَّه أخبرَ أنَّه أنزله بلسان العرب، وهكذا كلُّ كتابٍ أُنزِل بلسان المنزَلِ عليهم.

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ ما لكم وما عليكم، وما تأتون وما تذرون.

أو ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ هذه الأنباء التي يخبرُكم بها محمَّدٌ من الله تعالى؛ لأنَّها كانت في كتبِهم بغير لسانه، فأخبرَ على معنى ما كان في كتبِهم، فدلَّ أنَّه عرفَ ذلك باللهِ تعالى.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٦٩)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦).

(٢) في (ر): «والعذاب والثواب». انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٠٤).

(٣) في (ر) و(ف): «نفي».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٦).

أو ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ فيه شرفكم؛ لأنَّكم تصيرون متبوعين لـمَّا يحتاجُ النَّاس إلى معرفة ما فيه، والنَّاسُ أتباعٌ لكم؛ وهو كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ أي: شرفكم[١].

***

(٣) ـ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: أي: نخبرُك أحسنَ الإخبار.

و﴿ٱلْقَصَصِ﴾ مصدرٌ، وهو إتباعُ الخبرِ بعضِه بعضًا على سياقِه على وجهه.

يقال: فلانٌ حسن الاقتصاص للحديث؛ إذا كان جيِّدَ السِّياق للحديث، لا يقطعُ المعانيَ المرتبطة بعضَها ببعضٍ، فيَفسُدَ نظمُه، وتَستبهِمَ معانيهِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]؛ أي: اتَّبعي[٢] أثره، وقال: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]؛ أي: اتِّباعًا.

ويجوز أن تكون القصص اسمًا[٣] كالخبر[٤].

وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾: أي: بوحينا، و﴿مَا﴾ مع الفعل مصدرٌ؛ كقولك: أكرمُكَ بما أكرمْتَني؛ أي: بإكرامِكَ إيَّاي، وقال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الإنسان: ١٢]؛ أي: بصبرهم.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٠٥).

(٢) في (ر): «ابتغي».

(٣) في (ر) و(ف): «سماعًا».

(٤) في (ف): «للخبر».

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾: أي: وقد كنْتَ من قبل هذا الوحي من الغافلين عن هذه القصَّة ونحوها؛ أي: وما كنْتَ من قبلِه إلَّا من الغافلين، فإنَّ كلمة (إنْ) المخفَّفة مع اللَّام بعدها لها طريقان، على ما مرَّ مرارًا.

وقال الإمام الزَّاهد أبو منصور رحمه الله: وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمان بجملة الأنبياء والرُّسل إيمانٌ وإن لم تُعرَف أنفسهم وأسماؤهم وقصصهم[1].

والغفلةُ ثلاثة أنواعٍ: مذمومةٌ، ومحمودةٌ، وغيرُ مذمومةٍ ولا محمودة.

فالمذمومة: الغفلةُ عن الله تعالى، وعن ذكرِه، وعن الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

والمحمودةُ: هي الغفلة عن الشَّرِّ[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ﴾ [النور: ٢٣].

وغيرُ المحمودةِ والمذمومةِ في هذه الآية.

والغفلةُ عن الشَّيء هي ألَّا يخطر ذلك بباله.

وروي أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم قالوا: يا رسولَ الله، لو قصصْتَ علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ فقالوا: يا رسول الله؛ لو وعظْتَنا وذكَّرتنا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦][3].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٠٦).

(٢) في (ف): «البشر».

(٣) رواه البزار في «مسنده» (١١٥٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٤٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٩)، والضياء في «المختارة» (١٠٦٩)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وحسنه الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٦٣٤).

ثمَّ في تسميته أحسنَ القصص وجوهٌ:

قيل: لأنَّه ليست قصَّةٌ مِن قِصص القرآن[١] تتضمَّن من النُّكت والفوائد ما تتضمَّن هذه القصَّة.

وقيل: لامتداد الأوقات فيما بينَ أوَّلها وآخرها.

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كان بين رؤيا يوسف عليه السَّلام ومسيرِ أبيه إليه وإخوته أربعون سنة[٢]. عليه أكثر المفسِّرين إلَّا الحسن فإنَّه يقول: كان بين رؤياه ومصيرِ أبيه إليه ثمانون سنة[٣].

وقيل: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾؛ أي: أعجب القصص.

وقيل: لأنَّها مجموعةٌ في سورةٍ، وسائر القَصص متفرِّقةٌ في آياتٍ وسورٍ.

وقيل: لأنَّها في أبوَيْن وأولاد، ليس فيهم أجنبيٌّ وعدو.

وقال محمَّد بن يحيى البشاغري[٤]: هي أحسنُ القصص لِمَا أنَّ فيها ثلاثة أحوال:

ـ مراعاة طاعة الله تعالى في الرَّخاء والشِّدَّة.

ـ وتحسين الأخلاق في المعاملة.

---

(١) في (ر): «القصص إلاَّ والقرآن».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٥٩).

(٤) سيأتي في هذه السورة أن المؤلف ينقل عنه من كتابه «عصمة الأنبياء»، وقد جاء في «هدية العارفين» (٢/ ١٨٩): محمد بن يحيى أبو الحسن البشاغري صنف «كشف الغوامض في أحوال الأنبياء». لكن جاء فيه أنه ألفه سنة (٨٣٨) ثمان وثلاثين وثمان مئة. فإن صحَّ التَّاريخ فلا يُعقل أن يكون هو.

ـ وإقامة المروءة ببذل السَّعة عند القحط(١) والسَّنَة.

فمراعاة الطَّاعة عند الشِّدَّة بحدودِها وشروطِها وصفوتها(٢) وحلاوتها في صفة ضعف العبد من أعجوبات اللُّطف والتَّوفيق.

وتحسين الأخلاق عند الجفاء والأذيَّة ـ وخصوصًا بين القرابة ـ من أشرف مقامات(٣) الاختصاص بالكرامة.

وبذل الثَّروة والسَّعة وقتَ المحنة والحاجةِ مِن أعلى منازل العبوديَّة، وأصفى درجات السَّخاء.

وقيل: سمَّاها أحسنَ القَصصِ لحُسن مجاوزة يوسف إخوتَه، وصبره على أذاهم وإغضائه.

وقيل: إنَّما كانت(٤) أحسنَ القَصصِ لأنَّا نحن نقصُّ، وعليك نقصُّ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: إنَّما كانت أحسن القصص(٥) لخلوِّها عن الأمر والنَّهي الذي سماعه يوجب اشتغالَ القلبِ؛ لِمَا فيه من الخوف من التَّقصير الواقع فيه.

وقيل: أحسن القصص؛ لأنَّ فيه ذكر الأحباب.

وقيل: لِمَا فيه من ذِكرِ تركِ يوسف هواه بإعراضه عن زليخا عند مراودتها إيَّاه عن نفسه.

---

(١) في (ر): «العجز».

(٢) في (أ) و(ف): «وصورتها».

(٣) في (ف): «مقام».

(٤) «إنَّما كانت» ليس في (أ) و(ف).

(٥) في (ف) و(أ): «أيضًا» بدل من «إنَّما كانت أحسن القصص».

وقال: في قوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾: أي: لم تصلْ هذا بكدِّك وجهدك، ولا بطلبك وجدِّك، وبعطائنا وجدْتَه لا بعنائك، وبتفضُّلنا لا بتعلُّمك[١]، وبتلطُّفنا لا بتكلُّفك، وبنا لا بك[٢].

* * *

(٤) ـ ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ﴾: قال الزَّجَّاج: أي: نحن نقصُّ عليك إذ قالَ يوسف.

وقيل: أي: واذكر يا محمَّد إذ قال يوسف[٣].

﴿لِأَبِيهِ﴾: أي: يعقوبَ بنِ إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: قرأ ابن عامرٍ بفتح التَّاء على إرادة: يا أبتاه، على نداء النُّدبة، وقرأ بعضهم بالضمِّ؛ لأنَّه نداءٌ مفردٌ معرفةٌ[٤]، وقرأ العامَّة بالجرِّ على الإضافة بالياء، وحذف الياء تخفيفًا[٥]؛ كما في قولهم: يا نفسِ، يا قومِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿يا أبهْ﴾ بهاءٍ ساكنةٍ عند الوقف[٦]،.......................................

---

(١) في (ف): «بعملك».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨٨).

(٤) أجازه الفراء وقال: لم يقرأ به أحد نعلمه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٠). وقرأ بها ابن أبي عبلة. انظر: «الكامل في القراءات» (ص: ٥٧٥).

(٥) «تخفيفًا» ليس في (أ).

(٦) وقف ابن كثير وابن عامر بالهاء، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (١/ ٣٤٤)، و«التيسير» للداني (١/ ١٢٧).

وزيادةُ الهاء في الاسم على الأب للتَّرقيق[١] والعطف والتَّحنُّن.

وقيل: للتَّعويض من الواو الَّتي من أصل الكلمة.

وقيل: للتَّعويض من ياء الإضافة.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾: أي: في النَّوم، وقد رأى بالعين يرى رؤيةً، ورأى بقلبه يرى رأيًا، ويرى في المنام يرى رُؤيا.

وقوله تعالى: ﴿أَحَدَعَشَرَكَوْكَبًا﴾: اسمان جُعلا اسمًا واحدًا، فبُنِيا على الفتح.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾: كرَّر قوله: (رأيت) تأكيدًا لَمَّا طالَ الكلام.

وقيل: معناه: أنَّه رآهم في النُّوم، ورآهم يسجدون له، فالأوَّل لرؤية[٢] أعيانهم، والثَّاني لرؤية فعلهم.

وقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ ولم يقل: (رأيتها) لأنَّه وصفَهم بالسُّجود الَّذي هو فعل العقلاء، فألحقَ كنايتهم بكناية العقلاء؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨].

وفي سجودِهم له وجهان:

أحدهما: أنَّه السُّجود المعهود على الحقيقة، وكان تكرمةً لا عبادةً.

والثاني: أنَّه بمعنى الخضوع[٣]؛ كما قال الشاعر:

---

(١) في (ر): «للترفيق».

(٢) في (ر) و(ف): «لرؤية العين؛ يعني».

(٣) في (ر): «الخشوع».

تــرى الأُكْــمَ فيهــا سُــجَّدًا للحَوافِــرِ[١]

وكانت الكواكبُ الأحدَ عشرَ مُثُلًا لإخوته الأحدَ عشرَ، والشَّمسُ والقمرُ مثالَيْن لأبيه وخالته، وكانت تحتَ أبيه، وكانت[٢] أمُّه ماتَت، واسمها راحيل، واسم خالته لايا، وهما بنتا لايان بن ناهر، وناهر أخو إبراهيم الخليل صلوات الله عليه، ولايان بن ناهر كان خالَ يعقوب عليه السَّلام.

وقال وهبُ بن منبِّه: كان يوسفُ صلوات الله عليه رأى قبل هذه الرُّؤيا ـ وهو ابن سبع سنين ـ في نومه أنَّ إحدى عشرة عصًا[٣] طوالًا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدَّائرة، وإذا عصًا صغيرةٌ وثبَتْ[٤] عليها حتَّى اقتلعَتْها وغلبَتْها، فوصفَ ذلك لأبيه، فقال له: إيَّاك أن تذكرَ هذا لإخوتِك، ثمَّ رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنةً أنَّ أحدَ عشرَ كوكبًا والشَّمس والقمر سجدْنَ له، فقصَّها على أبيه، فقال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ الآية[٥].

وذكر أبو القاسم بن حبيبٍ في «تفسيره» بإسناده عن جابرِ بن عبد الله: أنَّ يهوديًّا أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا محمَّد؛ أخبرني عن أسماء الكواكب اللاتي سجدْنَ ليوسف، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «إنْ أخبرْتُكَ أتؤمنُ[٦] بي؟» قال: نعم، فأتاه جبريلُ

---

(١) عجز بيت لزيد الخيل، انظر: «ديوانه» (ص: ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٣٧). وصدره:

بِجيــشٍ تَضِــلُّ البُلْــقُ فــي حَجَراتِــه

(٢) «تحت أبيه وكانت» من (أ).

(٣) في (ف): «غصنًا».

(٤) في (أ): «تثب».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٨).

(٦) في (ف) و(أ): «لتؤمنن».

صلوات الله عليه فعلَّمه أسماءها، وهي: الحَرَثان والطَّارق والقابِس والصَّرُوح[1] والفُلَيْق والمُصبح[2] والوثَّاب والذَّيَّال والعَمُودان والفَرْع وذو الكنفات[3]، رآهنَّ

(١) في (ف) و(أ): «الضروج».

(٢) المصْبِح: هو ما يطلع قبل الفجر كما قال الشهاب. حاشية الشهاب على البيضاوي (٥/ ١٥٥).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١١١١)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٩٧)، من طريق الحكم بن ظهير عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر به.

قال ابن حبان: هذا لا أَصْلَ له مِن حديثِ رسول الله ﷺ، والحكم بن ظهير الفزاريّ الكوفِي كان يشتم أصحاب محمد ﷺ، يَروِي عن الثِّقات الأشياء الموضوعات.

وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وكأن واضعه قصد شين الإسلام بمثل هذا، وفيه جماعة ليسوا بشيء، قال يحيى بن معين: الحكم بن ظهير ليس بشيء. وقال النسائي: متروك الحديث.

وقال الجوزجاني كما في «التهذيب»: ساقط؛ لميله وأعاجيب حديثه، وهو صاحب حديث نجوم يوسف.

وقال ابن كثير في «تفسيره»: تفرد به الحكم بن ظهير الفزاري وقد ضعفه الأئمة، وتركه الأكثرون.

وله طريق آخر ليس فيه الحكم بن ظهير، رواه الحاكم في «المستدرك» (٨١٩٦) من طريق أسباط بن نصر عن السدي به، وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي. وجعله السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٨٣) متابعةً لرواية الحكم بن ظهير، وتابع السيوطي في ذلك الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص: ٤٦٤)، لكن الشيخ عبد الرحمن المعلمي في تعليقه على «الفوائد» رد ذلك فقال: وقف الذهبي في «تلخيصه» فلم يتعقبه، ولا كتب علامة الصحة كعادته فيما يقر الحاكم على تصحيحه، وقد جزم الجوزجاني ثم العقيلي بأن الحكم بن ظهير تفرد به عن السدي، ومن طريق الحكم، ذكره المفسرون، مع أن تفسير أسباط عن السدي عندهم جميعًا، فكيف فاتهم منه هذا الخبر، ووقع للحاكم بذاك السند؟ هذا يشعر بأن بعض الرواة وهم، وقع له الخبر من طريق الحكم، ثم التبس عليه فظنه من طريق أسباط، كالجادة، والله أعلم.

يوسف والشَّمسَ والقمر، نزلَتْ من السَّماء فسجدْنَ له، فأخبر والدَه فقال: يا بنيَّ؛ هذا أمرٌ مشتَّت[١] وسيجمعُه الله تعالى بعدُ.

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: الشَّمسُ أمُّه، والقمرُ أبوه[٢].

وقال مقاتل: الشَّمسُ أبوه، والقمرُ أمُّه[٣].

وقال السُّدِّيُّ: الشَّمسُ أبوه والقمرُ خالته، واسمها راحيل، وكانت أمُّه ماتَتْ واسمُها لايا[٤].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: بلغَنَا أنَّ يوسف صلوات الله عليه كان نائمًا في حجر أبيه ذات ليلةٍ، فانتبه مرعوبًا، فقال له يعقوب عليه السلام: حبيبي؛ ما الَّذي ذَعَرَكَ؟ قال: يا أباه؛ رأيت رؤيا عجبًا، قال: ماذا رأيت؟ قال: رأيْتُ كأنِّي على رأس جبلٍ شامخٍ، وحوله أشجارٌ وأنهارٌ ورياضٌ، فبينا أنا كذلك إذ رأيْتُ كواكبَ نزلَتْ من السَّماء والشَّمس والقمر رأيتهم لي ساجدين[٥].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: دلَّت هذه الآية أنَّ إخوة يوسف كانوا علماءَ؛ فإنَّه شبَّههم بالكواكب وبها يُهتدَى، فدلَّ أنَّهم كانوا علماء يُقتدَى بهم، وشبَّه الأبوَيْن بالشَّمس والقمر، وبهما جميع منافع الخلق؛ إذ بهما صلاحُ جميع الأغذية في الأرض، ونضجُ جميع الفواكه والأنزال[٦].

---

(١) في (أ): «متشتت».

(٢) في (أ): «أبوه والقمر أخوه». والخبر رواه ابن المنذر في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٤٩٩)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٢) من قول ابن جريج.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ١٨).

(٤) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٥) لم أقف عليه.

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٠٦).

ودلَّت الآية على أنَّ الرُّؤيا قد تَخرج على غير ما رأى، وقد تخرج على عين ما رأى، فقد رأى سجودَ الكواكب، وخرجت الكواكبُ على الإخوة والسُّجودُ على عينه، وهو كرؤية إبراهيم صلوات الله عليه في المنام ذبحَ الولد، فخرجَ الولد على الكبش، والذَّبحُ على عينه، فهذا أصلٌ لنا أنَّ الخطاب قد يخرج والمراد به عينه، وقد يخرج والمراد به غيره.

وفيه جواز الاجتهاد، وطلب المعنى في المخاطبات، وما ظهر للنَّاس من تعبير الرُّؤيا على الاجتهاد يدلُّ أيضًا على جواز العمل بالاجتهاد.

ودلَّتِ الآيةُ أيضًا على أنَّ إخوة يوسف كانوا علماء حكماء وعارفين بتعبير الرُّؤيا؛ فإنَّ يعقوبَ قالَ ليوسفَ عليهما السَّلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ وذلك لعلمِهم بالتَّعبير.

* * *

(٥) ـ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾: يعني: فقالَ يعقوبُ: يا بنيَّ لا تخبرْ إخوتَكَ برؤياكَ، وهم رُوبيلُ ويهوذا وشمعونُ ولاوي، أمُّهم لايا امرأة يعقوب، ودان وآشر ويشجر(١)، أمُّهم دلفا جارية يعقوب، ونفثالي وجاد وزبالون، أمُّهم زلفا جارية يعقوب، وبنيامين أمُّه راحيل وهي أمُّ يوسف أيضًا مع أخوات، وكانت راحيل أختَ لايا، وهما بنتا لايان بن ناهر خال يعقوب، والجاريتان كانتا هدية لايان لختنه يعقوب.

---

(١) في (أ): «ودار وأشير وشحو» بدل: «ودان وآشر ويشجر».

وقوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾: نصب بالفاء لأنَّه جواب النَّهي، وعلامة نصبه حذفُ النُّون.

يقـول: إنَّ تأويـل رؤيـاك ظاهرٌ لا يخفـى عليهم، فـلا يؤمَـنُ أن يحملَهم ذلك علـى أن يبغـوا لـك الغوائـل ويُخفـوا لـك الحيـل، ويدعوهم إلـى ذلك الشَّـيطانُ، وذلـك قولـه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: أي: ظاهرُ العداوةِ ومُظهرُها، وهذا يدلُّ على أنَّ يعقوب كان قد علم من الإخوة حسدًا ليوسفَ، فقال له هذا.

وقال القتبيُّ: الكيدُ: هو الاحتيال للاغتيال[1].

وقيل: هو طلب اتِّصال الشَّرِّ به على غير علمٍ منه.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: بدءُ كلِّ شرٍّ يكون من الشَّيطان، يقذفه في القلوب، ويُخطره في الصُّدور، ثمَّ تكون العزيمة على ذلك والفعل من العبد، وهو ما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٠][2].

وفي الآية أنَّ الرُّؤيا حقٌّ، وهي من المبشِّرات، وهي جزءٌ من ستَّةٍ وأربعين جزءًا من النُّبوَّة؛ كما رُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الرُّؤيا الصَّادقة جزءٌ من ستَّةٍ وأربعين جزءًا من النُّبوَّة»[3].

---

(١) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢١٢).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٠٨).

(٣) رواه البخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وذلك أنَّ أعوامَ الوحي اثنان وعشرون ونصف؛ ستَّة أشهر في ابتداء[1] الرُّؤيا الصَّادقة، فكانت جزءًا من ستَّةٍ وأربعين جزءًا من النُّبوَّة[2].

وفيها: أنَّ شفقةَ الآباءِ وافرةٌ، وحسدَ الإخوةِ ظاهرٌ، ولهذا قال أصحابُنا رحمهم الله: تُقبَلُ شهادةُ الأخِ للأخِ؛ لأنَّه لا تُهمةَ فيه، ولا تُقبلُ شهادةُ الأبِ للابنِ، ولا شهادةُ الابن للأبِ؛ للتُّهمةِ.

وفيها: أنَّ عداوةَ إبليس ـ لعنه الله ـ لنا قديمةٌ، ولله تعالى في إبقائه لطفٌ عظيمٌ، فإنَّه يحيلُ لمعاصينا عليه، وذلك مذكورٌ في قصَّة كثيرٍ من الأنبياء: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦]، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥]، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

* * *

(٦) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾: أي: كما دلَّ رؤياك على إكرامِ الله تعالى إيَّاك بتفضيلِك على إخوتِك، كذلك يختارُكَ فيستخلِصُكَ بالنُّبوَّة.

---

(١) في (أ): «الابتداء».

(٢) كذا قال، ولا يستقيم كون الرؤيا جزءاً من ستة وأربعين على هذا، وقد جاء في «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ٢٠٤): أنَّ جُملةَ أيَّامِ الوَحيِ ثلاثةٌ وعشرونَ سنةً، كان ستَّةُ أشهرٍ في المَنام، وبهذا فُسِّر قولُه ﷺ: «رؤيا المؤمن جزءٌ مِن ستَّةٍ وأربعينَ...».

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: ويلهمُكَ عمَّا تَؤولُ إليه عاقبة ما يراه النَّاس في مناماتِهم.

وقيل: ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: أنْ يلهمَكَ[1] العلمَ بعواقبِ الأمرِ بوحيٍ من الله تعالى.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: أي: ويكملُ ما ابتدأَكَ به من الإنعام، والابتداءُ هو إخراجُه مِن أصلاب الأنبياء، والإتمامُ بالنُّبوَّة والإنجاء[2].

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: أي: أولادِ يعقوب، ودلَّ على نبوَّة أولادِه.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾: بالرِّسالةِ والوحي.

وقيل: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بتخليصِك مِن غوائلِ إخوتِك وسائرِ النَّاس؛ كما جعلَ النَّار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وفدى إسحاقَ بالذِّبح العظيم[3]، وهذا كلُّه كان ببشارةٍ مِن يعقوبَ ليوسفَ.

وقيل: كان دعاءً له بذلك كلِّه؛ كما قال في آخر هذه السُّورة: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]، وتقولُ: يديمُ الله عزَّك ويطيلُ بقاءَك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يجري على يوسف من المفتَتح إلى المختَتم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حَكمَ له ولأبيه ولإخوته بما حَكم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: تأويل صحف إبراهيم عليه السلام.

وقيل: ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: العلم والكلام.

---

(١) «أن يلهمك» ليس في (أ).

(٢) في (ر): «والإيحاء»، وليست في (ف).

(٣) الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾: بما صنعَ به إخوتُه، أو عليمٌ بتمامِ الإنعام ﴿حَكِيمٌ﴾: يضعُ كلَّ شيءٍ موضعَه[1].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قيل: الاجتباءُ: عصمتُه من ارتكاب ما راودَتْه امرأةُ العزيز عن نفسِه.

وقيل: من قضايا الاجتباءِ إسبالُه السِّترَ على فعل إخوته، حيثُ قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يذكرْ خلاصَه من البئر.

وقيل: من قضيَّة الاجتباء توفيقُه لسرعة العفوِ عن إخوته، حيث قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

و﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: هو معرفةُ قَدْرِ كلِّ أحدٍ، والوقوفُ على مقدار كلِّ قائلٍ بما يسمعُ من نطقِه وحديثِه بحدَّة الكياسة وصدق الفراسة.

وإتمامُ النِّعمةِ: توفيقُ الشُّكر على النِّعمة.

وقيل: مِن إتمامِ النِّعمة: الصَّونُ عن شهود النِّعمة برؤية[2] المنْعِم، ومِنْ تمامِها صونُها عن الزَّوال والتَّغيير، ومِنْ تمامِها رفعُ الهمَّة عن مساكنة النِّعمة[3].

* * *

(٧) ـ ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ﴾: أي: دلالاتٌ، وقرأ ابنُ كثيرٍ

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٠٩).

(٢) في (ر): «برؤية توفيق الشكر على النعمة برؤية».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٩).

وحده: ﴿آيةٌ﴾ على الوحدان[١]، وهو في معنى الجمع أيضًا؛ يقال: هذا الشَّيءُ علامةٌ لأمورٍ كثيرةٍ.

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾: أي: للَّذين سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عن هذه القصَّة[٢].

روي أنَّ اليهودَ ـ لعنهم الله ـ قالوا للمشركين: اسألوا محمَّدًا لِمَ انتقلَ يعقوبُ من مصرَ إلى الشَّام[٣]، فنزلَتِ السُّورة، فكانت آيةً على صدق نبوَّته[٤].

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أتى قومٌ من اليهودِ رسولَ اللهِ ﷺ، فوافقَ إتيانُهم ذِكْرَ رسولِ الله ﷺ قصَّةَ يوسفَ عليه السلام، فتعجَّبوا منه وقالوا له: مِن أينَ لك هذا يا محمَّد؟ فقال: «علَّمنيه ربِّي»، وعادوا إلى اليهود فقالوا لهم: إنَّ محمَّدًا العربيَّ يذكرُ قصَّةَ يوسفَ كما أُنزلَتْ في التَّوراة، فنزلَتْ هذه الآية: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ يعني: اليهود[٥].

وقال مقاتلٌ: سألَتِ اليهودُ رسولَ الله ﷺ عن قصَّةِ يوسفَ عليه السلام فأخبرهم بها، فلم يؤمنْ به غيرُ جبرٍ عبدِ عامرٍ الحضرمي[٦].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٧).

(٢) في (ف): «النعمة».

(٣) كذا في جميع النسخ، وفي مصادر التخريج: «من الشام إلى مصر».

(٤) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٨٧)، والسمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٧٨)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٩)، والزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٤٠).

(٥) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٦).

(٦) في (ر): «غير حبرٍ من اليهود عبد عامرٍ الحضرمي». وقوله: «عبد عامرٍ الحضرمي» ليس في (ف). وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣١٩)، وفيه: «غير جبر غلام ابن الحضرمي». وفي «الإصابة» (١/ ٥٦٢): جبر مولى عامر بن الحضرمي، وفي رواية الواقدي: جبر مولى بني عبد الدار، ذكر الواقديّ أنه كان بمكة، وكان يهوديًا، فسمع النبيّ ﷺ يقرأ سورة يوسف فأسلم وكتم إسلامه، ثم =

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل أنَّه آياتٌ للسَّائلين إلى آخر الدَّهر.

وقوله: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ يحتملُ أنَّ المرادَ: قصَّتُه سورة تامَّة هي آيات الكتاب.

ويحتمل أنَّه آياتُ صدقِ نبوَّته؛ لأنَّ قصَّته في كتبهم كانت بغير لسانه، فجاءَ بها بلسانِه[١] من غير زيادةٍ ولا نقصان، فدلَّ أنَّه بالله علمَ ذلك[٢].

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: في قصَّته آياتٌ لكلِّ ذي محنةٍ حتَّى يعلمَ أنَّه كيف يصبر، ولكلِّ ذي نعمةٍ حتَّى يعلمَ أنَّه كيف يَشكر.

قالَ: ويُقال: في قصَّته دلالاتُ كيفيَّةِ العفو عن الزَّلَّة، وكيفيَّة الخَجْلَة عند اللِّقاء لأهل الجفوة.

وقيل: في قصَّته دلالاتُ لطفِ الحقِّ سبحانَه لأوليائه بالعصمة، وآيات أنَّ المحبَّةَ لا تخلو عن المحنة.

وقيل: فيه آياتٌ على أنَّ مَنْ صدَقَ في رجائِه[٣] تخلَّص يومًا مِنْ بلائِه[٤].

وقيل: ﴿ءَايَٰتٌ﴾؛ أي: عجائب، قال الشَّاعر:

آيـةٌ في الجـمالِ ليسَ لَـهُ فـي الـ ـخَلْقِ شِبْهٌ وما له مِـن نظيرِ[٥]

= أطلـع مواليـه علـى ذلك، فعذبوه، فلما فتح رسـول الله ﷺ مكة شـكا إليـه ما لقي فأعطاه ثمنه فاشـترى نفسـه وعتق واسـتغنى، وتزوّج امرأة ذات شـرف في بني عامر.

(١) في (ر): «فجاءت بلسانه».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٠).

(٣) في (ر): «رخائه». وانظر التعليق الآتي.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٦٩)، وفيه: (... من صدق في رجائه يختصّ يوما ببلائه).

(٥) بلا نسبة في «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١/ ٢٦٦).

وقيل: السُّؤال أنواعٌ، والفوائد للسَّائلين، فإذا جالسْتَ العلماءَ فسَلْ بلسانك، وإذا جالسْتَ الحكماء فسَلْ بعينك[1]، وإن جالسْتَ العارفينَ فسَلْ بقلبك، وإن جالسْتَ المحبِّين فسَلْ بسرِّك، فإذا لقيْتَ العالِمَ فقدِّم لسانَك، وإذا لقيت الحكيم فقدِّم عينَكَ، وإذا لقيْتَ العارفَ فقدِّم قلبَكَ، وإذا لقيْتَ المحبَّ فقدِّم سرَّكَ، وإن اطَّلعت على عيبٍ فقدِّمْ روحَكَ.

وقال بعضُ أهلِ العلم: يمكن تمشية الآية في كلِّ السَّائلين، فكأنَّه قال: إن سألَكَ العصاة: ما يفعلُ الله بهم؟ فاقرأ عليهم قصَّة يوسفَ، وقل: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]، كما غفرَ اللهُ لإخوةِ يوسفَ.

وإن سألَكَ الَّذين يؤذون الآباءَ ويعقُّونهم: ما يفعلُ الله بهم إذا تابوا؟ فقل: يعفو عنهم، كما عُفِيَ عن أولاد يعقوب.

وإن سألَكَ الممتحَنُون: ما عاقبة أمرهم؟ فقل: الفرجُ، كما فرَّجَ اللهُ عن يعقوبَ.

وإن سألَكَ المحبُّون: كيفَ حالُهم؟ فقل: يصلونَ إلى الحبيب كما وصلَتْ زليخا إلى يوسفَ.

وإن سألَكَ المسجونون: ما عاقبةُ أمرهم؟ فقل: الفرجُ كما فرَّج اللهُ عن يوسفَ.

وإن سألك المهمومون، وإن سألَكَ الواقعون في القَحْطِ، وكذا..، فأجبهم بهذه القصَّة على التَّفصيل.

وقيل: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾: لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، حيث سألوا رسولَ اللهِ ﷺ: لِمَ سمَّى الله تعالى هذا أحسن القصص؟ قال: «لأنَّ المخبِر عنه هو أحسنُ القائلين قولًا، والمخبَرَ عنه أحسنُ النَّاس وجهًا، فإنَّ يوسف لم يكن بعدَه أحدٌ في

---

(١) في (أ): «بنفسك»، وفي (ر): «بعقلك».

الحسنِ مثلَه»، فقالَتْ عائشةُ رضي الله عنها: هو أحسنُ أم أنْتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «هو أحسنُ خَلْقًا، وأنا أحسنُ خُلُقًا»، فقالَتْ عائشةُ رضي الله عنها: فلِمَ لا تخبرُ النَّاسَ به؟ قال: «إنْ لم أقلْ أنا فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]»، فنزل جبريل عليه السلام وقال: أخبرِ النَّاسَ أنَّ نورَكَ ونورَ يوسفَ افترعا[١] في صلبِ آدمَ، وصارَ الحسنُ والجمالُ ليوسفَ، والذِّكرُ والشَّرف، والنُّورُ والحبور، والضِّياءُ والبهاء، والعَفافُ والكَفاف، والهيبةُ[٢] والرِّفعة، والعلمُ والحلم، والفضلُ والعدلُ والعزم، والسِّيادةُ والسَّعادة[٣]، والحوضُ والشَّفاعة، والدَّعوةُ والإجابة، والقضيبُ[٤] والنَّاقة، والتَّاجُ والعمامة، والسَّيفُ والهراوة، والصَّبرُ والقناعة، والنُّسكُ والإنابة، والرَّحمةُ والرَّأفة، والوقارُ والسَّكينة، والشَّريعةُ المرضيَّة، والأحكامُ الحنيفيَّة، والصَّلاةُ المكتوبة، والزَّكاةُ المفروضة، والسَّمعُ والطَّاعة، والصَّفُّ والجماعة، والتَّأذينُ والإقامة، والتَّكبيرُ والتَّهليل، والتَّسبيحُ والتَّقديس، والتَّحميدُ والتَّمجيد، والحجُّ والعمرة، والبلدُ المحرَّم، والمسجدُ المعظَّم، وزمزمُ والمقام، والمشعرُ الحرام، والقرآنُ الحكيم، والخُلُق العظيم، والآياتُ المفصَّلات، والكلماتُ المتلوَّات، والأزواجُ الطَّاهرات، والعلوُّ في الدَّرجات، والبراقُ والمعراج، والمقامُ المحمود، والحوضُ المورود، والمحضرُ المشهود، والأفقُ الأعلى، والمقامُ الأدنى، وسلامُ اللهِ الأعلى، هذه كلُّها لَكَ[٥].

---

(١) في (ف) و(أ): «اقترعا».

(٢) في (أ): «والهمة».

(٣) في (أ): «والحزم والبشارة» بدل من «والسيادة والسعادة».

(٤) في (أ): «والقصب».

(٥) لم أقف له على سند ولا ذكر في الكتب المتقدمة، ونقله الصفوري في «نزهة المجالس» (١/ ١٠٥) عن المصنف.

(٨) ـ ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾: اللَّام بمعنى القسم؛ أي: قالوا: إنَّ يوسفَ حقًّا وأخاه لأمِّه وهو[1] بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ أي: جماعةٌ يتعصَّب بعضنا لبعضٍ، وكانوا عشرة، والعربُ تطلق هذا الاسم على العشرة إلى الأربعين؛ أي: نحن جماعةٌ لا نعجزُ بالاحتيال عليه ليخلوَ لنا وجه أبينا، فيعاملَنا[2] بالمحبَّة والتعطُّف، فلماذا لا نحتال لذلك؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي: خطأ بيِّنٍ بإيثارِ اثنين على عشرةٍ مع استوائهم في كونهم أولادًا له، ومع اقتدار العشرة على الاحتيال على واحدٍ[3].

وأيضًا هو في غلطٍ في تدبير أمر الدُّنيا؛ إذ نحن أنفعُ له مِن يوسف وبنيامين، لأنَّا نقوم في أمواله ومواشيه.

وأيضًا لو أنعمَ النَّظر لم يأمنْ سوءَ عاقبة هذا الاختيار لتحاسد الأقارب، وهذا عدولٌ منه عن طريق الرَّأي في استصلاح الأولاد.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فيه دلالةٌ أنَّه لا بأسَ للرَّجل أن يخصَّ [بعضَ] ولدِه بالعطف عليه والميل إذا كان فيه معنًى ليس ذلك في غيره، فلهذا قال أصحابنا رحمهم الله: لا بأسَ بالرَّجل أن يخصَّ بعض ولده بالهبة له إذا لم يقصدِ الجورَ على غيره من الأولاد، وخصَّه لمعنًى أوجبَ ذلك؛ كما فعلَه أبو بكرٍ بعائشةَ رضي الله عنهما، حيثُ نحلَها جذاذ عشرين وسقًا بالعالية[4].

---

(١) «لأمِّه وهو» ليس في (ف).

(٢) في (أ): «فيعمنا».

(٣) من هنا سقط في (أ) ورقة كاملة.

(٤) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٤/ ٧٥٢)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٦٥٠٧)، وابن أبي =

ثمَّ يحتمِلُ تخصيصُ يعقوبَ يوسفَ وأخاه بالحبِّ وجوهًا:

أحدها: ما رأى فيهما من الضَّعفِ في أنفسِهما، والعجزِ في أبدانهما، فازدادَتْ شفقتُه عليهما لذلك، وهذا ممَّا يكون بينَ الخلق.

والثاني: أنَّه خصَّهما بذلك لفضل خصوصيَّةٍ كانت لهما؛ إمَّا مِن جهة الدِّين أو العلم أو غيره، أمرَهُ الله تعالى بذلك [لذلك].

أو لأنَّه لمَّا بُشِّرَ يعقوبُ بنبوَّةِ يوسفَ كان يفضِّله على سائر أولادِه، ويُؤْثرُه عليهم لذلك.

وإنَّما قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ بآثارٍ تظهرُ عندَهم، وإلَّا فحقيقة المحبَّة لا تُعرَفُ[1].

وقال الإمامُ القُشيريُّ رحمه الله: لمَّا اعترضوا بقلوبِهم على أبيهم في تقديم يوسفَ عليهم في المحبَّة، عاقبهم الحقُّ سبحانَه بتركهم حتَّى بسطوا في أبيهم بلسان اللَّوم فوصفوه بالضَّلال، وهو مِن المحال، وإنْ كان المرادُ منه هو الذَّهابَ في أمر يوسفَ بكلِّ حالٍ.

قال: ويُقال: لمَّا حَسدوا في تقديمِ أبيهِم يوسفَ عليهم لم يرضَ الحقُّ سبحانه وتعالى حتَّى أقامَهم بينَ يدَي يوسفَ، فخرُّوا له سُجَّدًا؛ ليعلموا[2] أنَّ الحسودَ لا يسودُ.

قال: ويُقال: أطولُ النَّاسِ حزنًا وأدومُهم غُصَّةً مَنْ أرادَ تأخير مَن قدَّمَه الله

= شيبة في «مصنفه» (٢٠١٣٥)، عن عائشة رضي الله عنها. ولفظ «الموطأ»: «عن عائشة زوج النبي ﷺ، أنها قالت: إن أبا بكر الصديق كان نحلها جاد عشرين وسقا من ماله بالغابة...».

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٠ ـ ٢١١).

(٢) في (ر) و(ف): «لعلم»، والمثبت من «لطائف الإشارات».

تعالى، أو تقديَم مَن أخَّرَه الله تعالى؛ إنَّ إخوةَ يوسفَ أرادوا أن يجعلوه في أسفلِ الجُبِّ، فرفعَه اللهُ تعالى فوقَ السَّرير(١).

وقيل: إنَّما قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ في حقِّ يوسف؛ فلأنَّ يعقوب عليه السلام أصحبَه يومَ عيدٍ ثلاثةَ أشياءَ: قميصَ إبراهيمَ الذي ألبسَه له جبريلُ، وقد جاء به مِن الجنَّةَ يوم أُلقِيَ في نار نمرود، وشدَّ وسطَهُ بمنطقةِ إسحاق، ووضع في يده خيزرانةً جاءَ بها جبريلُ عليه السَّلام يومَ وُلِدَ إسحاقُ، فحسدُوه لتخصيصِهِ بها، واستدلُّوا على محبَّتِه إيَّاه(٢).

* * *

(٩) ـ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾: فقالوا: ما الرَّأي؟ قال وهبٌ: قال ذلك شمعون. وقال كعبٌ: قاله دان. وقال مقاتلٌ: قاله روبيل؛ وهو أكبرهم سنًّا(٣).

وقال بعضُهم: لمَّا قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ تراءى لهم الشَّيطان في صورة شيخٍ وقال: إنَّ يوسف يريدُ أن يستعبدَكم، فقالوا: ما الرَّأي؟ فقال: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، فقالوا له: لو فعلْنَا ذلك كنَّا عاقِّين للأبِ، عاصينَ للهِ تعالى، فقال: ثمَّ تتوبون فتكونوا قومًا صالحين، ثمَّ غابَ عنهم، فثبَتوا على هذا الرَّأي بقولهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾؛ لتنحسمَ مادَّةُ هذا الأمر ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ﴾؛ أي:

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٠).

(٢) لم أجده، وظاهر أنه من الإسرائيليات.

(٣) ذكر هذه الأقوال الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٩).

أَلقُوه في أرضٍ غُرْبَةٍ بعيدةٍ عن أرضِ يعقوبَ، بحيث يخفَى عليه موضعُ يوسفَ، وتُقصى[١] دونَه أخباره.

وقوله: ﴿أَرْضًا﴾؛ أي: إلى الأرض، نصب بنزع الخافض؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: مِن قومِه.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: قال مقاتلٌ: أي: يَصْفُ لكم[٢].

جُزِمَ لأنَّه جزاءُ الأمر، ولذلك حُذفَتْ واوُه، يقول: لا يزاحمكم يوسفُ في برِّه وعطفِه واستئثارِه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾: عطف على ﴿يَخْلُ﴾ وهو جزم، ولذلك حُذفَتِ النُّون.

وقال مقاتل: أي: يصلح أمرُكم فيما بينكم وبين أبيكم[٣]، يعني به: صلاحَ أمر الدُّنيا مِن جهة التَّمكُّن من الأب.

وقال ابنُ عبَّاسٍ والسُّديُّ: أي: وتتوبوا مِن صنيعِكم[٤]؛ وهو القتلُ أو الطَّرحُ، وعقوقُ الأبِ، وإيذاءُ الأخِ، وعصيانُ أمرِ الله تعالى، فيغفر لكم بتوبتِكم، فقد اعتقدوا التَّوبة قبلَ ارتكاب الذَّنب.

---

(١) في (ف): «وتقضى».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٩٩).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٢٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٥)، عن السدي. وذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٨٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال الإمام أبو منصور[١] رحمة الله عليه: قديما[٢] قيل: مَن طلب الكلَّ فاته الكلُّ، أرادَ إخوةُ يوسفَ أنْ يكونَ إقبالُ يعقوبَ بالكلِّيَّة عليهم، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [يوسف: ٨٤].

وقيل: كان قصدُهم ألَّا يكونَ يومَئذٍ عندَ أبيه، فساوَى عندهم أقسام غيبتِه[٣]، فقالوا: إمَّا القتل وإمَّا النَّفي، ولا بأسَ بما يكون بعدَ ألَّا يكون يوسف.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ لم تطبْ نفوسُهم بأن يذهبوا عن اللهِ بالكُلِّيَّةِ، فدبَّروا لحسنِ الرُّجعى قبلَ ارتكابِ ما دعتْهُم نفوسُهم إليه، وهذه صفةُ أهلِ العِرفانِ باللهِ جلَّ جلالُه[٤].

❊ ❊ ❊

(١٠) - ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾: قال قتادةُ وابنُ إسحاقَ: قال ذلك روبيل[٥]. وقال الزَّجَّاجُ: قال ذلك يهوذا[٦]، قال: إنَّ قتلَ يوسفَ أمرٌ عظيمٌ فلا تفعلوه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: قال الحسنُ: أي: في قعرِ البئرِ[٧].

---

(١) كذا قال، وهو سهو منه رحمه الله، فإن الآتي هو كلام القشيري لا الماتريدي.

(٢) في (ر): «ربما»، والمثبت من (ف) و«اللطائف».

(٣) في (ر): «فساوى أقسام غيبته»، ولم ترد هذه الجملة في «اللطائف».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٠).

(٦) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٣).

(٧) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٣٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٨٥).

والغيابةُ في أصلِ اللُّغة: القَعرُ؛ أي: الموضعُ الَّذي يغيبُ فيه صاحبُه، وكلُّ ما غيَّبَ[١] شيئًا عن الحسِّ يكون فيه فهو غَيابةٌ، والقبر يسمَّى بذلك، قال الشَّاعر:

وإنْ أنا يومًا غـيَّـبـتْـنـي غـيـابَـتـي فسيروا بسَيْري في العَشيرَةِ والأهْلِ[٢]

والجُبُّ: البئرُ الَّتي لم تُطوَ[٣]، تُسمَّى بذلك لأنَّه غُيِّبَ عنها ترابُها؛ أي: قُطِعَ، وقال الأعشى:

لَئِـنْ كنْـتَ فـي جُـبٍّ ثمانيـنَ قامةً وَرُقِّيْـتَ أسـبابَ السَّـماءِ بِسُـلَّمِ
لَيَسْـتدْرِجَنْكَ القـولُ حـتَّى تَـهِـرَّهُ وتعلَمَ أنِّـي عندَكُـمْ غيـرُ مُلْجَـمِ[٤]

وقولُه تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾: والالتقاطُ: تناولُ الشَّيءِ مِن الطَّريق، ومنه: اللُّقَطةُ واللَّقيط.

والسَّيَّارةُ: العيرُ، وقيل: مارَّةُ الطَّريقِ.

يقولُ: ألقُوهُ في أسفلِ بئرٍ عميقٍ قليلةِ الماءِ على ممرِّ السَّيَّارةِ والقوافلِ يلتقطْهُ بعضُهم، فيخلوا لكم مكانُه مِن غير ارتكابِ الأمرِ العظيمِ ـ وهو القتل ـ ويحصلْ لكم المقصودُ الآخرُ؛ وهو رميُكُمْ إيَّاهُ البلد الثَّاني[٥] مِن غيرِ أنْ تحتاجوا إلى تكلُّفِ سفرٍ فيه[٦] بأنفسِكم.

---

(١) في (ف): «يغيّب فيه».

(٢) البيت للمنخل بن سبيع العنبري كما في «مجاز القرآن» (١/ ٣٠٢)، و«الكشاف» (٢/ ٤٤٧). وهو في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٤) رواية: (غيبتني منيتي).

(٣) طوى البئر: عرشها بالحجارة والآجر.

(٤) البيتان للأعشى، وهما في «ديوانه» (ص: ٨٢). وتَهِره: تكرهه.

(٥) في (ف): «البئر والثاني»، ولعل الصواب: البلد النائي.

(٦) «فيه» ليس في (ف).

فنصحَ هذا القائلُ إلى الإخوة بهذا التَّدبير، وكان مقصدُه نقضَ رأيهم في القتل، وجرَّهم[١] عنه إلى الرَّأي الثَّاني بتسهيل ذلك السَّبيل إليهم، والعاقلُ إذا دُفِعَ إلى شرَّين[٢] اختارَ أهونَهما.

﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ بالتَّعريف دون التَّنكير، له معنيان: يحتملُ أنَّهم أشاروا إلى بئرٍ قد عرفُوها في أسفارِهم، ويحتملُ أن يكون ذلكَ كقولِكَ: ارمِ به في الماءِ، لا تريدُ به ماءً بعينِهِ، إنَّما تريدُ به الجنسَ.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾؛ أي: إنْ كنتُمْ تريدونَ تمامَ تدبيرِكُمْ فافعلوا هذا، فليسَ لكم أوفقُ منه.

وقال الإمامُ أبو حسينٍ محمَّد بن يحيى البشاغري في «كتاب العصمة»: إنَّ الأخوَّةَ تستصحِبُ الشَّفقةَ، لكنَّ الميلَ إلى حظِّ النَّفسِ ربَّما يَغلبُ على الشَّفقة فلا يقدرُ على استعمالِها، فيعاملُ أخاه معاملةَ الأجانب والشَّفقةُ على حالِها غير متلاشيَة، لكنَّها غيرُ عاملة، دليلُه قولُ أحدِهم للآخرين: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، وهذا كلامٌ مِن هذا القائل على نظم الشَّفقة، وإجابتُهم له مبنيَّة على نظم[٣] الشَّفقة أيضًا، أنَّ مطالبتَهم حظوظَهم مِن أبيهم غلبَتْ عليهم، فلم يتركوه مِن غير أذًى ومكروهٍ، وألحقوهما به، ولم يخرجوا أيضًا بالإهلاك على الاستئصالِ؛ لأنَّ الإلقاءَ في الجبِّ مرجوٌّ منه الخلاص.

وقولهم أيضًا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ عنَوا به: لفي خطأٍ بيِّنٍ؛ حيث لا يسوِّي

---

(١) في (ر): «زجرهم»، وفي (ف): «ومرهم»، ولعل الصواب المثبت.

(٢) في (ف): «شيئيين».

(٣) «نظم» من (ف).

بينَنا في المحبَّة لنا، والإقبال علينا، والتَّنجُّح[١] بنا، فلم يعرفوا أنَّ إقبالَ يعقوب إلى يوسفَ لم يكن مِن جهة الولد، وإنَّما كان مِن معرفة صنعِ الله تعالى[٢]، وبما وضعَ اللهُ تعالى فيه مِن اللَّطائفِ.

وكانت محبَّتُه لِمَا كان يُكشَف له مِن زيادة الاطِّلاع على صنعِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيه، وكان لا يلزمُه التَّسوية بينهم، ولهذا قالوا: إنَّ للأبِ أنْ يزيدَ في الإحسانِ والبرِّ لبعض الأولاد دونَ بعضٍ؛ لزيادةِ منقَبةٍ في الدِّينِ أكرمَه اللهُ تعالى بها، وإنْ كانَ الأولادُ سواءً في معاني الدِّين فعليه أنْ يسوِّي بينهم في الإكرام والبرِّ.

فلم يكن يعقوبُ في خطأٍ بيِّنٍ كما قالَ بنوه، إلَّا[٣] أنَّهم توهَّموا أنَّه يكرمُه لغير الولديَّة[٤]، فرأوا أنفسَهم أولادَه، فنسبُوه إلى الخطأ، ولو عرفوا أنَّه لمعنًى مِن لطائفِ اللهِ فيه يكرمُه لم ينسبوه إلى الخطأ.

وفي ذلك إبانةُ أنَّهم يستعظمون إقبالَ أبيهم عليه، فأرادوا عطفَه عليهم[٥]، ويغتنمون إكرامَه إيَّاهم ماكَسوه، ولو كانوا متهاونين[٦] بَيْنَ الوالد غيرَ مغتنمين عطفَه عليهم لم يشتغلوا بتلك المماكسة مع أبيهم، إلَّا أنَّهم[٧] جهلوا وجهَ المعاملة في خلال كلامِهم بعضِهم مع بعضٍ ومع أبيهم ومع أخيهم، من نحو قولهم: ﴿لَيُوسُفُ

(١) في (ر): «والنجح».

(٢) بعدها في (ر): «منحه في التقويم».

(٣) في (ر): «لولا».

(٤) في (ر): «الولد».

(٥) «فأرادوا عطفه عليهم» من (ف).

(٦) في (ف): «متيقنين».

(٧) في (ف): «لأنهم» بدل: «إلاَّ أنَّهم».

﴿وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨]، ومن نحو قولهم: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩]، وقولهم: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]، وقولهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١١].

ثمَّ تركُ المجاهرة بقتلِه مغافصةٌ في ذلك كلِّه، دليلٌ على صحَّة إيمانهم؛ إذ لو لم يكنْ لهم إيمانٌ لم يكن لهم مانعٌ عن قتله من غير تدسيسٍ أو احتيال، وذلك كلُّه دليلٌ على أنَّ بركةَ نبوَّةِ أبيهم وأجدادِهم كانت متعدِّيةً إلى بواطنِهم، حتَّى لم يصيروا معاندِيْنَ عنادَ المعْرِضينَ عن الحقِّ بفعلِهم[1]، إلَّا أنَّهم لم يكونوا في ذلك الوقتِ أنبياء، فلم يُعصَموا عن المحظورات كلِّها، فوقَعوا فيما وقَعوا لحكمةٍ بالغةٍ علمَها الله تعالى، وعلمَ نفعَها متَّصلًا بهم وبأبيهم وبأخيهم وبالمسلمين، فأجرى عليهم تلك المعصيةَ[2]، وعقَّبَ تلك اللَّطائف والنِّعم فيهم وفي غيرهم.

* * *

(١١) - ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾: ولمَّا اتَّفقوا على التَّغييب صاروا إلى أبيهم يعقوب عليهم السلام فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

وفي الكلمةِ ثلاثةُ أوجهٍ: (لا تأمنُنا) بنونَيْن على الإظهار[3]؛ لأنَّ النُّونَيْن من كلمتَيْن.

---

(١) في (ف): «بوجه».

(٢) في (ف): «العصبية».

(٣) نسبت لأبيٍّ رضي الله عنه والحسن والأعمش وطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٣)، و«البحر المحيط» (١٢/ ٤٢٠).

و: ﴿لا تأمَنَّا﴾ بنونٍ واحدة على الإدغام؛ لالتقاء المثلَيْن[1].

و: ﴿لَاتَأۡمَ۫نَّا﴾ بالإدغام وإشمام الضمَّة[2]؛ طلبًا لِمَا كان فيها مِن الضمِّ.

وقد أمِنَه يأمنُه؛ أي: ائتمنَه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ [البقرة: ٢٨٣].

قالوا: لِمَ تخافُ علينا أنْ ننالَه بسوء ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾؛ أي: وهو أخونا وشقيقُنا، فنحنُ له ناصحون، مريدون به الخير ظاهرًا وباطنًا، لا موضعَ لاتِّهامِك إيَّانا فيه.

ونصحُهم له في السَّفر: أنْ يَحُوطوه[3] ولا يدَعوه يأخذ وجهًا مَخوفًا، ولا يُفْردوه عن أنفسِهم، ولا يكلِّفوه ما يُخاف عليه منه، ونحو هذا.

قال مقاتلٌ: في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، قالوا: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا﴾، فقال: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾، فحينئذٍ قالوا: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[4].

وقال في «كتاب عصمة الأنبياء»: كأنَّهم كانوا طالبوه مرارًا حتَّى خاطبوه بهذا: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، ولو كان هذا ابتداءَ كلامٍ ولم يظهر منه منعٌ لم يصحَّ هذا الخطابُ، وأرادوا بتأكيد هذا الكلام استرسالَ أبيهم واستسلامه بإرسالِ يوسفَ معهم، ثمَّ قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ فظاهرُه كذبٌ منهم؛ لأنَّهم أضمروا غشَّهُ، إلَّا أنَّ فيه نوعَ نصحٍ مِن وجهَيْن:

أحدُهما: أنَّه بإضمارهم الإضرار بأخيهم كانوا معتقدين للنُّصح، لذلك لم

---

(١) هي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (١/ ٣٠٣).

(٢) هي قراءة باقي العشرة. وهنا نهاية السقط في (أ) المشار إليه في (ص ٣١٨).

(٣) في (أ): «يحفظوه».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٠٠).

يكفرُوا، وهذا هو المذهب السَّديد أنَّ مرتكبَ[١] الكبيرة إذا لم يستحلَّها فهو في عَقْد الإيمان صحيحٌ، فإخوةُ يوسف عرفوا النُّصح في باطنهم، غير أنَّ غلبةَ الشَّهوة في حظوظِهم حملتْهُم على ذلك الفعل، فلم يستعملوا النُّصح المتمكِّن.

والثَّاني: أنَّهم اعتقدوا تغييبَه عن أبيه، لا إهلاكَه، وفي ذلك طرفٌ من النُّصح، وهم كانوا مع هذا التَّأويل غيرَ ناصحين بمكان أبيهم وأخيهم؛ لأنَّ قليلَ الأذى لمكان الوالدَيْن كثيرٌ، وكذا قليلُ قطعِ الرَّحم، فكيف بما أفضوا إليه؟

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: كلامُ الحسود لا يُسمَع، ووعظُه لا يَنجَعُ، وإن كان في مَعرضِ النُّصحِ، فإنَّه يُطْمِعُ الشَّهدَ ويطعِمُ الصَّابَ[٢]، ويُظهِرُ الشِّفا[٣] ويُضمِرُ الأوصاب[٤].

قال: ويُقال: العجبُ من قَبول يعقوبَ ما ضمِنوه له مِن حفظِ يوسفَ وقد تفرَّس فيما قال ليوسف: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، ولكن إذا جاء القدرُ عميَ البصرُ.

قال: ويُقال: مَن قَبِلَ على محبوبِه حديثَ أعدائِه لقيَ ما لقيَ يعقوبُ في يوسفَ من بلائِه[٥].

***

---

(١) في (أ): «من ارتكب».

(٢) في (ف) و(ر): «يطعم الشهد ويطعم الصاب»، وفي «لطائف الإشارات»: «يطعم الشهد ويسقي الصاب». والصاب: عصارة شجر مر. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: صوب).

(٣) في (ر): «الصفا».

(٤) الأوصاب: جمع وَصَبٍ، وهو المرض الملازم الدائم. انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (مادة: وصب). وجملة: «ويُظهِر الشِّفا ويُضمِرُ الأوصاب» لم ترد في مطبوع «اللطائف».

(٥) في (ر): «من أولاده». انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧١ ـ ١٧٢).

(١٢) ـ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ: بفتح النُّون وكسر العين: ﴿نَرتعِ﴾ من ارْتَعَيْتُ[١]، وقرأ نافع بالياء فيهما وجزم العين، وأجمعوا على جزم: ﴿وَنَلْعَبْ﴾[٢].

قالوا: ابعثْهُ معنا إلى الصَّحراء غدًا، نأكل جميعًا ما يكون فيها بكثرةٍ وسعةٍ، ونلعبُ فيها جميعًا، وذلك في اللَّعب المباح الَّذي قد يفعله الكبارُ مع الصِّغار، خصوصًا إذا كانوا إخوةً لا يحتشمُ بعضٌ مِن بعضٍ.

ويجوز أن يكون ذلك اللَّعب هو ما ذُكِرَ بعدَه من الاستباق، في قولهم: ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾؛ أي: نرتمي بالقسيِّ والسِّهام.

وقيل: نستبقُ بالأقدام، وكلُّ ذلك مباحٌ في الشَّرع.

قال النَّبيُّ ﷺ: «ليس من اللَّهوِ مباحٌ إلَّا ثلاثةٌ: ملاعبةُ الرَّجلِ أهلَه، ورميُه عن قوسِه، وتأديبُه فرسَه»[٣].

وقال عليه السلام: «ستكونُ لكم فتوحٌ، فلا يعجزنَّ أحدُكُمْ أنْ يلهوَ بقوسِهِ وأسهمِهِ»[٤].

---

(١) وكسَر البزي عنه العين من غير ياء، واختلف عن قنبل في إثبات الياء وحذفها.

(٢) وملخص ما فيهما: الكوفيُّون ونافع ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياءِ فيهما والباقون بالنُّون، وكسر نافع وابن كثير العين من ﴿يَرْتَعْ﴾ وجزمها الباقون. والخلاف عن ابن كثير على ما ذكرنا. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٨ و١٣١)، و«النشر» (٢/ ٢٩٣ و٢٩٧).

(٣) رواه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (٢٨١١)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وقال الترمذي: حديث حسن.

(٤) روى نحوه مسلم (١٩١٨) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وكان رسولُ اللهِ ﷺ يسابِقُ عائشةَ على الأقدامِ[١].

ومَن قرأ ﴿نرتعْ﴾ بتسكين العين؛ فهو مِن رتَعَ يرتَعُ رُتوعًا، ومَنْ قرأَ بالكسرِ؛ فهو مِن ارْتَعَى يَرْتَعِي ارْتِعاءً، وهما في المعنى واحدٌ.

ومَن قرأ بياء المغايبة فيهما فقد جعل الفعلَ ليوسفَ يسرحُ[٢] ويتقلَّبُ في الصَّحراءِ ويلعبُ لعبَ الصِّبيان وحدَه.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾: في حين لعبِه مِن أنْ ينالَه سوءٌ، أو يتعثَّر، أو يطوفَ بحيث ينالُه ما[٣] يُخافُ عليه مِن الوحوشِ أو الهوامِّ.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: أطمَعوا يعقوبَ في تمكينهم يوسفَ ممَّا فيه فرحُه[٤] من اللَّعب وراحتُه، فطابَتْ نفسُهُ بإذهابِهِم إياه من عنده[٥]، وإنْ كانَ يشُقُّ عليه فراقُه[٦]، ولكنَّ المحبَّ يُؤْثرُ راحةَ محبوبِه على مشقَّتِه[٧].

ولمَّا ركنَ يعقوبُ إلى قولِهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ أُتِيَ مِن قِبلِهم، حتَّى قالوا: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، كذلكَ يكونُ مَنْ سلَّم حبيبَه إلى أعدائِه غصَّ بتحسِّي بلائِهِ[٨].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤١١٨)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في (ف): «يتفرج».

(٣) «يناله ما» من (ف).

(٤) في (أ): «بما فيه تفرح يوسف»، وفي (ف): «مما فيه يفرح يوسف». وعبارة «اللطائف»: «بما فيه راحة نفس في اللعب».

(٥) في (ر): «بإذهابه معهم». وفي «اللطائف»: «لإذهابهم إياه من بين يديه».

(٦) «فراقه» ليس في (أ). وجملة: «وإنْ كانَ يشُقُّ عليه فراقُه» ليست في «اللطائف».

(٧) في (أ): «على مشقة يوسف». وفي «اللطائف»: «على محبة نفسه».

(٨) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٢).

وقال في كتاب «عصمة الأنبياء»: ما معنى إجابة يعقوبَ لِبَنِيْهِ في إرسالِ يوسفَ معَهم، وقد سمعَ أنَّهم للرَّتْعِ واللَّعبِ يدعونَه ويحملونَه، وهو نبيٌّ مرسلٌ؟ هلَّا تحرَّزَ عن إجابتِهم؟

قلْنَا: إنَّه عليه السَّلام عاملَهم بالعِشْرةِ فيما لم يكن محرَّمًا على يوسفَ في حالِ صِباهُ، والرَّتْعُ واللَّعبُ اللَّذان كانوا يدعونَه إليهما لم يكونا معصيةً، وإنْ كانا مكروهَيْنِ أو لغوين، والنجباء الأجلَّة في معاملة الناس ومجاملتهم كانوا لا يختارون من الأعمال إلا أفضلها[1]، ومِن الأمورِ إلَّا أكملَها[2]، لكنَّهم إذا استقبلَهم ممَّن دونَه لغوٌ أو إصابَةٌ بمكروهٍ عامَلُوهم[3] على قدْرِ احتمالِهم، فلم يكنْ مِن النُّجباء الأصفياء مذمومًا لجميلِ مرادِهم في تحسينِ أخلاقِهم؛ استجلابًا منهم للَّذين عاملُوهم[4] إلى الحقِّ والهدى.

فإنْ قال قائلٌ: بأنَّ يحيى عليه السَّلام فيما يُروَى عنه عرفَ ذلك، حتَّى دفعَ الإجابةَ للصِّبيان إلى اللَّعب، حتَّى مدحَه الله تعالى فقالَ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] وهو ابنُ أربعِ سِنينَ، حيثُ قال لهم: ما للَّعبِ خُلقْتُ[5]. فهلَّا عرفَ يوسفُ عليه السَّلام حتَّى كان يدفعُهم؟

---

(١) في (ر): «أو لغوًا من الأعمالِ وإن كان الأنبياءُ والأصفياءُ لا يختارون من الأحوال إلاَّ أفضلَها» وفي (ف): «أو لغوين إذ ليس المراد من الأعمال إلا أفضلها».

(٢) في (ر) و(ف): «أجملها».

(٣) في (ر): «عاملوه».

(٤) في (ر): «عاملوه».

(٥) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٨٢٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣٩٦)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٧٤)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٧٠٥) عن معمر.

قلْنَا: إنَّه عرفَ أنَّه للَّعبِ لم يُخلَقْ، ولكن لم يدفعْ كلامَهم تعظيمًا للإخوةِ الَّذين كانوا أكبرَ سنًّا منه، ولم يُظهِرِ الإجابةَ بالكلامِ ولا بالعملِ رتعًا ولعبًا فيما به بأسٌ مِن حسنِ عِشرتِه.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: خافَ يعقوبُ على يوسفَ الضَّيْعةَ مِن جهة الجوعِ بتركِهم حفظَ أوقات[1] الأكلِ، فأمَّنوه أيضًا عن ذلك بقولهم: ﴿يَرْتَعْ﴾؛ أي: يأكل.

وخافَ عليه أنْ يكلِّفوه[2] أمرًا يشقُّ عليه ويشتدُّ، فأمَّنوه أيضًا عن ذلك بقولهم: ﴿وَيَلْعَبْ﴾؛ لأنَّه ليس في اللَّعب مشقَّةٌ ولا شدَّةٌ.

وخافَ عليه الضَّيعةَ بتركِهم حفظَه، فأمَّنوه عن ذلك بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، حتَّى استنقَذُوه مِن يدَيْهِ[3].

وقيل: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا﴾ هذا عتابٌ منهم لأبيهم، ومثله في القرآن: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٨]، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٠]، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٥]، وهذا عتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ مع عبيدِه، وقالَ نوحٌ صلواتُ اللهِ عليه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وهذا عتابُه مع أمَّته، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٢] وهذا عتابُ الصَّالحين مع أنفسِهم.

وقالوا: قولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ تكلَّموا بثماني كلماتٍ، وفيها ثمانيةُ أنواعٍ مِن الخطأ:

---

(١) في (ر): «آفات».

(٢) في (ف): «يلقوه».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٣).

قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ﴾ وهذا أمرٌ، وأمرُ الابنِ لأبيه خطأٌ.

وقالوا: ﴿مَعَنَا﴾ وهذا منهم رؤيةُ أنفسِهم، وهي خطأٌ.

وقالوا: ﴿غَدًا﴾ وهذا طولُ أملٍ منهم، وهو خطأٌ.

وقالوا: ﴿يَرْتَعْ﴾ وهذا حديثُ الأكلِ وحظِّ النَّفس، وهذا مِن المتورِّعين خطأٌ.

وقالوا: ﴿وَيَلْعَبْ﴾ وهو مِن الأنبياء خطأٌ.

وقالوا: ﴿وَإِنَّا﴾ فأعظمُوا أنفسَهم، وهذا مِن الكبراءِ خطأٌ.

وقالوا: ﴿لَحَـٰفِظُونَ﴾ رأَوا الحفظَ مِن أنفسِهم، وهو مِن اللهِ جلَّ جلالُه، فإضافتُه إلى العبد خطأٌ.

وأطلقُوا هذا الوعد ولم يقولوا: إن شاء الله؛ وهو خطأٌ، لكنْ سترَ عليهم أبوهم مع علمِه بخطئِهم شفقةً عليهم.

* * *

(١٣) ـ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾: الحزنُ: ألمُ القلبِ بفواتِ المحبوبِ، والخوفُ: انزعاجُ النَّفسِ لنزولِ المكروه.

وقالوا: لعلَّ تلك المواضع كانت مَسْبَعَةً، فخافَ أن يشتغلوا عنه بما يشتغلُ مثلُهم، فيغفلوا عنه، فيعدو عليه ذئبٌ فيأكله.

وقال مقاتلٌ: وإنَّما قال يعقوبُ ذلك لأنَّه رأى في المنام أنَّ ذئبًا انتزعَ يوسفَ مِن يده[١].

وقال الإمام أبو منصورٍ رحمه الله: وهذا لا يُحتمل؛ لأنَّ رؤيا الأنبياء حقٌّ وصدقٌ، فلا يحتمل أن يرى ذلك ثمَّ يقولَ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، أو يدعَه يذهبُ معهم، لكنَّه خاف عليه أكلَ الذِّئب على ما يُخاف على الصِّبيان في المفاوز؛ إذ الخوفُ على الصِّبيان منها والضَّياع عليهم يكون بالذِّئب أكثرَ مِن [أيِّ] وجهٍ آخر؛ لأنَّه جائزٌ أن يفترسَه سبعٌ عند اشتغالِهم بعملٍ[٢].

وقال الإمام القُشيريُّ رحمه الله: يقول: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾؛ لأنِّي لا أصبرُ عن رؤيتِه، ولا طاقةَ لي بفرقتِه، هذا إذا كانت الحالةُ حالةَ السَّلامة، فكيفَ ومع هذا أخافُ أن يأكلَه الذِّئبُ؟!

وفي الخبر: «إنَّما يُسلَّطُ على ابنِ آدمَ ما يخافُه»[٣]، ولمَّا خافَ يعقوبُ على ولدِه الذِّئبَ امتُحِنَ بحديثِ الذِّئبِ[٤].

***

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٠١) بلا نسبة، وعزاه الواحدي في «البسيط» (٢/ ٦٠٢) إلى المفسرين.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٥)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) رواه الختلي في «الديباج» (٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ١٧٦)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٩٠٤٠). وفيه بكر بن حذلم قال ابن حجر في «لسان الميزان» (٢/ ٣٤٠): متروك. ووهب بن أبان، قال ابن حجر في «لسان الميزان» (٦/ ٢٢٩): لا يُدرى من هو وأتى بخبر موضوع، ذكره الأزدي فقال: متروك الحديث غير مرضي، ثم أسند له من طريقه هذا الحديث.

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٢).

(١٤) ـ ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾: أي: لئن قدر على أكله الذِّئب ونحن فرقةٌ نحيطُ به ونحوطُه، فلا يعجز مثلُنا عن ذبِّ السِّباع عنه ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾؛ أي: مضيِّعون، نخسرُ أخانا فيذهب هَدَرًا، وكأنَّا[١] سلَّمْناه إلى الذِّئب وعرَّضناه للضَّياع.

والخاسر في اللُّغة: لقبٌ مذمومٌ، يقاربُ معناه معنى الهلاك، ومعنى الضَّلال[٢]؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود: ٦٣] قالوا: غير تضليل، وكأنَّه ضدُّ المفلح، والمفلح: مَن نالَ المطلوب وفاز بالخير، والخاسر: مَنْ لا خيرَ فيه ولا فلاح له، وحقيقتُه النُّقصانُ، ومنه الخسران الَّذي هو ضدُّ الرِّبح، فالخاسرُ: هو النَّاقصُ العقلِ والتَّدبير.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: حقَّ في إخوةِ يوسفَ ما وصفوا به أنفسَهم مِن الخسرانِ، وإنَّ مَن باعَ أخًا له مثلَ يوسف بمثل ذلك الثَّمن البَخس فحقيقٌ أن يُقال: خسِرَتْ صفقتُك[٣].

وفي «كتاب عصمة الأنبياء»: فإنْ قالوا: كيفَ كان يجوزُ مِن النَّبيِّ المرسَلِ الاشتغالُ بعادات النَّاس في كلامِهم، مِن نحو قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ إلى آخره، وأسرارُ الأنبياء كانت للهِ عزَّ وجلَّ، غيرُ مُبْقًى[٤] فيها غيرُ ذكرِه، فكيف كان يحزنُه أمرُ يوسفَ؟

---

(١) في (أ): «وكنا».

(٢) في (أ): «الضال»، وفي (ر): «الضياع».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٣).

(٤) في (ف): «أن يبقى»، وسقطت كلمة غير من (أ).

قلنا: هذا إظهارٌ منه الشَّفقة على الولد، والوالدان مأموران[١] بالشَّفقة على الأولاد، والشَّفقة عليهم لا تزيلُ حقَّ الحقِّ عن أسرارِهم؛ لأنَّ الشَّفقة قائمةٌ برحمة الله تعالى، ورحمتُهُ صفتُه لا تبعدُه عن الحقِّ سرًّا وعلنًا؛ قال الله تعالى لنبيِّه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وإلَّا كان باطنُه مصفًّى عن شوائب الشَّكِّ، ورواتب[٢] الميلِ إلى الأسباب، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧] إخبارًا بأنَّ ما يخاطبُهم على قدرِ احتمالِ عقولِهم، على ما جرَتْ به العاداتُ فيما بينَ النَّاسِ استعمال الأسباب لإبلاءِ[٣] العُذْرِ وتسكينِ الخواطر[٤] مِن: لعلَّ وعسى.

وقال بعضُ الحكماء: قيل: البلاءُ موكَّلٌ بالمنطق، فكانَ بلاءُ يعقوبَ مِن ذلك، قال: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ﴾ فحزِنَ، وقال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فقالوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، وقال: ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ فجعلوا ذلك عذرًا لأنفسهم فقالوا: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾، وكان يجتهدُ بذكر هذه الكلمات في حفظ الولدِ وحثِّ الإخوة على ذلك، فتكلَّم بما صار تلقينًا لهم ماذا يفعلون، فقد كانوا لا يدرون ماذا يصنعون به، وماذا يقولون له، فتلقَّنوا مِن كلماتِه عذرَهم، وتعلَّموا بإشارته عذرَهم[٥].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: لمَّا قال يعقوب: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قالوا: ما سمِعْنا بذئبٍ أكلَ إنسانًا، فمِن أينَ تقولُ هذا؟ قال: رأيْتُ منذُ ليالٍ

(١) في (ف): «والوالد مأمور».

(٢) في (ف): «وروائب».

(٣) في (ر): «لإيلاء».

(٤) في (أ): «الجواهر».

(٥) «وتعلموا بإشارته عذرهم» من (أ).

على قُلَّة جبل ويوسف في بطنِ الوادي، وقد أحاطَتْ به عشرةُ ذئابٍ يريدون قتلَه، فأردْتُ النُّزولَ لأنقذَه فلم أجدْ إلى ذلك سبيلًا، فبينا أنا كذلك انشقَّتِ الأرضُ فسقطَ يوسفُ فيها، فهالني ذلك، فاستيقظْتُ فإذا يوسفُ في حجري، فقلْتُ: الحمدُ للهِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: فالجبلُ حالُ يعقوبَ، والذِّئابُ إخوةُ يوسفَ، وانشقاقُ الأرضِ وقوعُه في غيابةِ الجُبِّ.

فقيل لابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: وهل كان يعلمُ يعقوبُ تأويلَ الرُّؤيا؟ قال: نعم.

قالوا: فلِمَ أرسلَه معهم؟ قال: أما سمعْتُم: إذا جاء القدرُ[1] عميَ البصرُ[2]؟!

* * *

(١٥) ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ﴾: وهاهنا محذوفٌ؛ أي: فأرسلَ يعقوبُ يوسفَ عليهما السلام، فلمَّا ذهبوا به.

روي أنَّ إبليسَ ـ لعنَه اللهُ ـ أتاهم، فقال وهو في صورة شيخ، وكانوا يدبِّرون ذلك في الشِّتاء: ليسَ هذا وقتَ الخروجِ به إلى الصَّحراء، فامكثُوا حتَّى يجيءَ الرَّبيع، فقولوا للأبِ: طابَ الزَّمانُ وتزيَّنَتِ الصَّحراءُ، ويوسفُ في البيت لا يَرى ما نَرى،

---

(١) في (ف) و(أ): «القضاء».

(٢) لم أجده عن ابن عباس، وروى نحوه أبو سعيد الواعظ في مقدمة كتاب «منتخب الكلام في تفسير الأحلام» (ص: ٢٩٤) من طريق عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه. وعبد المنعم بن إدريس قال عنه أحمد بن حنبل كما في «الميزان»: كان يكذب على وهب بن منبه، وقال البخاري: ذاهب الحديث. وقال ابن حبان: يضع الحديث على أبيه وعلى غيره.

فأذَنْ له في الخروجِ معنا فيتفرَّجَ، فلمَّا جاءَ الرَّبيعُ جاؤوا إلى يوسفَ فكلَّمُوه حتَّى رغَّبوه في ذلك، فقالوا: إذا[١] سألْنا أبانا أنْ يأذنَ لكَ فاجهدْ أنتَ معنا في الاستئذان، ففعلوا، فتضرَّع يوسفُ إلى أبيهِ في ذلك، فاضطرَّ فأذِنَ له ليلًا أن[٢] يخرجَ معهم غدًا، وكان طولَ اللَّيل يبكي خوفًا[٣] على فِراقِه، فلمَّا أصبحَ رجَّله وطيَّبه، وبنفيسِ الثِّيابِ جمَّلَه، ولبسَ هو ثيابه، فخرجَ معهم يشيِّعُ يوسفَ، فلمَّا خرجَ مِن درب كنعان إلى شجرةٍ كانَ عندها وداعُ المسافرين عانقَ يوسفَ وودَّعه وبكى، وقال لإخوتِه: لا تلوموني، فإنِّي أتوسَّم فيه آثار أبي وجدِّي، وأوصَى يوسفَ وصايا وقال: لا تنسَ اللهَ تعالى بكلِّ حالٍ، وإذا وقعْتَ في بليَّةٍ فاستعنْ باللهِ، وأكثِرْ مِنْ قولِ: حسبيَ اللهُ ونِعْمَ الوكيل، فإنَّ جدَّكَ إبراهيمَ حين أُلقِي في النَّار قال ذلك، ولا تنسني فإنِّي لا أنساك، ولا تضحكْ حتَّى تراني، فإنِّي لا أضحكُ حتَّى أراك.

وعاهدَ إخوةَ يوسفَ أنْ يطعِموهُ ويسقوهُ عند الحاجةِ، ويحمِّلوه ولا يتعبُوه، فقَبِلوا منه ذلكَ، واحتملَه روبيل على عاتقِه[٤]، ورجعَ يعقوبُ، فغابوا عنه[٥]، فلمَّا بعدوا عنه ألقاه روبيل عن عاتقِه، وقال له: امشِ كما نمشي[٦]، فمشى وأعيى فقعدَ وقال: عطشْتُ فاسقوني، فلم يسقُوه، وعجزَ عن المشي فأكرهُوه، ولمَّا امتنعَ لطمَه بعضُهم وعنَّفوا عليه، وقالوا: أينَ رُؤياكَ النُّجومَ والشَّمس ساجدةً لك؟ استعنْ بهم واستسْقِهم واستحمِلْهم.

---

(١) في (أ) و(ر): «إنا».

(٢) في (أ): «لأن» بدل: «ليلاً أن».

(٣) «خوفًا» ليس في (ف).

(٤) في (ف): «وعانقه يعقوب» بدل من «على عاتقه».

(٥) «فغابوا عنه» من (أ) و(ف).

(٦) «كما نمشي» ليس في (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ﴾: قيل: أي: عزموا، وقيل: اتَّفقوا[(١)] ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: قد فسَّرناه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾: قيل: بشَّرناه على لسانِ مَلَكٍ.

وقيل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: أرسلنا إليه بالنُّبوَّة.

قال الحسنُ: أعطاه الله تعالى النُّبوَّة وهو في الجبِّ[(٢)].

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ﴾: هذه بشارةٌ مؤكَّدةٌ[(٣)] تأكيدَ اليمين؛ أي: لتخبرنَّهم بما فعلوا بك، وهو قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٩]، وهذا نبأ توبيخٍ، وهو بشارةٌ له بمصير أمرِه إلى ذلك.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: حالةَ إلقائِه في الجبِّ أنَّ اللهَ تعالى أوحى إليه وبشَّره به.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: حين انقطعَ عنه ملاطفةُ أبيه جاءَه الوحيُ مِن بارئِه، وهكذا سُنَّته جلَّ جلالُه لا يفتحُ على نفوسِ أوليائِه بابًا مِن البلاءِ إلَّا فتحَ على قلوبِهم أبوابَ الصَّفاءِ وفُنونَ لطائفِ الولاء[(٤)].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: ويشبه أن يكون قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى يعقوب، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، عَلِمَ أنَّه حيٌّ بذلك الوحي، وعلى ذلك قوله تعالى:

---

(١) بعدها في (ف): «أن يجعلوه في غيابة الجب وهو ما أخبر الله تعالى بقوله».

(٢) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٣/ ٢١٧)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٤٢)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٢٥)، والرازي في «مفاتح الغيب» (١٨/ ٤٣٦)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (١٢/ ٤٢٦).

(٣) في (ف): «تؤكد».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٣).

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦][(١)].

واختلفوا في جواب (لَمَّا):

قال أهلُ البصرة: هو محذوفٌ تقديرُه: عظمَتْ فتنتُهم، أو: كبر ما قصدوا إليه.

وقال أهلُ الكوفة: الواو مِن: ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ﴾، أو مِن قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾، أو مِن قوله: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ مقحمةٌ زائدةٌ[(٢)]، ونظيرُ هذا الإقحام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٤]، وقال امرؤ القيس:

فلمَّا أجزْنا ساحةَ الحيِّ وانْتَحَى ... بنا بطنُ خَبْتٍ ذِي حِقافٍ عقَنْقَلِ[(٣)]

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٦).

(٢) انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (١٢/ ٤١)، و«تفسير ابن عطية» (٣/ ٢٢٥).

(٣) البيت من معلقة امرئ القيس. انظر: «ديوانه» (ص: ٣٩). قوله: (أجزنا) يقال: أجزت المكان وجزته: إذا قطعته. الحي: القبيلة. الانتحاء: الاعتماد على الشيء. البطن: مكان مطمئن حوله أماكن مرتفعة. الخبت: أرض مطمئنة. الحقف: رمل مشرف معوج، ويروى: (ذي قفاف)، وهي جمع قف: وهو ما غلظ وارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلًا. العقنقل: الرمل المنعقد المتلبد. وأصله من العقل وهو الشد، وزعم أبو عبيدة وأكثر الكوفيين أن الواو في (وانتحى) مقحمة زائدة، وهو عندهم جواب (لَمّا)، والواو لا تقحم زائدة في جواب لَمّا عند البصريين، وهو في مثل هذا الموضع محذوف، وتقديره في هذا البيت: فلما كان كذا وكذا تنعمت وتمتعت بها، وحذفُ جواب (لَمّا) كثير في التنزيل وكلام العرب. يقول: فلما جاوزنا ساحة الحي وخرجنا من بين البيوت وصرنا إلى أرض مطمئنة بين حقاف، يريد مكانًا مطمئنًا أحاطت به حقاف أو قفاف منعقدة؛ والعقنقل من صفة الخبت لذلك لم يؤنثه، ومنهم من جعله من صفة الحقاف وأحلّه محل الأسماء وعطله من علامة التأنيث لذلك. وقوله: (انتحى بنا بطن خبت) أسند الفعل إلى (بطن خبت) والفعل عند التحقيق له وللحبيبة، ولكنه ضرب من الاتساع في الكلام، والمعنى: صرنا إلى مثل هذا المكان؛ =

(١٧) - ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

وقيل: جوابُه: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ مِن غيرِ إقحامٍ.

وقال وهبٌ: فجاؤوا به إلى رأسِ جبٍّ، وأرادوا أنْ يلقُوه فيه، فعلِق بهم وتعلَّق[١] برأس الجبِّ، وتعلَّق[٢] قميصه بصخرةٍ، فخلعوا قميصَه وتركوه عريانًا، وأوثقوا يديه لكيلا يتعلَّق بشيءٍ، ثمَّ ألقوه فيها، فقال لهم: ردُّوا عليَّ قميصي أستترُ به في الجبِّ، فقالوا له: ادعُ الأحدَ عشر كوكبًا والشَّمس والقمر حتَّى يستروك في الجبِّ.

وكان ذلك الجبُّ بالأردن، في وادٍ مِن أوديتِها، على رأس ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وكان ماؤها غليظًا كدرًا، فلمَّا أُلقي فيها يوسف عذبَ ماؤها وصَفا، ووكَّل الله تعالى ملكًا فوضعَ يوسف على صخرةٍ ثابتةٍ في الجبِّ، وقعدَ يؤنسُه، وبكى يوسفُ واشتدَّ بكاؤه، وبكى الجبُّ لبكائه، وكلُّ شيء سَمِعَ صوته مِن شجرٍ أو حجرٍ أو مدرٍ[٣].

وقيل: أوثقوا[٤] وسطَه بحبلٍ وأرسلوه به فيه، فلمَّا توسَّط الجبَّ قطعُوا الحبلَ، فكادَ يسقُطُ، فأمر اللهُ جلَّ جلالُه جبريلَ أن يدركَه، فأدركَه وأخذَه، وجرَّ حجرًا منه، فجعله كسريرٍ وأجلسَه عليه، وقالت هوامُّ البئر بعضُها لبعض: لا تخرجْنَ مِنْ

= وتلخيص المعنى: فلمّا خرجنا من مجمع بيوت القبيلة وصرنا إلى مثل هذا الموضع طاب حالنا وراق عيشنا. انظر: «شرح المعلقات» للزوزني (ص: ٥٠).

(١) «بهم وتعلَّق» ليس في (ف).

(٢) «وتعلَّق» ليس في (ف).

(٣) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩) عن السدي. وهو من الإسرائيليات.

(٤) في (ر): «شدوا».

مساكنكُنَّ، فإنَّ نبيًّا مِن الأنبياء نزلَ بساحتكُنَّ، فانحجزْنَ إلَّا الأفعى، فإنَّها قصدَتْ يوسفَ، فصاحَ بها جبريلُ فصُمَّتْ، وبقيَ الصَّممُ في نسلِها.

وعلَّم جبريلُ يوسفَ عليهما السلام هذا الدُّعاء: اللَّهمَّ يا كاشفَ كلِّ كربةٍ، ويا مجيْبَ كلِّ دعوةٍ، ويا جابرَ كلِّ كسيرٍ، ويا ميسِّرَ كلِّ عسيرٍ؛ ويا صاحبَ كلِّ غريبٍ، ويا مؤنسَ كلِّ وحيدٍ؛ لا إلهَ إلَّا أنْتَ، سبْحانَك، أسألُكَ أنْ تجعلَ لي فرجًا ومخرجًا، وأن تقذفَ حبَّك في قلبي حتَّى لا يكون لي همٌّ ولا ذِكْرٌ غيرُك، وأن تحفظَني وترحَمني يا أرحَم الرَّاحمين.

ثمَّ رجعَ جبريلُ، ولمَّا غربَتِ الشَّمسُ جاءَ يهوذا إلى رأسِ الجبِّ ونادى: يا يوسفُ، يا يوسفُ؛ أحيٌّ أنْتَ أم ميِّت؟ فقال يوسفُ: مَن أنتَ؟ فقال: يهوذا، وكيفَ حالُكَ؟ قال: كيفَ حالُ مَن ثكلَ أمَّه، وفقدَ أباه، وجفاه إخوتُه، واغتربَ عن وطنِه، وهو جائعٌ عطشانُ مهمومٌ عريان؟! ليس مِن الأحياءِ فوقَ الأرضِ، ولا مِن الأمواتِ تحتَ الأرضِ، فبكى يهوذا وارتفعَ بكاؤه، وقال له يوسفُ: إنَّ لكلِّ ميِّتٍ وصيَّةً، ووصيَّتي إليك ألَّا تنظر إلى شابٍّ إلَّا ذكرْتَ شبابي، ولا إلى يتيمٍ إلَّا ذكرْتَ يتمي، ولا إلى غريبٍ إلَّا ذكرْتَ غربَتي.

فبكى يهوذا بكاءً شديدًا، فسمعَ الإخوةُ بكاءَه، فأتوه فقالوا له: أتبكي عليه؟ وسدُّوا رأسَ الجبِّ بصخرةٍ عظيمةٍ، فبكى يوسفُ حينئذٍ، وصاح صيحةً بكى لها ملائكةُ السَّماء، وقالوا: يا ربَّنا، ارحمْهُ، فبعثَ اللهُ تعالى جبريلَ ومعَه أطعمةٌ وأشربةٌ مِنَ الجنَّة، ونوَّرَ الجُبَّ، وكان القميصُ الَّذي ألبسَه جبريلُ إبراهيمَ عليه السَّلام في الهواء يومَ أُلقي في النَّارِ وصلَ إلى يعقوبَ عليه السلام، وكان جعلَه في تعويذٍ

وربطَه على عضدِ يوسفَ، فحلَّه[1] جبريلُ وأخرجَه وكساهُ، وطيَّب قلبَه بالبشاراتِ، وقال له بأمر الله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال قائلُهم:

الدَّهــرُ لا يبقــى عــلى حالَــةٍ ... كــذاك حــالُ العبــدِ في العُـسْرِ

أمَــا تــرى يوســفَ في جُبِّــهِ ... في ضِيْــقِ أَمْــرٍ ثــمَّ في اليُــسْرِ

* * *

(١٦) ـ ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: العشاء: في آخر النَّهارِ إلى نصف[2] اللَّيلِ.

و﴿يَبْكُونَ﴾ في معنى الحال؛ أي: يُظهِرون الحزنَ على يوسفَ، ويحتمِل أنَّهم ندموا على ما فعلُوا.

* * *

(١٧) ـ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾: قال الزَّجَّاج: أي: نترامَى أيُّنا أصوبُ سهمًا[3]. وقيل: أي: نتعادى بالأقدام أيُّنا أسرع عدوًا.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾: أي: رَحْلِنا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾؛

---

(١) في (ر): «فخلعه».

(٢) «نصف» من (أ).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٩٥).

أي: بمصدِّقٍ لنا فيما نقولُه ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾؛ أي: عند النَّاس لا نُتَّهمُ بتضييع أخينا، وذلك لسوء ظنِّك بنا، واتِّهامِك لنا فيه.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾: أي: مكذوبٍ فيه؛ مصدرٌ أُرِيْدَ به المفعول به؛ كـ(الثِّقة) يُراد به الموثوقُ به؛ أي: أخرجوا له قميصَ يوسفَ ملطوخًا بدمٍ كذبوا فيه.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ومجاهدٌ: كان دمَ سَخْلَةٍ، أوهموه أنَّه دمُ ابنه[1].

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: أي: لم يصدِّقْهم فيما جاؤوا به من الدَّم، وما أخبروه به مِن أكل الذِّئبِ، وقال لهم: ليس الأمرُ على ما تذكرون، بل زيَّنَتْ لكم أنفسُكُم أمرًا ففعلتُموه.

و﴿أَمْرًا﴾ كنايةٌ عن تضييعهم يوسفَ أو إهلاكِهم إيَّاه، ولمَّا يكن ذلك بيِّنًا عند يعقوبَ كنَّى فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: أردْتُم أن يخلوَ وجهي لكم، فغيَّبْتم يوسف عنِّي.

وقوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: أي: فلي صبرٌ جميلٌ، أو: فمني[2]؛ كقوله تعالى:

---

(١) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٧٨)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١١). رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٥) عن مجاهد. السَّخْلَةُ: تطلق على الذكر والأنثى من أولاد الضأن والمعز ساعة تولد، والجمع سخال وسَخْل. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: سخل).

(٢) في (ف): «أو هي مني».

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ [النساء: ٩٢]؛ أي: فعليه ذلك.

قال النَّبيُّ ﷺ: «﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: صبرٌ لا شكوى فيه»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾: أي: أستعين الله على كشف ما الْتَبس عليَّ من أمرِكم.

وعن الشَّعبيِّ قال: كانت قصَّةُ يوسفَ كلُّها في قميصِه، لمَّا ألقاه إخوتُه في الجبِّ نزعوا عنه قميصَه، وعمدوا إلى سَخْلَةٍ فذبحوها ولطَّخوا قميصَه بدمِها، ثمَّ جاؤوا به إلى أبيهم، فنظرَ يعقوبُ إلى القميص وهو صحيحٌ فقال لبنيه: إنْ كانَ هذا الذِّئبُ لحليمًا حينَ أكلَ ابني ولم يخرقْ قميصَه، ولمَّا شهد شاهدٌ قال: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾ [يوسف: ٢٧] الآيات، ولمَّا أُتِيَ يعقوبُ بقميصِه فأُلقِي على وجهِهِ فارتدَّ بصيرًا[٢].

وفي القصَّة: أنَّهم لمَّا أبطؤوا على يعقوبَ كانت له جاريةٌ يقال لها: صفراء، فقال لها: خذي بيدي فانطلقي بي أستقبل يوسف، فخرجَا من كنعان، وصعدا تلًّا ينظران، فلمَّا أظلمَ اللَّيل قال لها: صيحي بأولادي، فقالَتْ: يا أولادَ يعقوبَ؛ هذا أبوكم ينتظركم، فسمعوا بذلك وهم في وادٍ، فمزَّقوا ثيابَهم وجعلوا يقولون: يا يوسفاه، يا حبيباه، فقال يعقوبُ: ما هذا الصِّياح؟ فأخبرتْهُ بما يقولون، فخرَّ مغشيًّا عليه، ثمَّ أفاقَ فقال: أيُّ ذئبٍ أكلَه؟

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٢) عن حبان بن أبي جبلة مرسلًا.

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٨٢)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١١).

وفي هذه الرِّواية: أنَّهم كانوا أخذوا ذئبًا فأحضروه، فقالوا: هذا الذِّئب، فقال للذِّئب: لِمَ أكلْتَ ولدي؟ فتكلَّم الذِّئبُ وقال: إنَّا لا ندورُ حولَ غنمِك، فكيفُ نأكلُ ولدَك؟! قال: فهل هو في الأحياء؟ قال: نعم، قال: أين هو؟ قال: سَلْ جبريلَ، قال: إنَّه لا يخبرني، قال: وإذا لم يخبرْكَ هو فكيفَ أخبرُكَ؟ وقال لأولاده: أسمعْتُم؟ قالوا: تصدِّق ذئبًا وتكذِّبنا ونحن عشرةٌ! فقال: جيئوا(١) بشيءٍ يدلُّ على ذلك ويكون لي تذكرةً عنه، فذهبوا وعادوا عشاءً وقد حملوا قميصَه ملطَّخًا بدم شاةٍ، فأخذَه ونظرَ فيه، فإذا هو صحيحٌ لم يُخرَقْ، فقال: هل كان يوسفُ في هذا القميصِ؟ قالوا: نعم، قال: كيف وصلَ إليه ولم يُخْرَقْ هذا؟ فخجلوا، فقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، ثمَّ توجَّه إلى الوادي وهو يقول: يا ولدي وقرَّةَ عيني وثمرةَ فؤادي؛ في أيِّ جُبٍّ طرحوك؟ في أيِّ بحرٍ غرَّقوك؟ بأيِّ سيفٍ قتلوك؟ بأيِّ أرضٍ دفنوك؟ فبكى لبكائِه الملائكةُ، فأتاه جبريل وقال: قد أبكيْتَ(٢) ببكائِكَ الملائكةَ، فقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وفي «كتاب عصمة الأنبياء» قال: أضافَ(٣) فعلَهم إلى تسويلِ أنفسِهم، ولم يصرِّحْ بالفعلِ عنهم، فلم يقلْ: فعلْتُم ما فعلْتُم وأنتم ظالمون، بل قال: ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ وعقودُكُم للإيمان خاليةٌ عن قَبول تسويل أنفسكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: يسهُلُ لي الصَّبرُ إذا تأمَّلْتُ فعلَكم أنَّكم لم تكابروني(٤) معتقدين إيذائي، فيخفُّ عليَّ تحمُّلُ أذاكم، فأصبرُ صبرًا جميلًا، وهو الَّذي لا جزعَ فيه.

---

(١) في (أ): «أجيبوا».

(٢) في (أ): «بكت».

(٣) في (أ) و(ف): «أصاب».

(٤) في (أ): «تكابروني في».

وقد فعل ذلك عند الصَّدمةِ الأولى، ووفَّى حقَّ الصَّبر؛ إذ لوعةُ المصيبةِ عند حدوثِها أشدُّ، فإذنْ لم يخالفْ وعدَه بالصَّبر الجميل؛ إذ لم يجزعْ للحالِ، وجزعُه مِن بعدِ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] لا ندري لماذا كان، فلا يزولُ به الصَّبرُ، على أنَّ الجزعَ لا يزيلُ الصَّبرَ[١]؛ قال النَّبيُّ ﷺ في وفاة إبراهيمَ ولدِه: «إنَّ القلبَ يجزَعُ، والعينَ تدمعُ، ولا نقول ما يسخِطُ الرَّبَّ»[٢]؛ أبانَ أنَّ صفةَ الإنسانِ هي الضَّعفُ والعجزُ[٣]، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ولأنَّ جزعَه كان لفواتِ تلك اللَّطائفِ الَّتي كان اختُصَّ بها يوسفُ، فكانَت تؤثِّر في سرِّ يعقوبَ عليه السلام[٤]، وهي كانت ربَّانية، والعبدُ فيما يفوتُه مِن نحو هذا إذا جزعَ بما يُعمِي بصرَه ويذوِّب جسمَه كان ممدوحًا معلًّى[٥] قدرُه.

على أنَّ جزعَه إنْ جُعِلَ على فراقِ يوسفَ على ما قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وحُمِلَ على ظاهرِه لم يبعدْ مِنَ الحكمةِ، والأشباحُ لها حرمةٌ في ذاتِ الله تعالى ردًّا على المعتزلة، فإذا جزعَ لفقدِ جسدٍ أَجَلَّ اللهُ قدرَهُ؛ فقد أَجَلَّ ما أجلَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، فلم يكن جزعُه كجزعِ الغافلينَ لفقدِ الولدِ بحقِّ الميلِ إليهم نهمةً ورغبةً في حظوظهم منهم.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: وفي الآية دلائل:

(١) في (ف): «لا يزول مع الصبر»، وفي (ر): «لا يزيد مع الصبر».

(٢) رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) في (ف): «والجزع».

(٤) بعدها في (أ): «فيتحلى بتلك اللطائف»، وفي (ر): «فتحلى بتلك اللطائف».

(٥) في (ر): «على».

أحدهـا: أنَّ مَـن ارتكبَ صغيرةً فإنَّـه يُخافُ عليه التَّعذيبُ ولا يصيـرُ كافرًا، ومَن ارتكـبَ كبيـرةً لـم يخرجْ مـن الإيمان؛ لأنَّ إخوةَ يوسـفَ همُّـوا بقتلِـه[١] أو طرحِه في الجُـبِّ، والتَّغييـبِ عن وجه أبيـه وإخلائه[٢] عنـه، وذلك لا يخلو منهـم: إمَّا أن تكون صغيـرةً أو كبيـرةً؛ فـإنْ كانت صغيرةً فقد اسـتغفروا عليها بقولهـم: ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ [يوسف: ٩٧]، دلَّ أنَّهـم إنَّمـا اسـتغفروا لِمَـا خافـوا مـن[٣] العـذابِ عليها وإنْ كانـت كبيـرةً، فلـم يخرجـوا عـن الإيمـان حيـث صـاروا[٤] أنبياءَ مِـن بعـدُ، وصاروا قومًـا صالحين.

دلَّ ما ذكرنا على نقض قولِ المعتزلة في صاحب الصَّغيرة: إنَّه لا يعذَّبُ عليها، وصاحبِ الكبيرة: إنَّه يخرجُ من الإيمان، ونقضِ الخوارج في قولهم: إنَّه إذا ارتكب كبيرةً أو صغيرةً صار به كافرًا مشركًا بالله[٥]، ونقضِ قولِ مَن يقول: إنَّ مَن كذَبَ متعمِّدًا أو وعَدَ فأَخلفَ أو اؤتمنَ فخانَ يصير منافقًا؛ لأنَّ إخوةَ يوسفَ ائتُمِنوا فخانوا، ووَعدوا فأَخلفوا، وحدَّثوا فكذَبوا، فلم يصيروا منافقين لأنَّهم قالوا: أكلَه الذِّئبُ، وما أكلَه، وهو[٦] كذبٌ، واؤتمنوا فخانوا حين ألقوه في الجبِّ، ووَعدوا أنَّهم يحفظونَه فلم يحفظوه.

فإن قيل: رُويَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ثلاثٌ مِن علاماتِ النِّفاقِ: إذا حدَّثَ

---

(١) في (ف): «بقتل يوسف».

(٢) في (ف): «وإجلائه».

(٣) «من» من (ف).

(٤) في (أ) و(ر): «صاروا به».

(٥) «بالله» من (أ).

(٦) في (ر) و(ف): «لأنه».

كذبَ، وإذا اؤتمِنَ خانَ، وإذا وعدَ أخلفَ»[١]، فكيف توفِّق بينَ الآية والخبر، إذ هو لا يحتملُ النَّسخَ لأنَّه خبرٌ، والخبرُ لا يحتملُ النَّسخَ؟

قيل: يشبه أن يكون هذا في قومٍ خاصٍّ، اؤتمنوا ما أُودِعَ في التَّوراة مِن نعتِ[٢] محمَّدٍ ﷺ فغيَّروا، ووعدوا أن يبيِّنوه فأخلَفوا وكتموه، وحدَّثوا أنَّهم بيَّنوه فكذَبوا.

أو يصير منافقًا ممَّا ذُكرَ[٣] إذا كان ذلك في أمر الدِّين، فأمَّا في غيره فإنَّه لا يصير به منافقًا، ولا يكون ذلك مِن أعلام المنافق، والله تعالى أعلم[٤].

وقال في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: ﴿فَصَبْرٌ﴾؛ أي: كفُّ النَّفسِ عن الجزعِ، ﴿جَمِيلٌ﴾ لا مكافأة فيه، فإنَّهم بما فعلوا كانوا مستوجِبين ذلك[٥].

***

(١٩) ـ ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: قرأ ابن كثيرٍ ونافع وأبو عمرو[٦]: ﴿يا بشراي﴾؛ أي: بالألف مضافةً بالياء، وقرأ الباقون: ﴿يَـٰبُشْرَىٰ﴾ غير مضافٍ[٧].

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ف): «بعث».

(٣) في (أ): «منافقاً بما وعد».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢١٩).

(٦) وكذا ابن عامر الشامي.

(٧) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٧)، و«التيسير» (ض: ١٢٨). وقرأ ابن عامر مثل ابن كثير ومن معه.

والواردُ[(١)]: الصَّائر إلى الماء للاسْتِقاءِ منه.

وأدلى دلوَه: أرسلَها ليملأَها، ودلَّاها يَدْلوها: أخرجها ملأى ماءً.

والإسرارُ: الإخفاء.

والبضاعةُ: قطعةٌ من المال تُحمَلُ لطلبِ ربحها.

يقول: وجاءَتْ عِيرٌ يسيرونَ إلى موضعٍ ـ قيل: كانوا يسيرون إلى مصرَ جائين من الشَّام ـ فانتهوا إلى ناحية بيتِ المقدسِ، والجبُّ هناك، فأرسلوا مَنْ يَرِدُ البئرَ فيَستقي لهم الماءَ على رَسْمِ القوافلِ، فأرسَلَ دلوَه في البئرِ، فتعلَّقَ بها يوسفُ، فرآه الوارِدُ فنادى أصحابَه ـ وهم بالقُرْبِ منه ـ بالبشارة، فقال: يا بُشرَى لكم، هذا غلامٌ عبدٌ قد وجدْتُهُ.

ومَن قرأ: ﴿يا بشراي﴾ فمعناه: يا بشارة لي.

ولمَّا نادى أصحابَه ـ وهم رفقته[(٢)] ـ بالبشارةِ، فنظروا إليه ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾؛ أي: قالوا في أنفسهم: نبيعُ هذا الغلامَ مِن مَلِكِ مصرَ، فنكون قد انتفعنا[(٣)] بثمنِه، فتقدير هذا: أسرُّوا هذا في أنفسِهم جاعلين له[(٤)] بضاعةً.

وقيل: معناه: أنَّ هذا الواردَ ورفقتَه خافوا أنَّ سائرَ أهل العير إنْ علموا بالحال استشركوهم فيه، فأسرُّوا فيما بينهم أنْ يقولوا إذا سألَهم أهلُ العير عنه قالوا: إنَّه بضاعة استبضَعَناه بعضُ أهل الشَّام إلى مصر؛ ليسلَمَ الغلامُ لهم من غيرِ مزاحمةٍ.

---

(١) في (أ): «والوارد أيضًا».

(٢) في (ر) و(ف): «رفقة».

(٣) في (ف) و(أ): «ارتفقنا».

(٤) أي: جاعلين إياه، واللام تدخل على المفعول مع اسم الفاعل للتقوية.

وقيل: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾: هو فعلُ إخوةِ يوسفَ، وكانوا بالقرب منهم، جاؤوا وكتموا أنَّه أخوهم، وجعلوه عبدًا حملوه بضاعةً لأنفسِهم يبيعونه، ولم يُظهرْ يوسفُ؛ خوفًا على نفسِه من القتل الَّذي أَوعدوه به(١).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ﴾ بما كانَ الإخوة يعملونَه، أو الملتقطون، مِن إسرارِه بضاعةً، ولو شاءَ اللهُ لغيرهم، ولعجَّل ليوسفَ عليه السلام خلاصَه، لكنَّه أمضى فيه سابقَ حكمِه على وَفق علمِه وإرادتِه، حيث جعل لكلِّ أجلٍ كتابًا، فأمهلَهم حتَّى يبلغَ الكتابُ أجلَه، فيخلِّصَه حينئذٍ.

قال كعبٌ: كان بينَ مَدينَ ومصرَ(٢)، فأخطأَتِ الرُّفقةُ الطَّريقَ، فعثروا على بئرٍ في وسط مَفازةٍ، ولم يكنِ البئرُ على الطَّريق، وإنَّما كانت بئرًا للرُّعاة يسقون أغنامَهم منها.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: لمَّا أراد الله جلَّ جلاله خلاصَ يوسفَ من الجبِّ أزعجَ خواطرَ السَّيَّارة في قصدِ السَّفر، وأعدمَهم الماءَ حتَّى احتاجوا إلى الاستقاءِ، ليصلَ يوسفُ إلى خلاصِه، وقد قيل: رُبَّ تشويشٍ يقعُ في العالَم والمقصودُ منه سكونُ واحدٍ، وقد قيل: ربَّ ساعٍ لقاعدٍ(٣).

وقال وهبٌ: كان يوسفُ صلوات الله عليه في الجُبِّ ثلاثةَ أيَّامٍ، وإخوتُه بالقربِ منه يحرسونَه حتَّى جاءَتِ السَّيَّارةُ؛ وهي رفقةٌ مِن أهل مدينَ، وهم ثلاثُ مئةٍ وثلاثة عشرَ نفسًا، فنزلوا قريبًا من الماء، فأرسلوا واردهم ـ وهو مجلث بن رَعْويل ـ فأدلى دلوَه.

---

(١) ذكره ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية عن ابن عباس، ثم تعقبه بقوله: ولا يخفى ما فيه من الاختلال لحُسن نظم المقال، والإشكالِ من جهة أن التعبير المذكورَ لا يناسب الحال.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٠٠).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٤).

وقال عثمان بن عبد العزيز الحيريُّ: وكان سيِّدُ القوم مالكَ بن دُعْر الخزاعيَّ من العرب.

وقيل: هو مالك بن دُعْر بن ثويب بن عباد بن مدين بن إبراهيم من أهل مدين؛ ابن أخي شعيب[١].

﴿وَارِدَهُمْ﴾ بُشَير، وكان لمالكٍ غلامان: بُشير، وبُشرى، فأدلى بُشيرٌ دلوه، فتعلَّق بها يوسفُ، فقعدَ فيها فأمسكَ الحبلَ بيدِه، فطلعَ الغلامُ مِن الدَّلو يتكلَّمُ بغير كلام السَّيَّارة، ولم يروا مثلَه حُسنًا وجمالًا ونضرة وتمامًا، فلمَّا نظر إلى الغلام قال لأصحابِه: يا بُشرى، أو قال لصاحبِه: يا بُشرى؛ وهو اسمُه.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾: كتموه عن القوم، وقالوا لأهل القافلة: بضاعةٌ استبْضَعَناه أهلُ الماء نبيعُه لهم بمصر، وكان ذلك بأعينِ إخوة يوسف، فجاؤوهم[٢] وقالوا لهم: هل لكم أن تشتروا منَّا هذا الغلام؟ قالوا: أَوَ مملوكٌ هو لكم؟ قالوا: نعم، قالوا: حاشا لله، ما هذا بمملوكٍ، ولا موسومٍ بالعبوديَّة، ولكنَّه موسومٌ بسيما الأحرارِ والكرام، فما قصَّة هذا الغلام؟

قالوا: وُلد في حجورنا، ونشأ بينَنا، وربَّيناه بأيدينا، فأحبَّه أبونا، فأكرمَه وآثرَه ونعَّمَه ووَمَقَهُ[٣]، فصرفَ وجهَه وغلبَ عليه، فأدركَنا ما يدركُ النَّاسَ مِن الغيرة والحسد، وغاظنَا أن يكونَ عبدُنا أحبَّ إلى أبينا منَّا، وليس بمملوكٍ لأبينا، ولكنَّه ابن أَمَةٍ لأمِّنا، وقد وَهَبَتْهُ لنا، وأذنَتْ لنا في بيعِه، وكرهَتْ قربَه مِن أجلِنَا، فلمَّا سمعَتِ السيَّارة مقالَتهم، ورأوا حالَتَهم وحسنَ هيأتِهم، صدَّقوهم فاشتروه منهم.

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (١/ ٣٣٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه في «التفسير» (١٣/ ٦١) عن ابن إسحاق.

(٢) في (ف): «فجاؤوا».

(٣) ومقه: أحبَّه. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: ومق).

(٢٠) ـ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾.

فذلك قوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾: أي: باعوه، يعني: إخوته، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقوله: ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: قليل[١]، والبَخسُ في اللُّغةِ: النَّقصُ.

وقال ابن حَيَّان: أي: زيفٍ رديءٍ[٢].

وقيل: أي: حرامٌ؛ لأنَّ ثمنَ الحرِّ حرامٌ[٣].

وقوله تعالى: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾: بدلٌ من (ثمن بخس).

قال أبو بكر بن عبدش[٤]: هذا يدلُّ على أنَّه كان من ثلاثةٍ إلى عشرةٍ؛ لأنَّ ما فوقَه مِن العددِ لا يُسمَّى دراهم[٥].

وقيل: إنَّها لقلَّتها عُدَّتْ ولم توزَنْ.

وقيل: كانَتْ أربعيْنَ أو دونَها، وكانوا يَعدُّون ما دون الأوقيَّة، ويَزِنون ما فوقَها، والأوقيَّة: أربعون درهمًا.

وأكثرُهم على أنَّها كانت عشرين، وهو قول ابن عبَّاس وقتادة وعكرمة

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٥) عن الشعبي وعكرمة.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٠٥)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٦). وابن حيان هو مقاتل.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أبو بكر بن عبدش مفسر نقل عنه الثعلبي في مواضع من «تفسيره»، وسماه في «معجم الأدباء» (٦/ ١٨٣٠): أبو بكر بن عبدوس.

(٥) القول بلا نسبة في «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٨٥).

وعطيَّـة[١]، وكانـوا عشـرةً، وأصـابَ كلَّ واحـدٍ منهـم درهمان.

وقولـه تعالـى: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾: أي: كانـت الإخـوة غير راغبين فـي ثمنِه.

وقيل: في بيعِه[٢].

وقيل: وكان المشترون في شرائِه غيرَ راغبين؛ لأنَّ الإخوة وصفوه بالإباق.

وقيل: أي: ما خطرَ ببال المشترِيْنَ معه الفسقُ مع صباحته وملاحته.

وفي القصَّة: أنَّهم لمَّا عرضوه على البيع قال مالكٌ: ليس معي نقدٌ كثيرٌ، قالوا: نساهلك بما معَكَ، فكان معه عشرون درهمًا للنَّفقة، فاشتراه منهم بها، فطلبَ مالكٌ منهم كتابَ المشتري، فكتبَ روبيل: باسم إلهِ إبراهيم، هذا ما اشترى أبو دلامة مالكُ بن دُعْر الخزاعيُّ مملوكًا من آلِ يعقوبَ بعشرين درهمًا، نصفها عشرة دراهم، وأعطاهم عهدَه وميثاقه الَّذي اتَّخذ على أنبيائِه ورسلِه أمانةً في ذمَّتِه بأن لا يُلبسه إلَّا الـمِسْحَ[٣]، ولا يطعمه إلَّا قُوْته، ولا يحمله إلَّا على بعيرٍ بغير وكاءٍ، ولا يطلقَه حتَّى يدخلَه مصرَ. وقبض آلُ يعقوبَ الثَّمن، وأخذَ مالكٌ العبدَ، وأشهدوا بذلك على أنفسِهم أصحابَ العير من التجَّار[٤].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾؛ أي: باعوه بثمنٍ لا يُباعُ مثلُه بمثله.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطية وقتادة، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٥) عن عكرمة.

(٢) في (أ): «عينه».

(٣) المِسح: ثوب من الشعر غليظ. انظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٣/ ٣١٥).

(٤) خبر غريب مخترع لا أصل له.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ قيل: أي: المشترون لمَّا خافوا ذهابَ الثَّمن إن كان مسروقًا[(١)].

وقال الإمامُ القُشيريُّ رحمه الله: ليس العجبُ ممَّن يبيعُ يوسفَ بثمنٍ بخسٍ، إنَّما العجبُ ممَّن يجدُ مثلَ يوسفَ بثمنٍ بخسٍ، والحرمانُ لا غايةَ له، والبَختُ لا نهايةَ له.

قال: ويقالُ: ليسَ العجبُ ممَّن يبيعُ يوسفَ بثمنٍ بخسٍ، العجبُ ممَّن يبيعُ وقتَه ـ الَّذي هو أعزُّ من الكبريتِ الأحمرِ ـ بعَرَضٍ حقيرٍ من الدُّنيا.

قال: ويقال: إنَّ السَّيَّارة لم يعرفوا قيمَته وزهدوا في شرائِه بثمنٍ بخسٍ، والَّذين وقفوا على جماله وشيءٍ من حاله غالَوا بمصرَ في ثمنِه حتَّى اشتَرَوه[(٢)] بزنتِه دراهمَ ودنانيرَ مرَّات، وفي معناه أنشدوا:

إنْ كنْتُ عندَكَ يا مولايَ مطَّرَحًا فعندَ غيرِكَ محمولٌ على الحَدَقِ[(٣)]

* * *

(٢١) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٢١).

(٢) في (ر): «شروه».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٥)، والبيت لأبي طالب محمد بن علي بن عبد الله المعروف بالبغدادي المستوفي. كما في «يتيمة الدهر» للثعالبي (٥/ ٢٨٨).

أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: قال وهبٌ: فانطلقَتِ السَّيَّارة حتَّى وردوا به مصرَ، فرفعوه إلى سوقِها، فعرضوه للبيع، فترافعَ النَّاسُ في ثمنِه وتزايدوا وتنافسوا فيه، حتَّى بلغَ ثمنُه وزنَه مسكًا، ووزنَه وَرِقًا، ووزنَه حريرًا، فوُزِنَ فبلغَ أربعَ مئةِ رِطلٍ، وهو يومئذٍ غلامٌ ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: ابن ثماني عشرة سنة، وقيل: ابن تسع عشرة سنة.

اشتراه بذلك رجلٌ من القِبطِ يُقال له: قطفير، وهو عزيزُ مصر[١]، وهو أمينُ أهل مصر في أنفسِهم، وأمينُ فرعونَ وخازنه على كلِّ شيء يملكه ويَحوزه وكاتبه[٢]، وكان قطفير مؤمنًا معلنًا بإيمانه، وكان شرَطَ على الملكِ ألَّا يصدَّه عن دينِه، ولا يَدْعوه إلى غيرِه ليعملَ له؛ وكان رجلًا صالحًا.

قيل: والملكُ فرعونُ موسى، ويدلُّ عليه قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤]، وهو غيرُ بعيدٍ؛ لأنَّ فرعونَ عاشَ أربعَ مئة سنة.

وقيل: بل فرعونُ موسى من أولادِ فرعونِ يوسفَ؛ وهو الوليدُ بن الريَّان رجلٌ من العماليق.

وقيل: لمَّا نقدَ العزيزُ لمالك بن دُعْر هذه الأشياء؛ قال يوسفُ لمالك: لا تأخذ هذه الأشياء ثمنًا عنِّي فإنِّي حرٌّ، وبيَّن نسبَه، فقال مالكٌ: لِمَ لا تخبرني بذلك؟ فقال: لا يمكن، فأتى العزيزَ وقال: لا يصلح لمثلي ـ وأنا تاجرٌ من تجَّار ولايتكَ، والمستظِلِّ بظلِّ دولتك ـ أن أربحَ عليك، وإنِّي اشتريتُه بعشرينَ درهمًا، فلا آخذُ منك إلَّا هذا القَدْرَ، ولولا أنَّك لا ترضى بامتناني عليك لم آخذْ منك شيئًا، فأحسنْ إلى هذا فإنَّه أهلٌ للإحسانِ.

---

(١) بعدها في (أ): «وهو أمين مصر».

(٢) «ويحوزه، وكاتبه» ليس في (ف).

ثـمَّ أتـى إلـى يوسـف وقـال: إنِّـي قـد علمْـتُ[١] بقولِـك، وبيننـا ممالحـةٌ[٢]، فاقـضِ حاجتـي، قـال: ومـا حاجتُـكَ؟ قال: أنـا رجـلٌ لا ولدَ لـي، فـادعُ اللهَ تعالى أن يرزقنـي ولـدًا، فنظـر يوسـف عليه السـلام إلى جبريـلَ مقبلًا يقـولُ لـه: ادعُ اللهَ للتَّاجـر فإنَّـه قريـبٌ مجيـبٌ، فقـال: ما أقـول؟ فقال: قلْ: يـا مَنْ يُعـزُّ ويـذلُّ، يا مَنْ يضـعُ ويرفَـعُ، ويـا مَنْ يُعطـي ويمنعُ، يا مَـنْ هو على كلِّ شـيءٍ قديرٍ، ارزق الشَّـيخَ أولادًا ذكورًا.

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: فاستُجيبَتْ له دعوتُه، وكان لمالك بن دُعْر اثنتا عشـرةَ جاريةً، فرجع إليهنَّ وباشـرهنَّ، فحملَتْ كلُّ جاريةٍ وولدَتْ ذكرَيْنِ، فاجتمعَ له أربعةٌ وعشـرون ابنًا: الشَّرعبي[٣]، والسَّبندي، والسَّندري[٤]، والأخيل، والبلندَى، والمهـذَّب، والمصفَّـى[٥]، والأصفـح، والصَّمحمـح[٦]، والخضـم، والمشـرفي، ومِصـدع، والسَّـميدع، والرحَّـال، والذَّيَّـال، والصَّيفـي، وقيظـي[٧]، وبَيْهـس[٨]،

---

(١) في (ف): «أعلمت».

(٢) أي: مؤاكلة، يقال: مالحت فلاناً ممالحة، وهو يحفظ حرمة الملح والممالحة. انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: ملح).

(٣) في (أ): «الشرعي»، وفي (ر): «الشرعني»، والمثبت من «أنساب اليمن» للكلبي (١/ ٢١٤)، و«الاشتقاق» لابن دريد (ص: ٣٧٨).

(٤) في (ر): «والسدري».

(٥) في (أ): «والمهندب والمصطفى».

(٦) في (أ): «والضحضح» وفي (ف): «والصحيح»، وفي (ر): «والفخضم». والمثبت من «أنساب اليمن»، و«الاشتقاق».

(٧) في (ف) و(ر): «قبطي».

(٨) في (ف): «وينهس».

وعَسْعس، والعملَّس[١]، والعدبَّس، والملادس، والعلاس[٢]، والعرندس[٣].

ولمَّا اشتراه العزيزُ وحملَه إلى بيتِه قال لامرأتِه زليخا: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾؛ أي: أحسِني مقامَه[٤]، وأنزليه منزلة مَن يُكرَم.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾: بالإعانة لنا على أمورنا الَّتي نليها، يكفينا بعض أشغالنا، فنرتفِق ارتفاق العبيد ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾؛ أي: نتبنَّاه، وهذا يدلُّ على أنَّهما لم يكن لهما ولدٌ، ويحتمل أنَّه كان، والتمسَا الزِّيادة، أو توسَّما في يوسف ما كان معدومًا في أولادهما، وكان الله تعالى ألبسَ يوسف في تلك الحالة لباسَ مثله ممَّن قد أعدَّه لاصطفائه.

وقيل: أصدقُ النَّاسِ فراسةً ثلاثةٌ: العزيزُ حين قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وابنة شعيب حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ

---

(١) في (ف): «قلمس»، وفي (أ): «القلمس».

(٢) كذا في جميع النسخ، وفي «أنساب اليمن»: «السندرس».

(٣) قال ابن دريد في «الاشتقاق» (ص: ٣٧٨ ـ ٣٧٩): الشَّرعبيُّ: منسوبٌ إلى شَرعَب، جنسٍ من الثِّياب. والسَّبَنْدَى: الجريء المُقْدم، وهو من أسماء النَّمر. والسَّنْدرِيُّ: ضربٌ من الطير. والسَّرَنْدَى من قولهم: اسرَنْديتُه: إذا علوتَه. والأخيل: ضربٌ من الطير معروف. والبَلَنْدَى من قولهم: ابْلَنْدَى الموضعُ: إذا صلُب وغلُظ. والأصفح: رأسٌ مُصْفَح: إذا كان فيه طُول. والصَّمَحْمَحُ: الصُّلب الشَّديد. والخِضَمُّ: البحر الكثير الخير. والخضمُّ: الجمع الكثير. ومِصْدَع: مِفعلٌ من قولهم: صدَعْتُ الشيء. والسَّمَيدع: السَّيِّد الكريم. وبَيْهَس: اسمٌ من أسماء الأسد. وعَسْعَس: اسمٌ من أسماء الذِّئب. وأصل العسعسة: الخِفَّة، من قولهم: عسعسَ اللَّيلُ: إذا خفَّت ظُلمتُه. والعَمَلَّس: اسمٌ من أسماء الذِّئب. والعَدَبَّس: البعير الصَّعب. ومُلادِس: مُفاعِلٌ من اللَّدْس، واللدس: الرمي، وناقةٌ لديس؛ أي: سمينة. والعَرَنْدَس قالوا: هو اسمٌ من أسماء الأسد، وقالوا: هو الصُّلب الشَّديد.

(٤) في (أ): «مثوى له».

﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبـو بكـر رضـي الله عنـه حين اسـتخلفَ عمـر؛ قاله عبـد الله بن مسـعود رضـي الله عنـه[١].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: وكما خلَّصناه مِن كيدِ إخوتِه ومِن الجُبِّ ملَّكناه أرضَ مصر.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: هو عبارة الرُّؤيا وغيرُ ذلك ممَّا فسَّرناه في[٢] أوَّل السُّورة، فيصير الملِكَ بها، والنَّبيَّ المبعوثَ إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾: أي: أَمْرِ نفسِه، لا يغلبُه على ما يريدُ إمضاءَه أحدٌ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لإعراضِهم عن التَّفكير في آياتِه، والاستدلالِ بها على كمالِ قدرتِه ونفاذِ مشيئته.

وقيل: والله غالبٌ على أمرِ يوسفَ، يدبِّره بما لا يعارضُه فيه أحدٌ، ويبلِّغُه المنزلةَ الَّتي بلَّغها إيَّاه، ويُحقِّق فيه رجاءَ أبيه إذ قال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ الآية [يوسف: ٦].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تدبيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ فيه، ويجهلون قدرَه عندَه.

وقـال الإمـام القشـيريُّ رحمـه الله: لمَّـا نُـودي على يوسـفَ بمصـرَ ببيعِـه، لم يـرضَ اللهُ عـزَّ وجلَّ حتَّـى أصابَتْهم الضرورة حتَّى باعوا من يوسـفَ جميعَ أملاكِهم،

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١١١٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٨٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٢٠).

(٢) «في» من (ف).

ثـمَّ باعوا أنفسَـهم منه فـي آخر أمرهم طلبًـا للطَّعام، فصـاروا بأجمعِهم عبيـدًا له، ثمَّ إنَّهـم لمَّـا مَلَكَهـم مَنَّ عليهـم فأعتقَهم، فلئِـنْ مرَّ عليه يـومٌ بمصرَ نُوديَ عليـه بالبيع، أصبـحَ بمصـرَ يومًـا آخـر وقد ملـكَ جميـعَ أملاكِهـم وملكَ رقـابَ جميعِهـم، فيومٌ بيـومٍ، قـال الله تعالـى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]، يومـانِ شـتَّانَ مـا بينهمـا. ثـمَّ إنَّه أعتـقَ جميعَهم، وكـذا الكريم إذا قـدرَ غفرَ.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أنَّ مَن حسدَه أرادَ ألَّا يكون له فضلٌ عليهم في ذاتِ نفسِه على إخوتِه وذويه، وأرادَ الله تعالى أن يكون له ملكُ الأرض، فكان ما أرادَ اللهُ تعالى لا ما أرادَ حسَّادُهُ، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

وأرادوا أن يكونَ يوسفُ عبدًا لمنْ باعوه منه مِن السَّيَّارة، واللهُ أرادَ أن يكون عزيزًا بمصرَ، فكان ما أرادَ اللهُ تعالى دونَ ما أرادوا(١)، فالله غالبٌ على أمرِه(٢).

***

(٢٢) ـ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾: قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: عشرين سنةً(٣).

وقيل: ثماني عشرةَ سنةً.

يقول: ولمَّا بلغَ يوسفُ شبابَه وكمالَ قوَّتِه ووفورَ عقلِه واهتدائِه للأمور ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: أي: حكمًا بينَ العبادِ بالنُّبوَّة، وعلمًا بالدِّين وبتأويل الأحاديث.

---

(١) «دون ما أرادوا» ليس في (أ) و(ف) و«اللطائف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٨) عن الضحاك. وروى (١٣/ ٦٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: بضعًا وثلاثين.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: وهكذا نجزي مَنْ أحسنَ عملَه فلم يخلطْهُ بشركٍ ولا معصيةٍ.

قيل: المرادُ به رسولُ الله ﷺ؛ أعلمَه اللهُ تعالى أنَّه صائرٌ إلى العلوِّ على قومِه، ونفاذِ الحكم والسُّلطان عليهم، كما فعلَه بيوسفَ عليه السَّلام.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: المؤمنين(١).

وقال الضَّحَّاك: أي الصَّابرين على النَّوائب(٢).

وقيل: قالَ في قصَّة موسى صلوات الله عليه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] ولم يقل هاهنا: (استوى)؛ لأنَّ موسى أُوحِيَ إليه عند منتهى الأشُدِّ والاستواء؛ وهو أربعون سنة، وأوحى اللهُ تعالى(٣) إلى يوسفَ عند أوَّلِه؛ وهو ثماني عشرةَ سنةً.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يحتمل إحسانَ الأعمال، ويحتمل الإحسانَ إلى النَّاس، ويحتمل الإحسانَ إلى نفسه، ويحتمل إحسانَ صحبةِ نِعم الله والقيام بشكرِه(٤).

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمَه اللهُ: مِن جملة الحُكْمِ الَّذي آتاهُ اللهُ تعالى نفوذُ حُكمِه على نفسِه حتَّى غلبَ شهوتَه، فامتنعَ عمَّا راودَتْه زليخا عن نفسِه، ومَن لا حُكْمَ له على نفسِه لم ينفذْ حكمُه على غيرِه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٩) بلفظ: «المهتدين»، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٠٧) باللفظين.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٠٧).

(٣) «الله تعالى» من (ف).

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٢٣).

قال: وقيل: لمَّا استوى شبابه ـ وكان وقتَ استيلاء دواعي مطالبات البشريَّة ـ آتاه الله الحُكْمَ الَّذي أثبتَه[١] على الحقِّ وصرفَه عن الباطل[٢].

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ قال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: دلَّت الآية أنَّ البيتَ قد يُضافُ إلى المرأة وإن كان في الحقيقةِ لزوجِها[٣].

وهو دليلُ أصحابِنا ـ رحمَهم الله ـ فيمَنْ حلفَ: لا يدخلُ دارَ فلانٍ، فدخلَ دارًا هو ساكنُها؛ يحنثُ لإضافتِها إليه.

والمراودة: فعلٌ بينَ اثنينِ، يراودُ أحدُهما الآخرَ على شيءٍ، فيجري في ذلك مدافعةٌ وممانعةٌ، مأخوذةٌ من الإرادة وهي المشيئة، ومنَ الرَّوْدِ وهو الطَّلب.

يقول: طالبَتْ زليخا يوسفَ بمساعدتِها على ارتكابِ الفحشاء منها.

ويجوزُ أن يكون مشتقًّا من الرُّوَيْد؛ وهو التَّمهُّل والتَّرفُّق، والمراودةُ: هي المطالبةُ على التَّرفُّق والتَّمهُّل.

ومعنى: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾؛ أي: مِن أجلِ نفسِه، يُقالُ: فلانٌ يخاصمُ عن فلانٍ،

---

(١) في (ف): «آتيناه». وفي «اللطائف»: (حبسه).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٧).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٢٣).

ويجادلُ عن فلانٍ، ويتكلَّمُ عن فلانٍ[١]؛ أي: من أجلِه.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾: التَّشديد لتكثيرِ المحالِّ؛ وهي الأبوابُ، وإنَّما غلَّقتها لئلَّا يفجأها أحدٌ، ولئلَّا يتخلَّصَ يوسفُ عنها، ولرجاءِ أن يجيبَها، وتكونَ أسبابُ الخلوةِ حاصلةً.

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾؛ أي: تعالَ وهلمَّ إلى ما هو لكَ، وقد توصَلُ به[٢] وقد لا تُوصَلُ به، وقد أنشدَ أبو عَمرو بنُ العلاءِ رحمه الله:

أبلغْ أميرَ المؤمنيـ ـنَ أخا العِراقِ إذا أتيْتَا

أنَّ العِراقَ وأهلَهُ عُنُقٌ إليْكَ فهَيْتَ هَيْتَا[٣]

وهي للذَّكرِ والأنثى والواحدِ والجمعِ سواءٌ.

وقيل: هي كلمةُ حثٍّ وإقبالٍ على الشَّيء، وأصلُه: الجَلَبَةُ والصِّياحُ، وقد هيَّت فلانٌ بفلانٍ، وقال الشَّاعرُ:

قدْ رابَني أنَّ الكَرِيَّ أسْكَتا لو كانَ مَعْنِيًّا بِها[٤] لهيَّتا[٥]

---

(١) «ويجادل عن فلان» ليس في (أ)، «ويتكلَّم عن فلان» ليس في (ف).

(٢) في (أ) و(ر): «بك». والمثبت من (ف)، ولعل المراد وصلها بكلمة (لك)، وقد جاء بالشاهد الآتي على عدم الوصل.

(٣) البيت لرجل قاله لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٧٩)، و«تفسير الطبري» (١٣/ ٧٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠٠)، و«أصول النحو» لابن السراج (٣/ ٤٧٩). وقوله: عُنُقٌ إليك؛ أي: مائلون إليك ومنتظروك.

(٤) في (ف): «بنا»، وكلا اللفظين في المصادر.

(٥) الرجز بلا نسبة في: «الغريب المصنف» لأبي عبيد (١/ ٣٤٣)، و«الجراثيم» لابن قتيبة (١/ ٢٣٨)، و«معجم ديوان الأدب» لإسحاق الفريابي (٢/ ٢٨٥)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٢٠٩).

وفيه ستُّ قراءات:

قرأ أهلُ العراق: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء والتَّاء[1].

وقرأ يحيى بن وثَّاب: (هِيْتُ لك) بكسر الهاء وضم التَّاء[2].

وقرأ نصرُ بن عاصم ويحيى بن يعمر: (هَيتِ) بفتح الهاء وكسر التَّاء[3].

وقرأ أهلُ المدينة وابن عامرٍ: بكسر الهاء وفتح التَّاء: ﴿هِيتَ لك﴾.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿هَيتُ لك﴾؛ بفتح الهاء وضمِّ التَّاء[4].

وقرأ عكرمة: ﴿هِئتُ لك﴾؛ بكسر الهاء وضمِّ التاء، وهمزِ الحشو من الهيئة[5]؛ أي: تهيَّأْتُ لك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أي: أعوذُ باللهِ إنْ أجبْتُ إلى هذا.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾: أي: زوجَها سيدي بحكم الشِّراء ظاهرًا.

﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾: أي: أكرمَ مقامي، وقال لامرأتِه: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾.

وقال مجاهدٌ وابن إسحاق والسُّديُّ: أي: زوجها بسطَ يدي ورفعَ منزلَتي[6]؛ وكذا قال الحسن[7].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٨).

(٢) وانظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٩٨)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٠٨).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٠٨).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٠). وملخص قراءات السبعة كما في «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٨): نافع وابن ذكوان: ﴿هِيْتَ﴾ بكسر الهاء من غير همز وفتح التَّاء، وهشام كذلك إلا أنه يهمز: ﴿هِئْتَ﴾، وقد رُوِيَ عنه ضم التَّاء: ﴿هِئْتُ﴾، وابن كثير بفتح الهاء وضم التَّاء: ﴿هَيْتُ﴾، والباقون بفتحهما.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٥)، وانظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٠٨).

(٦) في (أ): «مثواي».

(٧) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٩) عن مجاهد وابن إسحاق والسدي.

وقال الزجَّاج: يجوز أن يكون معناه: اللهُ ربِّي أحسنَ مثواي؛ أي: عوَّدني الإحسانَ إلى حيث ثويْتُ منذُ فارقْتُ أبي، فلنْ أظلمَ نفسي بالمعصية له(١).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: وعلى القول الأوَّل: فلا أخونُ العزيزَ وقد أحسنَ إليَّ فأكونَ ظالمًا له ولنفسي ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولا يفوزونَ بخيرٍ ولا حَمْدٍ من النَّاس.

وقيل: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: لا يأمنُ من عذابِ الله الزُّناة.

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمَه الله: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ما داموا في ظلمِهم، فإذا تركوه وتابوا عنه أفلحوا(٢).

وقال: في قوله تعالى: ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾: يحتمل أن يكون معناه: ها أنا لك.

قال: وقيل: ليسَتْ بعربيَّة(٣).

ذكروا أنَّ زليخا هويَتْ يوسفَ وهامَتْ بحبِّه، فنحلَ بدنُها، وتغيَّر لونُها، وذهبَ قواها(٤) ونومُها، وارتابَ أهلُ بيتِها في أمرِها، فسألَتْها الظِّئْرُ عن ذلكَ، فبثَّتْ(٥) لها حالَها، واستعانَتْ بها على بلوغ مرادِها من يوسفَ، فقالَتْ لها: أخبريْهِ بما في قلبِكِ واعرضي عليه جمالَكِ، قالَتْ: إنَّه لا يدنو منِّي، ولا ينظرُ إليَّ، ولا يفتح عينيه إذا دخلَ الدَّار، قالَتْ: فأنا أحتالُ لذلك، لكن لا بدَّ من مالٍ كثيرٍ، فبذلَتْ لها ما سألَتْ،

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠١)، وانظر: «النكت والعيون» (٣/ ٢٣)، و«زاد المسير» (٢/ ٤٢٦).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٢٥).

(٣) المرجع السابق (٦/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

(٤) في (أ): «قرارها».

(٥) في (ف): «فبينت».

فاتَّخذت بيتًا من رخامٍ مملَّس على سقفه وحوائطه صورة يوسفَ وزليخا.

فلمَّا تمَّ ذلك هيَّأَتْ البيتَ بأنواعِ[١] الفُرُشِ، وزيَّنَتْه بالأواني والحليِّ، ولبسَتِ الحُلَل وتُوِّجَتْ بتاجٍ مرصَّعٍ، وجلسَتْ على سريرِ ذهبٍ مرصَّعٍ باليواقيتِ، وعليها أنواعُ الحُليِّ، ودَعَتْهُ، فجاءَ وهو لا يعلمُ.

فلمَّا دخلَ البيتَ[٢] أغلقَتْ عليه الأبوابَ؛ وهي سبعةُ أبوابٍ بعضُها في بعضٍ، وقالَتْ له: يا يوسفُ، ما أحسنَ وجهَكَ! قال: في الرَّحمِ صوَّرني ربِّي.

قالت: يا يوسفُ، ما أحسنَ شعرَكَ! قال: هو أوَّل شيءٍ يسقطُ منِّي في قبري.

قالت: ما أحسنَ عينيْكَ! قال: بهما أنظرُ إلى ربِّي.

قالت: يا يوسفُ، ارفعْ بصرَكَ فانظرْ إليَّ. قال: أخشى العمى في آخرِ عمري.

قالت: يا يوسفُ، لِمَ تتباعدُ عنِّي؟ قال: أريدُ الاقترابَ مِن ربِّي.

قالت: يا يوسفُ، القيطونَ[٣] فادخلْ معي. قال: ليس شيءٌ يسترني مِن ربِّي.

قالت: يا يوسفُ، فراشُ الحريرِ ممهَّدٌ لك، قمْ فاقضِ حاجتي. قال: إذًا يذهب مِنَ الجنَّةِ نصيبي.

قالت: يا يوسفُ، جعلْتَ تجترئُ على سخطي؟! قال: أرجو[٤] بذلك مرضاةَ ربِّي.

قالت: يا يوسفُ، عبدٌ اشتريتُكَ، فأنت تتعظَّم عليَّ؟! قال: بجُرمي وخطيئتي اشتريتني.

---

(١) في (أ) و(ر): «بألوان».

(٢) «البيت» ليس في (ف).

(٣) القيطون: المُخدع بلغة أهل مصر. انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: قطن).

(٤) في (ف): «أطلب».

قالت: يا يوسفُ، ليتني لم أعرفْكَ. قال: ذلك فعلُ إخوتي بي[١].

قالت: يا يوسفُ، ضعْ يدَكَ على صدري. قال: لا صبرَ لي على احتراق جسدي.

قالت: يا يوسفُ، الجنينة قد عطشَتْ، قمْ فاسقِها. قال: الَّذي بيدِه مفاتيحُها أحقُّ بسقيها منِّي.

قالت: يا يوسف، لأسلمنَّكَ على أيدي المعذِّبين، فيَسُلُّون جسمَكَ كما سللْتَ جسمي، قال: لا بأسَ إذا كان ربِّي راضيًا عنِّي.

قالت: يا يوسفُ، بأيِّ علَّةٍ امتنعْتَ عنِّي؟ قال: بحقِّ اثنين؛ بحقِّ إلهي الَّذي في السَّماءِ ملكُه، وبحقِّ سيِّدي الَّذي في الأرض سلطانُه عليَّ وعليك.

قالت: يا يوسف، أمَّا سيِّدكَ الَّذي في الأرض سلطانُه فإنِّي آخذُ كأسَ الزَّبرجد بيميني وإبريقَ الدُّرِّ بشمالي، فأسقيه الكأسَ الأوَّل فيسقطُ لحمُه بين يديه، فأجعلُه في قِبْطيَّة[٢] فأدفنُه تحتَ أساسِ بيتي، وأمَّا إلهكَ الَّذي في السَّماء ملكُه؛ فإنَّ لي من الجواهر ما لا تطيقُ حملَه دوابِّي، فأتصدَّقُ بها عنكَ، فيغفرُ لكَ إلهكَ الَّذي به تخوِّفني.

فغلبَتْهُ بالكلام فلم يردَّ جوابًا، فقال: معاذَ الله، ولكن مَن ارتكبَ حرامًا سوَّدَ اللهُ في القيامة وجهَه، وهتكَ على رؤوس الأشهادِ سترَه، وأحرقَ بالنَّارِ جسمَه، فلا تظلميني، ولا تسوِّدي في القيامةِ وجهي، ولا تخجليني يومئذٍ عند أبي وأمِّي، ولا تُسخطي عليَّ ربِّي، ولا تسلِّطي نار جهنَّم على جسمي. فعند ذلك غلَّقَتِ الأبوابَ وأرخَتِ الحُجُبَ.

---

(١) «بي» ليس في (ف).

(٢) قبطية: ثوب أبيض، وجمعه قباطي. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٢١٨).

وقال القُشيريُّ رحمه الله: لمَّا غلَّقت عليه أبوابَ الحجرةِ فتحَ اللهُ عليه أبوابَ العِصمةِ، فلم يضرَّهُ ما أغلقَتْ بعدما أكرمَه بما فتحَ.

وقيل: إنَّ يوسف قال: إنَّ العزيز رجا[1] منِّي أنْ أنفعَه حيثُ قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، فلا أخونُه[2] في حرمِه بظهرِ الغيبِ منه.

وقيل: لمَّا حفظَ حرمةَ المخلوقِ بظهرِ الغيب منه أكرمَهُ اللهُ سبحانَه بإمدادِه بالعصمةِ في الحال، ومكَّنه مِن مواصلتها في المآل على وجهِ الحلال[3].

* * *

(٢٤) ـ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائيُّ: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللَّام، والباقون بكسرها[4]؛ أي: ولقد عزمَتْ زليخا على ذلك وعقدَتْ قلبَها عليه، فأمَّا يوسف فلولا أن رأى برهان ربِّه لهمَّ بها.

فقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ معلَّقٌ بالشَّرط المذكور بعدَه، ولمَّا أراه البرهانَ لم يكن له منه همٌّ بها، وصرفَ اللهُ تعالى السُّوءَ والفحشاءَ عنه، كما ذكرَه في آخر الآية.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: أمَّا ما قالَه بعضُ أهل التَّفسير إنَّها استلقَتْ

---

(١) في (أ): «أمل».

(٢) في (ر) و(ف): «أخزيه».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٧٧).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٨). وقرأ نافع أيضاً بفتح اللام.

له، وهمَّ بها، وحلَّ إزارَه، وأمثالَ هذا من الخرافات؛ فهذا كلُّه[١] ممَّا لا يحلُّ أنْ يُقال، والدلالةُ على فسادِ ذلك وجوهٌ:

أحدُها: قوله تعالى: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

والثَّاني: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

والثَّالث: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾.

والرَّابع: قولهنَّ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

والخامس: قولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

فهذا كلُّه دليلٌ على أنَّه لم يكنْ منهُ شيءٌ من ذلك، وليس في ظاهرِ الآية ممَّا قالوا من قليلٍ ولا كثيرٍ؛ إذ ليس فيه شيءٌ سوى أن ﴿هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾.

ثمَّ تحتمِلُ الآيةُ وجوهًا عندنا:

أحدها: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ همَّ عزمٍ، و﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ همَّ خَطْرةٍ، ولا منعَ فيما خطرَ في القلب؛ وهو قول الحسن[٢].

والثَّاني: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾: همَّ الإرادةِ والتَّمكين، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: همَّ دفعٍ.

لكن يدخل عليه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فلو كان همُّه همَّ دفعٍ لم يكن لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ معنًى، لكن يُشْبه: همَّ بها قتلًا أو ضربًا يُتوهَّم أنَّه يفضي إلى القتل، فرأى برهان ربِّه، فتركَ ذلك لِمَا لا يحلُّ له قتلُها.

---

(١) في (ف): «وأمثال هذا فهذا كلُّه من الخرافات وهذا كله».

(٢) وذكره أيضا الجصاص في «أحكام القرآن» (٣/ ٢٢٠)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٤).

والثَّالث: أنَّه معلَّقٌ بالشَّرط: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وعلى ذلك يخرج قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]؛ أي: لو كان ينطقُ لفعلَ هو[١].

واختلفَ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ماذا كان؟

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه ناداه جبريلُ: يا يوسفُ بنَ يعقوب، اسمُكَ في الأنبياء مكتوب، فلا يكنْ عملُكَ عملَ الفجَّار[٢].

وقيل: كانَ فيما ناداه: إنَّ الطَّير في جوِّ السَّماء لا يُقدَر عليه، فإذا مات لعبَ به الصِّبيان في الأرض، وإنَّ الثَّور الصَّغير لا يُقدَر عليه، فإذا مات دخل النَّمل في[٣] قرنيه، فذلك مثلك إنْ واقعْتَ الخطيئةَ.

وقيل: تمثَّل له جبريلُ في صورة أبيه يعقوب عاضًّا شفته أو إصبعه، فهابَ وبادرَ البابَ[٤].

وقال مقاتل ومحمَّد بن كعب القرظيُّ: رأى في سقف البيت مكتوبًا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢][٥].

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٦٦ ـ ٢٢٧).

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٩٥)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٨٩، ٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٢٤) عن قتادة.

(٣) «في» ليس في (ف).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٨٧ ـ ٩١) نحوه عدة روايات عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٩٨) عن محمد بن كعب القرظي.

وقال مقاتل بن حيَّان: سمع صوتًا: إيَّاك وموافقتَها(١)، فإنَّك إنْ وافقْتَها(٢) صرْتَ كالطَّير الواحد(٣) في الأرض القفار بلا ريشٍ(٤).

وقال جعفرُ الصَّادق: البرهانُ: النُّبوَّة الَّتي أودعَ اللهُ صدرَه، هي الَّتي حالَتْ بينَه وبينَ ما يسخِطُ الله(٥).

وقيل: نظرَ إلى حائطٍ فرأى قلمًا يكتبُ على الحائط: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فحوَّل وجهَه إلى حائطٍ آخر فرأى القلم يكتب بعد البسملة: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فحوَّل وجهه إلى الثالث فرأى ذلك القلم يكتب بعد البسملة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، فحوَّل وجهَه إلى الرَّابع فرآه يكتبُ بعد البسملةِ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، فنكس رأسَه، فرآه يكتب على الأرض: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فنظر إلى السَّقف فرأى صورة أبيه ينظر إليه عاضًّا مسبِّحته، مشيرًا إليه بالهرب، فبادر البابَ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: أي: كذلك فعلنا لنصرفَ عنه الزِّنى(٦).

والسُّوء في القرآن على وجوهٍ:

---

(١) في (ر) و(ف): «ومواقعتها».

(٢) في (ر): «فإنَّك إن واقعتها» وليست الجملة في (ف).

(٣) في (ر) و(ف): «الواحدان».

(٤) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٨٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢١٣).

(٦) «الزنى» ليس في (أ)، وفي (ر): «الرياء والسمعة».

أحدُها: الشِّدَّة؛ قال تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩].

والثَّاني: الغارة[١] والهزيمة والجرح؛ قال تعالى: (يمسكم سوء العذاب)[٢].

والثَّالث: الشَّتم؛ قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [النساء: ١٤٨].

والرَّابع: الذَّنب؛ قال تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والخامس: القتل؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

والسَّادس: العذاب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

والسَّابع: الشِّرك؛ قال تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨].

والثَّامن: البرص؛ قال تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢].

والتَّاسع: الضُّرُّ؛ قال تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

والعاشر: بمعنى: بئس؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

والحادي عشر: الزِّنى؛ قال تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾؛ أي: الفِعلة القبيحة، وهي الزِّنى، وكرَّر لاختلاف اللَّفظين؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ [التوبة: ٧٨].

ويجوز أن يكون السُّوء دواعيَ الزِّنى، والفحشاءُ عينَه، والدَّواعي: المسُّ والقُبلةُ والعِناقُ وغير ذلك ونحوه[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: بكسر اللام: هم الذين أخلصوا

---

(١) في (ر) و(ف): «العار».

(٢) في (ر) و(ف): «يمسسكم سوء العذاب»، وكلاهما ليسا في القرآن.

(٣) في (أ): «الفاحشة» بدل «والفحشاء عينه، والدواعي المسُّ والقبلة والعناق وغير ذلك ونحوه».

أنفسَهم وقلوبَهم وأعمالهم لله، أو الَّذين صفَّوا أعمالهم[١] وأقوالهم وأحوالهم عن الشَّوائب، وبفتح اللام: الذين صفَّاهم الله تعالى عن الكُدورات واصطفاهم بالكرامات.

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾: أي: تعادَيَا إلى الباب ليطلبَ كلٌّ واحدٍ منهما السَّبق على صاحبِه، هي تريدُ أن تسبقَ فتظفرَ به، وهو يريد أن يسبقَ فيتخلَّصَ منها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾: أي: تعلَّقَتْ بذيل قميصِه تجذبُه، فشقَّتْهُ طولًا، ورجل مَقدودٌ: ذاهبٌ في جهة الطُّول على استواءٍ، ووقع ذلك منها في قميصه من ورائه[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾: أي: وجدا زوجَ زليخا عند بابِ الدَّار[٣].

والسَّيِّدُ: الزَّوجُ بلفظ القِبْط، وفي الحديث: «تفقَّهوا قبل أن تسوَّدُوا»[٤]؛ أي: تتزوَّجوا فتشتغلوا[٥].

---

(١) «لله أو الذين صفوا أعمالهم» من (أ) و(ف).

(٢) «ووقع ذلك منها في قميصه من ورائه» ليس في (ف).

(٣) في (ف): «عند الباب».

(٤) رواه وكيع في «الزهد» (١٠٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦١١٦)، والدارمي في «سننه» (٢٥٦)، عن عمر رضي الله عنه موقوفاً.

(٥) كذا قال المؤلف في تأويل الخبر، وذكر نحوه عبد الغافر الفارسي في «مجمع الغرائب» (مادة: =

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾: قالت زليخا دفعًا للتُّهمة عن نفسها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾؟ يُفهَم مِن هذا أنَّه أرادَ بها فجورًا، ولم يكنْ كذلك، ولم تتعمَّد صريحَ الكذب، لكن تكلَّمَتْ بالتَّعريض، وهو في الحقيقة استفهامٌ عن جزاءِ مَن يريد بأهله ذلك، لا تحقيقُ أنَّه فعل بها ذلك.

قالوا: ثمَّ خافت عليه القتل إذ علمَتْ في زوجِها الغيرة فقالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾؛ أي: يحبس، ثمَّ علمَتْ أنَّه لا يرضى بهذا القَدْر من العقوبة إذا وقع عنده أنَّها صادقةٌ، فضمَّت إلى ذلك أمرًا آخر قد يَصغر وقد يَكبر احتيالًا للتَّسكين، فقالت: ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ولمَّا سمعَ يوسفُ ذلك وعلِم أنَّ السُّكوت يفضي إلى وقوع الفَهم أنَّه وُجِدَ منه ذلك الفُجور، وما ينبغي للمسلمِ أنْ يرضى بلحوقِ هذه التُّهمة[1] إيَّاه، فكيفَ بالصِّدِّيق ابنِ الصِّدِّيق، وبالنَّبيِّ ابنِ النَّبيِّ، فصدَق لإظهار براءةِ نفسِه، وتأسيسِ قواعد دعوتِه إيَّاهم إلى التَّوحيد والشَّرائع، فقال: بل هي فعلَتْ ذلك.

* * *

(٢٦) ـ ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

= سود)، ولفظه: (ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ معناهُ: قبلَ أنْ تَزَوَّجوا فتَصِيرُوا سادةً بالتَّحَكُّم على الأزواجِ والاشتغالِ بهنَّ لَـهْواً، ثمَّ تمحُّلاً للنَّفقةِ، ومنه: الاسْتِيَادُ، وهو طَلَبُ السَّيِّدةِ من القومِ)، ثم قال: (وهذا متَّجِهٌ) قلت: وهذه التأويلات لعلها بعيدة عن ظاهر اللفظ، فقد جاء في رواية وكيع تفسيره بعبارة: (يعني: قبل أن تجلسوا للناس فتُسألوا). وقال ابن الجوزي في «غريب الحديث» (١/ ٥٠٧): (الظاهر أن المعنى: أن تصيروا سادة).

(١) في (ف) و(أ): «السمة».

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾: قال وهبٌ: فلمَّا هرب منها اتَّبعَتْهُ فتدارَكَتْهُ عند الباب(١).

ورُويَ أنَّ الأبوابَ المغلَّقة والمقفَّلة كانت تَسقط أقفالُها ومغاليقها حتَّى خرج، وأدركتْهُ زليخا عند الباب، فأخذَتْ بذيلِه وهو يجاذبُها ليخرجَ، وهي تجرُّه من خلفِه ليرجعَ، فانشقَّ قميصُه من دُبرٍ ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾؛ أي: زوجَها عند الباب، فقال: ما شأنُكُما؟ قالَتْ: أدخلْتَ بيتَكَ لصًّا عَادِيًا، وائتمنْتَهُ على أهلِكَ، فأغلقَ عليَّ البابَ وأنا نائمةٌ، فلم أشعرْ إلَّا وهو يريدُ أنْ يدخلَ فراشي، فثرْتُ(٢) إليه مِن نومتي لآخذَه، فبَدَرني إلى البابِ، فأرادَ أنْ يأبقَ منك مِن أجل ما فعل فلا تراه أبدًا.

قال العزيزُ: أخُنْتَني يا يوسفُ في أهلي، وغدَرْتَني وغرَرْتَني بما كنْتُ أرى من صلاحِكَ، وما كنْتَ تُظهِرُ لي من أمانتِك وعفافِك؟

قال يوسف: هي راودتني عن نفسي وغلبتني وغرَّتني، وهذا قميصي مشقوقٌ من خَلفي حين ولَّيْتُ منها هاربًا.

وفي «كتاب عصمة الأنبياء»: إنَّها لو كتمَتْ ذلك لكان لا يُفشي سرَّها، فلمَّا أحالَتْ بالذَّنب عليه لم يحبَّ أن يعرفَه خائنًا فيسوءَ ظنُّه به، حتَّى إذا عرفَ براءته عَلِمَ أنَّ امرأته لم تباشر الفعلَ فينفرَ طبعُه عنها، بل كانت منها المراودةُ لا المباشرة.

ووجهٌ آخر: أنَّها لو كتمَتْ لكان يوسفُ(٣) يظهِرُهُ تأديبًا لها، والتماسًا من زوجِها التَّغيير(٤) عليها؛ لتدوم صيانتُها في بيته.

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠٢) عن قتادة وابن إسحاق.

(٢) في (ف): «فقمت».

(٣) في (ف): «يوسف لم».

(٤) في (ف): «التعيير».

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾: وهو أخوها وكاتبُ زوجِها وأمينُه، وكان عدلًا أمينًا، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ الآية.

وقال مقاتل: كان الشَّاهد رجلًا ذا لحية، وكان ابن عمِّ المرأة[١].

وقيل[٢]: كان صبيًّا في المهد[٣]، وكان ابنَ خالِ المرأة.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «ثلاثةٌ من الصِّبيان تكلَّموا في المهد: شاهد يوسف، وعيسى بن مريم، وصاحب جريج الرَّاهب»[٤]، والقصَّة معروفةٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: لأنَّه يدلُّ على أنَّه كان مقبلًا عليها وهو يردُّها.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٣٠). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠٧ ـ ١١٠) عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وسعيد بن جبير وابن إسحاق.

(٢) في (ف) و(أ): «وقال مجاهد»، وقد ذكرنا في التعليق السابق قول مجاهد أنه كان رجلاً.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٠٥ ـ ١٠٧) عن ابن عباس وأبي هريرة وسعيد بن جبير وهلال بن يساف والضحاك.

(٤) رواه البزار في «مسنده» (٥٠٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٣٥) وصححه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨٢١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً. وكذا رواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٩٠٤) موقوفًا إلا أنه قال بدل «شاهد يوسف»: «والرابع لا أحفظه».

ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤١٦١) وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقولـه تعالـى: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: لأنَّـه يدلُّ على أنَّـه كان هاربًـا منها.

وهذا دليلٌ على أنَّ بناءَ الحكم على ظاهر الحالِ جائزٌ عندَ عدم الوصول إلى دليل الحقيقة، وعليه كثيرٌ من مسائل أصحابنا ـ رحمهم الله ـ في التَّحري وقَبول قول النَّاس وقول مَن يشهدُ له الظَّاهر إذا اختلفا في متاع البيت ونحو ذلك.

* * *

(٢٨) ـ ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾: أي: احتيالكنَّ معاشرَ النِّساء على الرِّجال إذا عملوا بخلاف مرادكنَّ.

قيل: هو قول الزَّوج لها.

وقيل: هو قول الشَّاهد، على قول من زعم أنَّه رجلٌ بالغٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾: أي: عظيم الضَّرر. وقيل: أي: نافذٌ غالبًا؛ للتَّمويه.

وسمَّى كيد الشَّيطان ضعيفًا وكيدَ النِّساء عظيمًا؛ لأنَّ ذلك سرٌّ وهذا جهرٌ، وذاك وحدَه وهذا مع كيد الشَّيطان، وذاك يفرُّ بالاستعاذة وهذه لا تَفِرُّ، وذاك مع اللهِ وهذا معَك.

* * *

(٢٩) ـ ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾: أي: قالَ زوجُ زليخا.

وقيل: قال ذلك الرَّجلُ الشَّاهد: يا يوسفُ، أعرضْ عن هذا الحديثِ فلا تذكرْهُ

لأحدٍ، وهو سترٌ لحالها، وهو المستحبُّ المندوبُ إليه ألَّا يفشى سرُّ أهل بيتٍ، خصوصًا حرمه ومماليكه.

وقيل: لا تبالِ له، وطِب نفسًا، فقد ظهرَ لي براءتك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾: أي: قال لزليخا: استغفري اللهَ، وهي وإنْ كانَتْ مشركةً فهم يقرُّون بأنَّ اللهَ خالقهم، وأنَّهم يعبدون الأصنام لتقرِّبهم إلى الله زُلفى، فيعتقدون استغفارَ اللهِ من الذُّنوب.

وقيل: بل قال لها الشَّاهدُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾؛ أي: اعتذري من زوجِك وسَلِيه[1] أن يسترَ عليك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾: أي: الخائنين في حقِّ الزَّوج.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: ليس كلُّ أحدٍ أهلًا للبلاء، إنَّ البلاءَ لأربابِ الولاء، فأمَّا الأجانبُ فيُتجاوَزُ عنهم ويُخلَّى سبيلُهم، لا لكرامةِ محلِّهم، ولكن لحقارة قَدْرِهم، هذا يوسفُ عليه السَّلام كان بريءَ السَّاحة، وظهرَ للكلِّ طهارةُ جانبِه، فابتُلِيَ مع هذا بالسِّجن، وأمَّا امرأةُ العزيز فقد ظهر للعزيز سوءُ فعلِها، حيثُ قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾، واقتصرَ في حقِّها أنْ تستغفرَ من ذنبِها، ولم ينزل بها شيءٌ من البلاء، ويفعلُ اللهُ ما يشاء[2].

***

(٣٠) ـ ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) في (أ): «وسيلة».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨١).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾: أي: انتشرَ خبرُ امرأةِ العزيزِ وميلُها إلى يوسفَ، وقال جماعةٌ من النِّساء في مصرَ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: زوجة خازن الملك، وكان يُسمَّى عزيزًا لتلقيبِ الملك إيَّاه به، أو على معنى أنَّه عزيزٌ عند ملكِه مكرَّمٌ لديه، أو على معنى مَنَعَته بكثرة خدمه وأعوانه.

﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾؛ أي: عبدَ زوجِها، والعبدُ يسمَّى فتًى، والأَمَةُ تُسمَّى[1] فتاةٌ، قال النَّبيُّ ﷺ: «لا يقولنَّ أحدُكم: عبدي وأَمَتي، ولكنْ ليقلْ: فتايَ وفتاتي»[2].

وأضفْنَ مَن اعتقدْنَه عبدَ زوجها إليها[3] لطاعتِه لها، وتصرُّفِه فيما يَصلحُ لها مِن أسبابِ المنزِلِ، وعلى هذا عُرْفُ النَّاسِ في إضافةِ مماليك أحدِ الزَّوجَيْن إلى الآخر.

وقد يضافُ إلى جميع أهل البيت فيُقال: عبدهم، قال عمرُ في عبدٍ سرقَ مرآة زوجةِ مولاه ولم يقطعْه: عبدُكم سرقَ متاعَكُم[4].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾: أي: أصابَ شَغافَها؛ كما يُقال: كَبَدَه ورَأَسَه وبَطَنه وظَهَرَه؛ أي: أصابَ هذه الأعضاء.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله وأبو عبيدةَ: شَغافُ القلبِ: غلافُه[5]، وهو جلدةٌ عليه؛ أي: دخلَها الحبُّ وأصابَ القلبَ.

---

(١) «تسمى» من (ف).

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (ر): «وأضيف إليها» بدل «وأضفن من اعتقدنه عبد زوجها إليها».

(٤) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٣٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٨٥٦٨).

(٥) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٠٨).

وقال الحسنُ: هو باطنُ القلبِ[١].

وقيل: وسطُ القلبِ.

وقرأ الشَّعبيُّ وأبو رجاء العطاردي: (قد شعفها)؛ بالعين المعجمة من تحتها[٢]، ومعناه: أذهبَ قلبَها.

﴿حُبًّا﴾؛ أي: بالحبِّ، نصبٌ على التَّفسير.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾: أي: نراها في مراودةِ عبدِها في ضلالٍ من الرَّأي، وعدولٍ عن العقل، إذ صارَتْ في جلالتِها وعلوِّ حالتِها تراودُ عبدَ زوجِها بارتكابِ الفاحشة.

وقيل: أردْنَ بهذا الكلامِ التَّوصُّلَ إلى النَّظر إلى يوسفَ.

قال وهبٌ: كنَّ أربعًا؛ امرأة السَّاقي وامرأة الخبَّاز وامرأة صاحب الدَّوابِّ[٣] وامرأة صاحب السِّجن[٤].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣١).

(٢) أي: المهملة، وقوله: «من تحتها» ليس في (ف). والقراءة رواها الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١١٩) عن أبي رجاء، وذكرها عنهما ابن خالويه في «إعراب ثلاثين سورة» (ص: ١٨٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢١٦). وعزاها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٣٣٩): لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن بخلاف، وأبي رجاء، ويحيى بن يعمر، وقتادة بخلاف، وثابت البناني، وعوف الأعرابي، وابن أبي مريم، والأعرج بخلاف، ومجاهد بخلاف، وحميد بخلاف، والزهري بخلاف، وابن محيصن ومحمد بن السميفع وعلي بن حسين بن علي وجعفر بن محمد.

(٣) في (أ): «الدواة».

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٩٠)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٨٦) عن الكلبي، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٣٠) عن جويبر.

قال مقاتل: كنَّ خمسًا. فزادَ امرأةَ الحاجبِ[١].

* * *

(٣١) - ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾: أي: بحيلتهنَّ، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ لتريَهنَّ يوسف.

وقيل: إنَّها كانَتْ أفشَتْ إليهِنَّ أمرَ يوسفَ واستكتَمَتْهُنَّ، فلمَّا تحدَّثْنَ به أرادَتْ إيقاعهُنَّ فيما كانت وقعَتْ فيه، فدعتهُنَّ وفعلَتْ ما فعلَتْ.

وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: أي: تدعوهُنَّ إلى دارِها للطَّعام؛ كامرأةٍ تُضيف صواحبَها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾: أي: هيَّأَتْ لهنَّ مجلسًا للطَّعام يتَّكئْنَ فيه على الوسائد ونحوها، فعلَ المتنعِّمِيْنَ مِن الاتِّكاء قبلَ الطَّعام وبعدَه، وقال النَّبيُّ ﷺ: «أمَّا أنا فلا آكل متَّكئاً»[٢].

وقال مجاهدٌ: (مُتْكًا) بسكون التَّاء بغير الهمز. والمُتْكُ: الأُتْرُجُّ[٣].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٣١).

(٢) رواه البخاري (٥٣٩٨)، والترمذي (١٨٣٠)، من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه. وليس في رواية البخاري: «أما أنا».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٣).

وقيل: البَزْمَاوَرْد(١). وهو قولُ الضَّحَّاك(٢).

وقال وهبٌ: أعتدَتْ لهنَّ أُتْرُجًّا وبطيخًا وموزًا(٣).

وقال القتبيُّ: كلُّ ما قُطع بالسِّكين؛ فهو عند العرب مُتْكٌ، وقد بَتَكَ ومَتَكَ؛ أي: قَطَعَ، والباء والميم يتعاقبان، يقال: أغبطَتْ عليه الحمَّى وأغمطَتْ؛ أي: لزمَتْه، وسبَّدَ رأسَه وسمَّدَ؛ أي: استأصَلَهُ بالحلْقِ، وضربةَ لازِبٍ ولازِمٍ(٤).

---

(١) في (ر) و(ف): «الرمان». والبَزْماورد قول العامة، وهو الزُّمَاورد والزَّمَاورد: وهو طعام من البيض واللحم والسمن، معرب كما في «القاموس»، أو هو الرقاق الملوف باللحم، كما في حواشي «الكشاف»، وفي كتب الأدب: طعام يقال له: لقمة القاضي، أو: لقمة الخليفة، وقيل: البزماورد ضرب من الحلوى يصنع من العجين بالسكر، وقيل: كل ما عمل من السكر حلوى فهو زماورد. انظر: «معجم متن اللغة» لأحمد رضا (٣/ ٦١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٣٣).

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٦٤).

قلت: وكما يظهر من سياق الزمخشري أن هذا من وهب رحمه الله في تفسير (المتك) على القراءة الأخرى، لا (المتكأ) على قراءة العامة، وقد فسر أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٠٩) المتكأ بالنمرق يتكئن عليه، ثم قال: (وزعم قوم أنه الأترج، وهذا أبطل باطل في الأرض، ولكن عسى أن يكون مع المتكأ أترج يأكلونه).

وعلى هذا فقد يكون وهب أراد بكلامه ما أعطت أولئك النسوة حين المتكأ لا تفسير المتكأ نفسه، وهكذا وجه الطبري ما روي من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله: أعطتهن أترجًّا، وأعطت كل واحدة منهن سكّينًا. قال الطبري: (فبيّن ابن عباس في رواية مجاهد هذه ما أعطت النسوةَ، وأعرض عن ذكر بيان معنى المتكأ، إذ كان معلومًا معناه). وكان الطبري قد روى قبل ذلك من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا﴾ قال: مجلساً. ثم ذكر كلام أبي عبيدة ووافقه فيه. انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ١٢٣ ـ ١٢٥).

(٤) انظر: «غريب القرآن» (ص: ٢١٦ ـ ٢١٧)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص: ١١٥) كلاهما لابن قتيبة.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾: أي: وأعطَتْ سكِّينًا تعالجُ به ما تحتاجُ إلى قطعِه ممَّا قدِّم إليهنَّ مِن الطَّعام والفواكه، وهكذا فِعلُ الأعاجمِ، يوضَعُ عندَهم لكلِّ مَن على المائدة سكِّينٌ يقطعُ به اللَّحم وغيرَه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾: وذلك في حالِ ما كُنَّ يعالجْنَ بالسِّكين، فلمَّا خرج عليهنَّ بُهِتْنَ واعتراهُنَّ مِن رَوعةِ جمالِه[١] وهيبةِ جلالِه ما قطَّعْنَ بالسِّكيْنِ أيديهُنَّ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾: أي: فخرجَ، فلمَّا رأينه أعظمْنَهُ، وليس قولُ مَنْ قالَ: أكبرْنَ؛ أي: حضْنَ، بشيءٍ؛ لأنَّه غيرُ معروفٍ، ولأنَّه قال: ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ فعدَّاه بالهاء، والحيضُ لازِمٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾: قال قتادة: أي: أبنَّ أناملَهُنَّ[٢].

وقيل: ألقَيْنَ مفاصلَهُنَّ.

وقال مجاهد: فما أحسسْنَ إلَّا بالدَّم، ولم يجدْنَ من حزِّ اليد ألمًا لشغلِ خاطرهنَّ بيوسفَ[٣].

وقال وهب: كنَّ أربعيْنَ امرأة، وبلغني أنَّ سبعًا من الأربعينَ مُتْنَ في ذلك المجلس وجدًا بيوسفَ وحبًّا له[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾: أي: معاذَ اللهِ أنْ نقولَ: هذا بشرٌ.

---

(١) في (أ): «جماله بكماله».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٣٥).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢١٨)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ١٠٠). ولا شك أن هذا الذي بلغه هو من تخاريف الإسرائيليات.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢١٨).

وقوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾: أي: ليس هذا آدميًّا.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: أي: ما هذا إلَّا ملَكٌ مكرَّمٌ على اللهِ تعالى، والنَّاسُ إذا رأوا امرَأً له[1] رَوعةٌ وجمال قالوا: كأنَّه مَلَكٌ، كما يقولون في ضدِّه: إنَّه شيطانٌ، قال الشَّاعر:

فَلَسْتَ لإنْسِيٍّ ولكنْ لِمَلأْكٍ ... تنزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّماءِ يَصُوبُ[2]

وفي قراءة بعضهم: (ما هذا بِشِرَى) بكسر الباء والشِّين[3]، وبِشِرى مصدرٌ ومعناه المفعول؛ أي: ليس هذا بمشترًى، (إنْ هذا إلَّا مَلِكٌ) بكسر اللَّام[4]؛ أي: ليس بمملوك، وقال قائلٌ:

غابَتْ صِفاتُ القاطعاتِ أكفَّها ... في شاهدٍ هو في البريَّة أبدَعُ

---

(١) في (أ): «رأوا من له».

(٢) نسب البيت لعدد من الشعراء؛ فنسب لعلقمة بن عبدة يمدح الحارث بن جبلة كما في «ذيل ديوانه» (ص: ١١٨)، و«المفضليات» (ص: ٣٩٤)، و«الزاهر» لأبي بكر الأنباري (٢/ ٢٥٥). ونسب لمتمم بن نويرة كما في «ديوان متمم» (ص: ٨٧)، ونسب لأبي وجزة يمدح عبد الله بن الزبير كما في «شرح ديوان المتنبي» للعكبري (٢/ ٣٧٤)، أو لرجل من عبد القيس يمدح النعمان كما في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣٣)، و«شرح القصائد السبع» لابن الأنباري (ص: ٥٢٢)، و«الصحاح» للجوهري (مادة: ملك). ودون نسبة في «الكتاب» (٤/ ٣٨٠)، و«إصلاح المنطق» (ص: ٧١)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ١١٢). وقال السيرافي في «شرح أبيات إصلاح المنطق» (ص: ٢٠٧): يروى لأبي وجزة يمدح عبد الله بن الزبير، ويروى لرجل من عبد القيس يمدح النعمان.

(٣) نسبت للحسن وأبي الحويرث الحنفي. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٤٢)، و«الكشاف» (٢/ ٤٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٤٠)، و«البحر» (١٢/ ٤٦٨).

(٤) قرأ بها عبد الوارث رواية المنقري، وابن عبد الكبير عن أبي عمرو. انظر: «الكامل في القراءات» لليشكري (ص: ٥٥١). ونسب ابن عطية لمن قرأ (بشرًى) أنه قرأ أيضا: (إن هذا إلا مَلِكٌ كريم) بكسر اللام.

ففَنِيــن[١] مِــنْ أوصافهــنَّ فلَــمْ يَكُنْ مِــنْ نَعْتِهِــنَّ تَــلذُّذٌ وتوجُّــعٌ[٢]

* * *

(٣٢) - ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾: لمَّا رأَت امرأةُ العزيز أنَّهنَّ افتُتِنَّ بيوسفَ وجدَتْ موضعًا للعذر فقالَتْ: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾.

ويحتملُ: فهذا ذلكنَّ الَّذي لمتنني فيه، وقلْتُنَّ ما قلْتُنَّ، ثمَّ اعترفَتْ بأنَّها راودَتْه عن نفسِه، فقالَتْ:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾: أي: امتنعَ وتحفَّظَ عن إجابتي، فهذا يبطلُ قولَ مَنْ قال: قصدَ إجابتَها وحلَّ إزارَه[٣].

ثمَّ اعتراها مِن افتتانِ النِّسوة به زيادةُ شغَفٍ به، فهتكَتْ جلبابَ الحياءِ، وعادَتْ بحضرتهن إلى مراودته، أو إلى ما يشبهُ المراودَة، فقالَتْ:

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾: أي: ليحبسَنَّ في السِّجنِ، وهو قولُه تعالى:

﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: أي: الأذلَّاء، جمعَ بينَ النُّون المشدَّدة وبين النُّون المخفَّفة؛ لأنَّهما[٤] في معنًى واحدٍ، وكُتبَتِ الثَّانية ألفًا لخفائها وسكونها، والوقفُ عليه بالألفِ، قال الأعشى:

---

(١) في (أ): «فتبين»، وفي (ر) و(ف): «ففتن»، والمثبت من المصدر.

(٢) ذكره الكلاباذي عن بعض أهل عصره في «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص: ١٢٧).

(٣) في (ف): «أزراره».

(٤) في (ف): «إلا أنها».

وسبِّحْ على حين العشيَّات والضُّحى ولا تعبدِ الشَّيطانَ واللهَ فاعبُدا[١]

أي: فاعبدَنْ[٢].

وقيل: لمَّا بغَتْ عليه واتَّهمَتْه بما فيها ابتلاها الله تعالى بأنْ هتكَتْ بلسانها سترَها، وكشفَتْ أمرَها.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: كانَتْ زليخا أتمَّ حالًا في أمر يوسفَ وفي الافتتانِ به من النِّسوة، فأثَّرَتْ رؤيتُه فيهنَّ، ولم تؤثِّر فيها كما أثرَتْ فيهنَّ، حيثُ قطَّعْنَ أيديهُنَّ، وذلك لأنَّه قويَ حالُها بطول الصُّحبة، وصارَتْ رؤيةُ يوسفَ غذاءً لها، فلم يؤثِّر فيها، والتَّغيُّرُ صفةُ أهل البداية، فإذا دام المعنى زالَ التَّغيُّرُ.

قال أبو بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه وقد رأى رجلًا يبكي وهو قريب العهد بالإسلام: هكذا كنَّا حتَّى قسَتْ القلوبُ[٣]؛ أي: قَوِيَتْ وصَلُبَتْ، وكذا الخزفُ أوَّلَ ما يُجعَل فيه الماء يُسمَع له نشيشٌ، وإذا تعوَّدَ شربَ الماء سكنَ، فلا يُسمَع له بعد ذلك صوتٌ[٤].

قال وهبٌ: ولمَّا ظهر هذا قَبُحَت المقالةُ فيها، وعيَّرها نساءُ الملوك، وقلْنَ: إنَّها تراودُ عبدَها عن نفسِه؛ قد فضحها[٥]، وشغفها حبًّا، وأزرى بها، وهو كارهٌ لها،

---

(١) انظر: «ديوان الأعشى» (ص: ١٨٧). وصدره فيه برواية:

وذا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسكَنَّه

(٢) «أي: فاعبدن» ليس في (ف).

(٣) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ١٣٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٥٢٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٣).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨٣).

(٥) «قد فضحها» ليس في (ف).

يُبغضها ويَمقتها، ويهرب منها، ولو رأى فيها خيرًا لطاوعَها(١)، ولو كان لأحدٍ منَّا لأذلَّتْه(٢).

فلمَّا سمعَتْ بسوءِ قولهنَّ لها وإزرائهِنَّ عليها احتالَتْ لفضيحتِهِنَّ، وأرادَتْ أن تصغِّر إليهنَّ أنفسَهُنَّ، فبعثَتْ إلى أربعينَ امرأةً مِن عظمائهِنَّ لَمْ تَدَعْ فيهنَّ أشرفَ ولا أعظمَ منهنَّ، فصنعَتْ لهنَّ مأدبةً عظيمةً، فلمَّا فرغَتْ من ذلك فرشَتْ لهنَّ واتكأْنَ، ووُضِعَ بينَ أيديهِنَّ الأُتْرجُّ والبطيخُ والموزُ، وأعطَتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكينًا لتقطعَ به ما وضعَتْ قدامها، فلمَّا أنشأْنَ في قطع ذلك قالَتْ: ألا أريكُنَّ عبدي الَّذي عيَّرتُنَّني به؟ قلْنَ لها: بلى، فإنْ كانَ لك فيه عذرٌ عذرناك وساعدناك(٣)، وإنْ أخطأْتِ أو قصرَ رأيُك(٤) وعظناك وعرَّفْناك، ودلَلْناك على الرُّشْد والسَّداد.

فاغتنمَتْ ذلك مِن قولهنَّ وقالَتْ: اخرجْ عليهِنَّ يا يوسفُ، فلمَّا وقفَ عليهنَّ أعظمْنَهُ وبُهِتْنَ، وفي أيديهِنَّ السَّكاكيْنُ، فألهى(٥) أيديَهُنَّ وعيونَهُنَّ وقلوبَهُنَّ وعقولَهُنَّ، فقطَّعْنَ أيديَهُنَّ وأبَنَّ الأناملَ، وأقسمْنَ باللهِ جَهْدَ أيمانهِنَّ: ما هذا بشرًا، ولا ولدَهُ بشرٌ، وإنَّه لَمَلَكٌ كريم من رؤوسِ الملائكة.

قال وهبٌ: بلغني أنَّ يوسفَ صلوات الله عليه أُعطِيَ ثُلُثَ حُسْنِ الدُّنيا، وسارةَ السُّدُسَ، والخَلْقَ النِّصف(٦).

---

(١) في (أ): «لخادعها».

(٢) «ولو كان لأحدٍ منَّا لأذلَّته» ليس في (ف).

(٣) في (أ): «وشايعناك»، وفي (ف): «وسامحناك».

(٤) في (ف): «قصرت» بدل: «قصر رأيك».

(٥) في (أ): «فأشهى»، وفي (ف): «فانتهى».

(٦) روى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٣٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٨٦) عن ربيعة الجرشي: =

وأعطى اللهُ تعالى يوسفَ مِن الحُسْنِ وصفاءِ اللَّون ونقاءِ البشرة ما لم يعطه أحدًا؛ إنْ كان ليأكلُ البقلَ والشَّيء الأخضر من الفاكهة فيُرَى حيث يزدرده[1] في حلقِه وصدرِه حتَّى إلى بطنِه[2].

فقالَتْ زليخا لهنَّ: وهل عليَّ بعدَ هذا مِن لومٍ؟! قلْنَ: معاذَ اللهِ، بل أنتِ معذورةٌ مرحومةٌ مظلومةٌ. وقلْنَ ليوسفَ: اتَّقِ اللهَ في ربَّتكِ[3]، واقبل كرامتَها، وأطعْها وأجبْها إلى ما دعتْكَ إليه، ولئن لم تفعل ذلك إنَّك إذًا لمن الظَّالمين.

وقالَت[4] امرأةُ العزيز: قد ﴿رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ قالَتِ النِّسوةُ: قد استحقَّ ذلك، إنَّ عبدًا عصى سيِّدتَه لأهْلٌ أنْ يُسجَنَ ويُقتَلَ ويُعذَّبَ.

وتمالأْنَ عليه، وأحببْنَهُ وشغفَهُنَّ كما شغَفها، وأشرْنَ عليها بحبسِهِ رجاءَ أنْ يستهويْنَهُ حتَّى يحنَّ[5] لهنَّ في السِّجن.

وقلْنَ لسيِّدتِه: إنَّكِ متى سجنتيه قطعْتِ عنك مقالةَ السُّوءِ الَّتي قد شاعَتْ[6] عليك، ورأى النَّاسُ أنَّك تبغضينه وتكرهيْنَ قربَه، ويُعطِّفُهُ عليك السِّجنُ ويلِيِّنُه لك.

= قال: «قُسِم الحسن نصفين، فأعطي يوسف وأمه سارة نصف الحسن، والنصف الآخر بين سائر الخلق». وكله من مبالغات الإسرائيليات وخرافاتها.

(١) في (ر) و(ف): «يزدرده».

(٢) وهذا في المبالغة والبطلان كسابقه.

(٣) في (أ): «زلتك».

(٤) في (ر) و(ف): «وكانت».

(٥) في (أ): «عاد». وسقطت جملة: «حتَّى يحنَّ لهنَّ في السجن» من (ف).

(٦) في (ر): «مقالة النسوان التي قد أشاعت»، وفي (ف): «مقالة النسوان التي قد شاعت».

ثمَّ انصرفَتِ النِّسوةُ عنها على ذلك وتركْنَها، وراودَتْهُ عن نفسِهِ وجهدَتْ عليه، ولم يزددْ منها إلَّا بُعدًا، فلمَّا يئسَتْ منه قالَتْ لسيِّدِها: قد شاعَ عليَّ في أمر هذا العبد مقالةٌ قبيحةٌ، وقد فضحني ذلك، وقد كرهْتُ قربَه، وأبغضْتُ رؤيتَه، فائذَنْ لي في سَجنِه حتَّى يكونَ سَجنُه مِن تحتِ يديَّ، فإنَّه أقطعُ للمقالةِ، وأبينُ للعذرِ، فقال لها سيِّدُها: قد أذنْتُ لك في سَجنِه.

* * *

(٣٣) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾: أي: يا ربِّ ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أضافَ الفعلَ إلى جميع هؤلاء النِّسوة؛ لِمَا مرَّ أنَّهنَّ شُغفْنَ به، ودعتْهُ كلُّ امرأةٍ منهنَّ إلى نفسِها.

وقيل: إنَّهنَّ حرَّضْنَه على إجابةِ زليخا، ودعوْنَه إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: أي: أمِلْ إليهنَّ، وقد صَبا يَصْبُو صَبْوةً، وحذفت الواو من ﴿أَصْبُ﴾ للجزم؛ لأنَّه جواب الشَّرط.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ باتِّباع الهوى، وهذا سؤالٌ منه العِصمةَ مِن ذلك بألطفِ وجهٍ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: الاختبارُ مقرونٌ بالاختيار، ولو تمنَّى العافية وسألَها(١) وجدَ العافيةَ، ولكنْ آثرَ السِّجنَ على ذلك فسُجِنَ.

وقالوا: هذا عينُ التَّوحيد، حيثُ رأى أنَّ المعصومَ مَن عصمَه اللهُ تعالى، فإنَّ نجاتَه بصرفِ اللهِ تعالى ذلك لا بتكلُّفِه، ولمَّا آثر تحمُّلَ المشقَّة في اللهِ تعالى على

---

(١) في (ر): «فينالها»، وفي (ف): «ومثالها».

لذَّةِ نفسِه آثَرَهُ الله تعالى على إخوتِه وأهلِ عصرِه، حتَّى قالوا: ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١][(١)].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله: قولُه: ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾: هي محبَّة الاختيار والإيثار في الدِّين، لا محبَّة النَّفس واختيارُها، بل النَّفس تهوى ما يدعونَ إليه، دليله قوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾[(٢)].

ودلَّ أنَّ النِّسوةَ راودْنَه عن نفسِه، ولذلك قال: ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١][(٣)].

* * *

(٣٤) ـ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾: ودعاؤُه قولُه: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: السَّميعُ للدَّعوة، العليمُ بالنِّيَّةِ.

* * *

(٣٥) ـ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾: أي: ظهرَ لهم رأيٌ بخلافِ الرَّأيِ الأوَّلِ، ومصدرُه البَداءُ.

أي: لزليخا والعزيز وأهلِ المشورة فيه.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨٣).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٥٤).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٣٧).

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: العلاماتِ الدَّالَّات على براءةِ يوسفَ وصدقِ مقالتِه؛ مِن قدِّ القميص مِن دُبُرٍ، ومِن كلامِ الطِّفل وشهادتِه ببراءته، وممَّا بيَّنَ مِن الاستدلال، ونحوِ ذلك.

﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾: أي: حلفوا ليسجُنُنَّه ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾؛ أي: زمانٍ يتقادمُ العهدُ فيُنسَى هذا الحديث فينقطعُ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: لمَّا سجنَ العزيزُ يوسفَ مع ظهور براءَتِه اتِّقاءً على امرأته أنْ يُنتَهكَ سترُها؛ حوَّلَ اللهُ تعالى ملكَهُ[1] إليه، ثمَّ في آخر الأمرِ جعلَها امرأتَه، وذلك جزاءُ الصَّابرين[2].

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾: أي: عَبْدانِ للمَلِكِ.

وقال الزَّجَّاجُ: كانوا يسمُّون المملوكَ في ذلك الزَّمان ـ شيخًا كان أو شابًّا ـ: فتىً[3].

أي: أمضَوا رأيَهم في سَجنِه فسجنوه ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾؛ أي: بعدَه بزمانٍ، و(مع) كلمةُ قِرانٍ، وأرادَ به اجتماعَهم في السِّجنِ، لا اقترانهم في الدُّخول.

وكان الفَتَيان أحدُهما طبَّاخُ الملكِ واسمه مجلث، والآخر ساقٍ واسمه بونا.

---

(١) بعدها في (أ): «وملكه»، وليست في «اللطائف» لكن لها وجه.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠٩).

وقيل ـ وهو قول ابن عبَّاسٍ ـ: اسم الطَّبَّاخ شرهابقم، واسم السَّاقي شرهاسكم[١].

ولمَّا دخل[٢] يوسفُ السِّجنَ فتح الله عليه عبارةَ الرُّؤيا، فكان يَعْبُرُ لأهل السِّجنِ رؤياهم، ودخل هذان السِّجنَ بعدَه، و﴿مَعَهُ﴾ بمعنى: بعده، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥].

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾؛ أي: السَّاقي: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ في النَّوم ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾؛ أي: عنبًا؛ قالَه الضَّحَّاك[٣].

وقال الزَّجَّاج: أي: عنبَ الخمرِ، والعنبُ يُسمَّى خمرًا في لغة عُمَان[٤].

وحكى الأصمعيُّ عن معتمر بن سليمان أنَّه رأى أعرابيًّا معه عنبٌ فقال: ما معك؟ فقال: خمرٌ[٥].

وقيل: هو على ظاهره مستقيمٌ، معناه: أعصر العنبَ خمرًا؛ كما تقولون: عصرْتُ الزَّيتون زيتًا، وبسطُه: أعصرُ عنبًا ليكونَ عصيرُه خمرًا.

قال عكرمةُ: قال ذلك الفتى: إنِّي رأيْتُ فيما يرى النَّائم أنِّي غرسْتُ حبَّةً من عنبٍ فنبتَتْ[٦]، فخرجَ منها ثلاثةُ عناقيد، فعصرتُهُنَّ، ثمَّ سقيتُهُنَّ الملكَ، قال: تمكُثُ في السِّجنِ ثلاثةَ أيَّامٍ، ثمَّ تخرجُ فتسقِيْهِ خمرًا[٧].

---

(١) في (أ): «شرهاسلم». وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٣٣)، وجاء في مطبوعه الاسمان: «شرهم أقم، وشرهم أشم».

(٢) في (ف): «وصل».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٢).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٠٩).

(٥) رواه ابن قتيبة في «غريب الحديث» (١/ ٥٤٠)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٢٢)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ١١٤).

(٦) في (ف): «فيبست».

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٥٥).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾: أي: الطَّبَّاخ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾؛ أي: رأيْتُ كأنِّي أخرجُ من مطبخٍ وعلى رأسي ثلاث سلالٍ(١) من خبزٍ، وأرى سباع الطَّير تأكل مِن السَّلَّةِ العُليا.

وقوله تعالى: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾: أي: بما يَؤُولُ إليه عاقبة المراد بهذه الرُّؤيا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: أي: تُحسِنُ إلى أهلِ السِّجنِ؛ لقيامِك بأمورِهم، وعنايتِكَ بأسبابِهم، فأحسِنْ إلينا بعبارة الرُّؤيا، ليزول(٢) عنَّا شغلُ القلب بتأويلِها، وتُجزَى بذلك على إحسانِك إلى أهل السِّجن.

قيل: كان يداوي مريضَهم، ويعزِّي حزينَهم، ويجتهدُ في عبادةِ ربِّه. وهذا عن قتادة(٣).

وقيل: كان يعينُ المظلومَ، وينصرُ الضَّعيفَ، ويعودُ المريضَ. وهذا عن الزَّجَّاج(٤).

وقيل: أي: من المُعْتَنِين(٥) في عبارة الرُّؤيا. وهو قول الفرَّاء(٦).

وقال وهبُ بن منبِّه: كان سببُ وقوعِهما في السِّجن أنَّ جماعةً مِن أهل مصرَ خرجوا على الملك، وأرادوا المكرَ به واغتيالَه، فدسُّوا إلى هذَيْن، وضمنوا لهما مالًا لِيَسُمَّا طعامَ الملكِ وشرابَه، فأجاباهم إلى ذلك، ثمَّ إنَّ السَّاقي نكلَ عنه، وقبلَ الخبَّازُ الرَّشوةَ فسمَّ الطَّعامَ، فلمَّا حضرَ وقتُه وأُحضِرَ الطَّعام، قال السَّاقي:

---

(١) في (أ): «سلات». ولم يبين المؤلف كيف عرف أنها ثلاث وهي لم تذكر في الآية.

(٢) في (ر): «واصرف»، وهي ليست في (ف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٤٣).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٠).

(٥) في (أ): «المحسنين».

(٦) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٥)، وفيه: «من العالمين قد أحسنت العلم».

أيُّها الملك، لا تأكلْ فإنَّ الطَّعامَ مسمومٌ، قال الخبَّاز: أيُّها الملك، لا تشربْ، فإنَّ الشَّرابَ مسمومٌ، فقال الملكُ للسَّاقي: اشربْ، فشربَه فلم يضرَّه، وقال للخبَّاز: كلْ مِن طعامِك، فأبى، فجُرِّب ذلك الطَّعام في[1] دابَّةٍ من الدَّواب، فأكلَتْه فهلَكَتْ، فأمرَ الملكُ بهما إلى السِّجنِ، فكانا في السِّجنِ سنةً، وألِفَا يوسفَ وألِفَهما، إلى أنْ رَأَيا رؤياهما، كما قصَّ الله تعالى عنهما[2].

وقيل: لمَّا عبرَ رؤيا الخبَّاز؛ قال: إنِّي لمْ أرَ شيئًا وكنْتُ ألعبُ، فقال يوسفُ: رأيتُما رؤياكما أو لم ترياها، فإنَّ ما قلْتُ نازلٌ بكما. فذلك قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

وقال الشَّعبيُّ: إنَّهما تحالما ليجرِّبا يوسف[3].

وقال محمَّد بن إسحاق: كان أحدُهما صادقًا والآخرُ كاذبًا[4].

* * *

(٣٧) ـ ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾: قيل: أراد أن يقرِّرَ عندهما علمَه بعبارة الرُّؤيا.

وقيل: أسَّس لدعوتِهما إلى التَّوحيد، وكذا ينبغي للعالم إذا سُئِلَ عن شيءٍ أن يؤسِّس[5] لِمَا هو أهمُّ منه فيكشفَه، ثمَّ يجيبهم عمَّا سُئِلَ عنه.

---

(١) في (ف) و(أ): «على».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٢١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٤٠) دون نسبة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٥٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه والسدي.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٣٦) عن أبي مجلز.

(٥) في (ف): «أسس» بدل: «أن يؤسِّس».

فقال: لا يأتيكما من عند الملك أو من عند أهلكما أو أصدقائكما ما تحتاجان إليه من الطَّعام في السِّجن إلَّا أخبرتكما به قبلَ مجيئِه، وهو قوله: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ وهو خبرٌ عن الغائب، وذلك كقول عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فكأنَّهما قالا له: فكيفَ تعلمُ ذلك وهو غيبٌ؟ فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

فكأنَّهما قالا: ولِم خصَّك ربُّك بالتَّعليم دوننا؟ فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وليس هو تَرْكًا بعد الكونِ فيها، بل هو الامتناع عنها أصلًا، وإخبارٌ أنَّه لم يكن فيها قطُّ، ولا يخصُّ الله تعالى بهذا العلم ـ الَّذي هو كرامةٌ ـ مَنْ كفرَ به وجحدَه، بل يكرمُ به مَن آمنَ به وصدَّقه ووحَّده وعبدَه.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

فكأنَّهما قالا له: إذا لم تكن أنت في هذه الملَّة؛ فعلى أيِّ ملَّةٍ أنت؟ فقال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الجدُّ، جدُّ الأب يسمَّى أبًا؛ لأنَّه أبو أبِ الأب، ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ هو أبُ الأب، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ هو أبوه حقيقة.

فكأنَّهما قالا: وكيف كانت ملَّتهم؟ فقال: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

فكأنَّهما قالا: وكيف اهتديتم إليها؟ فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لا يشكرون الخالق على نعمِه بالطَّاعة له في أمرِه ونهيِه.

وقيل: لا يعلمون النِّعمَ مِن الله فيشكروا له عليها.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾: يدلُّ على بطلانِ قول المعتزلة في أنَّ الفاسقَ يخرجُ من ملَّة الإسلام، ولا يدخل في ملَّة الكفر، فإنَّه ليس بينَ المِلَّتَيْنِ ملَّةٌ أخرى.

ودلَّتِ الآية أيضًا أنَّ الكفرَ كلَّه ملَّةٌ واحدةٌ.

ثمَّ إنَّما ذكرَ يوسفُ آباءه في هذه الآية؛ لأنَّ النَّاس كانوا عرفوهم واعتقدوا تعظيمَهم، وكانوا لا يعرفون يوسفَ، فبيَّن أنَّه مِن صلبِهم؛ ليعتقدوا كلامَه(١) ويقبلوا دعوتَه إلى الدِّين الحقِّ.

* * *

(٣٩) ـ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾: أي: يا ساكنَيه وملازمَيه، وهو كقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ و﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾: استفهامٌ بمعنى النَّفي.

ثمَّ لا خيريَّة في الأرباب المتفرِّقين، لكن قالَه بناءً على زعم الكفرة؛ أي: أنتم تعتقدونه خيرًا، ثمَّ ألزمهم على هذا الوجه: أهذا خيرٌ أم التَّوحيد، على وجهٍ ظهرَ بطلان ما يعتقدون، وهو كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] ونحوِ ذلك، وقد كشفناه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية [المائدة: ٦٠].

ثمَّ إنَّه دلَّهم بهذا على أنَّ الخالق واحدٌ، وأنَّ الإلهَ(٢) واحدٌ، وأنَّ الآلهة لا بدَّ أن

---

(١) في (ف): «ليعتقدوه» بدل من «ليعتقدوا كلامه».

(٢) في (أ): «المعبود».

يكون بينهم تفرُّقٌ في الإرادات؛ فإمَّا أنْ يلزمَ العجزُ كلَّهم أو بعضَهم، والعاجزُ لا يجوز أن يكون إلهًا، وهو معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقولِهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولأنَّ الآلهة إذا تفرَّقَتْ لم يمكن إرضاءُ جميعِهم بالعبادة، وإرضاءُ الواحدِ أمكنُ[١] بالمداومةِ على عبادته والعملِ بطاعته.

* * *

(٤٠) ـ ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾: لمَّا كانت الأسماء الَّتي سمَّوها لا تصحُّ معانيها؛ صارَتْ كأنَّها أسماءٌ فارغةٌ يرجعون في عبادتهم إليها، فكأنَّهم يعبدون الأسماء، إذ لا معاني لها من إلهٍ وربٍّ.

وقوله تعالى: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾: أي: لم يجعلِ اللهُ عزَّ وجلَّ دليلًا على جواز عبادتها، ولا أقامَ حجَّةً على تعظيمها.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾: أي: ما الحكمُ في الإلهيَّة والرُّبوبيَّة إلَّا لله الواحد القهَّار.

قوله تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾: المستقيم. وقيل: أي: الَّذي قامَتِ الدلالةُ على صحَّتِه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: لا

---

(١) في (أ): «ممكن».

يتفكَّرون فيه ولا ينظرون فلا يعلمون، ولو تفكَّروا فيه ونظروا لعلِموا، وهذا يدلُّ على أنَّ العقوبة تلزمُ وإنْ جهلَ إذا أَمكن له إنعام نظر فيه[١]، ولا يُعذَر به، أو معناه: لا ينتفعون بعلمِهم مع أنَّهم يعلمون به[٢].

***

(٤١) ـ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾: أي: سيِّدَه، وهو الملكُ، يعني به: السَّاقي.

﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾: أي: الطَّبَّاخ ﴿فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ﴾؛ أي: الطُّيور ﴿مِن رَّأۡسِهِۦ﴾.

﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: أي: فُرِغ منه وأُتِمَّ الأمر[٣] ﴿ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾؛ أي: تسألان تأويلَه.

قال وهبٌ: قال السَّاقي: إنِّي رأيْتُ حَبَلَةً، فيها ثلاثةُ قضبانٍ جردٍ، فبينا أنا أنظرُ إليها إذا هي قد أورقَتْ[٤] وأخرجَتْ ثمرتَها، ونضجَتْ عناقيدُها، وإذا كأسُ فرعونَ في يدي، فأخذْتُ العناقيدَ فعصرتهنَّ في الكأس، فناولتُها الملكَ فشربَه.

قال يوسفُ: ما أحسنَ ما رأيْتَ! تمكثُ في السِّجنِ ثلاثةَ أيَّامٍ، ثمَّ يذكرُكَ الملكُ فيدعوك ليعفوَ عنك، ويردَّكَ إلى عملِكَ فتكونَ كما كنْتَ، فاذكرْني عند ربِّك ـ يعني: عند الملكِ ـ فإنِّي سُجِنْتُ مظلومًا، لعلَّه أنْ ينظرَ في أمري ويخرجني مِن السِّجن.

---

(١) في (ر) و(ف): «أمكن له العلم بطريقة».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٤٢).

(٣) «الأمر» من (ر).

(٤) في (أ) و(ر): «افترقَتْ».

قال الخبَّاز: ما أحسنَ ما عَبَرْتَ! فإنِّي رأيْتُ كأنَّ على رأسي ثلاثَ سِلالٍ مِن خبزٍ، في السَّلَّةِ العُليا مِن ألوانِ الأطعمةِ، وإذا سِباعُ الطَّير تأكلُ مِن السَّلَّة العُليا.

قال يوسفُ: أمَّا السِّلال؛ فالأيَّام الثَّلاثة الَّتي تكون في السِّجن، ثمَّ يدعوك الملكُ في اليوم الرَّابع فيصلبُك، فتأكل الطَّير من لحمِكَ.

قال الطَّبَّاخ: فإنِّي لم أرَ شيئًا، إنَّما كنْتُ ألعبُ.

قال يوسفُ: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أي: الَّذي سألْتُماني[1] عنه؛ يعني: الأمرُ كما حدَّثْتُكُما، رأيتُما شيئًا أو لم ترَياه.

* * *

(٤٢) ـ ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾: قولُهُ: ﴿ظَنَّ﴾ يجوزُ أنْ يكون فعلًا ﴿لِلَّذِي﴾ ويكونَ على حقيقةِ الظنِّ أنَّه رجا بهذا التَّأويل أن يكون كذلك، ويجوزُ أن يكونَ فعلًا ليوسفَ؛ أي: للَّذي ظنَّ يوسفُ أنَّه ناجٍ، ويكون في معنى العلم واليقين؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]؛ لأنَّه علم ذلك بتعليم اللهِ إيَّاه، فكانَ لا يشكُّ فيه.

وقوله تعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾: أي: مَلِكك.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾: قيل: فأنسى الشَّيطانُ يوسفَ أنْ يذكرَ اللهَ ربَّه جلَّ جلالُه في سؤال هذا الخلاص، ورجاه مِن[2] عند الملكِ. وهو بعيدٌ مِن حال الأنبياء.

---

(١) في (أ): «لا تسألاني» بدل: «الذي سألتماني».

(٢) «مِن» ليست في (ف).

والصَّحيحُ قَولُ الجمهورِ: فأنسى الشَّيطانُ السَّاقيَ ذِكْرَ حالِه لملِكِهِ[١]، والدَّليل عليه أنَّه قالَ ـ يعني هذا ـ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، فأَخبرَ أنَّه ذكرَ بعدَ نسيانِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾: البِضْعُ: قطعةٌ مِن العَقْدِ، مِن البَضْعِ؛ وهو القَطْعُ.

قال أبو عبيدة: هو ما بينَ الواحدِ إلى أربعةٍ[٢].

وقال قطرب: ما بينَ الثَّلاث إلى السَّبع[٣].

وقال الزَّجَّاج والقتبيُّ: مِن الثَّلاث إلى التِّسع[٤]. وهو قول قتادة ومجاهد[٥].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: من الثَّلاث إلى العشرة[٦].

قال وهب: لبثَ في السِّجن بعد ذلك ثلاثَ سنين، وكان لبثَ قبلَ ذلك سبعَ سنين[٧].

وقال قتادة: لبثَ بعد ذلك سبعَ سنين[٨].

---

(١) في (ف): «للملك».

(٢) كذا في «أدب الكاتب» لابن قتيبة (ص: ٤٩)، و«معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٣٠)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ١٩٤).
لكن في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١١٩): العقد: ما بين ثلاث إلى خمس.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٣٠)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ١٩٤).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٢)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢١٧).

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٦).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٦).

(٧) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٢٥).

(٨) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣١١)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٥).

وروي أنَّ جبريلَ أتاه في السِّجنِ فلمَّا رآه يوسفُ عرفَه[1] فقالَ: يا أخا المنذرِيْن؛ ما لي أراكَ في منزلِ الخطَّائِيْنَ؟ فقالَ له جبريلُ: يا طاهرُ يا بنَ الطَّاهرين، يقرأ السَّلامَ عليك ربُّ العالمين، ويقول لك[2]: أما استحيَيْتَ منِّي أنِ استشفعْتَ بالآدميِّيْنَ، فوعزَّتي لأُلْبثنَّكَ في السِّجنِ بضعَ سِنينَ، قال يوسفُ: وهو بعد ذلك راضٍ عنِّي؟ قال: نعم، قال: إذًا لا أبالي[3].

قال كعبُ الأحبار: قال جبريلُ ليوسفَ: إنَّ الله تعالى يقول لك[4]: مَنْ خلقَكَ؟ قال: الله، قال: فمَن حبَّبك إلى أبيك؟ قال: الله، قال: فمَن ألبسَكَ في البئر؟ قال: الله، قال: فمَن نجَّاك من كَرْبِ البئر؟ قال: الله، قال: فمَن علَّمكَ تأويلَ الرُّؤيا؟ قال: الله، قال: كيفَ استشفعْتَ بآدميٍّ مثلِك[5]؟

وقال الشَّيخ أبو الحسين محمَّد بن يحيى البشاغري في «كتاب عصمة الأنبياء»: قال بعض النَّاس: إنَّه استعانَ بغيرِ اللهِ فعُوْقِبَ بمقامَهِ في الحبْسِ. وهذا وحشٌ من الكلامِ.

وقال الشَّيخ الإمام أبو منصور رحمه الله: إنَّه ـ صلوات الله عليه ـ لم يستعِنْ بغيرِ اللهِ، وإنَّما استعملَ الأسبابَ، كاستعمالِ العبدِ في معاشِه الأسبابَ الَّتي هو بها متعبَّدٌ؛ مِن نحو المكاسب، وأخذِ الأسلحةِ، وسائر ما يَعْتَدُّ المرءُ بإمساكِ تلكَ

---

(١) «عرفه» ليست في (ر).

(٢) «لك» من (ف).

(٣) رواه الكلاباذي في «بحر الفوائد» (ص: ١١٨) عن زهير بن عباد وعبد العزيز بن عمير. وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٩٤)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٢٦).

(٤) «لك» من (ف).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٢٦).

الأسبابِ، فهو وإنْ أمرَه بالذِّكْرِ عندَ ربِّهِ ـ يعني: سيِّدَه ـ وإنَّما رآه سببًا لخروجِه مِنَ السِّجنِ، فهو معتقدٌ بأنَّ اللهَ هو المخرِجُ، لكن ربَّما يجري على يدي مَلِكِهِ، فلذلك قال له: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، ولا بأس(١) بهذا.

[وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يحتمل وجهَيْن:

أحدُهما]: ربَّما وقع عند يوسف أنَّ سَجنَه مِن غير علمِ الملكِ، فإذا أُخبِر بحالِه أخرجَهُ، وليس هذا منه استعانةً بغير الله تعالى، ولكنَّه اجتهادٌ لمصالحِ النَّاس(٢) كسائرِ المكاسبِ(٣).

والثَّاني: أنَّه كانَ أظهَرَ رسالتَهُ في السِّجنِ، فأحبَّ رفعَ أمرِه إلى سيِّده؛ ليتدبَّر أنَّه حابسٌ نبيًّا رسولًا، فيخرجَه حتَّى يبلِّغَ رسالَته إليه رجاءَ إجابةٍ منه، حتَّى إذا أجابَ هو أجابَ أتباعُه، ولا تكون رسالتُه مقصورةً على أصحاب السِّجن، بل تكون نافذةً في القوم كلِّهم(٤).

وقال البشاغريُّ: ويحتمل قولُه: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: اذكرْ علْمِي الَّذي علَّمَنِيه اللهُ مِن تأويلِ الأحاديثِ وحُكْم الرِّسالة(٥)؛ لعلَّه يرغبُ فيخرجَه من السِّجن حتَّى يتخلَّص وينجو لشفقةٍ منه عليه؛ إذ هو كانَ عالمًا بالفراعنةِ المتقدِّمين

---

(١) في (أ): «وما بأسٌ»، وفي (ف): «وما كان بأس».

(٢) في (أ): «لصلح العيش».

(٣) من قوله: «ربَّما وقع عند...» إلى هنا جاء متأخرًا في النسخ الخطية بعد قوله: «بل تكون نافذةً في القوم كلِّهم»، فقدمناه، وزدنا ما بين معكوفتين ليكون أقرب لكلام الماتريدي، وهو الأنسب بالسياق.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤)، والكلام فيه بنحوه.

(٥) في (ر): «الرؤيا».

كيف هلكوا بصنيعِهم[١] على الأنبياءِ عليهم السلام، فأحبَّ أن يقفَ على حالِه فيخرجَه، فتزولَ محنتُه قبلَ أنْ[٢] يهلكَ كما هلكَ مَنْ تقدَّمه مِن معذِّبي[٣] الأنبياء.

ودليلُ أنَّه لا يجوز صرف الآية إلى استعانةِ يوسفَ بغير اللهِ: أنَّه لو كان هكذا لم يتكلَّف الشَّيطانُ إنساءَه؛ إذِ الاستعانةُ بغير الله مِن غير رؤيةِ سببِ اللهِ شركٌ، والشَّيطانُ يعينُ على إقامة الشِّرك، فلمَّا أنساه عُلمَ أنَّه يذكِّرُه التَّوحيد، ويجعله رسولًا إلى الملِك بإخباره عن دينِه الخالص لله، فأحبَّ الشَّيطان ألَّا يَعلَمَ الملكُ مِن حالِه ودينِه، فيجيبَه، فأنساه.

وحقيقةُ الإنساء مِن الله تعالى؛ إذ هو المقدِّر، لكنَّه أُضِيْفَ إلى الشَّيطان على ما قلْنَا مِن إضافة القبائحِ إلى الشَّيطان؛ لتكلُّفه[٤] في تحصيلِها، وقد يُضافُ إلى المتكلِّف للشَّيء ذلك الشَّيءُ، وإنْ لم يكن هو المحصِّلَ في الحقيقة.

وما رُوِيَ في الخبر: أنَّ جبريلَ عليه السلام قال له في السِّجن: يقولُ الله تعالى: أَمَا استحيَيْتَ حينَ استعَنْتَ بغيري، فقد حكمْتُ عليك بالسِّجن بضعَ سنيْنَ؟ قال يوسفُ: يا جبريلُ، أهو عنِّي راضٍ؟ فقال: نعم، قال: ما أبالي بالسِّجن بعدَ أن يكونَ اللهُ عنِّي راضيًا.

وما رُوِي عن النَّبيِّ عليه السلام: «رَحِمَ اللهُ أخي يوسفَ، لو لم يستعِنْ بصاحِبِ السِّجنِ ما أُغْلِقَ عليه بابُ السِّجنِ ساعةً»[٥] = إنْ صحَّتْ هذه الأخبار ـ فإنَّا لا نشهدُ

(١) في (ر): «بإبائهم».

(٢) في (أ): «فلا» بدل من «قبل أن».

(٣) في (ر): «مكذبي».

(٤) في (أ): «لتمكنه» وفي (ف): «لتكليفه».

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٣)، عن قتادة قال: بلغني =

على صحَّتها؛ إذ ليس في القرآنِ شاهدٌ لهذه الأخبار، فإنْ صحَّتْ ـ فمعناها أنَّه عُوتِبَ بالتَّقصير في الدَّعوة، كان الكلام في دعوته قصيرًا لم يقفْ عليه الَّذي نجا من السِّجن وتوهَّم أنَّه يستعين بسيِّده، وإنْ كانَ هو محمِّلًا إيَّاه رسالتَه إليه في التَّوحيد، فعوتِبَ: إنَّك لم تشرحْ عليه الكلام، فقصَّرتَ الدَّعوةَ؛ لا أنَّها أخطأَتْ موقعَها، دليلُه قولُ جبريل عليه السلام بأنَّ الله عنكَ راضٍ؛ لو كان في باطنِه وظاهرِه مستعينًا بغير اللهِ لم يكنِ اللهُ عنه راضيًا.

وأخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ يوسفَ حمَّلَ النَّاجي من السِّجن دعوتَه، حملَها غيرَ مكشوفةٍ، حتَّى فهم النَّاجي الاستعانةَ بسيِّدِه لتخليصِه وإخراجِه، فعُوْتِبَ لقصور الدَّعوةِ، لا للخطأ مِن جهةِ الاستعانة.

ومعنى قوله عليه السَّلام: «لو لم يستعِنْ»؛ يعني: لو لم يكلِّمه بكلمةِ الاستعانةِ،

= أن النبي ﷺ قال: «لو لم يستعن يوسف على ربّه، ما لبث في السجن طول ما لبث».

وروى نحوه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٦) من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ يوسفَ لولا الكلمةُ التي قالها: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لَبِثَ في السجنِ ما لَبِثَ...» الحديث، وتعقبه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٤٧٨) بسبب إدراج هذا الحديث في صحيحه، وقال: إنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها.

وبنحو لفظ ابن حبان رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٦٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف جدًّا كما قال ابن كثير في «تفسيره» عند تفسير هذه الآية؛ قال: لأنَ سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد ـ هو الخوزي ـ أضعف منه أيضًا. وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلًا عن كلٍّ منهما، وهذه المرسلات هاهنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وإنْ لم يكنْ مستعيناً في الحقيقة؛ إذ الأنبياءُ كانوا مطالَبين بأفضلِ الأعمالِ وأشرفِها، وأطيبِ الكلمات وأحلاها. والله الموفِّق.

***

(٤٣) ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾: أي: قال ملكُ مصرَ وهو الريَّان: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ السِّمَنُ: زيادةُ البدنِ من الشَّحم واللَّحم.

﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾؛ أي: سبعُ بقراتٍ مهازيلُ، جمع أعجفَ وعجفاءَ على غير قياسٍ، والعجَف: تبيُّن الهزال، وصرفُه من حدِّ: علم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾؛ أي: وأرى سبع سنبلاتٍ ﴿خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾؛ أي: سبع سُنبلات أُخَر يابسات.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾: أي: الأشراف الَّذين يُرْجَع إليهم في الأمور ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾: أخبروني بحكمِ رُؤيايَ هذِه ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾؛ أي: إنْ كنْتُم أو كان فيكم مَن يحسِنُ تعبيرَ الرُّؤيا.

وإدخالُ اللَّام في الرُّؤيا مع أنَّ فعلَ العبارة متعدٍّ؛ لِمَا أنَّ الفعلَ إذا تقدَّم عليه المفعول ضعفَ عملُه، فجازَ إدخالُ حرف الإضافة لذلك، فلا يجوزُ: (تعبرون للرُّؤيا)؛ لأنَّه في قوَّة عملِه.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: كانَ ابتداءُ بلاءِ يوسفَ في رؤيا[1] رآها

---

(١) في (ف): «في الرؤيا التي».

وأظهرَها، فجعلَ اللهُ سببَ نجاتِه أيضًا مِن رؤيا رآها الملكُ فأظهرَها؛ ليعلمَ الجميعُ أنَّ اللهَ تعالى يفعلُ ما يريدُ[١].

رُوِي أنَّه لمَّا انتهَتْ مدَّة اللَّبْثِ في السِّجن ضاقَ عليه وقتُه ليلةً فبكى، ورفعَ رأسَه إلى السَّماء وقال: إلهي، أنتَ الرَّبُّ وأنا العبد، وأنتَ الخالقُ وأنا المخلوق، وأنتَ العزيزُ وأنا الذَّليل، أسألُكَ بحقِّ إبراهيمَ خليلِك، وبحقِّ إسحاقَ ذبيحِك، وبحقِّ يعقوب إسرائيلِك، أنْ تغيثَني وترحمَني يا أرحمَ الرَّاحمين. فإذا هو بشابٍّ جميلٍ نقيِّ الثِّياب بينَ يديه يقول له: السَّلام عليك يا يوسفُ، فقال: ومَن أنت؟ ومَن أدخلَك السِّجن؟! فوالله إنَّ جدارَه لحصين، وإنَّ بابَه لوثِيْق[٢]، وليس ينبغي لمثلِكَ أنْ يُحبَسَ.

قال: أنا الرُّوح الأمين، ورسولُ ربِّ العالمين.

قال: يا أطيبَ الطَّيبينَ، ورأسَ المقرَّبين، ورسولَ ربِّ العالمين، ما أدخلَكَ مدخَلَ المذنبين، ومنزلَ الخاطئين؟

قال: كيف يكونُ منزلَ الخاطئين، وأنت فيه يا أطهر الطَّاهرين، وقرَّة عينِ الصِّديقين؟

قال يوسف: كيف تشبِّهني بالصَّالحين، وتَعُدُّني مِن الصِّديقين، وقد أُدْخلْتُ مُدْخلَ المذنبين، وشبِّهت بالظَّالمين، وحُبِسْتُ في سجن المجرمين؟

قال جبريل: بحبِّكَ ربَّ العالمين، وصبرِكَ على كيد المفترين[٣]، سمَّاك اللهُ من الصِّدِّيقين، وألحقَكَ بآبائِكَ الصَّالحين، وأوجبَ لك ثوابَ الصَّابرين.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨٧).

(٢) في (ر): «لموثق».

(٣) في (أ): «المضرين».

قال: تعرفُ حالَ أبي وإخوتي؟

قال: أمَّا أبوكَ فباكٍ محزون، وأمَّا إخوتُك فخجلون نادمون.

قال: وما بلغَ مِن حزن أبي؟

قال: حزن مئة ثَكْلى، وبلغَ مِن صبره على ذلك ما استحقَّ به أجرَ مئة شهيدٍ، وهذا وقتُ فكِّ عنقك، وزوالِ رقِّكَ، ونشرِ حكمتك(١)، وتصديقِ رؤياك، ويهبُ اللهُ لكَ مصرَ وعزَّها، ويلقي اللهُ تعالى لك المودَّة في قلوبِهم، ويزكِّيْكَ ربُّك حتَّى يبلِّغَكَ برحمتِه ما بلغَ آباؤك الصَّالحون، ويرى الملكُ رؤيا يَفزعُ منها، ويعبُرُ رؤياه عليه أنت، وأبشِّرك(٢) أيُّها الصِّدِّيق بأنَّك صفيُّ الله، وابنُ صفيِّه، وابن ذبيحِه، وابن خليلِه(٣).

وبيَّن له تمامَ الرُّؤيا وتأويلَها، وانصرفَ عنه، فلم يلبَثْ يوسفُ عليه السلام في السِّجن إلَّا ذلك اليوم، فلمَّا جنَّ اللَّيل نامَ الملكُ، فرأى في تلك اللَّيلةِ الرُّؤيا، فلمَّا أصبح جمعَ ملأً عظيمًا من قومِه فقصَّها عليهم.

فقال: إنِّي أرى سبعَ بَقراتٍ سِمانٍ وسبعَ بقراتٍ عِجافٍ، فابتلعَتِ العِجافُ السِّمانَ وأكلَتْها، فلم يسمن(٤) في بطونها شيءٌ، ورأيْتُ سبعَ سُنبلاتٍ خضرٍ وسبعَ سُنبلاتٍ يابسات، على ما نبيِّنُ كيفيَّة حالِهما في بيان تفسيرِ هذه الرُّؤيا إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (ر) و(ف): «حكمك».

(٢) في (ف): «وأبشر».

(٣) روى نحوه الدارقطني في «غرائب مالك» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣/ ١٧٩)، وقال الدارقطني: هذا حديث موضوع باطل، وإسحاق بن وهب الطهرمسي يضع الحديث على ابن وهب وغيره، حدث عنه بهذا الإسناد أحاديث لا أصل لها.

(٤) في (ر) و(ف): «يستمر».

(٤٤) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾: الضِّغْثُ: الحزمةُ مِن الحشيش المختلِف، وجمعُه: الأضغاث، أرادَ بها: أخلاطَ رُؤيا كاذبة لا حقيقةَ لها.

قال قتادة: أخلاط أحلام[١].

وقال مجاهد: هذا أهاويلُ أحلام[٢].

وقال أبو العالية: أحلامٌ ملتبسة[٣].

﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾: لأنَّ الحُلُم[٤] ما خرجَ عن الرؤيا، وهو ما لا يصدق ممَّا يرى[٥] في الخبر[٦]، وفي الخبر: «الرُّؤيا من اللهِ تعالى والحلمُ مِنَ الشَّيطانِ»[٧].

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾: أي: السَّاقي الَّذي كان في السِّجن ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: مدَّةٍ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣١٤)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٨٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٢٦).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (أ): «الحكم».

(٥) في (ف): «لا يرى».

(٦) في (أ): «الخير»، والعبارة قلقة غير واضحة، ولعله أراد ما ذكره ابن عطية في «تفسيره» (٣/ ٢٤٨): (والمعنى: أن هذا الذي رأيتَ أيها الملك اختلاط من الأحلام بسبب النوم، ولسنا من أهل العلم بذلك؛ أي: بما هو مختلط ورديء، فإنما نفوا عن أنفسهم عبر الأحلام لا عبر الرؤيا على الإطلاق).

(٧) رواه البخاري (٥٧٤٧)، ومسلم (٢٢٦١)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

وقال ابن عبَّاسٍ والحسن ومجاهد وقتادة: أي: بعد حين[1]؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨].

وقال الحسن: أي: بعد انقراض أمَّةٍ من النَّاس[2]؛ أي: قرن.

وروى نوفل بن أبي عقرب عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قرأ: (بعد أَمْهٍ) بفتح الألف وتسكين الميم وخلوصِ الهاء؛ أي: بعد نسيان[3]، والفعل من حدِّ علم.

وقال أبو الهيثم: فتح الميم خطأٌ، ذكره في شرح «الغريبين»[4].

وقوله تعالى: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾؛ أي: أخبركم بتعبيره بأخذي إيَّاه مِن عندِ مَنْ يعلمُه.

﴿فَأَرْسِلُونِ﴾؛ أي: فأْذَنوا لي بالخروج وخلُّوني لآتيَ مَن يعلمُ تأويلَه، وأضمر هاهنا: فأرسلوه، فجاءَ إلى يوسفَ وهو في السِّجن فسأله معظِّمًا، وذلك قوله تعالى:

* * *

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٣١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، و(١٣١٦) عن الحسن وقتادة. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٨١ ـ ١٨٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن وقتادة ومجاهد.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٥٢) من طريق عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه أيضا عن عكرمة والضحاك ومجاهد، وفي جميعها: (أَمَه) بفتح الميم. وبسكون الميم رواها الطبري (١٣/ ١٨٦) عن مجاهد، وعزاها في «البحر» (١٢/ ٤٩٠) لمجاهد وعكرمة وشبيل بن عزرة.

(٤) انظر: «الغريبين» لأبي عبيد الهروي (١/ ١١١).

(٤٦) - ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يُوسُفُ﴾: أي: يا يوسف ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ وهو الكثير الصِّدق والدَّائم عليه، سمَّاه به لأنَّه لم يجرِّب عليه كذبًا.

وقوله تعالى: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾: أي: أجبْنا فأخبرْنا بحكم رُؤيا رآها الملكُ؛ وهي أنَّه رأى سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عجافٌ، ورأى سبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وسبعَ سنبلاتٍ أُخر يابسات.

وقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: يعني: أفتنا فيهنَّ لأرجع إلى النَّاس بفتواك فيهنَّ، فيعلموا تأويل رؤيا الملِك، فإنَّهم غير عالمين به.

وقال وهبٌ: فلمَّا لم يدرِ الملأُ تأويلَها وعجزوا عنها وأعيَتْهم؛ قالوا: يا أيُّها الملك، إنَّ الأحلامَ ليست تصدُق كلُّها، وكذبُها أكثرُ مِن صدقِها، ونحن نرجو أن يكون حلمُكَ هذا أضغاثًا، ومَن ذا الَّذي تخافُ أن يدخلَ عليك في ملكِكَ، وسلطانُكَ أعزُّ من ذلك، وحولُك أكثرُ، ورجالُك أقوى وأحفظُ[1] له عليك.

وذكرَ غلامُ الملكِ الَّذي كان مسجونًا مع يوسف عليه السلام عندما كان من قولهم بذلك في أمرِ يوسف، فقال له: ائذنْ لي أيُّها الملك أدخلْ سجنَك وآتِكَ منه بتأويل رؤياكَ؛ فإنَّ فيه رجلًا[2] حكيمًا من آل يعقوب، فإنْ يكُ عند أحدٍ من أهل الأرض علمُ رؤياك فهو عندَه، فإنَّ النَّاس اليوم[3] يقولون: إنَّهم لم يرَوا مثلَه علمًا

(١) في (ر) و(ف): «أحوط».

(٢) في (ف): «عليمًا».

(٣) «اليوم» من (أ).

وحلمًا وحكمًا، وقد كنْتُ أنا وصاحبي الَّذي قتلتَه يومَ غضبْتَ علينا وسجنْتَنا حَلمْنا في السِّجنِ حُلْمًا، فعبَّره لنا، فكانَ كما قالَ، أمَّا أنا فنجوْتُ، وأمَّا صاحبي فقُتِلَ، وكذلك أخبرَنا، فأرسلْني إليه آتِكَ بتأويل رؤياكَ، فأفرِّجَ عنك هذا الغَمَّ.

فقال الملك: لئِنْ فعلْتَ ما تقول لأكرمنَّكَ ولأعظمَنَّ حالَك وشرفَك[١]، فانطلِقْ فقدْ أذنْتُ لك.

فانطلقَ العبدُ حتَّى دخلَ على يوسفَ في السِّجن، فأخبرَهُ خبرَ الملك، وقصَّ عليه رؤياه، فَعَبَرَها له يوسفُ عليه السلام.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: إنَّ الله تعالى أفردَ يوسفَ عليه السلام مِن بينِ أشكالِه بشيئَيْنِ: بحُسْنِ الخَلْقِ وبزيادةِ العلْمِ، فصارَ جمالُه سببَ بلائِهِ، وصارَ علمُه سببَ نجاتِه؛ لتُعلَمَ مزيَّةُ العلمِ على غيرِه، ولهذا قيل: العلمُ يُعطي وإن كان يُبطي[٢].

وقال الإمامُ أبو منصورٍ رحمه الله في قوله: ﴿أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: يحتمل وجوهًا:

ـ يعلمونَ أنَّ هذه الرُّؤيا حقٌّ، وأنَّ لها حقيقةً، وليسَتْ كما قالوا: إنَّها أضغاث أحلام.

ـ ويحتمل: يعلمون فضلَكَ على غيرِك مِن النَّاس.

ـ ويحتمل: يعلمون أنَّك تصلُحُ لحاجاتهم فيرفعونها إليك، كما صلحْتَ لتعبير رؤياهم[٣].

---

(١) في (ف): «وأشرفك».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨٧).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٤٩).

(٤٧) ـ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾: عَبرَ الرُّؤيا للسَّاقي، فقال: تحرثون سبعَ سنينَ زراعةً متواليةً في هذه السِّنين بجدٍّ واجتهادٍ على عادتِكم في الزَّراعة.

والدَّأْبُ: العادةُ، والدَّأَبُ: الجِدُّ والتَّعبُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾: أي: قطعْتُم مِنَ الزَّرع ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِۦٓ﴾؛ أي: فاتركوه كذلك، ولا تَدْرُسوه ولا تُذَرُّوه لأنَّه أبقى له وأبعد من فساده.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾: في العام، فلا بدَّ من دياسَتِهِ وتذريَتِهِ وتنقيَتِهِ.

* * *

(٤٨) ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: أي: بعد مضيِّ سبع سنين في الخصْبِ، وهو قوله تعالى: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾: أي: سبعُ سنين مجدبةٌ، فيها الضِّيق والشِّدَّة.

﴿شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أي: يأكلْنَ هذه السِّنون السَّبعُ المجدِبَةُ ما كان حصل في أيديْكُم مِن فضلِ ما زرعْتُموه في السَّبع المواضي.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾: أي: تحرزونَ في الحصنِ؛ أي: الحرز.

وأضافَ الأكل إلى السِّنين؛ لأنَّ أكلَ النَّاس يكون فيها؛ وهو كما قال الشَّاعرُ:

نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغَفلةٌ ... وليلُكَ نومٌ والرَّدَى لَكَ لَازِمُ(١)

---

(١) ينسب لعبد الأعلى القرشي. كما في «الحماسة البصرية» (٢/ ٤٢٧)، ولأبي إسحاق الكادوشي، كما في «الدر الفريد» للمستعصمي (٩/ ٤٨٤)، ولمسعر بن كدام كما في «أمالي ابن سمعون» (١/ ١٥٤)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٢٢٠)، و«حياة الحيوان الكبرى» للدميري (١/ ٢٣١). =

لأنَّ النَّوم يكون فيه.

ووجهٌ آخر: أنَّ معناه: يُفْنِينَ؛ كقولك: أكلَهم الدَّهرُ؛ أي: أفناهم.

ووجهٌ آخر: أنَّه لمَّا كان في الرُّؤيا سبع بقراتٍ عجافٍ أكلْنَ سبعَ بقراتٍ سمانٍ، وكانت البقرات مَثلًا للسِّنين؛ أخرج الجواب في العبارة مطابقًا للَفظِ السُّؤال مراعاةً للبلاغة.

* * *

(٤٩) - ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾: أي: يُعطَوْنَ الغيثَ، وقيل: يُعطَوْنَ الغوْثَ، وقد غِيْثَ النَّاسُ وغاثَهم اللهُ عزَّ وجلَّ؛ أي: أعطاهم الغيثَ، وهو المطر، وأُغِيْثَ النَّاسُ وأغاثَهم اللهُ؛ أي: نجَّاهُم وخلَّصهم.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: قيل[1]: أي: يَعْصِرون الأعنابَ والثِّمارَ والسِّمْسِمَ والزَّيتون، وهو بيانُ كثرةِ النِّعم، وانتفاع النَّاس بها، ومنه: العصير والعُصارة والمُعْصِر.

وقيل: أي: يَنْجُونَ، والعُصْرةُ: الملجأ، والاعتصار: الالتجاء[2]، وقال الشَّاعرُ:

صاديًا يستغِيْثُ غيرَ مُغاثٍ ... ولقدْ كانَ عُصْرَةَ المَنْجُوْدِ[3]

= وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل به كما روى ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٥٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣١٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٤٠٩).

وانظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/ ١١٢)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢/ ٣٣٣).

(١) «قيل» من (ف).

(٢) في (ف): «المنجا أيضًا».

(٣) لأبي زبيد الطائي. انظر: «ديوانه» (ص: ٤٤)، و«جمهرة أشعار العرب» للقرشي (ص: ٥٨٣)، و«تفسير الطبري» (١٣/ ١٩٧)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٢٨)،

وقال أبو زبيد الطَّائي:

لـو بِغَيْـرِ الـمـاءِ حَـلْـقِـي شَـرِقٌ   كُنْتُ كالغَصَّـانِ بالمـاءِ اعْتِصَـارِي[1]

هذا عن أبي عبيدةَ والزَّجَّاج[2]، والأوَّل عن ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة[3].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿تَعْصِرُونَ﴾ بالتَّاء على الخطاب[4]، ردًّا إلى قوله تعالى: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾، وقرأ الباقون بياء المغايبة، ردًّا على قوله تعالى: ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، وهم أهل مصر.

قالوا: إنَّ اللهَ تعالى ذكرَ مِن هذا السَّاقي أدبًا، ومِن يوسفَ عليه السلام كرمًا؛ أمَّا أدبُ السَّاقي فإنَّه لم يذهب إلى السِّجن للسُّؤال إلَّا بإذن، وأمَّا كرم يوسف صلوات الله عليه فإنَّه عجَّل جوَاب سؤالِه ولم يعاتِبْه على ما كان منه من نسيانه، لم يقلْ له: لم تذكرْني بعدما قلْتُ لك: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، حتَّى وقعَتْ لكم هذه المهمَّة.

ولمَّا سمع السَّاقي منه تعبيرَه للرُّؤيا[5]، ورجعَ إلى الملكِ وأخبرَه به، أعجبَه وانكشفَ عنه كربُهُ وحزنُهُ[6]، وقال: ائتوني بهذا الرَّجل الحكيم العليم أُكرمْه وأشرِّفه وأرفع منزلَتَه وأقرِّبه منِّي، فإنَّه ليس مثلُه يُضيَّعُ ولا يُهان ولا يُعذَّب[7].

---

(١) البيت لعدي بن زيد التميمي، كما في «ديوانه» (ص: ٩٣)، و«البيان والتبيين» للجاحظ (٢/ ٢٤٢)، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١/ ٢٢٩)، و«جمهرة اللغة» لابن دريد (٢/ ٧٣١).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣١٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٤).

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٩).

(٥) في (ف) و(أ): «هذه الرؤيا».

(٦) في (ف): «وحزنه قوله تعالى وقال الملك ائتوني به».

(٧) في (ف): «يعذب فلما جاءه الرسول أي».

فعادَ السَّاقي إلى يوسفَ وأخبرَه بذلك، وأدَّى رسالةَ الملكِ، قال: كيف أرجو كرامَتَه، ولقد لبثْتُ في سجنِه عشرَ سنين، وهو يعرفُ عذري وبراءَتي، ولم يرحمْنِي ولم ينصرْنِي ولم ينصفْنِي ممَّنْ ظلمَني؟ لا آتيه أبدًا حتَّى يجمعَ النِّسوةَ اللَّاتي كذبْنَني وافترينَ عليَّ وظلمْنَني، فيوبِّخَهُنَّ لكيدهِنَّ ومكرهِنَّ، ويُقْرِرْنَ له بذلك على أنفسهنَّ، ويُبْرِئْنَنِي لبراءَتي وعذري.

قال وهبٌ: قال النَّبيُّ ﷺ: «رحمَ الله أخي يوسفَ؛ إذ دُعِيَ إلى الخروج مِن السِّجنِ فلم يفعل، إن كان لحليمًا ذا أناةٍ، ولو كنْتُ أنا المحبوسَ لبادرْتُ البابَ»(١).

***

(٥٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

يعني قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾: أي: أحضِروه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾: أي: السَّاقي ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: عُدْ إلى ملكك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فكذَّبْنَني.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾: أي: خالقي، وقيل: أراد به: سيِّدي، وهو العزيز؛ أي: هو طاهرٌ عند العزيز، فأحبَّ وضوحَ عذرِه عند الملكِ الأعظم أيضًا.

وكيدهنَّ: مراودتُهُنَّ إيَّاه عن نفسِه.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٠): رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك. وهذا معنى حديث رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي».

(٥١) ـ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فجمعَهُنَّ الملكُ، وقال لهنَّ ما ذكرَ الله تعالى، وهو قوله تعالى: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

الخَطْبُ: الأمرُ العظيم؛ أي: ما شأنكُنَّ إذ راودْتُنَّ يوسفَ عن نفسِه؟

قال وهبٌ: قال لهنَّ: ما حملَكُنَّ على ما فعلْتُنَّ بيوسفَ إذ مَالأْتُنَّ عليه سيِّدَتَهُ، وأَمَرْتُنَّها أن تسجنَهُ وتُهينَهُ وتعذِّبَهُ، ودعوتُنَّهُ إلى أنفسِكُنَّ، فلمَّا أبى واستعصم قلْتُنَّ فيه الكذبَ والزُّور؟

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾: معاذَ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ولقد قلْنَا فيه الكذب والزُّور، وإنَّه لهو البريءُ التَّقيُّ[1] النَّقيُّ المكذوبُ عليه المظلومُ.

و﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ظهرَ الحقُّ وخلصَ، وأزيلَتِ الشُّكوكُ عنه وانقطعَتْ، مِن قولِكَ: حَصَّ شعرَه؛ أي: قصَّه وقطعَه واستأصلَه، ومنه: الحِصَّة؛ وهي القطعةُ مِن الشَّيء.

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦].

وقال القشيريُّ رحمه الله: إنَّ زليخا لم تكن متناهيةً في محبَّةِ يوسفَ في الابتداء، فجعلَتْ ذنبَها عليه فقالَتْ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ ...﴾، فلمَّا تناهَتْ في محبَّته أقرَّتْ بالذَّنبِ على نفسِها، فقالَتْ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، والمتناهي في الحبِّ لا يبالي بانهتاك السِّتر وظهورِ السِّرِّ[2].

---

(١) «التقي» من (أ).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٨٩).

(٥٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: قيل: هو متَّصلٌ بقول يوسفَ عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾؛ أي: ليعلمَ العزيزُ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بغيبتِه، فإذا ظهرَتْ براءتي عندَ العزيزِ ظهرَتْ عندَ غيرِه وعندَ الملكِ.

وقيل: أي: ليعلمَ الملكُ أنِّي لم أخنِ الملكَ؛ لأنَّ خيانتي لخازِنِه وخادِمِه خيانةٌ له.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾: أي: لا يُفضي بكيدِهم إلى هدًى وإصابةٍ، مثلَما لم يهدِ كيدَ امرأةِ العزيز والنِّسوة.

وقال الحسينُ بنُ الفضلِ البَجَليُّ رحمه الله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ من قول زليخا، وهو متَّصلٌ بكلامها؛ أي: ليعلمَ يوسفُ[1] أنِّي لم أخنْهُ بالغيب، لم أكذبْ عليه بغيبَتِهِ، ولم أنسبْهُ إلى ما لا يحلُّ، بل أقررْتُ بالذَّنب على نفسي.

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾: أي: لا أزكِّي نفسي مع براءتي مِن هذه الجنايةِ[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾: هي للجنس؛ أي: النُّفوسَ البشريَّةَ ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾؛ أي: كثيرةُ الدَّعوةِ إلى المعاصي بشهوتها ونهمَتِها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾: لكنْ

---

(١) «يوسف» ليس في (ف).

(٢) في (أ): «الخيانة».

مَن رحمَ ربي يَسلمُ عن طاعتِها ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾: ستَّارٌ للعيوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بمواصلة البراهين والبيِّنات.

أو يكون لحقيقة الاستثناء[1]؛ أي: إلَّا مَن رحمَ ربِّي، فرحمَه وعصمَه مِن أنْ تأمرَه نفسُه بسوء، أو تكون أَمَرَتْه به في بعض الأحوال، لا أمَّارةً إذا راضَها الإنسان رياضةً بليغةً، فتبقى الخَطْرةُ دون العَزْمة.

وفي بعض الرِّوايات: أنَّه لمَّا قال: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال له جبريل: ولا حين همَمْتَ؟ قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾[2].

وفي «كتاب عصمة الأنبياء» في قولِه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أنَّ يوسفَ عليه السلام أظهرَ السَّكينةَ والوَقار في الخروج من السِّجن، لا كالضَّجِر القَلِق إذا وجدَ الخلاصَ بادرَ إلى الخروجِ:

ليتميَّزَ الرَّاضي بالقضاء، والمسلِّمُ للحكم، والمفوِّض للقدر، مِن السَّاخط بالمقسوم في المكاره.

والثَّاني: جريٌ على انتظار الوحي؛ لئلَّا يكون مستبدًّا برأيه.

والثَّالث: أنَّه علم استخلاصَ الملكِ إيَّاه، فأحبَّ ألَّا يبقى أثر تهمةٍ من تلك الحادثة الَّتي كانَتْ جرَتْ، حتَّى يَنظُرَ إليه بعين الأمانة، ويَعدَّهُ مِن أهل الصِّيانة، فيصفو له استخلاصه.

---

(١) أي: استثناء متصلاً، والوجه الأول على اعتبار كونه منفصلاً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١٤) عن ابن عباس وسعيد بن جبير. ولم يرتضه الزمخشري فقال: ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة، فزعموا أن يوسف حين قال: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال له جبريل: ولا حين هممت...وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله. انظر: «الكشاف» (٢/ ٤٨١).

وقول النَّبيِّ ﷺ: «رحمَ اللهُ أخي يوسف، لو كنْتُ أنا مكانَه لبادرْتُ البابَ»[١]؛ أي: ما كنْتُ منتظرًا للعُذْرِ، بل كنْتُ أرى الإدخال والإخراج مِن اللهِ جلَّ جلالُه، فتكلَّم عن مقامِه مِن الفراغِ عن الأفكار[٢] في المخلوقين مدحًا منهم وذمًّا، وإنْ كان ليوسف بهذا المقام، لكنَّ مقامَ رسول الله ﷺ كان أعلى وأكمل، فليس هذا منه عيبًا على يوسف، وإنَّما هو إبانةٌ لمقدار وسعِه[٣] عليه السلام في التَّسليم للحكم.

والثَّاني: أنَّ يوسف صلوات الله عليه أحبَّ ظهورَ براءتِه ونظافتِه؛ ليكونَ زوجُ المرأة ملاحظًا له بعين الإجلال، لا بعين الاستقلال، كالمسجون من جهة إنسانٍ يخرجُه السُّلطان لحاجته إليه وخصمُه كارهٌ لخروجه، فالخارج من السِّجن يكون قلبُه منقسمًا وخاطره متوزِّعًا ممَّا يتفكَّرُ مِن استثقال خصمِه وكراهته لخروجِه، واحتيالِه ثانيًا لإعادته إلى السِّجن إذ أُخْرِجَ بغير رضاه، فأرادَ أن يكون خاطرُه لإقامة ما يُفوَّض إليه من الأمانة مِن غير تشويشٍ يقعُ في فكرتِه.

ولأنَّه كان كريمًا ابنَ الكرام فكان لا ينكِرُ[٤] صنائعَ زوجِ المرأة، فأحبَّ أنْ يصفوَ قلبُه إذا خامرَهُ شيءٌ من مقالات امرأتِه بظهور صفوتِه مشاهدةً، وهذا في المروءة والأمانة[٥] مندوبٌ إليه.

وما قالَهُ الرَّسول عليه السلام فهو مِن أعلى درجات العبوديَّة، وأشرفِ مقامات الاكتفاء بالله تعالى بإرضاء عباده عنه من غير تكلُّفٍ، وكلٌّ جرى على ما كُشِفَ له.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) في (ف) و(ر): «من فراغ الأفكار».

(٣) في (ف): «وسع يوسف».

(٤) في (ر) و(ف): «لا يكفر»، والمثبت من (أ)، والمعنى متقارب، فمعنى «لا يكفر»؛ أي: لا يجحد ولا يستر.

(٥) في (ف) و(أ): «والإنسانية».

(٥٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾: وفيه دليلٌ على أنَّ الخصم يجبُ إرضاؤه وإنْ كانَ اللهُ تعالى عنه غير راضٍ[1]، وأنَّ رضاه[2] بإظهار ما جرى بينَه وبينَ الخصم، فأحبَّ أن يرضيَ الرَّجلَ فلا يداخلَه شيءٌ من حديثها؛ تكرُّمًا من يوسف عليه السلام واستعظامًا لحقِّه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ إقرارٌ منه[3] أنَّ امتناعَه عن إجابتِها لم يكن مِن قوَّةِ نفسِه، وإنَّما الحولُ والقوَّةُ للهِ سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾؛ أي: لو تُرِكْتُ أنا وطبعُ البشريَّة لكنْتُ عاملًا بطبعي كما عملَتْ هي، لكن لَمَّا أُقِيْمَ مقامَ العِصمةِ عاملَهُ الله تعالى بالرَّحمةِ، فزالَتْ طباعُ النَّفسِ الأمَّارة بالسُّوء.

وهو ذِكْرُ مِنَّةِ الله تعالى عليه في التَّوفيقِ والعِصمةِ، وإقامتِه مقامَ[4] العزِّ الَّذي يتراءَى للنَّاس أنَّه عزٌّ دنيويٌّ، ففيه دليلٌ على أنَّ معاملةَ النَّاس على الاستقامة تستتبعُ الرِّفعةَ والعزَّ والثَّناءَ الجميل، وذاك نعمةٌ مِن الله تعالى، وليس بنقصٍ في مَقام النَّزاهة والصَّفوة، وأنَّ الاستقامة في المعاملة أفضل منها في الخلوة.

***

(٥٤) ـ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

---

(١) في (ر): «عنه راضياً».

(٢) في (ر): «وإن أرضاه».

(٣) في (أ): «لأنه إبانة منه»، وفي (ف): «الآية إبانة» بدل: «إقرارٌ منه».

(٤) في (ر) و(ف): «وإقامة» بدل: «وإقامته مقام».

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾: قال ابنُ إسحاق: قال مالك مصر ـ وهو الوليد بن الريَّان لمَّا أخبرَ النِّساءُ بما أخبرْنَ ـ: جيئوني به أجعلْهُ خالصًا لنفسي، أفوِّض إليه أمورَ مملكتي؛ لِمَا ظهرَ مِن علمِه وصلاحِه.

وهاهنا مضمرٌ: فأُتي به ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: قريبُ المكانة ظاهرُ الأمانة.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: لمَّا اتَّضحَ للملِكِ طهارةُ حسِّه ونزاهةُ عينه، استحضرَهُ لاستصفائِهِ لنفسِهِ، واختصاصِهِ لأُنسْهِ، فلمَّا كلَّمَه وسمع بيانَه رفعَ محلَّه ومكانَه، وضمن براءَتَه وإحسانه، فقال: إنَّك اليوم مكينٌ(١) أمينٌ على خزائن الأموال(٢).

وفي القصَّة: أنَّه بعثَ سبعين حاجبًا وسبعين مركبًا لاستحضاره، وبعث إليه لباسَ الملوك وتاجَ الملوك، فلبس الثِّياب وتوِّج التَّاج، وخرجَ ليركب، وقام إليه أهل السِّجن يبكون لفقدِه، وكانوا أَنِسُوا به، وأَلِفُوا برَّه وإحسانَه، فدعا لهم فقال: أعطاكُمُ اللهُ الصَّبرَ واليقينَ وثوابَ الشَّاكرين، وطهَّرَكم من الذُّنوب، وآمَنكم من الهوامِّ والعقارب والحيَّات.

وقالَ حينَ خرج: اللَّهمَّ عطِّفْ عليهم قلوبَ الأخيار، وقصِّر عليهم النَّهار، ولا تقطع عنهم الأخبار.

ولمَّا خرجَ كتب على باب السِّجن: هذه منازل البلوى، وجهنَّم الدُّنيا، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء(٣).

---

(١) في (أ) و(ر): «عندنا ذو جاهٍ وحال» بدل «مكين».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٩٠).

(٣) روى نحوه ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ١٤٨ ـ ١٤٩) عن وهب.

ولمَّا دخلَ على الملك قال: اللَّهمَّ إنِّي أسألك بخيرِكَ عن خيرِه، وأعوذُ بعزَّتِكَ وقدرتِكَ عن شرِّه.

فلمَّا كلَّمه، وكان الملك يتكلَّم بسبعين لسانًا، فكلَّم يوسفَ بكلِّ لسانٍ، فأجابَه يوسفُ بكلِّ ذلك، حتَّى إذا فرغ دعا له بالعبرانيَّة، ولم يكن الملكُ يحسنُها، فقال: ما هذا اللِّسان يا يوسفُ؟ قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فلمَّا خرجَ من عنده؛ سلَّم عليه بالعربيَّة، ولم يكن الملكُ يحسنها، فقال: ما هذا اللِّسان يا يوسف[١]؟ قال: هذا لسان عمِّي إسماعيل. فازداد الملكُ عجبًا ممَّا سمعَ من يوسف، وأعجبَه علمُه وحلمُه وحكمُه[٢].

وقال له: اقصصْ رؤيايَ[٣] فإنِّي أحبُّ أن أسمعَها منك، قال يوسفُ: رأيْتَ سبعَ بقراتٍ سِمانٍ عِظامٍ شُهبٍ غرٍّ[٤]، كَشفَ لكَ عنهنَّ النِّيلُ، فطلعْنَ عليكَ مِن شاطئِهِ تَشخبُ أخلافهنَّ لبنًا، فبينا أنت تنظرُ إليهنَّ يعجبُكَ حسنهُنَّ إذ نضبَ النِّيلُ وغارَ ماؤه، وبدا يبسُه، فخرجَ مِن حمأتِه ووحلِه سبعُ بقراتٍ عجافٍ شعثٍ غُبْرٍ مقلَّصات البطون، ليس لهنَّ ضروعٌ ولا أخلاف، ولهنَّ أنيابٌ وأضراس، وأكفٌّ كأكفِّ الكلاب، وخراطيمُ كخراطيمِ السِّباع، فاختلطْنَ بالسِّمان، فافترسنَهُنَّ افتراسَ السِّباع، فأكلْنَ لحومَهُنَّ، ومزَّقْنَ جلودَهُنَّ، وحطَّمْنَ عظامَهُنَّ، وتمشْشنَ[٥] مخهنَّ، فبينا أنت تنظرُ وتتعجَّبُ إذا سبعُ سُنبلاتٍ خضرٍ، وسبعٌ أُخَرُ سودٌ في منبتٍ واحدٍ،

---

(١) من قوله: «لسان آبائي» ليس في (ف).

(٢) «وحكمه» ليس في (ف). والخبر ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٣٠) عن وهب.

(٣) في (أ) و(ف): «رؤياك».

(٤) في (أ) و(ر): «سمانًا عظاماً شهباً غرًّا».

(٥) في (ف): «وتمشمشن». والتمشش: مص أطراف العظام. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: مشش).

عروقُهنَّ في الثَّرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أنَّى هذا؟! وهؤلاء خضرٌ مثمرات، وهؤلاء سودٌ يابسات، والمنبت واحدٌ، وأصولُهنَّ في الماء؛ إذ هبَّت ريحٌ فذرَّت من اليابسات السُّود على الخضر المثمرات، فاشتعلَتْ فيهنَّ النَّارُ فأحرقتهُنَّ، وصرْنَ سودًا متغيِّراتٍ.

فهذا آخر ما رأيْتَ من الرُّؤيا، ثمَّ انتبهْتَ مِن نومك مذعورًا مرتاعًا.

فقال الملك: واللهِ ما شأن هذه الرُّؤيا وإنْ كان عجبًا بأعجبَ ممَّا سمعْتُ منك، فما ترى في رؤيايَ أيُّها الصدِّيق؟

قال يوسف عليه السلام: أرى أن تجمع الطَّعام في سِنيْ الخصب، وتبنيَ الأهراء(١) والخزائن، فتكبِسَه(٢) فيها بقَصَبه وسُنْبله، فيكون قصبُه وسنبله علفًا للدَّواب، ويكفيك ويكفي أهل مصر ومن حولها الطَّعام في سِنِيْ الجدب، فتأتيك الخَلْق من النَّواحي، فيمتارون منك بحكمك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحدٍ قبلَك.

قال الملكُ: مَن لي بهذا؟ ومَن يجمعُه؟ ومن يبيعُه ويكفي الشُّغلَ فيه؟

قال يوسفُ: إنَّ الله تعالى أوحى إليَّ أنِّي أقوم به، وأكفي الشُّغل فيه.

قال الملك: ومَن أحقُّ به منك؟ فدونَك ذلك(٣).

***

---

(١) الأهراء: جمع هُرِيٍّ، وهو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: هري).

(٢) في (أ): «فتسكبه».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٣١).

(٥٥) ـ ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾: أي: ولِّني على خزائنِ الأطعمةِ والأقوات والعلوفة الَّتي في أرض مملكتِكَ، وهي مصر، وكانت أربعين فرسخًا في أربعين فرسخًا، وفوِّض إليَّ إحرازها وتفريقها وتقدير ذلك منها، فإنِّي حفيظٌ؛ أي: حافظٌ[١] لِمَا سبيلُه أن يحفظَ؛ أي: يجري فيه خيانة أو نسيان، عليمٌ بما سبيلُه أن يُعلَمَ وجهُ التَّدبير فيه حتَّى لا يضيعَ شيءٌ، ولا يوضعَ في غير أهلِه.

وقال قتادة وابن إسحاق: حفيظٌ لها ممَّن لا يستحقُّها، عليمٌ بوجوه التَّدبير فيها[٢].

وقال الزجَّاج: عليمٌ بوجوه متصرَّفاتها[٣].

وقيل: حفيظٌ لِمَا استودَعْتَني، عليمٌ بما ولَّيتني.

وقيل: حفيظٌ لِمَا استودعتني، عليمٌ بسني المجاعة.

وقيل: حفيظٌ للحساب، عليمٌ بالألسنة.

وقيل: كاتبٌ وحاسبٌ.

قال وهبٌ: فقال الملك ليوسف صلوات الله عليه: فدونَك هذا السَّريرَ والخاتمَ والتَّاج، فقد تخلَّيْتُ لك عنهنَّ، وأنت أحقُّ بهنَّ منِّي.

قال يوسف: أمَّا السَّرير فأشُدُّ به ملكَكَ، وأمَّا الخاتم فأدبِّرُ به أمرَك، وأمَّا التَّاج فليس من لباس آبائي ولا مِن لباسي.

---

(١) في (ر) و(ف): «فإني حفيظ عليم أي حافظ عالم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٦).

قال الملكُ: فقد وضعْتُه عن رأسي إجلالًا لك وإقرارًا بفضلِك.

قال: فاتَّخذ الملكُ الخزائنَ والأَهْراء، وأمر بجمع الطَّعام انتظارًا لسِني الخصْبِ، فلمَّا أَتَتْ جاءَتْ بشيءٍ لا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ كثرةً وسَعةً، وذلك قوله تعالى:

* * *

(٥٦) - ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: كالَّذي التمسَ يوسفُ من الملكِ مكَّنَّا له في الأرض؛ أي: أرض مصر، والتَّمكينُ: الإقرارُ وإعطاءُ الـمَكِنَةِ والمكانة.

وقوله تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾: إذ كانَتْ خزائنها في كلِّ بلادِها بيدِه وتحتَ حكمِه بعد ما كان ضُيِّقَ عليه بالرِّقِّ والحبس.

وقوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾: أي: بنعمتِنا كما أصبناها يوسف.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: يعني: الصَّابرين. قال وهبٌ: وذلك بصبره في البئر وفي السِّجن وفي الرِّقِّ وعمَّا دعته إليه زليخا[1]، فهذا في الدُّنيا.

* * *

(٥٧) - ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾: أي: الجنَّة وثوابها خيرٌ للَّذين آمنوا واتَّقوا معاصي الله تعالى.

---

(١) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٣٣)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ١٥٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما ووهب.

وقيل في قوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: كما لم نُضِعْ أجرَ يوسفَ، وكان يحسِنُ إلى أهل السِّجن، فينظر للضعفاء ويقوم بمصالح المرضى وغير ذلك، وكان يحسِنُ الصَّبرَ عن المحارم، وإيثارَ طاعة الله تعالى، والقيامَ بإحياءِ دينِه والنُّصحِ لعباده في كلِّ حالٍ.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: لمَّا لم يمكِّن يوسفُ دواعيَ الشَّهوات من نفسِه مكَّنَهُ اللهُ تعالى من ملكِهِ، وهو كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ثمَّ أخبرَ عن حقيقةِ التَّوحيد، وبيَّنَ أنَّ ما يولي[١] عبادَه مِن ألطافِه فبفضلِه لا بفعلِهم، وبرحمتِه لا بجِدٍّ منهم، فقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾، ثمَّ رقَّى هممَهُم[٢] عمَّا أولاهم من النِّعم، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾[٣].

وفيه جوازُ وَصْفِ الإنسانِ نفسَه بما هو موصوفٌ به ـ فإنَّه قال: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ـ إذا لم يكن فيه ثناءٌ على نفسِه، بل بيانُ ما يتعلَّق به مِن مصالح النَّاس.

وفيه: أنَّه لا بأسَ بالعملِ للكافرِ والفاسق إذا أُمْكِنَ العاملُ مِن وضعِ الشَّيءِ موضعَه، وإعطاءِ كلِّ شيءٍ من العدلِ قسطَه، وكان فيه صلاحُ العامَّة والخاصَّة.

وقيل في قوله: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: قال للملكِ: ما بالُ الملكِ يتقلَّد بسيفٍ لا يَقطع، وما بالُه ممسِكاً على بابِه حراسًا عُمْيًا بُكمًا صُمًّا، وما بالُه يزرعُ في أرضٍ سَبخَةٍ، أَمَا يعلَمُ أنَّ مَنْ زَرَعَ بأرضٍ سَبخَةٍ فقد ضيَّعَ بذرَهُ، وعذَّبَ بقرَهُ، وأبطلَ أيَّامَه؟!

---

(١) في (ر): «يؤتي»، وفي «اللطائف»: (يوفي).

(٢) في (ر) و(ف): «ثم فهمهم» وفي «اللطائف»: (ثم يرقي هممهم).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٩١).

فقال الملكُ: ما أدري ما تقول.

قال: أمَّا التَّقلُّد بسيفٍ لا يَقطع، فهو الاعتماد في الأعمال على عُمَّالٍ لم تجرِّبْهم، وأمَّا إمساكُ العمي والبُكم والصُّمِّ على الباب فهو استعمالُ قومٍ لا يروْنَ عيوبَكَ ولا يذكرونَها لكَ، وأمَّا الزَّرْعُ في السَّبخَةِ، فالبَذْرُ: العمر، والسَّبخَةِ: الدُّنيا، والثَّوران: اللَّيلُ والنَّهارُ. فأعجبَهُ كلامُهُ، وقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[1].

وقال وهب: ولمَّا وُلِّي يوسفُ مصرَ ماتَ العزيزُ، فزوَّجَهُ الملكُ امرأةَ العزيز، فلمَّا دخلَ عليها[2] وجدَها عذراء، فقال: أليس هذا خيرًا ممَّا كنْتِ تريدين؟ فقالَتْ له: لا تلُمْنِي يا نبيَّ الله، فإنَّ اللهَ كساكَ مِن الحُسْنِ والجَمالِ ما لا يصبرُ عليه أحدٌ، وكان صاحبي لا يمسُّ النِّساء، وكنْتُ ناعمةً في ملكِ الدُّنيا، وغلبتني شهوتي، يا يوسفُ، إنَّ الحرصَ والشَّهوة صيَّرا الملوكَ عبيدًا، وإنَّ الصَّبرَ والتَّقوى صيَّرا العبيدَ ملوكًا.

وتزوَّجها وهو ابنُ ثلاثينَ سنةً، فولدَتْ له أفراييم وميشا ابني يوسف في أربع سنين من سِني الخصب. هذا القَدْرُ مذكور من حديث تزوُّجِها في «كتاب وهب».

ويُذكَرُ في القصص زوائدُ: أنَّها افتقرَتْ وضعفَتْ وعميَتْ، وأتتْهُ وهي بتلك الحالة، فرحمَها وقال: ما تشتهين؟ قالَتْ: أن أفتح عيني مرَّةً فأراك. وبكَتْ فبكى يوسف، وأتاه جبريلُ فقال: إنَّ اللهَ تعالى يردُّ إليها بصرَها وشبابَها فتزوَّجْها. ففعلَ، فأعادَ اللهُ تعالى إليها جمالَها وشبابَها.

ويذكر هنا أشياء، ولا ضرورة إلى ذكرها.

ولمَّا مضى تمام سِني الخصب أمرَ اللهُ جلَّ جلالُه جبريلَ عليه السلام سَحَرًا

---

(١) «وقال إنك اليوم لدينا مكين أمين» من (ف).

(٢) في (أ): «دخلت» وفي (ف): «دخلت عليه» بدل: «دخل عليها».

فقال: يا جبريل، ألا تنظرُ إلى عبادي وإمائي من أهل مصرَ وغيرهم كيف يأكلون رزقي ويعبدون غيري، اهبط فقد سلَّطْتُ عليهم الجوعَ والقَحْطَ سبعَ سنين، فهبط جبريل وصاح في الهواء: يا أهلَ مصر، جوعوا سبعَ سنين، فانتبه الرِّجالُ والنِّساءُ والصِّبيانُ ينادون: الجوع، الجوع(١).

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: لم يكن في تلك السِّنينَ اليابسةِ(٢) مطرٌ ولا نباتٌ، ولا ريحٌ تهبُّ، ولا حمارٌ ينهقُ، ولا ثورٌ يصيحُ، ولا دابَّةٌ تحمل، ولا طير يتَّخذ عشًّا ولا فرخ، وجاءت سِنُوْ الجدْبِ بأمر مَهولٍ لم يعهدِ النَّاسُ مثلَه، وقصدَ النَّاسُ مصرَ مِن كلِّ أوبٍ وناحيةٍ يمتارون، فجعل يوسفُ صلوات الله عليه لا يمكِّنُ أحدًا منهم وإن كان عظيمًا أكثر مِن حِملِ بعير.

وتزاحم عليه أهلُ مصرَ، فباعَهم أوَّل سنةٍ بالدَّراهم والدَّنانير، حتَّى لم يبقَ بمصر دينارٌ ولا درهمٌ إلَّا قبض عليه، وباعهم السَّنةَ الثَّانية بالحليِّ والجواهر حتَّى لم يبقَ بمصر في أيدي النَّاس منها شيءٌ، وباعهم السَّنة الثَّالثة بالمواشي والدَّوابِّ والأنعام حتَّى احتوى عليها أجمع، وباعهم السَّنة الرَّابعة بالعبيد والإماء حتَّى لم يبقَ عبدٌ ولا أمةٌ في يدِ أحد، وباعهم في السَّنة الخامسة بالضِّياع والعَقار والدُّور حتَّى احتوى عليها، وباعهم السَّنة السَّادسة بأولادهم حتَّى استرقَّهم(٣)، وباعهم السَّنة السَّابعة برقابهم حتَّى لم يبقَ بمصر حرٌّ ولا حرَّة إلَّا صار عبدًا له.

فقال النَّاسُ: باللهِ ما رأينا كاليوم ملكًا أجلَّ ولا أعظمَ من هذا!

---

(١) ولعل هذا يكون منظوراً فيه بأن القحط كان عاماً لأهل مصر وغيرهم، وللبلاد المؤمنة والكافرة، بدليل قول إخوة يوسف: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨].

(٢) في (أ): «اليابسة ولا نهر يجري».

(٣) في (ف): «اشتراهم».

فقال يوسفُ صلوات الله عليه للملك: كيفَ رأيْتَ صُنْعَ اللهِ عزَّ وجلَّ بي، وما خوَّلني من الملك؟ فما ترى لي؟

قال الملكُ: الرَّأيُ رأيُكَ، ونحن لك[١] تَبعٌ، وأنا خولُكَ.

فقال يوسفُ: إنِّي لم أملكْ مصر بأهلها لأخربها وأهلكهم، ولم أوسع عليهم الطَّعام لأضيِّقه، ولم آمُرْهم لأجفوَهم، أوَتُقِرُّ لي بأنَّ[٢] لي عبيدًا وخولًا[٣]؟ قال: نعم. قال: فإنِّي أشهِدُ اللهَ وأشهِدُكَ أنِّي أعتقْتُ أهلَ مصر عن آخرهم، ورددْتُ إليهم أموالَهم وأملاكهم، ورددْتُ عليك ملكَكَ على شريطة ألَّا تخالفَني وتستنَّ بسُنَّتي. قال الملكُ: فآذنُ لكَ.

***

(٥٨) ـ ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾: قال وهبٌ: وكان اشتدَّ على يعقوبَ وولدِه وأهلِ الشَّام القَحطُ، فقال يعقوبُ لأولاده: إنَّ بمصرَ طعامًا يباعُ، وإنَّ هذا الرَّجلَ الصَّالح الَّذي هو ملكُهم بلغَني عنه خيرٌ وصلاحٌ وحسنُ سيرةٍ، فامتاروا؛ فإنَّ له سيرةً تشبه سيرةَ آل يعقوب، وسيحسِنُ إليكم إن شاء اللهُ عزَّ وجلَّ، فانطلِقوا فامتاروا منه، فانطلَقوا، فلمَّا دخلوا على يوسفَ مع النَّاس، وكان يوسفُ صلوات الله عليه يحسِنُ إلى مَن أتاه، ويعطيه قَدْرَ ما يكفي عيالَه على عددِهم، فلمَّا دخلوا عليه عرفَهم وهم له منكرون.

---

(١) في (أ): «له».

(٢) في (ف): «بأنك».

(٣) في (أ) و(ف): «بأنك لي عبد ولي خول» بدل: «بأن لي عبيدًا وخولاً».

وكان الله تعالى عمَّى عليهم خبرَ يوسف وما صار إليه مِن الملك، ولتغيُّرِ لونِه وكلامِه وهيئتِه، ولتقادمِ العهد وتطاول المدَّة.

وقيل: إنَّما لم يَعرفوه لأنَّه كان متنقِّبًا.

وقيل: لم يعرفوه لأنَّهم كانوا جياعًا، وعينُ الجائع تحارُ فلا تعرف ما تبصرُ[1].

وقيل: لأنَّهم جاؤوا طامعين، والطَّمعُ يغطي العين.

وقيل: لأنَّهم كانوا جَفَوه، والجفاءُ يزيلُ المعرفة.

وقيل: لأنَّ الله تعالى أخفى عليهم ذلك بلطفِه، وكان له فيه سرٌّ.

وقيل: لأنَّهم نكسوا رؤوسَهم محترِمين فلم ينظروا إليه؛ فلذلك لم يعرفوه.

قال وهبٌ: ولمَّا عرفَهم أمَرَ فتيانَه بإنزالهم في منزلٍ، أكرمَهم، ومكثَ ثلاثًا لا يكلِّمُهم، ثمَّ قال لهم بعدَ ثلاثة أيَّامٍ: مَن أنتم؟ قالوا: نحنُ أولادُ يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيم من أهل كنعان. فنظرَ إليهم فأكثرَ، وأدامَ فيهم النَّظر، وصعَّدَ وصوَّب فيهم البصر، ونظر إليهم جميعًا وأشتاتاً[2] كلَّما فرغ من واحدٍ نظر إلى الَّذي يليه، ثمَّ قال: اعتزلوني حتَّى أفرغَ لكم.

وكان لا يصنعُ ذلك بأحدٍ[3]، وكان يعجِّل سراح الممتارين، فلمَّا اعتزلوا عنه استرابوا مِن نظرِه إليهم، وقال بعضهم لبعضٍ: لقد نظر إلينا هذا الملِك نظرًا ما نظرَه إلى غيرنا، لذلك فإمَّا أن يكون نظرُه إلينا على وجه الغِبطة لنا؛ لنبوَّة آبائِنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أو الغِبطةِ لأبينا بما رأى من عددِنا وجَلَدِنا وقوَّتنا وجماعتِنا،

---

(١) في (ف): «تنظر».

(٢) في (ر) و(ف): «وأنشأ».

(٣) في (ر): «بأحد من الممتارين».

وإمَّا أن يكون تفرَّس فينا النُّبوَّة مِن بعد آبائنا، والوراثةَ لهم مِن بعدهم، وإمَّا أن يكون بلغَهُ فِعلتُنا بأخينا، وتلك قاصمةُ ظهورِنا وسببُ خِزيتنا[١].

وتشاغل عنهم يوسفُ يومَه ذلك، فأمرَ لهم فأُنزِلوا في ضيافتِه، وأوصى بهم خدمَهُ، وهم يغدون عليه ويروحون[٢]، وهو كالمعرِضِ عنهم والمتجهِّم لهم، فإذا صاروا إلى ضيافته أُكرِموا، وإذا دخلوا إليه أعرضَ عنهم، فيقولون: ومِنَ العجبِ شأنُ هذا الملك وعملُه بنا، إذا حضَرناه تجهَّم لنا وأعرض عنَّا، وإذا صرْنَا إلى منزلِه أوصى بنا في الغيب، فلبثوا بذلك حينًا، ثمَّ إنَّهم دخلوا على يوسف يومًا فقال لهم: ممَّنْ أنتم؟ قالوا: قد أخبرناك أوَّلَ يومٍ سألتنا، إنَّا ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

فقال يوسفُ: وَلَدَكم ثلاثةُ أنبياء؛ الخليلُ والذَّبيح والصِّدِّيق؟ قالوا: نعم.

قال: ما أنتم لذلك أشباهٌ، ولا لذلك بخلفاء، وما أنتم موسومون بسيماهم، ولا أرى من أحلامٍ ولا وَقارٍ ولا سكينةٍ ظاهرةٍ ولا خشوعٍ، ولَأَنتم بأن تكونوا لصوصًا أشبهُ، أو تكونوا جواسيس دسَّكم بعضُ الملوك، فجئْتُم مرتادين[٣] تنظرون لهم في العُدَّة والقوَّة، ثمَّ تأتونهم بخبر ذلك، فيسيرون إلينا ليقاتلونا حسدًا لِمَا أنعمَ اللهُ تعالى علينا وأحيانا وأحيا بنا، ولأنتم بهذا أشبَه، ولَايمُ[٤] اللهِ لا تنفكُّون مِن حبسي أبدًا حتَّى أعلم عليكم.

فأشفقوا[٥] أن يبحثَ عنهم حتَّى يبلغَ به البحثُ فعلَتَهُم الَّتي فعلوا بأبيهم،

---

(١) في (ف): «حزننا».

(٢) في (ف): «ويرجعون».

(٣) في (ر): «ممتارين».

(٤) في (ر) و(ف): «وايم».

(٥) في (ر) و(ف): «فانتقعوا».

فقالوا: إنَّا نسألُكَ أيُّها الملكُ بالَّذي بلَّغَكَ هذه المنزلةَ، وفضَّلَكَ هذه الفضيلةَ، وأكرمَكَ هذه الكرامةَ، وأنعمَ عليك هذه النِّعمةَ، لَمَا عجَّلْتَ سراحَنا إلى أبينا، فإنَّه اليومَ أعظمُ أهلِ الأرض حقًّا، وأعلى جميع أهلِ الأرض؛ لأنَّه نبيُّ الله، وابنُ ذبيحِه[1]، وابنُ خليلِه، فلا تستخفَّ بحقِّه، ولا تقصِّر في شيءٍ مِن أمرِه، فإنَّك لو تعلمُ عِلْمَه وعلْمَ كبرِه وضعفِه وحزنٍ له على ابنٍ له هلَكَ منذ حين، وكان أحبَّ النَّاسِ إليه وأقرَّهم لعينِه، وعِلْمَ ما يمونُ ويعولُ ويتصدَّقُ ويضيفُ = إذًا لاشتدَّتْ له رحمتُك، ولدمعَتْ له عينُك، وحزنَ له قلبُك.

قال يوسف عليه السلام: ما أحدٌ اليومَ[2] أعظمَ حقًّا عليَّ وعلى جميع أهل الأرض من يعقوب، ولو مِرْتُهُ على[3] ظهري مقبلًا ومدبرًا حتَّى أُعِينه[4] وعيالَه ما بلغْتُ بذلك حقَّه، ولا حقَّ آبائه عليَّ، فحدِّثوني ما الَّذي أحزنَه وهو في منزلِ الفرحِ والغِبطة؟ أليس نبيَّ اللهِ وابنَ أنبيائه؟ أوليسَ يَنظرُ إليكم في مثل عددكم وجمالكم وجَلَدكم؟ أليس الجنَّة مع ذلك بُشراه، ونصبُ عينه يأملُها؟ فما الَّذي يحزنه بعد هذا؟ ولعلَّ حزنَه إنَّما كان من قِبَل سفهكم وجفائكم وكذبكم؟

قالوا: حاشَ لله، ما نحن كذلك، ولكن كان له ابنٌ وكان أصغرَنا وأحبَّنا إليه فهلَكَ، فلم يزلْ بعدَه واهنَ العظمِ باكيًا محزونًا.

قال يوسف عليه السلام: أوكلُّكم لأمٍّ واحدةٍ؟ قالوا: لا.

قال: فما الَّذي حملَ أباكم على أن أرسلَ كلَّكم؟ هلَّا احتبسَ رجلًا منكم

---

(١) الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، على الصحيح.

(٢) في (ف): «ما أجد القوم».

(٣) بعدها في (ف): «مر السنين».

(٤) في (ر): «أغنيه».

يسكنُ إليه ويأنسُ به؟ قالوا: قد فعل، قد احتبسَ منَّا ولدًا هو أصغرُ ولدِه، وأحبُّهم إليه بعد الأوَّل.

قال يوسفُ: لولا مخافةُ أن تكونوا صادقين لحبستكم حبسًا أطول مِن هذا، ولعذَّبتكم عذابًا شديدًا، فإنْ كنتم صادقين فارجعوا إلى أبيكم، فبلِّغوه منِّي السَّلام، وقولوا له: فلْيخبرني ما الَّذي أحزنَه وأبكاه وأوهنَ عظمَه؟ وما الَّذي شيَّبَه قبلَ أوانِ شَيبِه؟ وليبعَثْ إليَّ بجواب هذه الرِّسالة مع ابنه الأصغر الَّذي احتبسَه.

***

(٥٩) ـ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾: أي: هيَّأ أسبابَهم فأعطى كلَّ واحدٍ وِقْرَ بعيرٍ، وكذلكَ يبيعُ ولا يزيدُ لكلِّ قادمٍ على وِقْرٍ؛ لئلَّا يضرَّ بالآخرين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾: عنى: بنيامين الَّذي ذكروه له.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾: أتمُّه، ولا أنقصُ منه شيئًا ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾؛ أي: المضيفين.

***

(٦٠) ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ﴾: أي: بالأخ الَّذي قُلْتم[1] ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾؛ أي: فلا طعامَ لكم عندي يُكال ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾؛ أي: لا تقربوا بلادي.

---

(١) «الذي قلتم» من (ف).

تلطَّفَ يوسفُ عليه السلام في استحضار بنيامين بالتَّرهيب والتَّرغيب، أمَّا التَّرغيب ففي الَّذي فصَّلَ[1] لهم قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾، وفي إنزالهم بحسن الضِّيافة، قال: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، وأمَّا التَّرهيب؛ فقوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

* * *

(٦١) ـ ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: أي: سنتلطَّفُ لأبيه في طلبِه منه وإخراجِه معنا كما أمرْتَ ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ بما أَمرْتَ به غيرُ مخالفين لك، ولم يريدوا أنَّهم يفعلون ذلك بغيرِ إذنِ أبيهم، ولكنْ أرادوا ما قلْنَا.

* * *

(٦٢) ـ ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟﴾: قرأ حمزة والكسائيُّ وعاصم في رواية حفص: ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾، والباقون: ﴿لِفِتْيَتِهِ﴾[2]، وهما لغتان في جمع الفتى؛ كالغِلْمَانِ والغِلْمَةِ.

والفتى: اسمٌ للملوك شابًّا كان أو شيخًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾: وهي دراهمُهم الَّتي هي أثمان ما امتاروه مِن عندِه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾: وأدخلَ كلمةَ (لعلَّ) في

---

(١) في (ف): «فضل»، وفي (أ): «أفصل».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٤٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٩).

معرفتِهم ذلك، بمعنى أنَّهم عسى أن ينظروا في رحالهم لشيءٍ فيجدونها، ويجوز أَلَّا يحتاجوا إلى النَّظر فيها، فيخفى عليهم ذلك، على معنى أنَّهم عسى أن ينظروا في رحالهم ووقوفهم على ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ هذا يصلح للَّازم والمتعدِّي؛ أي: يعودون إلينا ويردُّونَ البضاعةَ علينا، وقد رجَعْتُهُ رَجْعًا، فرجَعَ رجوعًا، فتكلَّموا في معنى رجاء الرُّجوع بذلك:

قيل: معناه: إنَّهم إذا عرفوا أنَّها بضاعتهم؛ تحرَّجوا عن إمساكِها، وتوهَّموا أنَّ فتيانَ يوسف وضعوها في رحالِهم غلطًا، فعادوا لردِّها.

وقيل: إنَّما فعلَ ذلك ليستعينوا بها على الرُّجوع لابتياع الميرة مرَّةً أخرى، لرجائِه أنْ لا يكونَ عند أبيهم غيرُ ذلك.

وقيل ـ وهو أحسن الوجوه في ردِّ بضاعتهم إليهم ـ: لأنَّ يوسف عليه السلام لم يَستجزْ أنْ يأخذَ مِن إخوتِه ثمنَ طعامٍ تجشَّموا في طلبِه السَّفر، وإنما يصل قُوتُه[1] إلى أبيه وإخوته ومَن يلزمُه في الحرية تحمل مؤنة[2] في تلك الحالة، فأمرَ بجعلها في رحالِهم، ولم يحب أن يصرِّح لهم بسببِ الردِّ.

وقيل: ليرجعوا إليه بما يظهرُ لهم مِن كرمِه في ردِّها عليهم في زمان الجدْبِ، فيكون ذلك أدعى لهم في الرُّجوع.

وفي «كتاب عصمة الأنبياء» قال: هلَّا أخبرَهُم بحالِه وعرَّفهم عن نفسه؛ ليعظُمَ

(١) في (أ): «وإنما يعرفونه».

(٢) في (ف): ومن يلزمه عن طعام»، ومن قوله: «تجشموا» إلى هنا ليس في (ر).

سرورُهم بوجودِه، وقد علمَ أنَّ إدخالَ السُّرورِ في قلبِ المؤمن ما محلُّه[١] من الثَّواب عندَ اللهِ خصوصًا في قلب إخوتِه، وفي ذلك صلَةُ الرَّحم، وإيصالُ الخبر لأبيه ليتفرَّغَ مِن حزنِه؟

فالجواب عنه: أنَّه لم يقدرْ أنْ يفعلَ مِن غير وحيٍ.

ولأنَّه عَلِمَ أنَّ انقضاء المحنةِ بعدُ لم يأتِ وقتُه، فلذلك تربَّص وتأخَّر إلى وقته، وقال في وقته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٩].

والثَّالث: أنَّه لو أخبرَهم ساعةَ دخولهم عليه وهو كان يلاطفُهم في المعاملةِ ويسامحُهم في تلك المِيْرَةِ، ويردُّ عليهم بضائعَهم؛ ربَّما لم يستظرفوا صنيعَه بمكانهم، متعلِّلين[٢] بالأخوَّة أنَّها موجبةٌ لخصائص المعاملة، أحبَّ أن ينصرفوا وألسنتُهم رطبةٌ بالثَّناء عليه، متعجِّبين من حسنِ معاملتِه في عام السَّنةِ خصوصًا؛ ليعلموا منه السَّخاوة بما يحملونَه من الطَّعام بالبدل لغيرهم، ويستعطفوا غيرَهم بالرَّغبة إليه للامتيار.

والرَّابع: أنَّ عام السَّنة لم يكن منقضيًا بعدُ، وحوائجُ النَّاس إلى الطَّعام قائمةٌ، فلو أحسُّوا بمكانه ورجعوا ببشرى[٣] الخبر إلى أبيهم، فكانَتْ تنقطعُ المعاملة، فلغلبَةِ الإشفاقِ على النَّاس أحبَّ ألَّا يُحَسَّ بمكانِه حتَّى تنقضيَ السَّنةُ ويتفرَّغ قلبُه عن هموم الجائعينَ، ثمَّ يستوفي حظَّه من السُّرور في الاجتماع مع أبيه وإخوته.

وقالوا في قوله: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾: كيف استجازَ زيادةَ الحزنِ لأبيه وشَغْلَ قلبِه بسببِه، وهو عالمٌ أنَّه ممتَحَنٌ بفراقِه مهتمٌّ لفقدِه؟

---

(١) في (ف): «مما يجله».

(٢) في (أ): «معتلين».

(٣) في (أ): «وجعلوا تبشير».

قيل: بأنَّه قال ذلك عن وحيٍ مِن الله تعالى، لم يفعلْهُ جزافًا، وعلمَ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه أرادَ استكمالَ صفاء يعقوب عن ميل الطَّبع إلى أخيه(١)، فعاملَه على ما علمَ مِن الله تعالى.

* * *

(٦٣) ـ ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾: قرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿يكتل﴾ بالياء؛ أي: يكتلْ بنيامين لنفسِه، وقرأ الباقون بالنُّون(٢)؛ أي: نكتلْ(٣) نحنُ له وقرَ بعيرٍ؛ أي: لأجله.

وقيل: معناه: إنَّ الإخوة لمَّا رجعوا إلى يعقوب عليه السلام قالوا: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾، لم يريدوا أنه منع ما جاؤوا يشترونه، فقد قال: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾، بل أرادوا أنَّه قال لنا: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴾، فتقديرُ قوله: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾: ذَكَرَ لنا مَنْعَ الكيل(٤) إن أتيناه نحنُ بلا أخٍ.

ولمَّا شقَّ عليه ذلكَ وخافَ ضياعَه؛ قالوا: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

* * *

(٦٤) ـ ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

---

(١) في (ر): «إلى حبه».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٥٠)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٩).

(٣) في (أ): «نكيل».

(٤) «ذكر لنا منعَ الكيل» ليس في (ف).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾: استفهامٌ بمعنى النَّفي؛ أي: لا أتَّكلُ على ضمانكم حفظَه، وإنْ قلْتُم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، فقد كنتم قلْتُم في أخيه يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، ولكنِّي أتَّكل على اللهِ جلَّ جلاله.

وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾: قرأ حمزة والكسائيُّ وعاصم في رواية حفص: ﴿حَٰفِظًا﴾ على الحال، وقرأ الباقون: ﴿حِفْظًا﴾ على التَّفسير والتَّمييز[(١)].

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: يرحمُني فيردُّ عليَّ ولدي؛ لعلمِه بوَجْدي به بعدَ فقدي يوسف.

قال وهبٌ: فلمَّا رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا جئْناك مِن عندِ أعظم ملِكٍ على وجهِ الأرض رأيناه أو سمعنا به، لا يُرَى أنَّه كان في الأرض أعظمُ منه حلمًا وعلمًا، وأشدُّ هيبةً، وأرهبُ درعًا، وأعظمُ سلطانًا، وأرقُّ قلبًا، وأكرمُ أخلاقًا، وأكثرُ رِفقًا، وأجملُ نائلًا.

لقد نظرْنا في حكمِه فما شبَّهناه إلَّا بحكمِك، وفي وقارِه فما شبَّهناه إلَّا بوقارِك، وفي حلمِه فما شبَّهناه إلَّا بحلمِك، ولكنَّا أهلُ بيتٍ خُلقنا للبلاء فابتُلينا، فاتُّهمنا وكُذِّبنا، ومُنِعَ منَّا الكيل، وزعم أنَّه لا يصدِّقنا حتَّى ترسلَ معنا أخانا برسالةٍ منك تخبرُه فيها عن حزنِك ووهنِ عظمِك، وعن سرعة الكبرِ إليك قبلَ أوانه، وما الَّذي أورثَكَ ذلك؟

فحزِنَ يعقوبُ عليه السلام حين سمعَ[(٢)] هذا منهم، واتَّهمَهم وكذَّبَهم، وظنَّ أنَّه مكرٌ منهم ليفعلوا به مثل ما فعلوا بأخيه، فقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٥٠)، و«التيسير» للداني (ص: ١٢٩).

(٢) في (ر): «علم».

(٦٥) ـ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾: أي: وُضِعَتْ في رحالهم.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾: قال قتادة: أي: أيَّ شيءٍ نطلب؟ على الاستفهام؛ أي: أيُّ عذرٍ لنا في ترك الرُّجوع إليه مع أنَّه ردَّ بضاعتنا وفعلَ ما ينبغي[1]؟

أو[2]: لا نظلِمُ فيما نقولُ ولا نكذب.

وأجاز الفرَّاء والزَّجَّاج الوجهَيْن[3].

﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾: فحصل الطَّعام لنا مجَّانًا ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: نجلبُ لهم الطَّعام في هذه الكرَّة بهذه البضاعة ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾: مِن أن ينالَه سوءٌ في سفرِه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: لأجل بنيامين، وعَدَه لنا الملك.

وقيل: كان وعَد ذلك بغير ثمنٍ.

﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾: أي: سهلٌ؛ لأنَّه مجَّانٌ، أو لأنَّ ثمنَه ممكنٌ مِن هذه البضاعة، أو لأنَّه وعدَ لنا تعجيلَ التَّسريح بسبب أخينا، وفي حقِّ سائر النَّاس حبسُ المدَّةِ وتأخيرُ تسريح[4].

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٦٦).

(٢) في النسخ: «أي»، والصواب المثبت.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١١٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٢/ ١٦٨).

(٤) في (ر) و(ف): «ترويح».

(٦٦) ـ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: قال يعقوبُ صلوات الله عليه: لن أبعثَه معكم حتَّى تؤتوني عهدًا تجعلونَه لله على أنفسِكم لتَرجعُنَّ به إليَّ، إلَّا أن يَرِدَ عليكم أمرٌ يُحال بينكم وبينه، وتُشرفوا على الهلكة إن حاولْتُم ردَّه.

فلمَّا أعطوه هذا العهد قال: الله مطالِبٌ لكم بالخروج عن هذا الضَّمان، شاهدٌ على هذه المواثَقة.

قال كعبٌ ووهبٌ: ردَّهم في الكرَّة الأولى بغير مِيرة، ولذلك قالوا: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾، ولذلك ردَّ البضاعة لِتوهُّم أن لا[1] يرجعوا لطلب الميرة، فيبقى عنده الثَّمن بغير تسليم المبيع.

وقال الجمهورُ: أعطاهم الميرة[2]، وتأويلُ كلمة المنع وردِّ البضاعة ما مرَّ.

قال وهب: ولمَّا وجدوا بضاعتهم؛ قالوا لأبيهم: ألا يدلُّك على عدلِ هذا الملك وورعِه أنَّه دسَّ بضاعتنا في رحالنا مخافةَ ألَّا نرجع إليه لِمَا رأى مِن خوفنا، فتبقى البضاعة في يده بغير حِلِّها.

فاطمأنَّ قلبُ يعقوب بهذه الدلالة، وقال: إنْ كان لا بدَّ لكم مِن أنْ تذهبوا بأخيكم، فإنِّي لن أرسلَه معكم حتَّى تعاهدوني لتأتنَّني به إلَّا أن يُحَاطَ بكم، فضَمِن ذلك يهوذا، وكان أرجاهم عنده، وهو الذي قال تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، ولم يكن أسنَّهم، لكنَّه أعقلُهم وأوثقُهم، فدفعَه إليه، فخرجوا.

---

(١) «لا» ليست في (ر) و(ف).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٢٩).

(٦٧) ـ ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾: وكان بمصر أربعة أبوابٍ.

قال ابن عبَّاسٍ والضَّحَّاك والسُّدِّيُّ وقتادةُ: خافَ عليهم لِمَا كان لهم مِن حُسْنِ الصُّورة وجمال الهيئة وتمام القوَّة[1].

وقيل: كان عامَ الجدب، فلو دخلوا من بابٍ واحدٍ مع الرَّواحل ممتارين شقَّ على أهل البلد إذا رأوهم مجتمعين، فأمرَهم بذلك شفقةً عليهم لئلَّا تدخل وحشةٌ في قلوب النَّاس بسببِهم.

وقيل: أحبَّ ألَّا يَفطنَ بهم أعداؤهم، فلا يحتالون لإهلاكهم.

وهو دليلُ عطفِه على كلِّ أولادِه، وأنَّه لم يكن له حقدٌ عليهم بما سبقَ منهم في حقِّه.

وهو مع هذا كلِّه كان ناظرًا إلى حُكم الله تعالى فيه، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: أي: لا أمنع ولا أدفع إنْ كان اللهُ أرادَ بكم شيئًا من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: ما الحكم إلَّا له ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ومن الجائز أن يكونَ أمرَ بذلك لئلَّا تظهرَ حاجتُهم في أهل تلك البلدة، وتنتشرَ حالةُ اضطرارهم، وهو أمرٌ بالصِّيانة وكتمان الفاقة.

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

ويحتمِل أنَّه أَمر بذلك لئلَّا يقع في أوهام أهل تلك البلدة أنَّهم حضروا لمقاتلة[١] الملك؛ لأنَّهم كانوا أصحاب مناظرَ وعددٍ، وكان بلغَتْهُم دعوةُ يعقوب.

ويحتمِل غيرَ ما قلناه، وإليه إشارةٌ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾.

وللآباء وصايا في حقِّ الأولاد ممَّا يرجع إلى الاحتياط، ويعقوب في كلِّ ذلك منزَّهٌ سرَّه عن الاعتماد على غير الله تعالى، مفكِّرٌ فيما يكون.

وقيل: لم يخفْ عليهم الهلكةَ، لكن خافَ عليهم النَّكبةَ.

* * *

(٦٨) ـ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ أي: من أبوابٍ شتَّى ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: ما كان دخولهم متفرِّقين مغنيًا عنهم مِن الله شيئًا؛ أي: دافعًا لقضائه.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾: أي: لكنْ كان ذلك اضطرابًا في قلبه، أزالَ ذلك عن نفسِه بوصيَّته؛ لئلَّا يقول: قصَّرْتُ فلمْ أنصحْ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾: أي: وإنَّ يعقوب لعالمٌ باللهِ وأقضيتِه؛ لتعليم الله تعالى إيَّاه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ما يعلم يعقوب.

* * *

---

(١) في (ف): «المقابلة».

(٦٩) ـ ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ ﴾: قال الحسن وقتادة: أي: ضمَّ إلى نفسه أخاه بنيامين، وأنزله معه(١).

وقيل: أجلسَه معه على سريره.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾: قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: تعرَّفَ إليه وأخبره أنَّه يوسف أخوه(٢).

قال وهبٌ والسُّدِّيُّ: لم يقل له: أنا يوسف، ولكن طيَّب نفسَه وقال: أنا أخوك؛ أي: بدل أخيك المفقود(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ ﴾: قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: فلا تحزن(٤).

وقال الضحَّاك: فلا تبالِ.

وقال قتادة: لا تكترث(٥).

وحقيقته: لا تُظْهِر من نفسك البؤس بما نالك.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٠) عن قتادة، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ١٧٦) عن الحسن وقتادة.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ١٧٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٤٢) عن وهب.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٥).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٠)، ولفظ الطبري: «لا تأس ولا تحزن».

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾: من الجفاء، وذكري بغير الجميل عندَك مغايظةً لك.

وقال وهبٌ: قال لهم يوسف صلوات الله عليه: هل بلَّغْتُم أباكم ما قلْتُ لكم؟ قالوا: نعم، وقد ردَّ إليك الجواب مع ابنه هذا.

قال يوسفُ: بماذا أرسلَك أبوك؟ قال: إنَّه يقرأ عليك السَّلام، ويقول لك: إنَّك سألتَني عن خوفي وحزني وكِبَري وشيبي ووهنِ عظمي، وإنِّي أطولُ النَّاس حزنًا، وأحقُّهم بذلك، وأخوفُهم لديهم، وأذكرُهم لمعادِه، وأكبَرَني قبلَ أوان الكِبَر تذكُّرُ يوم القيامة، وشيَّبني قبلَ أوان الشَّيب تذكُّرُ النَّار، وأوهن عظمي قبل أوان الضَّعف الحزنُ على يوسف، وأعمى بصري البكاءُ[1].

وإنَّا أهل بيتٍ أكرمَنا اللهُ تعالى بالبلاء، وشرَّفنا ورفعَنا به، فنحنُ مخصوصون بعظيمه[2]، فلا تصفو لنا الدُّنيا، ولا نزالُ فيها مفجَّعين مروَّعين، وقد بلغني تحزُّنُك بي واهتمامُك بأمري، وعرفْتُ حقيقة ذلك حين سألتني عن حالي، وسألْتَ عنِّي، وكفى بالله مجازيًا ومثيبًا، واعلم أنَّك لن تكرمني بكرامةٍ أعظم في صدري وأبلغ في سروري من أن تعجِّل لي ما يَشبعُ عيالي به، ثمَّ عجِّل إلى سراح ولدي، فتَصِلَ بهم وحدتي، وتؤنسَ بهم وحشتي.

فلمَّا سمِعَ يوسف عليه السلام قول أبيه ورسالته بكى سرًّا فاشتدَّ بكاؤه، وحزِنَ فاشتدَّ حزنُه.

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أنَّ بنيامين كتبَ على ثوبه في مواضع: يوسف

---

(١) في (أ): «بكائي».

(٢) في (أ) و(ف): «بعظمه» والمعنى متقارب.

يوسف يوسف، شوقًا إليه وتسلِّيًا بالنَّظر إلى اسمه مكتوبًا في ثوبه، فقال له يوسف: ما هذا؟ فقال: هو اسم أخٍ لي أكلَه الذِّئب وفُجعْتُ به، فجعلْتُ اسمَه تذكرةً لي وتسكينًا لقلبي.

فقال: هل كنْتَ هناك إذْ أكلَه الذِّئب؟ قال: لا، ولكن هؤلاء الإخوة ذكروا لي ذلك.

فقال لهم: أهو كذلك؟ قالوا: نعم.

قال: سمعْتُ أنَّ فيكم مَن يقلعُ الشَّجرة بأصلِها، ثمَّ يضربُها برجلِه فيجعلها قِطَعًا قِطَعًا، أهو كما سمعْتُ؟ قالوا: نعم، هو هذا. وأشاروا إلى روبيل، فقال يوسف: أكله الذئب وأنت فيهم؟ هذا محالٌ.

ثمَّ قال: سمعْتُ أنَّ فيكم مَن يدركُ الأسد بعدوِه، فيشقُّ لحيته، أهو كما سمعْتُ؟ قالوا: نعم، هو هذا. وأشاروا إلى شمعون، قال: أكله الذِّئب وأنت فيهم؟ هذا محالٌ.

ثمَّ قال: سمعْتُ أنَّ فيكم مَن لو صاح على باب مدينةٍ وضعَتْ كلُّ ذات حملٍ حملَها، ولو صاح أخرى وضعَتْ كلُّ بهيمةٍ حملَها، أهو كما سمعْتُ؟ قالوا: نعم، هو هذا. وأشاروا إلى يهوذا، قال: أكله الذِّئب وأنت فيهم؟ هذا محالٌ.

فسكتوا وخجِلوا، وكذلك العاصي في القيامة إذا لزمته الحجَّةُ.

وفي القصَّة: أنَّه دعا لهم بموائد وقِصَاعٍ، فجلس كلُّ اثنين منهم على مائدةٍ صغيرةٍ، وبقي بنيامين وحدَه، فجعل يبكي، فقال له يوسف: لِمَ تبكي؟ قال: لو كان معي أخي يوسف لم أبقَ منفردًا، قال: أترضى أن أكون لك أخًا؟ قال: لا يقومُ لي أحدٌ مقامَ أخي. فقال: أترضى أن أكونَ لك في الأكل صاحبًا؟ فقال: ومَن يجدُ ذلك؟ فضمَّه إلى نفسِه، وجلسَ يأكل معه.

فلمَّا أخرج يده ليأكل بكى بنيامين؛ فقال له يوسف: لِمَ تبكي؟ قال: ما أشبَهَ هذه اليد بيد يوسف! فقال: هذه يدُ يوسف، وأنا يوسف. فذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾، فقال بنيامين: وإذ وجدْتُكَ فلا أفارقُك، ولا أرجعُ مع أصحابي.

فقال: لقد علمْتَ اغتمامَ الوالدِ بك، وإنْ حبسْتُكَ ازدادَ غمُّه، ولا يتهيَّأ لي وجهٌ صالحٌ إلَّا بعد أنْ أتَّهمَكَ[1] بأمرٍ فظيعٍ، وأنسبَكَ إلى ما لا يَجملُ بك بحالٍ[2]. قال: لا أبالي، فافعلْ ما بدا لك، فإنِّي لا أفارقُكَ.

قال: فإنِّي أدسُّ صاعي هذا في رحلِكَ، ثمَّ أنادي عليك بالسَّرقة ليتهيَّأ لي ردُّك بعدَ تسريحك. قال: فافعل.

* * *

(٧٠) ـ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾: فسَّرناه مرَّةً.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾: السِّقايةُ: هي الإناءُ الَّذي يُسقى فيه، وهي هاهنا صاع الملك، فكان يشربُ منه.

وقيل: كان مِن فضَّةٍ.

وقال ابن زيدٍ: كان مِن ذهب[3].

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كان مِن نحاسٍ[4].

---

(١) في (ف) و(أ): «أشهرك».

(٢) «بحالٍ» ليس في (ف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧١).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٥١).

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ يحتمِل أنَّ يوسف وضعَها بنفسِه وأخفاها عن الكلِّ، فلمَّا افتَقدوا طَلبوا، وبما ظَنُّوا اتَّهموا، ويحتمِل أنَّه أمرَ بعضَ خواصِّه بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: أي: نادى منادٍ مُعلِمًا مُسمِعًا: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ قال الفرَّاء: هم ركابُ الإبل[1].

﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾: أي: فيكم سارقٌ، أو جماعةٌ اشتركوا في السَّرقة.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: هانَ على بنيامين ما قيل فيه من السَّرقة بعدما بقي مع يوسف.

وقيل: لَئِنْ نسبَ يوسفُ أخاه إلى السَّرقة جهرًا فقد تعرَّف إليه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ سرًّا، فكان متحمِّلًا لأعباء الملامَةِ ظاهرًا، محمولًا بوجدان الكرامة باطنًا، وأنشد:

أجِدُ الملامَةَ في هواكَ لذيذةً حبًّا لذِكرِكَ فلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ[2]

قال وهبٌ: وأمرَ يوسفُ بالصُّواع فدُسَّ في رحلِ بنيامين، وكان إناءَه الَّذي يشربُ فيه، وكان من نحاسٍ، فلمَّا فصَلَتِ العير وأمعنوا أرسل الطَّلبَ في أثرهم، فلم يشعروا حتَّى أُخِذَ[3] بخُطُمِ رواحلهم، فقالوا: ما خطبُكم؟ فأذَّن مؤذِّن الملكِ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.

* * *

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٥٧).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٩٥). والبيت لأبي شيص محمد بن عبد الله بن رزين. كما في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢/ ٨٣٢)، و«العقد» لابن عبد ربه (٦/ ٢٢٠).

(٣) في (ف): «أخذوا».

(٧١) ـ ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾: أي: إخوة يوسف ﴿وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم﴾؛ أي: توجَّهوا إلى مَن أرسلَهم يوسف: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾؛ أي: أيَّ شيءٍ فقدْتُم فجئْتُم تطلبونَهُ؟

* * *

(٧٢) ـ ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾: هو اسمُ تلك السِّقاية، وكان صاعًا يُكالُ به الطَّعام ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾؛ أي: ولِمَن ردَّه علينا حِمْلُ بعيرٍ طعامًا ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾؛ أي: كفيلٌ بتسليمِه إليه، والزَّعامةُ: الكفالةُ، مِن حدِّ دخل.

وقال في «كتاب عصمة الأنبياء» في قوله: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾: فإنْ قالوا: لِمَ استجازَ يوسفُ هذا، وهذا يُعَدُّ فيما بينَ النَّاس مِن أسبابِ الخيانة والخديعة؟

قلنا: إنَّه فعل ذلك بالوحي؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ والله تعالى أجرى في أحوال يوسف وإخوته وأبيه من الأعجوبات ما تنقطعُ عنه علومُ العباد، ولا تقفُ على كُنْهِ معانيه، حتَّى يرجعوا إلى تسليم القدرة.

وكان قصدُه بوضعِه ذلك في رحلِ أخيه[١] ابتداءً إمساكُه، وله ذلك لأنَّه أخوه، ولو حبسَه مِن غير علَّةٍ ربَّما كانت تقع المماكسة[٢] بين الإخوة، ولم يكنْ وقتَ إظهار حقيقة الحال، ففعل ما لا يجدون السَّبيل إلى منعِه إلى أن ينقضيَ الأمرُ في حكم الله تعالى.

---

(١) في (ف) و(أ): «رحله».

(٢) في (ف): «المماسكة».

وقول المنادي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ له وجوهٌ:

أحدها: ما قال الإمام أبو منصور رحمه الله: إنَّ المنادي به لمْ يكن يوسفَ، وإنَّما كان مِن خدمِه، أو مِن القوَّم[1] على أسبابِ مملكتِه، وهم قلَّما يراعون حدودَ الكلامِ حتَّى يُتكلَّفَ لتحسين كلامِهم[2].

وقال الإمام البشاغري: إنَّ وضعَه في رحلِه كان في منزلِ يوسف، بحيث حملوا وصاروا هم مخرِجين ذلك الوعاء فعلًا، وإنْ لم يشعروا به، فمِن جهةِ عينِ الفعل بحملِ ذلك الوعاء سُمُّوا سارقين؛ لاجتماعهم على إخراجِ الرِّحال مِن دارِه، ألا ترى في الأحكام: مَن حَلَفَ لا يحملُ مِن منزلِه ثوبًا، وقد كان الثَّوب في ظرفٍ وحملَه به = أنَّه يحنث في يمينِه وإن لم يشعرْ به، وهو موجبٌ للضَّمان إذا حملَه إنسانٌ.

ويوسفُ عليه السلام وإنْ[3] جعلَه في وعاءِ أخيه لم يأمرْ بإخراجِه من الدَّار، ولا برفعِ الرَّحل، فما فعلوا فعلوا بغير أمرِه، ومَن أخرجَ متاعًا مِن دار إنسانٍ فهو في ضمان المخرِجِ إذا كان بغير أمرِه؛ فلذلك سمُّوا سارقين على هذا التَّأويل.

وقيل: هو على الاستفهام؛ أي: أئنَّكم لسارقون؟ لأنَّ مِنَ الجائز أن يكون ظهرَ منهم عند يوسف مِن بدء أمرهم إلى اليوم ما يُطلق لهم تسميتُهم به، وإنْ لم يكونوا سارقين هذا الوعاء.

وقيل: كان تعريضًا بإخراجِهم[4] يوسفَ مِن عندِ أبيه، كاتمينَ ما قصدوا أن يفعلوا به من تغييبِه عنه.

---

(١) في (أ): «القوام».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٦٦).

(٣) في (أ): «فيما» وفي (ف): «فلما».

(٤) في (ر): «بإخراج».

(٧٣) ـ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾: أرادوا به ما انتشرَ به الخبرُ عنهم في طريقِهم مِن جهة مَن صحبَهم بصلاحِهم وظهورِ أعمالِ الخير منهم ومعاملتهم النَّاس بالإنصاف والإحسان.

وروي أنَّهم كانوا في طريقِهم لا ينزلون أرضًا هي ملكُ الغير، ولا يرعون لأحدٍ زرعًا، وكانوا جعلوا على أفواه دوابهم الألجمة[1] لئلَّا تتناولَ الزَّرع، ولأنَّهم ردُّوا البضاعة الَّتي جُعلَتْ في رحالهم.

قال وهبٌ: قالوا لأولاد يعقوب: ما هكذا كان جزاؤنا منكم، ألم نكرِمْ ضيافتكم، ونوفِّ كيلَكم، ونحسن نُزُلَكم، ونفعلْ بكم ما لم نفعَلْه[2] بغيركم؟ ألم ندخلْكُم في منازِلنا وبيوتِنا؟

فقالوا: ما نُعرَفُ بهذا، ولا نُوصَفُ به، ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾.

* * *

(٧٤ ـ ٧٥) ـ ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قالَ: فأنيخوا نفتِّشْ رحالَكم، فأناخوا واثقِينَ[3] بما يقولون

---

(١) في (أ): «الأكمة». الأكمة: جمع الكِمامة بالكسر، وهو ما يوضع على فم البعير لئلا يعض.

(٢) في (ف): «نفعل».

(٣) في (ر): «وأيقنوا».

مِن براءَتهم، شديدةً ألسنتُهم وقلوبُهم، فبدأ برحلِ أخيهم الأكبر، ثم بالَّذي يليه، حتَّى بلغَ رحل بنيامين، فوجد الصُّواع مدسوسًا، فلمَّا استخرجَه منه نَكَسُوا رؤوسَهم، وانكسرَتْ قلوبُهم، وانقطعَتْ ألسنتُهم، وخَلَوا بأخيهم، وقالوا: يا ابنَ المشؤومةِ، وأخا المشؤوم، ما هذا إلَّا مِن شُؤمِ أمِّكَ، وشؤمِ ولدِها[١]، ولولا ائتمرنا في أخيك أمراً جازماً لجرَّ علينا[٢] أعظم من جريرتِك، فما الَّذي حملَكَ على أن تسرقَ صُواعَ الملكِ فتفضَحَنا وتفضحَ نفسَك، وتُزْرِيَ بأبيك الصِّدِّيق؟ وليس هذا بأوَّل ما ساءَتْنا أمُّكَ بولدِها، حتَّى في يوسف حين صرفَ وجهَ أبينا عنَّا، فحمَلَنا شؤمُكُم على أنْ أحزَنَّا أبانا، وبِعْنا أخانا، ولو كنَّا فعلنا ذلك بك لاستَرَحْنا[٣]، ولخلا لنا وجهُ أبينا.

فقال لهم بنيامين: اسمعوا منِّي[٤] يا إخوتاه، لا تعجَلوا عليَّ ولا تشتموني، فإنِّي سآتيكم بوجهٍ من الحقِّ تعرفونَه وتعرفون به براءَتي وعذري، ألستم تعلمون أنَّ بضائِعَكُم قد دُسَّتْ في رحالِكم يوم صدرْتُم مِن عند هذا الملك مِن غير علمٍ منكم؟ فإنْ كنتم أنتم سرقتموها ودسَّيتموها في رحالكم كنْتُ أنا سرقْتُ الصُّواع ودسسْتُه في رَحْلي، وإن كنْتُم لا تدرون مَن دسَّ البضائع في رحالِكم فكذلك لسْتُ أدري مَنْ دسَّ الصُّواع في رحلي، وإلَّا فاعلموا أنَّ هذا الملك يريد بكم أمرًا، فهو يمكرُ بكم من أجلِه.

فلمَّا قال لهم هذا نظروا فيما قالَ، فأخذَ بأنفسِهم وتعلَّق بقلوبِهم وصدَّقوه،

---

(١) بعدها في (أ): «يندفع»، وفي : «تترفع».

(٢) في (أ) و(ر): «ولولا أنتم ما في أخيك أمرًا حارمًا لجر علينا» وفي (ر): «ولولا أنتم ما في أخيك أمرًا جازمًا تجرأ علينا»، وفي (ف): «ولولا أنتم ما جرى علينا». وكلها كما ترى.

(٣) «ولو كنا ما فعلنا ذلك لاسترحنا».

(٤) «اسمعوا منِّي» ليس في (ف).

فلمَّا رجعوا إلى يوسف ودخلوا عليه قالَ لهم: كيفَ رأيْتُم فراسَتي فيكم، وعلْمِي بأمرِكُم، أليسَ قد أخبرتُكم أوَّل يومٍ رأيتُكم أنَّكم سرَّاق فأنكرْتُم وحلفْتُم؟ وايم اللهِ، لا تبرحون حتَّى أسألَ الصُّواع عنكم، فيخبرَني بخبرِكُم، فإنَّه غضبان عليكم مِن أجلِ أنَّكم سرقْتُموه، فهو خليقٌ أنْ يفضحَكُم، وألَّا يسترَ شيئًا مِن مساوِئِكُم.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾: يعني: أسوأُ صنيعًا بما صنعْتُم بيوسفَ ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾: بما تقولون مِن الكذبِ بأنَّ أخاه يوسف سرقَ.

وإنَّما عيَّروا يوسف[1] بالسَّرقة؛ لأنَّه كان لجدِّ يوسف أبي أمِّه صنمٌ يعبدُه، فقالَتْ أمُّ يوسف ليوسف: خذْ هذا الصَّنم الَّذي يعبدُه جدُّك فغيِّبْهُ؛ لعلَّه يتركُ عبادةَ الأصنام، وكان صنمًا مِن ذهبٍ، فغيَّبه يوسف، فلم يقدروا عليه، فمِن أجل الصَّنم قالوا: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾.

ثمَّ قال يوسف لأمينِه: سَلْ هذا الصُّواع عن خبر هؤلاء القوم، وحذِّره أن يكتمَ شيئًا من أمرِهِمْ.

فنقرَهُ الأمينُ[2]، ثمَّ قال: أخبرِ الملكَ بالَّذي سألَكَ عنه، فطنَّ الصُّواع ساعةً، والأمينُ مصغٍ إليه بأذنِه، فلمَّا سكَتَ الصُّواع قال الأمينُ: إنَّه يقول لك: أيُّها الملك، إنَّ هؤلاء القومَ ليس هذا بأوَّلِ ما سرقوا، إنَّهم سرقوا قبلَ صُواعِك هذا غلامًا حرًّا فباعوه.

قال: زدْ فسَلْه عنهم، وقلْ له: يخبرني مِن أخبارهم، فنقر الصُّواع، فطنَّ وهو مصغٍ إليه بأذنِه، فلمَّا سكتَ الصُّواع قال الأمينُ: إنَّه يقول: إنَّ أخاهم الَّذي أخبروك

---

(١) في (ر) و(ف): «عيروه».

(٢) في (ف): «فنقر الأمين الصواع».

أنَّه قد ماتَ حيٌّ، ولكنَّه مغتربٌ بأرضٍ بعيدةٍ، وهو بها حيٌّ سليمٌ، وزعم الصُّواعُ أنَّهم لم يَصْدُقوك.

قال: زدْ فسَلْه عنهم، وقل له: أخبرنا مِن أخبارِهم، فنقرَ الأمينُ فطنَّ وهو مصغٍ إليه بأذنِه، فلمَّا سكتَ الصُّواع قال الأمين: أيُّها الملك، إنَّ هؤلاء القوم أخبروك أنَّهم لأمٍّ واحدةٍ، وقد كذبوا، ولكنَّهم لعَلَّاتٍ، وإنَّما جمعَ إلفَتَهُم غدرةٌ غدرُوها بأبيهم، ولولا ذلك لكان بينهم ما يكون بينَ أولاد عَلَّات.

قال: فزدْهُ فسلْهُ عنهم، وقلْ له يخبرنا مِن أخبارهم، فنقرَه فطنَّ وهو مصغٍ إليه بأذنِه، فلمَّا سكتَ قال الأمينُ: أيُّها الملك، إنَّ الصُّواع يقول لك: ما على ظهر الأرضِ مِن عصابةٍ هي أكذبُ مِن هؤلاءِ القوم، لقد كذبوا أباهم كذبةً ما استقالوها بعدُ، ولا غُفِرَتْ لهم.

قال: فزِدْ فسَلْهُ عنهم، وقلْ له يخبرنا مِن أخبارهم، فنقرَهُ فطَنَّ وهو مصغٍ إليه بأذنِه، فلمَّا سكتَ قال الأمين: أيُّها الملك، إنَّ الصُّواع يقول: ما دخل على أبي هؤلاء القوم مذ عقلوا همٌّ ولا حزنٌ ولا بلاءٌ ولا بكاءٌ إلَّا مِن جهتِهم وسببِهم وعلى أيديهم وبجرائرِهم.

فلمَّا خافوا أن يبلغَ بهم الخبرُ والمسائل شأنَ يوسف وفعلَهم الَّذي فعلوه به وبأبيهم[1] أكبُّوا على يوسف فالتزموه يقبِّلون رأسَه وقدمَيْه، ويسألونَه باللهِ، ويذكِّرونَه ويقولون له: نسألُكَ بالَّذي فضَّلَكَ على العالمين، وشبَّهَكَ بالنبيِّين لَمَا سترْتَ العورةَ، وأقلْتَ العَثْرةَ، وكنْتَ عندَ حسنِ الظَّنِّ بك، والرَّجاءِ فيك، وإلَّا ما حفظْتَ[2] رسالةَ أبينا يعقوب إليك، ووصيَّتَه فينا، ورحِمْتَ ضعفَه وكبرَه ووحدَتَه بعدَنا، ووحشَتَه بغيبتنا.

---

(١) «وبأبيهم» ليس في (ف).

(٢) في (أ) و(ر): «وحفظت» بدل «وإلا ما حفظت».

فرقَّ حين ذكروا أباه، وأدركَتْه الرَّحمةُ لهم فقال: أَمَا واللهِ لولا حرمةُ يعقوبَ وحقُّه ووصيَّتُه ورسالَتُه لنكَّلْتُ بكم مِن خلفِكُم، ولشركْتُ[1] بكم السُّرَّاق واللُّصوص، فانطلِقوا فقد عفوْتُ عنكم، فاغربوا[2] فلا حاجةَ لي فيكم، وعجِّلوا بميرَتِكم إلى أبيكم، فإنَّه قد أوعز إليَّ أن أعجِّلَكم.

قالوا: فارحمْ كبرَه بابنِه هذا الَّذي تريدُ أنْ تحبسَه، فإنَّك لن تصلَهُ بصلةٍ أبلغَ منها، وإنَّك إنْ حبسْتَه ضاعفْتَ عليه البلاء.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾: أي: قال طالبو الصُّواع: فما مكافأة السَّارق؟

وقيل: فما عوضُ الصُّواع إنْ ظهرَ كذبُكُم بوجودِ الصُّواع معَكم؟

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾: أي: قال إخوةُ يوسف: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ ...﴾.

قيل: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأٌ، وقوله: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾ خبرُه، ومعناه: عوضُ المسروقِ سارقُه؛ أي: فيُؤخَذ فيُملَكُ ويُستَعْبَدُ، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تأكيدٌ للتَّكرير، ومعناه: إنَّه الجزاءُ لا غير.

وقيل: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾ شرطٌ، وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ خبرُه، وهذه الجملة خبرُ قوله: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ في الابتداء.

وقيل: كان هذا حكمَ يعقوبَ في السُّرَّاق، فأَخبَروا بما هو حكم بلادِهم، ولذلك قال:

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: السُّرَّاقَ؛ أي: هو حكمُ شريعتِنا.

---

(١) في (أ): «ولشددت»، وفي (ر): «ولشردت».

(٢) في (ف): «فاعزموا».

وقيل: لم يكن ذلك حكمَ يعقوب، بل كان ذلك[1] حكمَ أهلِ مصر، فبادروا بالتزام هذا الحكمِ قبلَ أن يُجبَروا عليه.

وقيل: لم يكن ذلك حكمَ أحدِ الفريقَيْن، وإنَّما هو شيءٌ اتَّفق لهم القولُ به ثقةً منهم بأنَّهم لم يسرقوا، فنفَوا التُّهمة عن أنفسِهم بالتزامِهم أغلظَ ما يكون رسمًا[2] وحكمًا في السُّرَّاق، فكان ذلك أمرًا أرادَه الله تعالى إتمامًا لمرادِ يوسفَ مِن احتباس أخيه عندَه، فأجرى هذا القول على ألسنتِهم.

وقيل: معنى قوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾؛ أي: هو الَّذي يُجزَى جزاءَ السُّرَّاقِ دون غيره.

* * *

(٧٦) ـ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾: أي: بدأ المؤذِّن برحال الإخوة قبل رحلِ أخي يوسف وهو بنيامين، والوعاءُ: الظَّرفُ الَّذي يُوعَى فيه الشَّيء؛ أي: يُحفَظُ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾؛ أي: أخرجَ السِّقاية، وقال الزَّجَّاج: أي: الصُّواع، ويذكَّر ويؤنَّث، فلذلك قال: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾، ثمَّ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾: أي: كدنا إخوةَ يوسف ليوسف[4]،

---

(١) في (أ) و(ر): «هو».

(٢) في (أ): «وسمًا».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٢٢).

(٤) «ليوسف» ليس في (أ).

والكيدُ: التَّعريضُ للضَّرر في خفاء؛ أي: أوقعنا هذا النَّوع من الحال على إخوة يوسف لأَجْل يوسف[١]؛ ليتهيَّأ له حبسُ أخيه بهذا النَّوع من السَّبب.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾: أي: لم يكن يوسف ليأخُذَ أخاه في حكم ملكِ مصر، وعادةِ ملك مصر ـ فالدِّين اسمٌ لهما ـ بتهمةِ السَّرقة، وبحبسِه، إلَّا أن يسبِّب[٢] اللهُ له التزامَ الإخوة في ذلك حكمَ شريعة أبيهم، وهذا على قول مَن جعل استرقاقَ السَّارق[٣] حكمَ يعقوبَ دونَ أهل مصر.

وأمَّا على قولِ مَن عكسَ هذا القولَ فتأويلُه: كذلك كِدْنا ليوسف في إظهار السَّرقة على أخيه، وما كان له أخذُه في حكم مَلِك مصرَ إلَّا بالسَّرقة.

فالمشيئة على هذا واقعةٌ على وقوع السَّرقة منه.

ودلَّت الآية على أنَّ أفعالَ العباد حسَنَها وقبيحَها بمشيئة الله تعالى.

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؛ أي: صنعْنا[٤].

وقال الرَّبيع بن أنس: أي: ألهمنا[٥].

وقيل: قوله: ﴿كِدْنَا﴾؛ أي: كما فعلوا في الابتداءِ بيوسفَ فعلْنَا بهم، قال تعالى خبرًا عن يعقوب عليه السلام أنَّه قال: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾، وكان هذا جزاءَ كيدِهم ذلك.

وقوله: ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أي: في سلطان الملك[٦].

---

(١) في (ر): «ليوسف؛ لأجل يوسف»، وكلها ليست في (أ).

(٢) في (أ): «يشاء».

(٣) في (ر) و(ف): «جعل الاسترقاق».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٢).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٢)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ١٨٨).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٦).

وقال قتادة: في قضاء الملك[١].

وقال مجاهد: في سُنَّة الملك[٢].

وقوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾: أي: بتعليم العلمِ في كلِّ باب، والإيصالِ به إلى المحابّ ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ حتَّى ينتهي العلمُ إلى الله تعالى، فلا يكون فوقَه عليمٌ.

* * *

(٧٧) ـ ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾: أي: قال الإخوة: إنْ سَرَقَ هذا الأخُ فقد سرق أخٌ له مِن قبلُ، وهو يوسف[٣]، وهذا اقتداءٌ بأخيه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾: أي: فأخفى هذه المقالةَ يوسفُ في قلبه ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾؛ أي: لم يُظهرْها لهم؛ أي: لم يقلْ: أنا يوسفُ وما سرقْتُ قطُّ، فلِمَ كذبْتُم عليَّ؟

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾: أي: قال في نفسه: أنتم أسوءُ حالًا منه إنْ ثبتَ منه ما تقولون عليه، فأنتم جفوْتُم أباكم، وبعْتُم أخاكم، وقصدْتُم قتلَه أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾: أي: بما تصفونَه به مِن السَّرقةِ.

واختلفَ في وجهِ إضافتهم السَّرقة إليه:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٦) بلفظ: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ إلا فعلة كادها الله له، فاعتل بها يوسف.

(٣) «وهو يوسف» ليس في (ف).

قال ابن عبَّاسٍ ومجاهد: كان لإبراهيم منطقةٌ كانوا يتوارثونها الكُبْرَ مِن أولاده، فورثَها ابنه إسحاق، ثمَّ وقعَتْ إلى رحمةَ بنت إسحاق أخت يعقوب، وكانت أكبر أولاد إسحاق، وماتَتْ أمُّ يوسف راحيل، فحضنَتْ رحمةُ يوسفَ، وكانت تربِّيه إلى أن شبَّ، وكانت لا تصبرُ عنه ساعةً، فلمَّا شبَّ أراد يعقوب أن ينزعَه منها ويردَّه إلى منزلِه، فعلمَتْ بذلك أختُه، فشدَّتِ المنطقة على وسط يوسف، وبعثَتْ به إلى يعقوب، ثمَّ أتَتْ على إثره فقالَتْ: فقدْتُ المنطقةَ، ولم أجدْها في بيتي، ففتَّشوا ثياب يوسف، فإذا المنطقة على وسطه، وكانت سُنَّةُ آلِ يعقوب استرقاقَ اللُّصوص والسُّرَّاق ثلاثة أشهرٍ، فردَّتْ يوسفَ إلى منزلها ثلاثةَ أشهرٍ، فذلك قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون: أنَّ يوسفَ سرقَ المنطقة[1].

وقال وهبٌ: كان يخبِّئُ الطَّعام مِن المائدةِ للفقراء[2].

وقال كعب: كان يوسفُ في المنزل وحده، فأتى يوسفَ سائِلٌ، وكان في المنزل عَناقٌ ـ وهو الأنثى من الجَدْي ـ فدفعَها إلى السَّائل مِن غير أمر أبيه[3].

وقال ابن إسحاق: كان في منزل يعقوب جوبة[4] فيها صنمٌ لجدٍّ أمِّ يوسف، فحمله يوسف فألقاه فيما نتنَ من الجيف، وغطَّاه بالتَّراب[5].

وقد حكيناه عن وهب في سياق القصَّة أتمَّ مِن هذا.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٧٨) عن مجاهد.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٣). وذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ١٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما ووهب.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٣).

(٤) في (ف): «جونة». والجوبة: الحفرة، وفجوة ما بين البيوت، أو فضاء أملس بين أرضين. انظر: «القاموس» (مادة جوب).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣) عن سعيد بن جبير وقتادة وابن جريج.

وقال سفيان بن عيينة: سرقَ يوسفُ دجاجةً كانت في بيت يعقوب، وأعطاها سائلًا(١).

* * *

(٧٨) ـ ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾: العزيزُ: المنيعُ.

وقوله: ﴿كَبِيرًا﴾؛ أي: في السِّنِّ، والكبير في القرآن لمعانٍ:

أحدُها: هذا.

والثَّاني: الكثير: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ يعني: قليلًا أو كثيرًا.

والثَّالث: العظيم؛ قال تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

والرَّابع: الطَّويل؛ قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩]؛ أي: شقاءٍ طويلٍ.

والخامس: الشَّديد؛ قال تعالى: ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩].

والسَّادس: الأعلم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ﴾ [طه: ٧١].

والسَّابع: الأعقل؛ قال تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو يهوذا، وكان روبيل أكبرهم سنًّا.

وإنَّما استشفعوا بكون أبيهم شيخًا كبيرًا، ولم يقولوا: رسولًا نبيًّا؛ لأنَّ الشُّيوخ

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٣).

لهم حرمةٌ، والكبر في السِّنِّ داعٍ إلى المرحمة، فقالوا ذلك استعطافًا؛ كما قال في قصَّة شعيب: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣]، وفي قصَّة زكريَّا: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾: أي: خذ واحدًا منَّا عبدًا بدلَه ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: أحسنْتَ إلينا في الإنزال والكيل وفي ردِّ البضاعة، وتحسنُ في معاملات النَّاس، فأحسِن إلى[1] أبينا بردِّ هذا الولد إليه، وأحسِن إلينا بصرفِه معنا، فتزول وحدة أبينا عنَّا.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: ظنُّوا أنَّ واحدًا منهم يقوم مقامَه فيما هو مقصودُه، ولا بدلَ عن المحبوب، قال قائلهم:

أبى القلبُ إلَّا حبَّ ليلى وبغِّضَتْ إليَّ نساءٌ ما لهنَّ ذنوبٌ[2]

* * *

(٧٩) ـ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾: أي: نعوذُ باللهِ أن نأخذَ غيرَ الجاني في حقِّنا، ولم يكن العَوذُ مِن ترك أخذ بنيامين، بل مِن أخذ غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾: لو فعلنا ذلك.

---

(١) في (ف): «فأحسن إلينا وإلى أبينا».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٩٨). ونسب البيت للأقرع بن معاذ القشيري كما في «الأمالي» للقالي (٢/ ٤٣)، ولكثير عزة كما في «خزانة الأدب» للبغدادي (٣/ ٢٠٧)، وفيه عندهما بعض اختلاف.

قال وهبٌ: قال لهم يوسف: تزعمون أنَّكم أولاد الأنبياء، أفتجدون في حكم النُّبوَّة أن يُؤخَذ البريء ويُترَك المذنب؟ أهكذا حكم يعقوب؟

فغضبَ يهوذا حتَّى قامَت شعرةٌ في ظهرِه كانت تقومُ إذا غضبَ(١)، فلا تسكنُ تلك الشَّعرةُ حتَّى يمسَّه بعضُ ولدِ يعقوب، فقال: والله لترسلنَّه أو لأصيحَنَّ صيحةً لا تبقى حُبلى في ملكِك إلَّا وضعَتْ ما في بطنها، فلمَّا همَّ أن يصيحَ قال يوسف لابنه: اذهب فخذْ بيدِه فائتني به، فأخذ بيدِه فجاءَ به إلى أبيه، فسكتَ غضبُ يهوذا، قال: والله لقد أصابتني كفٌّ إنَّها مِن ولد يعقوب، فكفُّ مَن هي؟ قال: كفُّ ابنِ الملك، قال: فوالله إنَّه لينبغي أن يكون من ولدِ يعقوب.

***

(٨٠) ـ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾: أي: يئسوا مِن ردِّ أخيهم ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾؛ أي: خرجوا مِن بين النَّاس، فخلصوا منهم نجِيًّا؛ أي: متناجين، وهو مصدرٌ في الأصل؛ يصلح للواحد كما في قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وللجمع كما في هذه الآية؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧].

وقيل: النَّجيُّ: جمع النَّاجي، كالنَّدِيِّ جمع النَّادي(٢)، والغزِيِّ جمع الغازي، والحَجيج جمع الحاج.

---

(١) «كانت تقوم إذا غضب» ليس في (ف).

(٢) «جمع النادي» من (أ).

و﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ مِن فصيحات القرآن، و﴿خَلَصُواْ﴾ انفردوا، وأصله: الصَّفاء عن الشَّوب؛ أي: لم يبقَ معهم غيرهم.

والنَّجيُّ يجمع على الأنجية، قال الشاعر:

إنِّي إذا ما القومُ كانوا أنْجِيَةْ ... واختلفَ القومُ اختلافَ الأرْشِيَةْ

هناك أوصِيني ولا تُوصِي بِيَهْ[١]

يقول: لمَّا قنطوا من ردِّه إليهم انفردوا خالصين لا يختلط غيرهم بهم يتناجَون؛ أي: يتسارُّون[٢] في الأمر الَّذي عرض لهم ماذا يصنعون؛ أيرجعون إلى أبيهم، أم يقيمون بمصر إلى أن يُعلموه خبرَ أخيهم، أو يقاتلوا يوسفَ في استنقاذ أخيهم؟

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾: قيل: أكبرهم سنًّا، وهو روبيل.

وقال مجاهد: هو شمعون، ولم يكن أكبرهم في السنِّ، بل كان أكبرهم في العقل[٣].

وقال الكلبيُّ ووهبٌ: هو يهوذا[٤].

وقال محمَّد بن إسحاق: هو لاوي[٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾: هو قوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

---

(١) الرجز لسحيم بن وثيل اليربوعي كما في «لسان العرب» لابن منظور (مادة: نجا)، ودون نسبة في «العين» (٦/ ٢٨١)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٢٣٥)، وغيرها.

(٢) في (ف): «يتشاورون».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨١).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٥)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٠٣).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ رفعٌ على الغاية.

و﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾ له ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: ﴿مَا﴾ مع الفعل مصدرٌ، وإعرابُه الرَّفع، وهو خبر ﴿وَمِن قَبْلُ﴾؛ أي: ومِن قبلِ هذا تفريطُكُم.

وقيل: نصبٌ بوقوع ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ عليه؛ أي: ألم تعلموا تفريطَكُم في أمر يوسف.

وقيل: ﴿مَا﴾ صلةٌ زائدة، وتقديرُه: ومِن قَبْلِ هذا فرَّطْتُم[1] في يوسفَ؛ أي: قصَّرتم في أمره وضيَّعتموه.

وقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾: وقوله: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: ٦٠] هما متقابلان في التَّفسير؛ فلن أبرحَ الإقامةَ مِن غير ذهابٍ، ولا أبرحُ للمسير بدون المقام، وإنَّما صحَّ ذلك مع أنَّهما متضادَّان؛ لأنَّ المعنى فيهما: لا أزول، فمعنى ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾: فلن أزايلَ المقامَ، ومعنى (لا أبرحُ): لا أزايل[2] المسير.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾: أي: في الرُّجوع إليه، وقيل: في القتال.

﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾: بالرُّجوعِ بأنْ يَظهرَ عذري عند أبي، فحينئذ أرجع، أو يصلَ إلينا أخونا، أو يحكمَ الله لي بالسَّيف أن أحاربَهم وآخذَ الأخ منهم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: لا خطأَ في حكمِه، ولا زللَ، ولا رشوة[3].

---

(١) في النسخ: «ومن قبل ما فرطتم»، والصواب المثبت. انظر: «البحر المحيط» (١٢/ ٥٣٦).

(٢) في (أ): «أزيل» في الموضعين.

(٣) بعدها في (أ) و(ر): «ولا حشمة»، ولعل المراد بها هنا: الانقباض. انظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ٦٣). وفي «العين» (٣/ ٩٩): الحِشمةُ: الانقباض عن أخيك في المَطْعَم وطَلَب الحاجة.

(٨١) ـ ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾: قال هذا الكبير لإخوته: ارجعوا إلى أبيكم، فأنا مقيمٌ بمصرَ، وأوضحوا له عذركم ﴿فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾؛ أي: حُكِمَ عليه بالسَّرقة ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾؛ أي: عليه بالسَّرقة عندك ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ مِن الأمرِ الظَّاهر بوجود المسروق في رحلِه.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾: أي: ولم نكن نحفظُ الغيب، فندفعَ عنه، فنقولَ: إنَّه لم يسرق؛ أو[١] لم نعلمْ أنَّ الأمر في الباطنِ بخلافِ الظَّاهر[٢]، فسلَّمنا لَمَّا حُكِمَ عليه بالسَّرقة على الظَّاهر.

وقيل: وما كنَّا نحفظُ الغيبَ فنعلمَ أنَّه سيسرقُ، ولو علمنا ذلك لكنَّا لا[٣] نخرجُ به، وكنَّا ضمنَّا لك حفظَه ممَّا يمكننا أن نحفظَه عنه مِن الآفات في الطَّريق، فأمَّا السَّرقة فممَّا لا يكون لنا إلى حفظِه منها سبيل.

وقال عبدُ الرَّحمنِ بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾؛ أي: ما شهدنا عند الملك[٤] أنَّ السَّارق يُسترَقُّ إلَّا بما علمنا من أن ذلك هو الواجبُ في الحكم، ولم نعلم في الحقيقة هل سرق ابنك أم لا؟ إلَّا أنَّه وُجِدَ الصُّواع في متاعه[٥].

---

(١) في (ر) و(ف): «إذ».

(٢) في (ف): «الظاهر ذلك».

(٣) في (ف): «ما كنا» بدل: «لكنا لا».

(٤) في (ر): «يوسف».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٢).

وقرأ الضَّحَّاك: (إنَّ ابنَكَ سُرِّقَ) بضم السِّين وتشديد الرَّاء على ما لم يسمَّ فاعله[1]؛ أي: نُسِبَ إلى السَّرقة، كقولك: صُدِّقَ وكُذِّبَ.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾؛ أي: لم نعلم ما كان يصنعُ في ليلِه ونهارِه، ومجيئِه وذهابِه.

وقال ابن كيسان: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾؛ أي: لم نعلمْ أنَّك تُصابُ به كما أُصبْتَ بيوسف، ولو علمنا ذلك لم نحرقْ قلبَك، ولم نذهب به.

وقال عكرمة: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾: فلعلَّها دُسَّتْ باللَّيل في رحله، ولا علم لنا به.

وقال محمد بن إسحاق: أي: لم نطَّلع على أنَّه سرق، ولكنَّهم سرَّقوه[2].

* * *

(٨٢) ـ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾: أي: وسَلْ أهلَ القريةِ، أضمرَ الأهلَ لدلالة الحال ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ومعناه: وسَلْ أهلَها؛ فإنَّ العيرَ اسمٌ للإبلِ والحمير الَّتي تحمل الأحمال في المسير.

﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾: فيما نخبرُكَ به أنَّه سرق.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٦)، ونسبت هذه القراءة لابن عباس رضي الله عنه. انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٧٠).
وذكرت بعض كتب التفسير عن الضحاك أنه قرأ: (سارق) اسم فاعل. انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢٧٠)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٢/ ٥٣٩)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي (٦/ ٥٤٣).

(٢) ذكر هذه الأقوال الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٦)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٠٧).

وقـال ابن عبَّـاس رضي الله عنهمـا: ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾: هي مصـرُ، ﴿وَٱلْعِيرَ﴾: القافلة الخارجة[(١)].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في رواية: أنَّها قرية من قرى مصر[(٢)]، كانوا خرجوا مع الميرة إليها، فلحقهم المنادي بها.

ثمَّ بعدَ هذه الآية مُضمَرٌ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ أي: فرجعوا وقالوا له ذلك، فقال هو ذلك.

قال وهبٌ: فلمَّا رجعوا إلى أبيهم فأخبروه الخبر كذَّبهم واتَّهمهم، وساء ظنُّه بهم، وقال لهم ذلك: كلَّما توجَّهتم وجهًا نقصَ منكم واحدٌ، توشكون أن لا يبقى منكم أحدٌ. وظنَّ أنَّ يهوذا إنَّما تخلَّف عنه مكرًا وحيلة ليصدِّقهم، فقال ـ وهو قوله تعالى ـ:

* * *

(٨٣) ـ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، قال قتادة: أي: زيَّنَتْ[(٣)].

وقيل: سهَّلَتْ؛ أي: ما هو عندي كما تقولون، وإنَّما زيَّن لكم هوى أنفسِكم أمرًا همَمْتُم به في هذا الأمر، كما فعلتُموه بيوسف.

وقوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: أي: فلا أرجع إلَّا إلى الصَّبر الجميل الذي أكظم عليه ولا أبثُّه إلى مخلوق.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩١).

(٢) رواه الكلبي عن ابن عباس. انظر: «البسيط» (١٢/ ٢٠٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١١).

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾: يوسف وأخويه بنيامين ويهوذا.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾: بحالي وبوجدي وبصبري، وبصدقكم وكذبكم، وهو ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيما يدبِّرُه في أمور عبادِه، فليس يدبِّرُ أمري إلَّا بما هو صلاحٌ لي، ونفعٌ في دنياي وديني، فأنا مسلِّمٌ لتدبيرِه.

وقيل: المؤمنُ المحقِّقُ كلَّما ازدادَ بلاءً ازدادَ رجاءً.

وقال الإمامُ القشيريُّ رحمه الله: لَمَّا وعدَ مِن نفسِه الصَّبرَ الجميلَ لم يمضِ عليه يومُه حتَّى قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ ليعلم أنَّ عزمَ الأحبابِ على الصَّبرِ منقوضٌ غيرُ محفوظٍ[1].

* * *

(٨٤) ـ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾: قالوا: كان يعقوبُ صلوات الله عليه في حال توجُّهِه إلى الأولادِ يفقدُ في كلِّ سفرٍ منهم ولدًا، فلمَّا تولى عنهم وجدَ المفقودين كلَّهم؛ ليعلمَ العبدُ أنَّ في توجُّهِه إلى الخلقِ قطعَ نفعِ الخلق، وفي التَّوجُّه إلى الله تعالى الوصولُ إلى كلِّ شيءٍ.

يقول: أعرضَ عن بنيه وأقبلَ على بثِّ نفسِهِ ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: قال الحسن وقتادة والضَّحاك: يا حُزْناه[2].

وقال مجاهد: يا جَزَعاه[3].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٩٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥) عن قتادة والضحاك.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٤)،

قال الشَّاعر:

فيـا أسَـفَا علـى سَـلْمِ بـن عَـمْـرٍو ويــا حَزَنـا عليـه ولَهْـفَ نَفْسِـي[١]

والأسفُ: أشدُّ الحزنِ على الغائبِ، وهو أشدُّ الغضبِ أيضًا، ويجوز أن يكون اجتمعَ له المعنيان؛ الحزنُ على فقدِ يوسف، والغضبُ على إخوة يوسف، أو على نفسِه ببعْثِ بنيامين معهم.

والصِّيغةُ صيغةُ نداءٍ[٢]، ومعناها: يا حزنُ هذا وقتُكَ فاحضر. والألفُ في آخره للنُّدبةِ، وأصلُه: وا أسفاه، مع هاء الاستراحة، ثمَّ حُذفَتِ الهاء للتَّخفيف[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾: قيل: هو ذهابُ بصرِه؛ قال مقاتل: لم يبصرْ ستَّ سنينَ[٤].

وقال الأستاذُ أبو عليٍّ الدَّقاق: لم يقل: عَمِي؛ لأنَّه لم يذهبْ بصرُه ذهابَ فواتٍ، لكن كان حِجابًا عن رؤيةِ غيرِ يوسف.

وكان إخوتُه غيَّبوه ليخْلُوَ لهم وجهُ أبيهم، فيخلصَ لهم نظرُه، فلم يرضَوا بنظرِه إليهم مع يوسف، ففاتهم أصلًا، وكذلك مَن طلبَ الكلَّ فاتَه الكلُّ[٥].

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب قاله في ابنه خُزَزَ، وكان قتله في بعض حروبه وهو لا يشعر أنه ابنه، فلما عرفه قال فيه أبياتاً هذا منها. انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٦/ ٣٩٦)، و«توضيح المشتبه» (٣/ ١٧٥)، وروايته فيهما:

يـا أسـفا علـى خُـزَزَ بـن عمرو فيـا ندمـي عليـه ولهـف نفسـي

(٢) في (ف): «نداء ونعت».

(٣) «للتخفيف» ليس في (ف).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٧)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢١٤).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: كان ذهابُ بصر يعقوب في غيبة يوسف لطفًا من الله تعالى بيعقوب، حتَّى لا يحتاجَ إلى رؤية غيره؛ إذ لا شيءَ على الأحباب أشدُّ من رؤية الأغيار، قال قائلُهم:

لَمَّا تيقَّنْتُ أنِّي لسْتُ مُبصِرَكُمْ غمضْتُ عيني فلم أنظرْ إلى أحدٍ[1]

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾: أي: الهمّ الغليظ على النَّفس، من الأرض الحَزْن ـ بفتح الحاء: الغليظة.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي: مملوءٌ كربًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] الكِظامُ: القناةُ والسِّقايةُ المملوءةُ ماءً.

وقيل: ﴿كَظِيمٌ﴾؛ أي: ممسكٌ على غيظٍ على أولاده بما فعلوا به، أو على نفسِه بما فعلَ مِن إرسال بنيامين معهم، هذا فعيل بمعنى فاعل؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، والأوَّل فعيل بمعنى مفعول.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿كَظِيمٌ﴾: مهموم[2].

وقال مقاتل: مكروب يتردَّد الحزن في جوفِه[3].

وقال مجاهد: ساكت[4].

وقال قتادة: كظيم على الحزن؛ أي: لم يتكلَّم بسوء[5].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٠)، والبيت ينسب لأبي بكر الشبلي. انظر: «الأمالي» للجرجاني (٢/ ٩٣)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٢/ ٣٩٢).

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٥٦).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٤٨).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٣٤)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٦).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٧).

وقال عكرمة: ممتلئ حزنًا[١].

***

(٨٥) ـ ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾: أي: لا تفتأُ، ومعناه: لا تزال. قاله ابن عبَّاس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وقتادة والسُّديُّ[٢].

وصرفُه مِن حدِّ (علم)، ومصدرُه: الفَتْأُ والفُتُوءُ على الفَعْلِ والفُعُولِ، قال أوسُ بنُ حُجر:

فما فَتِئَتْ خيلٌ تثوبُ وتدَّعي ... ويلحَقُ منها لاحِقٌ وتَقَطَّعُ[٣]

أي: فما زالَتْ.

وحُذفَتْ (لا) من (تفتأ) لأنَّه جوابُ القسم المنفيِّ، ولو كان إثباتًا لكان باللَّام والنُّون[٤]؛ قال امرؤُ القيس:

فقلْتُ يمينُ اللهِ أبرَحُ قاعدًا ... ولو قطَّعوا[٥] رأسِي لدَيْكِ وأوصالي[٦]

---

(١) ذكر نحوه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢١٩). وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٦٩) إلى ابن أبي حاتم بلفظ: ﴿كَظِيمٌ﴾: مكروب.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والسدي.

(٣) انظر: «ديوان أوس» (ص: ٥٨)، و«مجاز القرآن» (١/ ٣١٦)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٢١).

(٤) يعني: جاز حذفها هنا لأنها لا تَلتبِس بالإثبات؛ إذ لو كان إثباتاً بعد القسم لقيل: لتَفْتأنَّ؛ إذ لا بد في الإثبات من اللام والنون، فقرينةُ النفي خلوُّه عن علامة الإثبات.

(٥) في (ر) و(ف): «قلصوا».

(٦) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص: ١٠٨).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾: قال ابن عبَّاس ومجاهد: أي: باليًا من المرض ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾: أي: الميِّتين[1].

وقال الحسنُ وقتادةُ: حتى تكون هرمًا[2].

وأصلُ الحَرَضِ: فسادُ العقل والجسم مِن الحزن والحبِّ، وقال العَرْجيُّ:

إنِّي امرؤٌ لجَّ بي حبٌّ فأَحْرَضَنِي حتَّى بَلِيْتُ وحتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ[3]

و﴿حَرَضًا﴾: مصدرٌ أريد به النَّعت، ولا يثنَّى ولا يجمع.

وقال الرَّبيع بن أنس: ﴿حَرَضًا﴾ يابسَ الجلد على العظم.

وقال الكسائيُّ: فاسدًا لا خير فيه.

وقال الحسنُ: أي: كالشَّيءِ المدقوق المكسور[4].

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه الله: هدَّدوه بأن يصيرَ حرضًا، وقد كان حرضًا، وخوَّفوه بما كان لا يبالي أن يصيبَه في حكم الهوى، حيث قالوا: ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾، وقيل: ألذُّ الأشياء في حكم الهوى التَّهالكُ في حبِّ مَن تهوَى[5].

* * *

(٨٦) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٠١ و٣٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٨٧ و٢١٨٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٠٣).

(٣) انظر: «ديوان العرجي» (ص: ٥).

(٤) ذكر الأقوال الثلاثة السابقة الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٨).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٠).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: همِّي[١]. وهو الَّذي يُبَثُّ وإنْ كُتِمَ؛ أي: ينتشرُ بإثارة.

والحزنُ: ما يغلظُ على النَّفس احتمالُه.

وقيل: البثُّ: الهمُّ الَّذي يظهرُه صاحبُه، والحزنُ: الَّذي يضمرُه.

وقيل: البثُّ ابتداؤه، والحزن انتهاؤه.

يقول: أشكو ذلك كلَّه إلى اللهِ، لا إلى خلقِه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾: أي: مِن سَعةِ رحمتِه ولطفِ تدبيره بعباده ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنتم، يشيرُ إلى حسنِ ظنِّه وقوَّةِ رجائه بربِّه جلَّ جلاله أنْ يُعيدَ إليه يوسفَ عليه السلام.

قيل: إنَّما رجا ذلك لِمَا قصَّ عليه يوسف مِن رؤياه وعلم تأويلَه.

وقيل: أخبرَه بذلك ملكُ الموتِ عليه السلام.

وقيل: أخبرَه جبريلُ صلوات الله عليه.

وقيل: رآه في المنام.

قال وهبٌ: ولَمَّا أرادَ اللهُ تعالى أنْ يُرَفِّه[٢] عنه ويرحمَه ويبلِّغَه إلى بنيْهِ أرسلَ إليه ملكَ الموتِ قال: إنِّي كنْتُ أتمنى أنْ ألقاكَ منذُ حينٍ، قال له: لِمَ ذلك؟ قال: لأسألَكَ عن شأنِ يوسف، قال: وعن أيِّ شأنِه تسألني؟

قال: أنشدُكَ وأسألُكَ بالَّذي ملَّكَكَ الأنفسَ، وسلَّطَكَ على الأرواح، وأعطاكَ القوَّة في الأجساد، هل قبضْتَ روحَ يوسف؟

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٠٦).

(٢) في (ف): «يخفف».

قال: لا، والَّذي نَشَدْتَني به ما قبضْتُ روحَه، فاطلُبْ ابنك فإنَّه حيٌّ سالمٌ.

فانتبَه وأصبحَ وقالَ لبنيه: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

وروى أنس عن النَّبيِّ ﷺ قال: «كان ليعقوبَ أخٌ مؤاخٍ له، فقال له ذاتَ يومٍ: يا يعقوبُ، ما الَّذي أذهبَ بصرَكَ؟ وما الَّذي قوَّسَ ظهرَكَ؟ قال: أمَّا الَّذي أذهبَ بصري فالبكاء على يوسفَ، وأمَّا الَّذي قوَّس ظهري فالحزنُ على بنيامين، فأتاه جبريلُ فقالَ: يا يعقوبُ، إنَّ اللهَ يُقرِئُكَ السَّلام، ويقولُ لك: أَمَا تستحي أن تشكوَني إلى غيري، فقال يعقوبُ: إنَّما أشكو بثِّي وحزني إلى الله، فقال جبريل: أعلم بما تشكو يا يعقوب، ثمَّ قالَ يعقوبُ: يا ربِّ، أَمَا ترحَمُ الشَّيخَ الكبير؟ أذهبْتَ بصري، وقوَّسْتَ ظهري، فاردُدْ عليَّ ريحانَتِي أشمُّه شَمَّةً قبلَ الموتِ، ثمَّ اصنَعْ بي يا ربِّ ما شئْتَ. فأتاه جبريلُ وقال له: يا يعقوبُ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقرِئُكَ السَّلام، ويقول لك: أبشِرْ، ولْيَفرَحْ قلبُكَ، فوعزَّتي لو كانا ميِّتَيْن لنشرتُهُما[1] لك، فاصنَعْ طعامًا للمساكين، فإنَّ أحبَّ عبادي إليَّ المساكين، وتدري لم أذهبْتُ بصرَكَ، وقوَّسْتُ ظهرَكَ، وصنعَ إخوةُ يوسفَ بيوسفَ ما صنعوا؟ لأنَّكم ذبحْتُم شاةً، فأتاكم فلانٌ المسكينُ وهو صائم، فلم تطعموه منها، فكان يعقوبُ بعدَ ذلك إذا أرادَ الغداء[2] أمرَ مناديًا فنادى: أَلَا مَن أرادَ الغداءَ مِن المساكين فليتغدَّ[3] مع يعقوب، وإذا كان صائمًا أمرَ مناديًا فنادى: ألا مَن كان صائمًا من المساكين فليفطرْ مع يعقوب»[4].

---

(١) في (ف): «لأنشرتهما».

(٢) في (ر) و(ف): «القرا».

(٣) في (أ): «فليحضر».

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦١٠٥)، و«المعجم الصغير» (٨٥٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٢٨). قال ابن كثير في «تفسيره»: حديث غريب فيه نكارة. =

وقيل: كان فَصَلَ عِجَّوْلًا عن أمِّه أيَّامًا.

وقيل غيرُ ذلك من الأسباب، والصَّحيح أنَّه غيرُ مبنيٍّ على سببٍ، ولله أن يمتحنَ عبادَه وخواصَّه بما شاءَ؛ ليرفعَ لهم بذلك درجاتِهم، ويُظهرَ صدقَهم وإخلاصَهم.

***

(٨٧) - ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾: أي: اطلبوا خبرَه، مِن الحسِّ، وهو العلم بالحاسَّة، والتَّجسُّس - بالجيم - قريبٌ منه.

وقيل: هما واحد.

وقيل: بالحاء في الخير، وبالجيم في الشَّر.

وقيل: التَّحسُّس بالحاء: الطَّلب لنفسِه، وبالجيم: الطَّلب لغيره، ومنه: الجاسوس.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: أمرَهم بطلبِ يوسف بجميع حواسِّهم، يطلبونه بالبصر لعلَّهم يرونَه، وبالأُذن لعلَّهم يسمعون ذِكْرَه، وبالشَّمِّ لعلَّهم يجدون ريحَه، توهَّم أنَّهم مِثْلُه في الإرادة(١).

قال تعالى خبرًا عنه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال أهل التَّأويل: استخبِروا عنه واطلبوا، والأقرب أن يكون معناه: اذهبوا مِن هذا الجانب الَّذي كنتم فيه، فانظروا إليه وإلى

= وقوله: «وإذا كان صائمًا أمر مناديًا فنادى ألا من كان صائمًا من المساكين فليفطر مع يعقوب» ليس في (أ).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠١).

أخيه، فإنْ حُمِلَ على الاستخبار في حقِّ يوسف، لا يستقيم في قوله: ﴿وَأَخِيهِ﴾، وهم يعلمون أين هو، فمعناه: إيقاعُ حاسَّة البصر على الَّذي رأوه[1]، وهو لوقوع الرَّجاء له أنَّ يوسفَ بمصرَ، لكن لم يخبرْ بنيه بذلك أنَّه هناك؛ لِمَا علمَ أنَّهم يتكاسلون ويتثاقلون عن الذَّهاب إليه، فقال ذلك تعريضًا لا تصريحًا[2].

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قال يعقوب في حقِّ يوسف: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾، وقال في حقِّ سائر أولادِه: ﴿ٱذْهَبُواْ﴾؛ ليعلمَ بنوه ما بينَهم في المحلِّ عندَه[3].

وقال وهبٌ: لَمَّا قال لبنيه ذلك، قالوا: كيف تكلِّفنا أنْ نتحسَّسَ مِن أهل القبور، أمَّا يوسف فقد أخبرناك خبرَه أوَّل يوم أنَّه أكلَه الذِّئب، ولا نحسبُه اليوم إلَّا رميمًا تحت التُّراب، وأمَّا ابناك اللَّذان ذهبا معنا فقد أخبرناك أنَّ أحدَهما سرقَ فارتُهنَ بسرقتِه، وأمَّا الآخر فمقيم لطلبِ فكاكِه، قد أقسم باللهِ جهدَ يمينه وآلى على نفسِه ألَّا يبرح الأرضَ حتَّى تأذنَ له، أو يفيَ ذلك بموثقك، أو يحكم الله بما شاءَ وهو خير الحاكمين، ونحن راجعون ومتحسِّسون عن أخويْنا[4]، ومتعرِّضون للملك، إنَّا قد عهدناه بك رحيمًا، ولعلَّ الله أن يكون قد أحدثَ له رأيًا، وزادَه لك رحمة.

قال يعقوب: فبلِّغوه عنِّي السَّلام، وقولوا له: إنَّ أبانا يعقوب يقول لك: بينا أنَّك مهتمٌّ بمصيبته محزونٌ عليه مُعنًّى بأمرِه، تبكي معه، وتدعو له = إذْ فجعْتَه بابنِه، ما هذا منك بمشبِهٍ أوَّل فعلِك، فارحَمْ تُرْحَم.

---

(١) قوله: «إيقاعُ حاسَّة البصر على الَّذي رأوه»، كذا قال المؤلف، وعبارة «التأويلات»: (وقوع الحس والبصر عليهما).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٧٨).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠١).

(٤) في (أ): «إخوتنا».

وقيل: إنَّهم قالوا له: اكتب إليه بشيءٍ، فأمر فكتبَ إليه:

بسم الله، هذا كتابٌ من يعقوبَ إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر عبد الله.

أمَّا بعد: فإنَّا أهلُ بيتٍ مُوكَّلٌ بنا أسباب البلاء، أمَّا جدِّي إبراهيم فأُلقي في النَّار فصبرَ لأمر الله، وأمَّا عمِّي إسماعيل فابتُلِيَ بالغربة في صغرِه فصبرَ لأمر الله، وأمَّا أبي إسحاق فابتُلِيَ بالذَّبح فصبر لأمر الله[1]، وأمَّا أنا فأضعفُهم ركنًا وأقلُّهم حيلةً وأعظمُهم مصيبةً، بكيْتُ على فراق ولدي يوسف حتَّى عميَ بصري، والَّذي أخذْتَهُ سارقًا فليس بسارقٍ، واللهِ ما ولدْتُ سارقًا، فامنُنْ عليَّ بردِّه، وخلِّ سبيلَه، واحذرْ دعوةَ المظلوم، والسَّلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: أي: رحمةِ الله، وقيل: أي: مِن ترويح الله؛ أي: تفريح الله[2] من الحزن.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: أي: من تفريج الله عن المكروبين ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: الَّذين لا يعرفون قدرةَ الله على ما يشاء.

ثمَّ إنَّهم توجَّهوا إلى مصر، فلمَّا انتهوا إليها دخلوا عليه، وذلك قوله تعالى:

* * *

(٨٨) - ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾: أي: أصابَنا ونساءَنا وأولادَنا الضِّيقُ والقَحطُ.

---

(١) الصحيح المقطوع به عند العلماء أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

(٢) «أي تفريح الله» من (أ).

وقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا﴾: أي: وقد جئناك ﴿بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ قال ابن عبَّاس وسعيد بن جبير؛ أي: رديئةٍ لا تؤخَذُ إلَّا بوَكْس.

وقال الحسن ومجاهد وإبراهيم وقتادة وابن زيد: أي: قليلةٍ.

وقال الضَّحَّاك: أي: كاسدةٍ غيرِ نافقةٍ في ثمن الطَّعام(١).

وقال وهب: كانت دراهم نُفاية(٢).

وقيل: كانت صوفًا وسمنًا وأقطًا. قاله الحسنُ(٣).

وأصلُ الإزجاء: السَّوق والدَّفع؛ قال تعالى: ﴿يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾[الإسراء:٦٦]، ومنه تزجيةُ العمر، كأنَّها بضاعةٌ تُدفع ولا تُقبل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾: أي: لا تنظرْ إلى نقصان بضاعتنا وأتممْ بإحسانِك كَيْلَنا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾: أي: أسقطْ ما بين الجياد والرديَّة مِن التَّفاوت؛ قال وهب: كأنَّ دراهمنا جيادٌ؛ تفضُّلًا منك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

وقيل: كانت بضاعتُهم حبَّة الخضراء.

وقيل: كانت خَلَقَ الغِرارةِ(٤) والحَبل.

---

(١) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٢٧ ـ ٣٢٢).

(٢) وكذا فسره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٣٤٩). والنفاية: القليل أو الرديء. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (مادة: نفي).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩١)، كلاهما عن عبد الله بن الحارث.

(٤) في (ف) و(أ): «حلق الغرارة». والغرارة: وعاء من صوف أو شعر لنقل التبن وما أشبهه. انظر: «معجم ديوان الأدب» للفارابي (٣/ ٩٦).

وقيل: تصدَّق علينا بردِّ أخينا علينا.

وقال الإمام القشيريُّ رحمَه اللهِ: لمَّا طالعوا فقرَهم نطقوا بقَدْرهم[١]، فقالوا: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾، ولمَّا شاهدوا[٢] قَدْرَ يوسف سألوا على قَدْرِه، فقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾، كأنَّهم قالوا: جئْنا ببضاعةٍ لا تَنفُق إلا بهذه الحضرة، فأوفِ لنا[٣] كيلًا يليقُ بفضلِكَ لا بفقرِنا، وبكرمِك لا بعَدَمِنا، ثم تركوا هذا اللِّسان فقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾، نزلوا أوضعَ منزلٍ، كأنَّهم قالوا: إن لم نستوجِبْ معاملةَ البيعِ والشِّراء فقد استوجبنا بذلَ العطاءِ، وعلى الله المكافأة والجزاء[٤].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ سمَّوه عزيزًا لأنه كان أمين الملِك، وهو اسم لأمين ملِك مصر، كما قال: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾، ولأنَّهم كانوا محتاجين إليه، وكان هو غنيًّا عمَّا في أيديهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾؛ أي: بفضل ما بين الثَّمنَيْن[٥]، وقيل: ما بين الكيلَيْن.

والصَّحيحُ: أنَّهم طلبوا حطَّ الثَّمن؛ لأنَّ الصَّدقةَ لا تحلُّ للأنبياء، ويجوزُ الحطُّ لهم، ويجوز حطُّ مَن لا تجوز صدقته، كالعبد المأذون له في التِّجارة، وكان نبيُّنا عليه الصلاة والسلام يجوز له الشِّراء بدون ثمنه، ولا تحلُّ له الصَّدقة.

ويجوز أن يكون معناه: ردَّ علينا أخانا[٦].

---

(١) في (أ): «بعذرهم».

(٢) في (أ): «شهدوا».

(٣) في (ف): «لنا الكيل أي».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٢).

(٥) في (أ): «المثمنين».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٨٢).

وقـولـه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾: ولم يقولوا: إن اللهَ يجزيْكَ؛ لأنَّهم لم يعلموا بحال الملك ودينه، فتجرَّدوا وأطلقوا فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، وهم المؤمنون[1].

وقال وهب رحمه الله: وخافوا أن يذكروا في أوَّل ما لقُوه حديثَ أخيهم؛ مخافةَ أن يعيدَ لهم التَّوبيخ والتَّقريع، وقالوا: إنْ كانَ في نفسِه لأبينا رِقَّةٌ فقد أخبرْنَاه أنَّا مضرورون محزونون مجهودون، وعَرَّضْنا له إنْ كان يريدُ أنْ يخليَ سبيلَ الغلام.

وكان يوسفُ عليه السَّلام سأَلَ أخاه بنيامين عن عددِ ولدِه، فقال: هم ثلاثة، اسم الأكبر يوسف، فقال: ولِمَ سمَّيته يوسف؟ قال: أردْتُ أن لا يذهب ذِكْرُكَ مِن قلبي كلَّما دُعِيَ تحرَّكَ لذلك قلبي.

قال: وسمَّيْتُ الآخرَ ذئبًا، قال: ولِمَ سمَّيته ذئبًا؟ قال: أردْتُ أنْ لا يذهبَ ذِكْرُكَ مِن قلبي، فقد زعمَ إخوتي أنَّ الذِّئب أكلَك.

قال[2]: وسمَّيْتُ الآخر دمًا، قال: ولِمَ سمَّيته دمًا؟ فقال: أردْتُ أن لا يذهبَ ذِكْرُكَ مِن قلبي لَمَّا جاؤوا بالدَّم في قميصِك[3]، فكلَّما دُعِيَ ذكرْتُكَ.

فبكى يوسفُ عند ذلك حتَّى كادَ يتصدَّعُ قلبُه مِن البكاء، ثم رفعَ يديه ودعا ربَّه أن يجمعَ إليه أباه وخالته وإخوته، فاستجابَ الله له.

وقال لإخوته ـ بعدَ ما قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ إلى آخره ـ: كيف تركْتُم يعقوب؟

قالوا: تركناه باكيًا محزونًا كظيمًا.

---

(١) «وهم المؤمنون» ليس في (ف).

(٢) في (ف): «وقد».

(٣) «لما جاؤوا بالدم في قميصك» من (ف).

فقال يوسف: على أيِّ ابنَيْه حزنُه وبكاؤُه أشدُّ؛ أعلى هذا السَّارق المرتهَن بسرقتِه أم على الأوَّل الَّذي أخبرَنا الصُّواع خبرَه.

فقالوا: أمَّا الأوَّل فقد يئسَ منه ونسيَه وذهبَ عنه حزنُه، ولكنَّما بكاؤه على هذا المحبوس عندك، وقد أرسَلَنا فيه إليك رسالة، لولا مهابتك ومخافةُ ألَّا تصدِّقنا لبلَّغناك قولَه.

قال: فأخبروني، فإنَّكم آمنون إن صدَقتموني.

فلمَّا بلَّغوه رسالةَ أبيه لم يملك[1] نفسه بكاء وحزنًا، وبكى بأعلى صوتِه، وعندها باحَ لهم بحاله، وذلك قوله تعالى:

* * *

(٨٩) ـ ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾: قال صاحب «كتاب عصمة الأنبياء»: هذا مِن يوسف تذكيرٌ لهم بما سبقَ مِن فعلِهم بمكانِه؛ ليجدِّدوا الانتباه والاهتمام، وذكرَ أخاه وما فعلوا بمكانِه، كأنَّ أخاه شكا إليه من سوء معاملتهم معه كمعاداة[2] الإخوة، وقلَّة شفقتهم بمكان أخيهم.

أو لَمَّا رأى منهم تقريعًا لأخيهم عندَ استخراج الصُّواع من وعائِه حسبانًا منهم أنَّ أخاه كان قد سرقَ المتاع، فاستقبلَهم المكروهُ مِن سببِه، فعنَّفوا عليه، دليله قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؛ أي: لم تعلموا بحاله[3]، ....

(١) «يملك» من (أ) و(ف).

(٢) في (ر): «لعادات»، وفي (ف): «كعادات».

(٣) في (أ) و(ف): «الحالة».

فبنيتم المعاملةَ على ظاهر[1] ما بدا لكم من حالِه.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ قالَ بعضُ أهل التَّأويل: مذنبون، ويجوز: أي: أنتم جاهلون قَدْرَ يوسفَ ومنزلته؛ إذ لو علموا ذلك لما قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾[2].

وقيل: هو تلقينُ العُذْرِ، وهو غايةُ الكرمِ والفَضْلِ، وعلى هذا قولُ الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

وقالوا: الكريمُ لا يعاتِبُ، ولو عاتبَ لا يستقصي[3]، وكذلك فعلَ يوسفُ، لم يعاتِبْهم في المرَّة الأولى والثَّانية، وعاتبَهم في الثَّالثة على خفاءٍ ولم يستقصِ.

وقيل: الكرمُ تركُ العتاب، وتركُ الاستقصاء في العتاب، وتلقين العُذْرِ في العتاب، والعفوُ بعد العتابِ، وقد فعل ذلك كلَّه يوسفُ في هذه المرَّة.

وبيانه في الآية وفي بعضِ القصص: أنَّ يوسف صلوات الله عليه أخرجَ لهم كتابًا، وقال: هذا كتابٌ بالعبرانيَّة، فهل أحدٌ منكم يحسن قراءتها؟ قالوا: نعم.

فأخرج كتابَ بيعِه مِن مالك بن دُعْر، فنظروا فيه فبُهتوا، فقالوا في أنفسِهم: كنَّا بذلناه عند بيعِه لمشتريه، وهو مِن أهل مصر، فلعلَّه وقعَ عندَ الملك، فقالوا: هذا كتابٌ كتبناه في بيعِ عبدٍ لنا بعناه، فقال: اقرؤوا.

فقرؤوا: بسمِ إلهِ إبراهيم، هذا ما اشترى مالك بن دُعر الخزاعيُّ من آل يعقوب غلامًا، يُقالُ له: يوسف، بعشرين درهمًا، ونقدَ لهم الثَّمنَ، وضمنوا الدَّرك، وأشهدوا الله تعالى بذلك على أنفسِهم، وكفى بالله شهيدًا.

---

(١) في (ر) و(ف): «ظاهرها».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٨٢).

(٣) في (ر) و(ف): «لا يعاتِبُ ولا يستقصي، ولو عاتبَ لاستقصَى»، ولا يستقيم هذا مع ما سيأتي بعده.

فقال لهم يوسف: كنتم تقولون: إنَّ يوسفَ أخونا وقد أكلَه الذِّئبُ، وقد كتبتم في هذا: إنَّه غلامُنا وقد بعناه، فقد ظهر لي أنَّكم استرقَقْتُم أخاكم، وعقَقْتُم أباكم، واستوجَبْتُم عقوبةً شديدةً، وأنا معاقبُكم على ذلك، ومنتقمٌ منكم لأبيكم.

ودعا بالسَّيَّافِ، فصاحوا بأجمعهم يتضرَّعون ويبكون، ويقولون له: إنْ كنْتَ قاتِلَنا لا محالةَ فلطِّخْ ثيابَنا بدمائِنا، وابعَثْها إلى أبينا، فلا حظَّ له من الأولادِ إلَّا الثَّوبُ الملطَّخُ بالدَّم.

ورقَّ لذلك يوسفُ، واضطربَ النَّاسُ، وجاء جبريلُ وقال: يا يوسفُ، قد بلغ التَّخويفُ النِّهايةَ في حقِّ هؤلاء، فحسبُكَ، فقد انقضَتْ مدَّةُ المحنةِ، فأظهِرْ لهم نفسَكَ، فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾، فنظروا فيه لِمَا كان قال لهم أبوهم: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فعرفوه.

***

(٩٠) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ بنيامين، لا عبدي، تظنُّونني قد[1] اتخذْتُه عبدًا، وليس كذلك، بل هو أخي وعزيزي.

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾: قيل: أي: جمعَ ما فرَّقْتُم، ووصلَ[2] ما قطعْتُم.

وقيل: أي: مَنَّ اللهُ عليَّ بإنجائي من البئرِ، والعصمةِ مِن الهمِّ، والتَّخليصِ مِن السِّجن، وتمليكِ مصرَ، ذلك فضل الله[3].

---

(١) في (أ): «أني».

(٢) في (ف): «بجمع ما فرقتم وصلة».

(٣) «ذلك فضل الله» من (ف).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾: فالتَّقوى: العملُ بالطَّاعات وتركُ السَّيئات، والصَّبرُ: تحمُّلُ المكروهات. وكان ذلك كلُّه ليوسف.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: مَن يتَّقِ الزِّنى، ويصبرْ على العزوبة[1].

وتقديرُه: فهو محسنٌ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قالوا في خطابِه قبلَ أن يعرفوه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾، فلمَّا عرفوه قالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؛ لأنَّ الأجنبيَّة إذا ارتفعَتْ سقطَ تكلُّفُ المخاطبة.

وأنشدوا فيه:

إذا صفَتِ المودَّةُ بينَ قومٍ ودامَ ولاؤُهم سَمِجَ الثَّناءُ[2]

وقال الشَّيخ أبو عليٍّ الدَّقاق: لَمَّا قال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وأحالَ استحقاقَ الأجر على عملٍ من التَّقوى والصَّبر، أنطقَهم اللهُ تعالى حتَّى أجابوه بلسان التَّوحيد فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾؛ يعني: أنَّ هذا ليس بتقواكَ وصبرِكَ، إنَّما بإيثار الله إيَّاكَ علينا، فبهِ تقدَّمْتَ علينا لا بجهدِكَ، فقال يوسف صلوات الله عليه على جهة الانقياد للحقِّ: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، فأسقط عنهم اللَّوم؛ لأنَّه كما لم يرَ تقواه وصبرَه من نفسِه حيث نبَّهوه عليه، لم يرَ جفاءَهم منهم[3]، فنطقَ عن عين التَّوحيد، وأخبر عن شهود التَّقدير[4].

***

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٤) عن إبراهيم.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٣).

(٣) «منهم» ليس في (أ) وفي (ف): «منه».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٤).

(٩١) ـ ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾: أي: اختارَكَ وقدَّمَكَ علينا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ﴾؛ أي: ما كنَّا إلَّا خاطئين؛ أي: مذنبين بما صنعْنَا في حقِّك.

يُقالُ[١]: خطِئَ يَخطأُ خَطَأً، من حدِّ علم؛ أي: تعمَّدَ ما يخالفُ الصَّواب، وأخطأَ يخطِئُ إخْطاءً: إذا تعمَّدَ شيئًا فأصاب غيره.

وفيه سؤالُ الصَّفحِ والعفو عنه.

***

(٩٢) ـ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما وسفيان: لا تعييرَ عليكم[٢].

وقال الأخفشُ: لا ملامةَ عليكم.

وقال أبو عَمرو بن العلاء: لا تقريعَ عليكم.

وقال الكسائيُّ: لا تقريرَ عليكم اليوم؛ أي: لا أقرِّركم بذنبكم.

وقال السُّديُّ: لا أذكر لكم ذنبَكم[٣].

---

(١) «يقال» ليس في (أ) و(ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٥) عن سفيان. وذكر نحوه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦/ ٢٨٤)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٣٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٣١).

وقيل: لا إفساد عليكم[(١)].

وقال ابن كيسان: لا أعيدُ عليكم ما فعلتم.

وقال النَّضر بن شُمَيل: لا تخليطَ عليكم[(٢)].

وقيل: لا توبيخَ عليكم.

وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: ليس هذا للقصرِ عليه، لكن إذا لم يوبِّخهم في أوَّل الصَّدمة فما بعدَ ذلك أولى ألَّا يوبِّخهم فيه.

وقوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾: هذا منه دعاء لهم بالمغفرة، عفا بنفسه، وطلب لهم عفوَ ربِّه، وهو كمال المروءةِ والدِّيانة؛ قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ أي: ﴿عَفَا﴾ عن حقِّ نفسِه، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾: سألَ اللهَ العفوَ عن ظالمِه.

وقيل: إنَّه قطعٌ منه بأنَّ اللهَ غفرَ لهم بصدقِ توبتِهم، وهو إنْ كانَ حُكمًا فهو عن وحيٍ إليه به.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: إذْ كلُّ راحمٍ يَرحمُ برحمته.

* * *

(٩٣) ـ ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾: أمرَ إخوتَه أنْ يرجعوا إلى أبيهم ليحملوه إليه مع أهاليهم، وأصحبَهم قميصَه، وهو الَّذي جاء به جبريل عليه السلام

---

(١) قاله الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ١٢٨).

(٢) لم أقف على هذه الأقوال منسوبة لأصحابها. وقال أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣١٨): «﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ أي: لا تخليط ولا شغب ولا إفساد ولا معاقبة».

إلى إبراهيم يومَ أُلقي في نار نمرود وألبسَه، ثمَّ كان بعدَه لإسحاق، ثم كساه إسحاقُ يعقوبَ في قصبةٍ فعلَّقها في عُنُقِ يوسف، فلمَّا أُلقي في الجبِّ جاءَ جبريلُ عليه السلام وأخرجَه منها فألبسه، فكان معه إلى أن قال: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾.

﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾: وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قيل: عَلِمَ يوسفُ أنَّ يعقوبَ لِمَا يلحقُه مِن فرط السُّرور لا تطاوعُه يدُهُ في أخذ القميص، فقال: ألقوه على وجه أبي(١).

﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾: قيل: يَعُدْ بصيرًا، وقيل: يأتني بصيرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: مِن النِّساء والأولاد.

وإنَّما دعا يعقوبَ وإخوتَه وأهاليهم إلى نفسِه، ولم يأتِ أباه، لا إخلالًا بإجلاله، بل إبقاءً على حالِه؛ لأنَّه علمَ أنَّ يعقوبَ لا يقومُ بكفاية أمر يوسف، وتقصرُ ذاتُ يده عنه، فحملهم تخفيفًا عليهم وإحسانًا إليهم.

وإنَّما قال: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ بالوحي، وكان كذلك، وكان معجزةً له.

وقال وهبٌ: ثمَّ كسا يوسفُ إخوتَه وأجازهم وحملهم، وبعثَ إلى أبيه بجائزةٍ وكسوةٍ، ومئتي راحلة وجهازها، وجهاز أهليهم، لنقلهم إليه، وقال لإخوته: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وكانوا سبعين إنسانًا، وعجَّلَ سراحَهم وحملَهم.

وخرج يهوذا مبشِّرًا مسرِعًا بالقميص حافيًا راجلًا شاكرًا لله تعالى بالمشي والحفي، والرِّحلة ما بين مصر والشَّام وبينهما مسيرةُ ثمانية أيام، ومع يهوذا القميصُ

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٥).

وسبعةُ أرغفة تزوَّدها، فلم يأكلْها حتَّى وردَ على أبيه، ولَمَّا فصلَ من مصرَ استروحَ يعقوبُ ريحَ القميص، وذلك قوله تعالى:

* * *

(٩٤) ـ ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾: أي: خرجَتْ مِن مصرَ، ومصدرُه: الفُصول، والفِصالُ: الفِطامُ، والفَصلُ: التَّمييزُ، والفَصلُ: الحكمُ، وصَرْفُ كلِّه من بابِ (ضرب).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَبُوهُمْ ﴾: أي: يعقوب: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ قال الحسنُ: وجدَها من مسيرةِ شهرٍ[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من ثماني ليالٍ[2].

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾: التَّفنيدُ: تضعيف الرَّأي، والفَنَدُ: ضعفُ الرَّأي؛ قال الشَّاعر:

يا صاحِبيَّ دعا لَوْمِي وتَفْنِيْدِي   فليسَ ما فاتَ مِن أمري بِمَرْدُوْدِ[3]

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: لو لا أن تسفِّهون[4].

وقال الحسن ومجاهد: تهرِّمون.

وقال ابن إسحاق: تضعِّفون.

---

(١) رواه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٥٨١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٤٣)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٣٣).

(٣) البيت لهانئ بن شكيم العدوي، كما في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٣١٨).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٤٣)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٣٦).

وقال الضَّحاك: تكذِّبون(١).

وقيل: تنسبوني إلى الخرف، وقد أفندَه الشَّيبُ؛ أي: جعلَه كثيرَ الكلام من الخرَفِ.

قال يعقوبُ عليه السلام هذا الكلامَ لمن حضرَه مِن أهلِه وقرابتِه دونَ ولدِه؛ لأنَّهم كانوا غُيَّبًا عنه بمصر، تفرَّس فيهم أنَّهم يلومونَه فقال ذلك، وهو مختصر، وتقديرُه: إني لأجد ريحًا يشبهُ ريحَ يوسف، وأريدُ أنْ أقولَ: هي ريحُ يوسف، لولا كراهيَةُ أنْ تفنِّدون.

وهو كمَن وجدَ شيئًا يَبعُدُ في العرفِ وجودُه، فيقولُ: إنِّي وجدْتُ شيئًا أريدُ أنْ أخبرَكُم به لولا أنَّكم تكذِّبوني.

قال الإمام القشيريُّ رحمه الله: العجبُ أنَّه كان عندَ إقبالِ المحنةِ ويوسفُ منه على أقلَّ مِن مرحلةٍ حيثُ ألقَوه في الجبِّ لا يجدُ ريحَهُ، واستتر عليه حالُه وخبرُه، ولَمَّا أدبرَتْ أيَّامُ المحنة وجدَ ريحَه وبينهما مسيرةُ شهرٍ، أو مسيرةُ ثمانين فرسخًا.

وقيل: انفردَ يعقوبُ بريح يوسف ووجدانها؛ لانفرادِه بمقاساةِ الِمحَنِ على فقدِ يوسف، وإنَّما يجدُ ريحَ يوسف مَن وَجَدَ على فراقَ(٢) يوسف، ويُقال: لا يعرفُ ريحَ الأحبابِ إلَّا الأحباب(٣).

* * *

(٩٥) ـ ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

---

(١) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٣٩ ـ ٣٤١).

(٢) في (ف): «فوات».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٦).

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾: أي: قالَ مَن حضرَه: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾؛ أي: في خطئِكَ القديم، قاله ابن عبَّاس(١) رضي الله عنهما، وهو يرجعُ إلى قولِ بنيه في الابتداء: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

وقال مجاهدٌ: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾؛ أي: حبِّكَ القديم(٢). وكذلك الأوَّل، وعلى هذا قولُ الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؛ أي: محبًّا فهداك إلى شرائطه وطرائقه.

وقال الحسنُ: إنك لذاهب عن الصَّواب في أمرِه، ترجو لقاءَه وقد مات من زمن طويل(٣)!

وفي «كتاب عصمة الأنبياء»: ليس هذا من حفَدتِه قصدَ إيذائه، وإنَّما هو التَّسليةُ لهمِّه، لم يُحسنوا نظمَ الكلامِ على ما كان يجبُ مقابلتُه به.

وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: إنَّ البلاء إذا هجمَ هجمَ بـمَـرَّة، وإذا زالَ زالَ بتدريجٍ، حلَّ البلاءُ بيعقوبَ بمرَّة حيثُ قالوا: أكلَه الذِّئب، ولَمَّا زالَ البلاءُ وجدَ ريحَ يوسف أوَّلًا، ثمَّ قميصَ يوسف، ثمَّ يومَ الوصول رأى سبعين حاجبًا بينَ يدَي يوسف قبلَ أن رأى يوسف.

ولَمَّا كان سببُ حزنِ يعقوبَ قميصَه كان فرحُه أيضًا بقميصِه.

---

(١) في جميع النسخ: قال ابن عباس، والصواب المثبت، فقد روى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما: قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ يقول: «خطئك القديم». وكذا ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٧٨)

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٤٣) عن ابن جريج. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٨٣) إلى الطبري عن مجاهد.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٤٥).

قال: وقيل: إنَّ وجودَ الرِّيح مجازٌ عن وجود دلائل الوصال وأمَارته، وهو كما يُقال: إنِّي لأجدُ ريحَ الفتنةِ، وقد هبَّتْ لفلانٍ ريحٌ[1].

وقال الشَّاعرُ:

ولقد تنسَّمْتُ الرِّياحَ لحاجتي ... فإذا لها مِنْ راحَتَيْكَ نسيمُ[2]

وكأنَّه علمَ بمكان يوسف بوحيٍ مِن الله بقصد حامل القميص.

وروي أنَّه لَمَّا أخرجَ قميصَه قال: مَنْ يحملُه؟ قال يهوذا: أنا أولى بحملِه؛ لأنِّي حملْتُ إليه قميصَه الملطَّخَ بالدَّم، وأخبرتُه بأنَّ الذِّئبَ أكلَه، فكنْتُ سببَ حزنِهِ، فأحمل إليه هذا القميصَ فأكونُ سببَ سرورِهِ.

وقيل: إنَّ يعقوبَ كان يتعرَّفُ خبرَ يوسف من الرِّياح كثيرًا، حتَّى جاءَ الإذنُ للرِّياح بحملِ ريحِهِ إليه، وسُنَّةُ الأحبابِ مسائلةُ الدِّيار ومخاطبةُ الأطلال ومراسلةُ الرِّياح. قالَ قائلُهم:

وإنِّي لأستَهْدِي الرِّياحَ نسيمَكُمْ ... إذا أقبلَتْ مِنْ نحوِكُم بهبوبِ
وأسألُها حملَ السَّلام إليكمُ ... فإنْ هيَ يومًا بلَّغَتْ فأجيبوا[3]

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص: ٣٢٢)، و«زهر الآداب» للقيرواني (٢/ ٣٨١)، و«الحماسة البصرية» (١/ ١٧٢)، و«نهاية الأرب» للنويري (٤/ ٣٢٥).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧). ونسب لمحمد بن رزق القرطبي في «جذوة المقتبس» لابن أبي نصر (ص: ٥٦)، و«المحمدون من الشعراء» للقفطي (ص: ٣٥٢)، بيتان قريبان من هذين البيتين، وهما:

وإني لأستهدي الرياحَ سلامَكُم ... إذا ما نسيمٌ من بلادِكُم هَبَّا
وأسألُها حَمْلَ السلامِ إليكم ... لتعلَمَ أني لا أزالُ بكم صَبَّا

وقالوا: مِن العجبِ أنَّ يعقوبَ وجدَ ريحَ يوسفَ، والَّذين حضروه لم يجدوا، وأعجبُ منه أن يهوذا الَّذي كان يحملُه وهو في رحلِه كان لا يجدُ ريحَه، وكذا المؤمنُ يومَ القيامةِ يجدُ ريحَ الجنَّة من مسيرة خمسِ مئة عامٍ، والكافرُ لا يجدُ ريحَها.

***

(٩٦) ـ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾: أي: جاءَ يهوذا بالقميصِ فألقاه على وجهِ أبيه يعقوب فرُدَّ بصيرًا؛ أي: صار بصيرًا كما كان.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: قال للَّذين حضروه ممَّنْ كانوا يفنِّدونه، ويقولون: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾، وهو ما مرَّ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهو علمُه بما يبتلي اللهُ به عبادَه الأنبياءَ مِنَ المحنِ الَّتي تنكشفُ عن حميدِ العاقبةِ.

قال كعب ووهبٌ: فألقى يهوذا القميصَ على وجهِ أبيه فعادَ بصيرًا للحال.

وقال يهوذا: البشارةَ يا أبتاه، إنَّ الملكَ العزيزَ الَّذي ملَكَ مصرَ وأهلَها هو ابنُك يوسفُ، وقد بعثَ إليكَ جهازًا ومئتي راحلة، ويسألُكَ أن تخرجَ أنتَ ومَن معك إليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فتهيَّأَ يعقوبُ للخروجِ، وخرجَ معه اثنان وسبعون من آلِه[1]، فبلغَ يوسفَ انزعاجُه وقربُه مِن مصرَ، فتلقَّاه في مواكبه، وتلقَّاه فرعونُ في جنودِه، ووصلَ يعقوبَ بصلاتٍ فاخرةٍ وجوائزَ سَنيَّةٍ.

---

(١) في (أ): «اثنان وسبعون من ذكر»، وفي (ر): «اثنان وتسعون من ذلك»، وفي (ف): «اثنان وتسعون من آله». والصواب المثبت: انظر: «الكشاف» (٢/ ٥٠٥).

(٩٧) ـ ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾: قال إخوةُ يوسف لأبيهم: اشفعْ لنا إلى يوسفَ ليعفوَ عنَّا، وقيل: استغفرِ اللهَ لنا ذنوبَنا.

﴿إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾: مذنبين مسيئين إليك وإلى يوسف، وعاصين للهِ بذلك.

* * *

(٩٨) ـ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: قيل: أخَّرَ يعقوبُ ذلك إلى أن ينظرَ ما يقضي اللهُ في أمرِهم، وماذا يقولُ يوسفُ، والحقُّ لم يكن ليعقوبَ خاصَّة، فأخَّر إلى أن يترضَّاه، ثمَّ يستغفر لهم.

وقيل: أخَّرَ ذلك إلى أن يقومَ للصَّلاة، فيستغفرَ فيها أو بعدها.

وقيل: إلى وقت السَّحرِ.

وقيل: إلى ليلة الجمعة.

وقال وهبٌ: كان يستغفرُ لهم كلَّ ليلةِ جمعة في نيفٍ وعشرين سنة.

وفي بعض القصص: أنَّ يعقوبَ وأولادَه وأهاليَهم توجَّهوا إلى مصر على رواحلهم، فلمَّا قربوا من مصر، وأُخبرَ بذلك يوسف، تلقَّاه ومعه ثلاثُ مئة ألفِ فارس، كلُّ واحدٍ منهم معه حربةٌ مِن فضَّةٍ ورايةٌ مِن ذهبٍ، الأفراسُ مراكبُه، والفرسانُ غِلمانُه، فتزيَّنَتِ الصَّحراءُ بهم واصطفُّوا صفوفًا.

ولَمَّا صعدَ يعقوبُ تلًّا ومعه أولادُه وحفدتُه، ونظرَ إلى الصَّحراء مملوءةً من الفرسان مزيَّنةً بالألوان، نظر إليهم متعجِّبًا، فقال له جبريلُ: انظرْ إلى الهواء، فإنَّ الملائكةَ قد حضرَتْ سرورًا لحالك، كما كانوا باكين محزونين مدَّةً لأجلِكَ.

ثم نظرَ يعقوبُ إلى الفرسان فقال: أيُّهم ولدي يوسف؟ فقال له جبريل: هو ذلكَ الَّذي فوقَ رأسِه ظُلَّةٌ. فلم يتمالَكْ أنْ أوقعَ نفسَه من البعير.

فقال جبريلُ: يا يوسفُ، إنَّ أباك يعقوب قد نزل إليك[1] فانزلْ له، فنزلَ عن فرسِه، وجعلَ كلُّ واحدٍ منهما يعدو إلى الآخر حتَّى التَقَيَا، فاعتَنَقَا، وبَكَيَا سرورًا، وماج الفرسانُ بعضُهم في بعضٍ، وصهلَتِ الخيولُ، وسبَّحَتِ الملائكةُ، وضُرِبَ بالطُّبول والبوقات، فصارَ كأنَّه يوم القيامة.

وفي «كتاب عصمة الأنبياء»: وما رُوي أنَّه لم ينزل من السَّرير لأبويه أو عن الدَّابة كلامٌ لا معنى له؛ لأنَّه قد تلقَّاهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، ولذلك نزل عن الدَّابة على ما حكينا[2].

وما رُوي أنَّ جبريل قال ليوسف: إنَّك لم تنزلْ[3] لأبيك، فقُطِعَ نسلُ النُّبوَّة منك = فإنَّه كلامٌ باطلٌ لا يجوز أنْ يُذكَرَ ويُعْتقَدَ؛ فإنَّ الأنبياءَ لم يكن مِن صفتِهم التَّعظُّم على أحدٍ، فضلًا على الأبِ.

وعلى أنَّ الأنبياءَ مِن بعدِه كانوا مِن نسلِه، كموسى وداود وسليمان.

ثمَّ لَمَّا انتهوا إلى السَّرير رفعَ أبوَيْهِ مُكرمًا لهما، آخذًا بأيديهما، مُعليًا لهما على السَّرير، ثمَّ إنه جلسَ هو معهما، وهو على الجلوس كما يجلسُ[4] الولد بينَ يدَي والدِه، ولا يُعدُّ ذلك تركًا للحُرْمةِ، خصوصًا إذا كان ولدُه نبيًّا مرسلًا.

---

(١) في (ف): «لك».

(٢) في (أ): «بينا».

(٣) في (ف) و(أ): «تحترم».

(٤) في (أ): «ثمَّ إن جلسَ هو معهما فهو على الجلوس كما يجلسُ»، وفي (ف): «ثم إنه جلس هو معهما وهو كما يجلس».

فإنْ قالوا: هلَّا سارَ[١] إلى أبوَيْه لقضاءِ حقوقِهما، وما يحملُ أبوه مِن الهمِّ والحزنِ في أمرِه، حتَّى استدعاهم إلى حضرتِه.

قلنا: إنَّه لم يفعلْ ذلك مِن غيرِ وحيٍ.

والثَّاني: إنَّه أرادَ أنْ يأتوه جميعًا، فيعرفَ أهلُ مصرَ وجاهَتَه وأبوَيْه ومنزلَتَه، ويعلموا أنَّه لم يصرْ ملكًا مِن غير أصلٍ، بل له أصلٌ صميمٌ[٢]، وليُعَايِنَ أهلُه نعمةَ اللهِ تعالى عليه بعدَ انقضاءِ المحنةِ مِن إعطاءِ المُلْكِ، ولو كانَ تركَ المُلْكَ وسارَ[٣] إليهم لم يقعْ موقعَ الإعظامِ في الإخبار؛ إذْ ليسَ الخبرُ كالمعاينةِ.

* * *

(٩٩) ـ ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: أي: يومَ عاشوراء ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾؛ أي: ضمَّ إلى نفسِه أباه وخالتَه راحيلَ[٤]؛ لأنَّ أمَّه كانَتْ ماتَتْ، وتزوَّجَها يعقوب، والخالةُ أمٌّ.

والأبوان: اسمٌ للأبِ والأمِّ، تغليبًا للذَّكر على الأنثى، قاله السُّديُّ[٥].

وقال الحسنُ ومحمَّدُ بنُ إسحاقَ: كانَتْ أمُّه في الأحياء[٦].

---

(١) في (ف): «صار».

(٢) في (ر): «بل له منهم»، وهي ليست في (ف).

(٣) في (ف) و(أ): «وصار».

(٤) ذكر المصنف أول السورة أنَّ اسم أم يوسف: راحيل، وأن اسم خالته: لايا.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠١).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٥٢) عن ابن إسحاق، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٨٢) =

وقد آواهما جميعًا؛ أي: ضمَّهما إلى نفسِه وأنزلَهما عندَه ومعه في موضعٍ أعدَّه لنزولِ ساعة خارجَ المصر.

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾: والاستثناءُ داخلٌ في الأمن لا في الدُّخول؛ لأنَّه أَمرَ بالدُّخول، ووَعدَ بالأمنِ، والاستثناءُ يدخلُ في الوعدِ لا في الأمرِ.

وكذا كانت مواعيدُ الأنبياءِ عليهم السلام، قال الله تعالى لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

وإنَّما وعدَ الأمنَ لأنَّه كان بلدًا فيه كفَّار، وملكُهم الَّذي أقامَ يوسفَ مقامَ نفسِه كان كافرًا أيضًا، فوعدَ لهم الأمنَ معلَّقًا بالمشيئة رجاءً لذلك مِن فضلِ اللهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ﴾: كان دخولُهم عليه مصرَ أربعَ مرَّات:

الأوَّل: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ﴾ [يوسف: ٥٨].

والثَّاني: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: ٦٩].

والثَّالث: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ [يوسف: ٨٨].

والرَّابع: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾.

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ﴾؛ أي: قالَ لأبوَيه ولمن معهما.

قال الإمام القشيريُّ رحمه الله: اشتركَ القومُ في الدُّخول، ولكن تباينوا في الإيواء، فانفرد الأبوان به لبُعدِهما عن الجفاء، كذا غدًا إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون فيه وفي دخول الجنَّة، ولكنَّهم يتباينون في بساط القُربة، فيختصُّ به أهل الصَّفاءِ دونَ مَن اتَّصفَ اليومَ بالجفاء(١).

= عن الحسن وابن إسحاق.

(١) في (ف) و(أ): «بالالتواء». انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢٠٨).

(١٠٠) - ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾: أي: لَمَّا دخلوا مصرَ ودخلوا دارَه رفعَ والدَه وخالَته راحيل إلى سرير الملك.

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾: وقال وهبٌ: انحنوا له كما تفعلُ الأعاجم، ولم يضعوا جباهَهم، وإنَّما تُوضَعُ الجباهُ بالسُّجود لله، وهذا كان تحيَّةً منهم له، وكذلك فعلَتِ الملائكةُ حينَ أُمِروا بالسُّجودِ لآدمَ، ولم تزلْ تحيَّةَ النَّاس السُّجود حتَّى جاءَ اللهُ بالإسلامِ، فذهبَ بالسُّجود وجاء بالمصافحة.

وأكثرهُم على أنَّه وضعُ الجبهةِ على الأرضِ، وهو المتعارفُ المتفاهمُ عندَ إطلاقِه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: سجدوا للهِ شكرًا له على ما أنعمَ عليهم بالاجتماع[1].

والأظهرُ والأشهرُ أنَّه كان ليوسفَ؛ لأنَّ الرُّؤيا كانت على ذلك؛ قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وكان ذلك تحيَّةَ الملوكِ، إلى أنْ نُسِخَ في زمنِ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام.

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّه لا بأسَ بإمساك السَّرير والجلوس عليه إذا لم يكن للتَّعظُّم والمباهاة، وإنَّما كان للانتفاع والارتفاع[2] والارتفاق، ولإمساكِ النَّاس على

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٥٩).

(٢) «والارتفاع» من (أ).

حدود الآداب إذا نظروا إليه بعينِ المكانةِ والمنزلةِ والجاه، فيسهل على الوجيه تنفيذُ أسبابِ المعاملة.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾: قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي: عبارةُ رؤياي.

وقال عكرمةُ: تفسير رؤياي.

وقال مقاتل بن حيَّان: تحقيق رؤياي(١).

وقال طاوس: تصديق رؤياي.

أي: الَّتي قصصْتُها عليك.

﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾: بأنْ أَسْجَدَكُم لي(٢) في اليقظةِ كما رأيتُه(٣) في المنام.

ومنهم مَن قالَ: سجدَ له إخوتُه دون أبوَيْه، وهذا لا يستقيم؛ لأنَّ الرُّؤيا كانت على سجود الكلِّ؛ قال تعالى خبرًا عن يوسف: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] فعلى ذلك تأويلُها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾: وقال كثيرٌ:

أَسِـيْئِي بنـا أو أَحْسِـني لا مَلُومةً ... لَـدَيْـنا ولا مَقْلِيَّـةً إنْ تَقَلَّـتِ(٤)

وحروفُ الأدواتِ تتناوَبُ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٩٤) عن ابن زيد.

(٢) «لي» ليس في (ف).

(٣) في (أ): «أرانيه».

(٤) انظر «ديوانه» (ص: ٨٠)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٤١)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٥٠٦).

وقيل: هو على حقيقته؛ أي: أحسنَ إلى أهل الزَّمان بي، حيثُ ملَّكني، ونفعَ النَّاسَ بحسْنِ تدبيري.

وقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾: فقالَ يعقوبُ: أَوَ كُنْتَ في السِّجن؟ قالَ: لا أشكو السِّجنَ، ولكنِّي أشكرُ الخلاصَ مِنَ السِّجنِ.

وقالوا: لم يذكرِ الخلاصَ مِن البئرِ؛ قيل: لأنَّ مدَّة ذلك كانت قصيرةً، ومدَّة تلك كانت طويلةً، ولأنَّ البئرَ كان بفعلِ إخوتِه فلم يرضَ بذِكْرِ ذلك بحضرتِهم لئلَّا يخجلوا، وكان السِّجنُ مِن أهل مصر فلم يبالِ بذكْرِ فعلِهم.

وقيل: كان إيقاعُهم إيَّاه في البئر لحسدٍ منهم[1]، فلم يخَفْ أنْ يكونَ عقوبةً له، والسِّجنُ كان بعدَ قولِه: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، فخافَ أنْ يكونَ معاقبةً له أو معاتبةً، فعدَّ الخلاصَ منه غنيمةً عظيمةً.

قوله تعالى ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾: أي: من الباديةِ الَّتي يبدو فيها مَن كان دخلَها.

وإنَّما قال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾؛ لأنَّهم كانوا بادينَ بأرضِ كنعان، وهي باديةُ بلادِ فلسطين.

وقيل: قال ذلك لأنَّهم كانوا أهلَ مواشٍ.

وقوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾: قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: ألقى الحسدَ في قلوبِ أخوتِه[2].

وقال مقاتل بن حيَّان: أغرى الشَّيطانُ[3].

---

(١) في (ف): «لحسد منهم فلم يذكره وذكره للسجن».

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٨٤)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٥٣).

(٣) لم أقف عليه عن مقاتل. وقال أبو عبيدة في «غريب القرآن» (١/ ٣١٩): نزغ: أفسد وحمل بعضنا على بعض.

وقال عطاء: حرَّشَ الشَّيطانُ[١]. والتَّحريشُ[٢]: التَّهييجُ.

وقال عكرمةُ: أفسدَ[٣].

وهو حقيقةٌ لغةً، أضافَ إليه تمهيدًا لعذْرِ الأخوة.

وأصلُ الفسادِ يكون مِن وسوسةِ الشَّيطان[٤]، ثمَّ يقبلُه الإنسانُ؛ فيقعُ فيه، أو يمتنعُ منه بالاجتهاد والاستعاذة بالله فيسلَمُ منه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾: أي: لطَفَ اللهُ لي بهذه النِّعم، إنَّه لطيفٌ لِمَا يشاء؛ أي: يُوصِلُ إلى الشَّيءِ في سهولةٍ وحسنِ مَوقعٍ.

وقيل: أي: عالم بدقائقِ الأمورِ وحقائِقها وسرِّها وعلنِها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾: بنا وبأحوالنا ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: فيما أجرى بيننا.

وقيل: أي: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بسرائرِ عبادِهِ. وقيل: بمصالح عبادِه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: يضعُ كلَّ شيءٍ موضِعَهُ، ويفعلُه لوقتِهِ.

وقيل: أي: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما فعلوا ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بما فُعِلَ بنا.

وفي بعضِ التَّفاسير المقبولةِ: أنَّ يوسفَ لَمَّا جمعَ اللهُ بينَه وبينَ أبويه وإخوته أخذَ بيدِ أبيه، وجعلَ يعرضُ عليه الخزائنَ، فعرضَ عليه بخزائن[٥] الذَّهب والفضَّة

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٨٤) عن ابن قتيبة.

(٢) في النسخ: «والتحرش»، والصواب المثبت.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤٦) عن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]

(٤) في (أ): «وسوسته» بدل من «وسوسة الشيطان».

(٥) في (ر) و(ف): «خزانة».

والحليِّ والحُلَل والأسلحة، حتَّى أدخلَه خزانة القراطيس، فرأى يعقوبُ فيها شيئًا كثيرًا، فقال: يا بُنيَّ، ما أعقَّكَ لأبيك، كان عندَكَ كلُّ هذا مِن القراطيس، وكنْتَ منِّي على ثمانية مراحلَ أربعين سنةً، فما الذي منعَكَ مِن مكاتبتي؟ قالَ: أمرني جبريلُ بهذا، قال: أفلا تسألُهُ؟ قال: يا أبتِ، أنتَ أشدُّ[1] انبساطًا إليه منِّي.

فجاءَه جبريلُ، فسألَه يعقوبُ: أأنْتَ نهيْتَ ابني عن مكاتبتي؟ قال: نعم. قال: وَلِمَ؟ قال: لأنَّ اللهَ أمرني بذلك. قال: أفلا تسألُهُ؟ قال: نعم.

فمضى، وسألَ اللهَ تعالى، فقال: قل لعبدي يعقوب: أنسيْتَ يومَ قلْتَ: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]، فهلَّا خفْتَني يا يعقوبُ.

قال وهبٌ: فلبثَ يوسفُ معه إخوتُه مِن يوم وردوا عليه مصرَ إلى يوم مات أبوه أربعًا وعشرين سنة، في أغبط الغِبطة، وأسرِّ السُّرور، ولا يأتي عليه يومٌ وليلة إلَّا واللهُ تعالى يحدِثُ له فيه غِبطةً هي أفضلُ ممَّا قبلَها، ورجاءً هو أفضلُ ممَّا قبلَه، وعافيةً هي أوسعُ ممَّا قبلَها، قد جمعَ اللهُ إلفتَهم، وأقرَّ عيونَهم، ودحرَ الشَّيطانَ عنهم، فلبثوا بذلك، لا يُقدَرُ قَدْرُ إحسانِ الله إليهم ونعمتِه الَّتي أتمَّها عليهم.

فلمَّا حضرَ يعقوبَ الوفاةُ جمعَ ولدَه وولدَ ولدِه، فأوصاهم، وعهدَ إليهم، وقال: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، و: ﴿قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ الآية [البقرة: ١٣٣].

وقال: يا بَنيَّ، احفظوا عنِّي خصلَتَيْن: ما انتصرْتُ مِن مَظلمةٍ[2] بقولٍ ولا فعلٍ، ولا رأيْتُ مِن أحدٍ حسنةً إلَّا أفشيتُها، ولا رأيْتُ مِن أحدٍ سيئةً إلَّا كتمتُها.

---

(١) في (ر): «أكثر».

(٢) في (أ): «ظالم».

وقال له بنوه: يا أبانا، إنَّا نخافُ أنْ يحقِدَ علينا يوسفُ بما صنَعْنا به بعدَكَ، فاستوهِبْ لنا ذلكَ منه، وأوصِهِ بنا.

قال يعقوبُ: يوسفُ يا بنيَّ، هبْ لي فعلةَ إخوتِكَ بك، ولا تحقدها عليهم، فقال يوسفُ: يا أبتاه، قد عفوْتُ عنهم، ووهبتُهم لك.

وأوصى يعقوبُ يوسفَ إذا هو ماتَ أن يحملَ جسدَه حتَّى يُقبَرَ معَ أبوَيْهِ إبراهيمَ وإسحاقَ في الأرض المقدَّسة، فحملَه يوسفُ على عجلةٍ، وفعلَ الَّذي أمرَهُ به، ورجعَ إلى مصرَ.

قال وهبٌ: ويُقال: إنَّه ماتَ هو وأخوه عيص في يومٍ واحدٍ، وقُبِرا في موضعٍ واحدٍ، وكان عُمرُهما مئة سنةٍ وأربعًا[1] وأربعين سنة.

* * *

(١٠١) ـ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فلمَّا جمعَ اللهُ سبحانَه ليوسفَ شملَه، وأقرَّ عينَه، وأتمَّ له أمورَ رُؤياه، تمنَّى الموتَ، ودعا ربَّه، وذلك قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾: الأظهرُ أنَّه مُلْكَ مِصرَ.

وقيل: هو مُلْكُ الجَمالِ[2].

وقيل: هو مُلْكُ النَّسَبِ، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

---

(١) «وأربعًا» ليس في (أ).

(٢) في (أ): «الكمال».

وقيل: هو مُلْكُ القلوبِ، فكانَ يحبُّه الحاضرُ بالنَّظر، والغائبُ بالخبر.

وقيل: هو مُلْكُ الاحترام، فقدْ نفرَتِ الهوامُّ كلُّها حينَ أُلْقِيَ في البئرِ احترامًا له.

وقيل: هو مُلْكُ القِيمةِ، حين بلغَتْ قيمتُه يومَ دخولِه مصرَ وعرضِه في السُّوق للشِّراء أضعافَ أضعافِ زِنَةِ نفسِه مِن كلِّ مالٍ خطيرٍ.

وقيل: هو مُلْكُ النَّفْسِ حين[1] استعصمَ فلم يُجِبْ امرأةَ العزيز.

وقيل: هو مُلْكُ الهمَّةِ حين[2] اختارَ السِّجنَ على العِصيانِ.

وقيل: هو مُلْكُ النُّبوَّةِ في ثماني عشرةَ سنةً مِن عمرِهِ.

وقيل: هو مُلْكُ الهَيْبةِ حتَّى هابَتْهُ زليخا وذلَّتْ له وانقادَتْ، مع أنَّها ظاهرُ حالِها أنَّها ملكة.

وقيل: هو مُلْكُ الإخوة، ملكَهُم وذلُّوا له، ثمَّ مَنَّ عليهم.

وقيل: هو مُلْكُ الجُودِ، فما كان في الدُّنيا أجودُ مِن يوسفَ[3] في سنةِ القَحْطِ.

وقيل: هو مُلْكُ الشَّفقةِ، قد كان يجوعُ[4] حتَّى لا ينسى الجائعَ.

وقيل: هو مُلْكُ العَدْلِ، فقدْ سوَّى بينَ أهلِ ولايتِه والغرباءِ كلِّهم في سنةِ الجَدْبِ.

وقيل: هو مُلْكُ القميص، أعادَ بِهِ بصرَ أبيه، وكانَ كلُّ جميع قصته في ثلاثةٍ من القُمُصِ: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٧]، ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا﴾ [يوسف: ٩٣].

---

(١) في (أ): «حتى».

(٢) في (أ): «حتى».

(٣) في (أ): «منه».

(٤) في (أ): «يجوع أكلهم».

وقيل: هو مُلْكُ الوِصالِ، فقدْ وجدَ وِصالَ أبوَيْه وإخوَتِه وكلِّ قراباته بعد ثمانين سنة من غير أنْ نقصَ منهم واحدٌ.

وقيل: هو مُلْكُ العِبْرة، فقد قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقيل: هو مُلْكُ السُّؤالِ، وهو سؤالُ الوفاةِ على الإسلامِ، ولم يكنْ مثلُه مِن غيره في مثلِ حالِه.

ثم قولُه: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾: (مِن) للتَّبعيض؛ لأنَّه لم يكن مَلَكَ كلَّ الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: تعبير الرُّؤيا، وقيل فيه أقاويلُ أُخَرُ قدَّمناها في أوَّل السُّورة.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: يا خالقَ السَّماوات والأرض مِن غير شيء، مُبتدئاً[1] خَلْقَهما.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾: أي: متولِّي أموري، وكافي مَعاشي ومَعادي.

والوليُّ في القرآن لعشرةِ معانٍ:

ـ للرَّبِّ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤].

ـ وللإلهِ؛ قال الله تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ أي: آلهة.

ـ وللولدِ؛ قال تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥].

(١) في (أ): «مبتدئ»، وفي (ر) و(ف): «مبتدأ». والصواب المثبت.

ـ وللقريبِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ [البقرة: ١٠٧].

ـ وللصاحب[1] قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ـ وللقيِّم؛ قال تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ـ ولمتولِّي المصالح؛ قال تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ [يوسف: ١٠١].

ـ وللمُوالي في الكفر؛ قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١].

ـ وللمُوالي في الإسلام؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ـ وللنَّصيح؛ قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال القشيريُّ رحمه الله: أنتَ الَّذي تتولَّاني[2] في دنيايَ بعرفانِكَ، وفي عقبايَ[3] بغفرانِكَ، فليس لي في الدَّارَيْنِ غيرُك[4].

وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾: أي: أَمِتْني على الإسلام.

قيل: لَمَّا انتظمَتْ أسبابُه واطَّردَتْ أحوالُه اشتاقَ إلى ربِّه.

وقيل: لَمَّا رأى أمرَه على الكمال، علمَ أنَّه أشرفَ على الزَّوال، سألَ سعادةَ الانتقالِ، قال قائلُهم:

---

(١) «ومالكم من دون الله من ولي، وللصاحب» ليس في (ف).

(٢) في (أ): «مولاي»، وليست في (ر) و(ف).

(٣) في (أ): «تحصيلي».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢١٠)، ولفظه: الذي يتولّى في الدنيا والآخرة بعرفانه أنت فليس لي غيرك في الدارين.

إذا تـمَّ أمـرٌ دنـا[1] نـقـصُـهُ تـوقَّعْ زوالًا إذا قِيـلَ تـمْ[2]

وقيل: هذا سؤالُ التَّوفِّي على الإسلام للحالِ.

وقيل: هو سؤالُ الخَتْمِ على الإسلام مَتى كانَ.

وحكي عن الأستاذ أبي على الدَّقاق أنَّه قالَ: قال يوسف ليعقوب: علمْتَ أنَّا نلتقي في الآخرة بعدَ الموتِ، فلمَ بكيْتَ كلَّ ذلكَ البكاء؟ فقال: يا بُنيَّ، إنَّ هناك طريقَيْنِ خفْتُ أنْ تَسْلُكَ طريقًا وأسلُكَ طريقًا، فقالَ يوسفُ عند ذلكَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾[3].

وقيل: لَمَّا جاءَ البشيرُ وبشَّرَ يعقوبَ بيوسفَ قال: على أيِّ دينٍ تركتَهُ؟ قال: على الإسلام، قال: الآن طابَ قلبي.

وقال الشيخ أبو الحسن محمد بن يحيى البشاغري في «كتاب عصمة الأنبياء»: إنَّ مَن كملَتْ له حالتُه، وصفَتْ له سريرتُه، لاحَتْ له معرفةُ إقرار الأشياء على هيئتها، وكُشِفَ له مِن النَّظر إلى عظمة الله وسلطانه، ثمَّ إلى نفسِه في جوهرِها وبِنْيَتِها[4]، فلا يترك شرط[5] العبودية في مقامِه وإنْ عظمَتْ نعمةُ الله عليه، بل يقومُ بوفاءِ الشُّكرِ للمنعِم، لا للإعجابِ بالنَّفس والأمرِ على حالِها.

والثَّاني: أنَّ يوسفَ دَعا به ليَقتديَ قومُه به، ومن بعده مَن ليس يأمنُ على ختمِه،

---

(١) في (أ): «بدا».

(٢) البيت نسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما في «الكشكول» للعاملي (٢/ ٨٩)، ولأبي العتاهية. كما في «الدر الفريد» للمستعصمي (٢/ ٣٩٥)، وذكر في كثير من المصادر بلا نسبة.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢١١).

(٤) في (أ) و(ر): «ونيتها».

(٥) في (ف): «فلا يزل بشرط».

فلا يتركُ الدُّعاءَ امتثالًا به؛ لأنَّ ظواهرَ الأنبياءِ كانَتْ لنظرِ الأممِ إليهم؛ ليعلموا موضعَ الشُّكرِ مِن موضعِ الاستغفارِ.

والثَّالث: معنى الإسلام مِن مثلِه يحتمِلُ الاسترسال، فأحبَّ إدامةَ العصمةِ عليه باستعمال الخُلُق الحسنِ إلى آخر عمرِه حسَبَ ما جرى في مختلف الأحوال الَّتي جرَتْ عليه مِن المحنِ والنِّعمِ؛ إذِ الإسلامُ قد يكون عبارةً عن العقد فهو الدِّين، وعن[1] التَّسليم وهو صفوُ الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾: هذه الكلمة في القرآن لمعانٍ:

ـ منها المؤمنُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

ـ ومنها العملُ المرضيُّ؛ قال تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة: ٦٢].

ـ ومنها المطيعُ؛ قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

ـ ومنها التَّائبُ؛ قال تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩].

ـ ومنها الأمين؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]؛ أي: يؤدِّي الأمانةَ.

ـ ومنها الولدُ السَّويُّ الأعضاء؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ [الأعراف: ١٩٠].

ـ ومنها الرَّفيقُ المنصف؛ قال تعالى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

ـ ومنها الرَّفيعُ المنزلة؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

---

(١) في (أ): «العقد وهو الدين وهو».

ـ ومنها أنَّه اسم للأنبياء لكمالِ حالِهم واستجماعِ خِلال الخير فيهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

قيل: وأرادَ به هنا: وألحِقْني بآبائي الأنبياءِ في الجنَّة؛ إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وقيل: أرادَ به: ألحِقْني في الدُّنيا بدرجاتِ الصَّالحين، المستكملِين للصَّلاح، المنزَّهين عن الفساد.

وفي ذلك سُنَّةٌ[١] لكلِّ مسلمٍ أن يدعوَ بهذا الدُّعاء، وهو الختمُ على الإسلامِ والإلحاقُ بالصَّالحين؛ لأنَّ معَ الصَّالحين الأمنَ والسُّكونَ والغِبطةَ والحُبور.

قال وهبٌ: فلمَّا حضرَتْ يوسفَ الوفاةُ أوصى إخوتَه بمثلِ ما أوصى به أبوه يعقوبُ[٢]؛ أنْ يحملوه إلى الأرض المقدَّسة فيدفنوه مع آبائِه، فحُمِلَ ودُفِنَ مع آبائِه.

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ماتَ يوسفُ في أهلِ مصرَ ودُفِنَ بها، فلمَّا بَعَثَ اللهُ موسى بن عمران عليه السَّلام تولَّى إخراجَ شخصِه مِن مصرَ، فانطلقَ به حتَّى دفنَه عندَ قبرِ أبيهِ[٣].

---

(١) في (أ): «تنبيه».

(٢) «يعقوب» ليس في (ف).

(٣) في (أ): «قرائبه» بدل: «قبر أبيه». والخبر ذكره الماوردي في «تفسيره» (٣/ ٨٦)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٠٣) إلى ابن عبد الحكم.

ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٢٣) مرفوعًا من حديث أبي موسى رضي الله عنه، قال: أتى النبي ﷺ أعرابيًّا فأكرمه، فقال له: «ائتنا»، فأتاه، فقال له رسول الله ﷺ: «سل حاجتك»، قال: ناقة نركبها، وأعنز يحلبها أهلي، فقال رسول الله ﷺ: «أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل»؟ قالوا: يا رسول الله، وما عجوز بني إسرائيل، قال: «إن موسى عليه السلام لما سار ببني إسرائيل من مصر، ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟، فقال علماؤهم: إن يوسف عليه السلام، لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، =

قال وهبٌ: ودخلَ يعقوبُ وأولادُه مصرَ، وهم اثنان وسبعون إنسانًا ما بين رجل وامرأة، وخرجَ منهم الَّذين خرجوا مع موسى من مقاتلتِهم ستُّ مئة ألف وخمس مئة وبضعةٌ وسبعون رجلًا سوى الذرِّية، وكانت الذرِّية ألفَ ألفٍ ومئتي ألف سوى المقاتل.

وعاشَ يوسفُ بعد موتِ أبيه نيفًا[1] وعشرين سنة، ومات وهو ابن عشرين ومئة سنة، وكان أوَّلَ نبيٍّ من بني إسرائيل.

قال وهبٌ: ثم استخلفَ مِن بعدِه يهوذا، ثم روبيل، ثم لاوي، ثم شمعون، ثم بحر، ثم زبالون، ثم يشجر، ثم دان، ثم نفتالي، ثم حاذ، ثم أشير.

ووُلِدَ ليوسفَ ابنان: إفراييم بن يوسف، ومنشا بن يوسف، فولد لإفراييم[2] نون بن إفراييم، وولد لنون يوشع بن نون، وهو فتى موسى، وولد لمنشا بن يوسف: موسى بن منشا، وأهل التَّوراة يقولون: هو الَّذي طلب [العالِمَ ليتعلَّم منه حتى أدركه، والعالمُ هو الذي] خرقَ[3] السَّفينة، وقتل الغلام.

وقال ابن عبَّاس: هو موسى بن عمران بن فاهت بن لاوي بن يعقوب[4].

= قال: فمن يعلم موضع قبره؟، قال: عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها فأتته، فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟، قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه: أن أعطها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء، فقالت: أنضبوا هذا الماء، فأنضبوه، فقالت: احتفِروا، فاحتفَروا، فاستخرجوا عظام يوسف، فلما أقلوها إلى الأرض، وإذا الطريق مثل ضوء النهار».

(١) في (أ): «ثلاثًا».

(٢) في (ف) و(أ): «لأفرايم».

(٣) في جميع النسخ: «هو الذي طلب الخضر وخرق»، والمثبت من «تفسير القرطبي» (١١/ ٤٦٥).

(٤) رواه البخاري في «صحيحه» (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠)، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن =

وكان بينَ دخولِ يوسفَ مصرَ إلى يوم خروجِ موسى أربعُ مئة عامٍ، وأوصى موسى أن يحملَ شخصه ويُدفن ببيت المقدس، وأوصى يوسفُ كذلك.

وقال وهبٌ: يُقال: إنَّ الله لم ينزل كتابًا إلَّا ذكر فيه قصَّة يوسف تامَّة كما هي في القرآن، لا تزيد ولا تنقص.

***

(١٠٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: أي: هذا من الأخبار الَّتي يغيبُ علمُها عن العباد، فلا يقفُ عليها إلَّا مَن علَّمَه اللهُ تعالى، فنحنُ نعلِّمُكَ ونُوحِي[1] إليكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾: أي: لدى إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾؛ أي: أحكموا الرَّأي والتَّدبير على طرحه في البئر ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسف؛ أي: يحتالون على أن يفرِّقوا بينَه وبين أبيه يعقوب، ليخلوَ لهم وجهُ أبيهم، فتعلمَ قصَّتهم بمشاهدَتِكَ إيَّاهم وحضورِكَ أمرَهم، ولكنَّ اللهَ مَنَّ عليكَ بتعريف قصَّتهم، ولم يكن يفعلُ ذلك بك وهو يريد أن يخذلَكَ وينصرَ أعداءَك عليكَ، بل ينصُرُكَ ويُعلِي شأنَك كما فعلَ بيوسفَ وإخوتِه، فاسكُنْ إلى هذا، ولْيَهُنْ عليك إعراضُ قومِك عنك، فإنَّ[2] أكثرَهم لا يؤمنون.

= عباس: إن نوفًا البكالي يزعم: أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، إنما هو موسى آخر، فقال: كذب عدو الله» وذكر حديث موسى عليه السلام والخضر.

(١) في (أ): «ونوحيه».

(٢) في (أ): «بل».

(١٠٣) ـ ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

وهو قولُه: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾: أي: لا يؤمنون وإن اشتدَّ حرصُكَ على إيمانهم؛ لأنَّ هذا مِن أفعالي لا يقدر عليه آخرُ غيري[1]، نظيرُه قوله: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

والحرصُ: طلبُ أمرٍ باجتهادٍ في إصابَتِهِ.

وقيل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ مِن أهل مكَّةَ.

وقال الإمام أبو منصور: هي فيهم وفي غيرهم أيضًا[2].

* * *

(١٠٤) ـ ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾: يقولُ: لسْتَ تطمعُ في أموالهم، ولا ﴿تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على تبليغ القرآن ـ فقد سبق[3] ذكرُه في قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ ـ شيئاً فينسبونَك إلى الاستيكالِ فعلَ الطَّالِبين العلوَّ في الأرض والمالَ، ولا أنت أيضًا رسولٌ بهذا القرآن إليهم وحدَهم، بل القرآنُ ﴿ذِكۡرٞ﴾؛ أي: القرآنُ تذكيرٌ[4] وموعظةٌ لجميع العالمين إلى قيام السَّاعة، ويتضمَّنُ ما بهم الحاجةُ إلى معرفتِه مِن أمرِ دينِهم يتذكَّرون به ما ينسَونه.

وقيل: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: شرفٌ لِمَنِ اتَّبعه مِن العالمين.

---

(١) في (ر) و(ف): «لأن هذا من الله فلا يقدر عليه أحد غيره».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٩٤).

(٣) في (ر) و(ف): «تبين».

(٤) في (أ) و(ف): «تذكر».

(١٠٥) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾: أي: وكم مِن دلالةٍ على وحدانيَّة اللهِ تعالى في السَّماواتِ والأرضِ.

قال الضَّحاكُ: آياتُ السَّماواتِ: الشَّمس والقمر والنُّجوم[1]، وآياتُ الأرضِ: ديارُ الأممِ الهالكةِ وخرابُها؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٨].

وقيل: آياتُ الأرضِ: الجبالُ والبحارُ والأنهارُ والأشجارُ.

ووجهُ الاعتبارِ بالآيات: التَّفكُّرُ فيما يقتضي مِن أنَّ مدبِّرًا دبَّرها قادرًا عليها عالمًا بها لا يشبِهُها.

وقوله تعالى: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: غافلونَ لا يعتبرون بها، ولا يتفكَّرون فيها، ولا يتَّعظون بما قال الأوَّلون.

وقال القشيريُّ رحمه الله: الآياتُ ظاهرة، والبراهينُ باهرة، وكلُّ جزءٍ مِن المخلوقاتِ شاهدٌ على أنَّه إلهٌ واحدٌ، ولكنْ مَن غمضَ عينَه لم يستمتع بضوءِ نهارِه، وكذلِكَ مَنْ قصَّرَ في نظرِه واعتبارِه لم يحظَ بعرفانِه واستبصارِه[2].

❊ ❊ ❊

(١٠٦) ـ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٤)، لكن في تفسير قوله تعالى: ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: ٧٥].

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢١٢).

وقولُـه تعالـى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾: هـذا تعديـدٌ لقبائح أولئـك المشـركين، وتبعيـدُ إيمانهـم بالقرآن.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أراد أنَّهم حين سُئِلُوا: مَنْ خلقكُم؟ ومَن يُنزِّل من السَّماء ماء؟ ليقولنَّ الله، فهذا إيمانُهم، ثمَّ هم يعبدون الأوثان، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، و: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فهذا شركُهم(١).

وقال مجاهدٌ: في التَّلبيةِ: يقولون: لبيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكٌ هو لك، تملكُه وما ملكَ(٢).

وقال عطاءٌ: هذا في الدُّعاء، وذلك أن الكفَّار نسُوا ربَّهم في الرَّخاء، فإذا أصابَهم البلاء أخلصوا في الدُّعاء؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان: ٣٢]، وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾ الآية [يونس: ١٢](٣).

وقال الحسنُ: هم أهل الكتاب، معهم شركٌ وإيمانٌ(٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: وما يؤمن أكثرهم بالله بألسنتهم إلَّا وهم مشركون بقلوبهم.

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٦) عن الضحاك، وروى مسلم (١١٨٥) تلبيتهم هذه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٦٣).

(٤) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٣/ ٢٣١)، وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٧) عن الحسن أنه قال في هذه الآية: «ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء للناس، وهو مشرك بعمله ذاك».

ويحتمل: وما يؤمن أكثرهم بالله في النِّعمة أنَّها من الله إلا وهم مشركون في الشُّكر له[١].

وقال القشيريُّ: الشِّرك نوعان: جليٌّ وخفيٌّ، فالجليُّ أنْ يَتَّخذَ مِن دون الله تعالى معبودًا، والخفيُّ أنْ يَتَّخذَ بقلبِه عند حوائجِه مِن دونِه مقصودًا.

وقيل: شركُ العارفين أنَّ يتَّخذوا مِن دونِه مشهودًا أو يطالعوا سواه موجودًا[٢].

***

(١٠٧) ـ ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾: هذا وعيدٌ لهم أُخرِجَ مخرَجَ التَّعجُّبِ؛ أي: عجبًا مِن غفلتهم[٣]، أَمَا يخافون أن تفجأَهُم عقوبةٌ مِن اللهِ تغشاهم، وتفسيره: تجلِّلُهم، ومعناه: تعمُّهم، كما جاءَتْ مَن قبلَهم مِن الأمم العاصية، أو تأتيهم القيامةُ فجأةً لا علم لهم بإتيانها.

***

(١٠٨) ـ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾: أي: طريقتي الَّتي أسلكُها، أبتغي بها الجنَّة في الآخرة.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٩٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٢/ ٢١٢).

(٣) في (أ): «عقلهم».

وقوله تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: هو بيانُ السَّبيلِ؛ أي: أدعو إلى الله وحده، دونَ الشُّركاء والأنداد الَّتي يجعلها المشركون.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾: أي: على بيانٍ وحجَّةٍ، أنا وكلُّ مَن آمنَ بي، لا على تقليدٍ وإلْفِ عادةٍ.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: واعترض في خلال هذا: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ على معنى: أدعو إلى اللهِ وحدَه، وسبحانَه؛ أي: تنزيهًا له عن أن يكونَ معَه إلهٌ غيرُه، نصبٌ على المصدر.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾؛ أي: دعوتي(١).

وقال الضَّحاك: أي: دعوايَ(٢).

وقال مقاتل: يعني: ديني(٣).

* * *

(١٠٩) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: أعلمَ اللهُ نبيَّه محاجَّة المشركين فيما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] ونحو ذلك، فقال: وما بعثْنَا بالنُّبوَّة مِن قبلِكَ إلَّا رجالًا لا ملائكةً، وكانوا مِن أهل القرى لا مِن سكَّان

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٩).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٦٣).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٥٣)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٦٣).

السَّماء، فكذا أنت، فلا يهولنَّك قولُهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] ونحوَ ذلك؛ فإنَّهم يجهلون سبيلَ النُّبوَّات.

ولا عذرَ لهم في تكذيبك وإنْ كنْتَ بشرًا، كما لم يكن للَّذين كانوا من قبلِك في تكذيب رسلِهم، بل كان عاقبتُهم البوارَ والدَّمار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾: أي: ولدارُ الحياةِ الآخرةِ، أو لدارُ النَّشأةِ الآخرةِ خيرٌ ﴿لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشِّركَ والمعاصي.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أي: أفما لهؤلاء المشركين عقولٌ يتدَّبرون بها هذه الحُجَج والمواعظ، فينجوا من الهلاك.

وقيل: معنى ﴿أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: أهل الأمصار دون البوادي؛ لأنَّهم أعلمُ وأحلمُ(١).

وقال الحسنُ: لم يبعثِ اللهُ نبيًّا من أهل البادية قطُّ، ولا مِن الجنِّ، ولا مِن النِّساء(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إنَّما بُعِثَ الرُّسلُ مِن الأمصارِ لا مِن البوادي؛ لأنَّ أهلَ الأمصار لهم اختلاطٌ بأصناف النَّاس وتجاربٌ، فهم أعقلُ وأعلمُ، وأهلُ البوادي لهم اختلاطٌ بالبهائم فهم عن العلم أبعدُ.

ولأنَّ الرُّسل لهم أعلام تتقدَّم على وقت الرِّسالة، تحتاج إلى أن يَظهرَ(٣) ذلك

---

(١) في (ف): «وأحكم».

(٢) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٣/ ٢٣٢)، والماوردي في «تفسيره» (٣/ ٨٨)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٦٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٥).

(٣) في (ر) و(ف): «إلى تظهير».

للخلقِ؛ ليكون ذلك أسرعَ إلى الإجابة لهم، فإذا كانوا من أهل البوادي لا يظهرُ ذلك للخلقِ.

والثَّالثُ: أنَّه يرادُ من الرِّسالةِ إظهارُها للخلْقِ في الآفاق من الأمصار، وهي الأمكنة الَّتي ينتابُها النَّاسُ في التِّجارات وأنواعِ الحاجات من الأطراف، وأمَّا البوادي فالبوادي ليس يدخلُها ولا ينتابُها إلَّا الشَّاذُّ مِن النَّاس، ولا تُقضَى فيها الحوائجُ، فلا تظهرُ في الخلق الرِّسالةُ وما يُراد بها[١].

* * *

(١١٠) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾: أي: وما أرسلنا قبلَك إلَّا رجالًا مثلَك يبلِّغون الرِّسالة ويوضِّحون الدلالة، حتَّى إذا استيأس هؤلاء الرُّسلُ مِن إيمان قومِهم. كذا فسَّرته عائشةُ رضي الله عنها[٢] وقتادة وجماعة[٣]، وذلك يكون بظهورِ العِناد[٤] أو بإخبار الله تعالى.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٢٩٨).

(٢) رواه البخاري (٣٣٨٩). ولفظه: عن عروة أنَّه سأل عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ: أرأيت قوله: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِّبوا﴾ أو كُذِبوا؟ قالت: «بل كذَّبهم قومهم»، فقلت: والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم، وما هو بالظن، فقالت: «يا عرية لقد استيقنوا بذلك»، قلت: فلعلها: أو كُذِبوا، قالت: «معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، وأما هذه الآية، قالت: هم أتباع الرسل، الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، وطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأست ممن كذبهم من قومهم، وظنوا أن أتباعهم كذَّبوهم، جاءهم نصر الله».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٤٥)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٩٧).

(٤) في (أ): «الفساد»، وفي (ف): «العباد».

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائيُّ بالتَّخفيف، والباقون بالتَّشديد[١].

وللتَّشديد وجهان:

أحدُهما: وظنَّ الرُّسلُ ـ أي: أيقنوا ـ أنَّ الأممَ كذَّبوهم تكذيبًا لا يؤمنون بعدَه، وهو قول الحسن وجماعة[٢]، والظَّنُّ يكون بمعنى اليقين، كما قال الشَّاعر:

فقلْتُ لهم ظُنُّوا بألفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ في الفارِسِيِّ المُسَرَّدِ[٣]

والثَّاني: وظنَّ الرُّسلُ حقيقةَ الظَّنِّ دونَ اليقين أنَّ مَن آمنَ بهم كذَّبوهم أيضًا حين تأخَّر النَّصرُ عنهم. وهو قولُ عائشةَ[٤] وقتادة.

وتقديرُ الآية: حتَّى إذا قنط المرسلون عن إيمان مَن كذَّبهم إلى الآن، وظنُّوا[٥] أيضًا أنَّ الَّذين صدَّقوهم وآمنوا بهم ثمَّ امتدَّ بهم البلاء وتأخَّر الفرج والرَّجاء كذَّبوهم أيضًا = أتاهم[٦] نصرنا.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ٣٥١)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٠).

(٢) رواه عن الحسن الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٩٧).

(٣) البيت لدريد بن الصمة. انظر: «ديوانه» (ص: ٤٧)، و«الأصمعيات» (ص: ١٠٧)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ١٨٠)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١١/ ٣٠١). قال البغدادي: المدجج بفتح الجيم وكسرها: الكامل السلاح، وقيل: بالكسر للفارس وبالفتح: الفرس، وإنهم كانوا يدرعون الخيل. و(سراتُهم) بالفتح: أشرافهم، مبتدأ و(بالفارسي) خبره، والباء بمعنى في. والدرع الفارسي يصنع بفارس. والمسرد: المُحكم النسج، وقيل: هو الدَّقيق الثقب.

(٤) رواه البخاري، وقد تقدم قريبا.

(٥) في (أ): «أن قنطوا» بدل: «الآن وظنوا».

(٦) في (ف): «جاءهم».

وقراءة التَّخفيف لها وجهان أيضًا:

وظنَّ القومُ أنَّهم ـ أي: القوم ـ كُذِبوا؛ أي: كَذَبَهُمُ الرُّسلُ فيما أخبروهم به مِن نصرِ الله لهم وإهلاكِ أعدائِهم، وهو قولُ ابن عبَّاس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد والضَّحاك(١).

وقريبٌ مِن هذا الوجه قولُ بعضهم: وظنَّ القومُ ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ أي: الرُّسل ﴿كُذِبُواْ﴾ بالتَّخفيف؛ أي: كذَبَهم مَن أخبرَهم مِن الملائكةِ ونحوهم عن الله في وعد النَّصر على الكفَّار ونحو ذلك.

ووجهٌ آخر: وظنَّ الرُّسل ـ أي: أيقنوا ـ ﴿أَنَّهُمْ﴾؛ أي: الرُّسل ﴿كُذِبُواْ﴾: كَذَبَهم مَن وَعَدَهم مِن قومِهم أنْ يؤمِنَ بهم، ويكونُ الكذبُ في معنى إخلاف الوعد، كما يُسمَّى إنجازُ الوعدِ صدقًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾: يقولُ: لم نكنْ نعاجِلُ أممَ الرُّسلِ بالانتقام منهم على تكذيبِهم، بل كنَّا نمهلُهم حتَّى إذا وقعَ اليأسُ وضاقَتِ الأحوالُ أتاهم نصرُنا.

وقوله تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾: قرأ عاصم وابن عامر: ﴿فَنُجِّيَ﴾ بنونٍ واحدةٍ وتشديدِ الجيم وفتح الياء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه، مِن نَجاه ينجِّيه تنجيةً؛ أي: خلَّصه.

وقرأ أبو عمرو في روايةٍ: ﴿فَنجى﴾ بنون واحدة وتسكين الجيم على

---

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٣٨٣ ـ ٣٩٠).

حذف إحـدى النُّونيـن[1]، كحذف إحـدى التَّائين كقولـه: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾[2] [البقـرة: ٧٠].

وقـرأ الباقـون: ﴿فنُنْجِـيْ﴾ بنونيـن علـى الاسـتقبال[3]؛ أي: فننجـي الأنبيـاءَ وأتباعهـم.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾: أي: عذابنا ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين.

***

(١١١) - ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾: أي: فـي قصـص يوسـف وإخوتـه وأبيه.

---

(١) لعله أراد ما ذكره ابن مجاهد في «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٢) بقوله: (وروى نصر بن علي عن أبيه عن أبي عمرو: ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ يدغم)، قال ابن مجاهد: (وهذا غلط في قوله: «يدغم» ليس هذا موضعًا يدغم فيه، إنما أراد أنها محذوفة النون الثانية في الكتاب وهي في اللفظ بنونين؛ الأولى متحركة والثانية ساكنة، ولا يجوز إدغام المتحرك في الساكن؛ لأن النون الثانية ساكنة، والساكن لا يدغم فيه متحرك، وكذلك النون لا تدغم في الجيم، فمن قال: يدغم، فهو غلط، ولكنها حذفت من الكتاب؛ أعني النون الثانية لأنها ساكنة تخرج من الأنف فحذفت من الكتاب، وهي في اللفظ مثبتة). وهي خلاف المشهور عن أبي عمرو.

(٢) يعني: بضم الهاء، نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤)، و«البحر» (٢/ ١٨٥).

(٣) هي قراءة الكسائي وحمزة وابن كثير وأبي عمرو ونافع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

وقيل: في قصص الأنبياء كلِّهم عبرةٌ؛ أي: دلالة يُعْبَر[١] بها إلى البُغية لأولي العقول الخالصة، إذا كان ذلك حقًّا مِن الله، فيحقُّ على العقلاء الاعتبارُ به.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾: أي: لم يكن خبرًا يُختلق حتَّى ينبغي للعقلاء أن يرفضوه ويعرضوا عنه ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: بل كان تصديقًا للتَّوراة والإنجيل والكُتب المنزَّلة قبلَه. قاله الحسن ومجاهد[٢].

وإنَّما قال: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لأنَّه قد وُجِدَ، فصارَ[٣] كأنَّه حاضر له.

وقيل: لأنَّه قريبٌ منه كقُرْبِ ما كان بينَ يدَي الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾: أي: وتبيينًا لكلِّ شيءٍ ممَّا بالنَّاس حاجةٌ إليه في دينِهم.

﴿وَهُدًى﴾ إلى الحقِّ والصِّراط المستقيم ﴿وَرَحْمَةً﴾ مِن اللهِ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: رحمَ بها المؤمنين.

وقال الإمامُ أبو منصور رحمه الله: وفي هذه القصَّة تصبيرُ رسولِ الله ﷺ على أذى قريشٍ، يقولُ: إنَّ إخوة يوسف مع موافقتهم إيَّاه في الدِّين والنَّسب عملوا بيوسفَ ما عملوا من الكيدِ والمكرِ، فصبرَ على ذلك، فأنْتَ معَ قومِكَ وهم مخالفون لك في الدِّين أحرى أنْ تصبرَ على أذاهم[٤].

وقال الإمام البشاغريُّ: ففيه دليلٌ على صدقِ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام؛

---

(١) في (ف): «يعتبر».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٠٣) عن قتادة. وذكره الواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة.

(٣) في (ر) و(ف): «نصًا».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٠٠).

حيث قصَّ قصَّةَ يوسف وغيرها على حسب ما يجدُها أهلُ الكتب في كتبِهم مِن غير زيادة ولا نقصان، مع معرفتِهم أنَّه لم يَختلفْ إلى أحدٍ يتعلَّمُ منه، ولا نظرَ في الكتب فتلقَّاه، فما هو إلَّا عن الوحي، ولا وحيَ إلَّا إلى الرُّسل.

وقال بعضُ المحقِّقين: ثمَّ العبرُ في هذه القصَّة ما حُمِّلَ يوسف على صغره من المحنِ مِن جهة إخوتِه: مِن الطَّرْحِ في البئر، والبيعِ بالثَّمن البَخْس، وما ابْتُلِيَ به مِن الاسترقاق والحبس الطَّويل مِن غير جُرْمٍ ولا استحقاق، فالعبرةُ به أنَّ اللهَ يفعلُ ما يشاءُ، لا اعتراضَ لأحدٍ عليه.

ثمَّ صبرُ يوسفَ على هذه المحنِ كلِّها إلى أنْ خُتِمَ له بالملك والعلوِّ دليلٌ على أنَّه لا يخسر أحدٌ على الصَّبر عند جريان المقادير عليه.

ثمَّ ما فيه من التَّنبيه على أنَّ مَن قدرَ على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجبِّ، وإعلائه بعد حبسه في السِّجن، وتمليكه مصر بعد أن كان لبعض أهلِها في حُكْمِ العبدِ، ثم جمعَ بينَه وبينَ أبوَيْه وإخوته على ما أحبَّ بعد المدَّة الطويلةِ = لقادرٌ أنْ يُعِزَّ محمَّدًا ﷺ ويُعلِي كلمتَه وينصرَه على مَن عاداه مِن قومه.

ثمَّ ما امتُحِنَ به أبوه من الوَجْد بفقدِه إلى أنْ ابيضَّتْ عيناه من البكاء عليه، إلى أنْ جمعَ اللهُ شملَه وردَّ عليه ابنَه سلوةٌ للمُمْتَحنين، وإطماعٌ لهم في تبديل الحالِ، وتعريض المحنةِ للزَّوال.

ثمَّ فيما جرى على يوسف من جهة إخوته الَّذين هم أولى النَّاس بالشَّفقة عليه والذَّب عنه ما ابْتُلي[1] رسولُ الله ﷺ في عداوة قومِه وأقاربه له.

ثمَّ فيما فعلَه يوسفُ في السِّجنِ مِن دعاءِ الفتيَيْنِ إلى الله تعالى، وإقامةِ الحجَّة

---

(١) في (أ): «ما يبلي».

عليهما للتَّوحيد، وعلى بُطلانِ الشِّركِ = ما يُوجِبُ على رسول الله ﷺ سلوكَ طريقتِه في الصَّبر على الدُّعاء إلى الله، والقيامِ به في كلِّ وقتٍ ممكنٍ، وقد فعلَ ذلك رسولُ اللهِ ﷺ وأكثر منه.

ثمَّ ما كان مِن يوسف مِن بَسْطِ العَدْلِ في مُلْكِهِ عبرةٌ للملوكِ، وفي المنِّ والإحسانِ إلى الرَّعيَّة؛ لأنَّ يوسف لَمَّا ملكَهم أعتقَهم كلَّهم.

ثم ما فيه من العِبرة لأرباب التَّقوى؛ فإنَّ يوسفَ لَمَّا تركَ هواه، رقَّاه الله إلى ما رقَّاه.

ومنها: العِبرةُ لأهل الهوى في اتِّباع الهوى مِن شدَّة البلاءِ، كامرأةِ العزيزِ لَمَّا تبعَتْ هواها لقيَتْ ما لقيَتْ مِن الضُّرِّ.

ومنها: العبرةُ للمماليك في حفظِ حُرْمةِ السَّادة[1]، كيوسف لَمَّا حفظَ حرمةَ العزيز في زليخا ملَكَ مُلْكَ العزيز، وصارَتْ زليخا امرأته حلالًا.

ومنها: العفوُ عند القدرة، كيوسف حين تجاوز عن إخوته.

وغير ذلك من الإشاراتِ الَّتي سبقَتْ[2] في هذه النُّسخة وفي غيرها لأهل العلم والحكمة.

وقال بعضُ الواعظين: كان للهِ تعالى خليلٌ يُسمَّى إبراهيم، فأعطاهُ ولدًا يُسمَّى إسحاق، ونافلةً يُسمَّى يعقوب، فوُلِدَ ليعقوبَ أولادٌ، وخَصَّ اللهُ بعضَ أولادِه بكمالٍ وجمالٍ ولطفٍ وهو يوسف، فآثره أبوه بحبِّه على إخوتِه، فاحتالوا حتَّى غيَّبوه عنه وطرحوه في البئر، ثم باعوه بالثَّمن البَخْسِ اليسير، فقاسى يوسفُ شدائدَ الرِّقِّ،

(١) في (أ): «السيادة».

(٢) في (أ) و(ر): «من إشارات سبقت».

وابْتُلِيَتْ به امرأةُ العزيز بليَّة العشق، فراوَدَتْهُ عن نفسِه فاستعصم بعصمةِ الحقّ، وبدا لهم حبسُه في السِّجن فطال ذلك، ثمَّ بعد بضع سنين زال ذلك، ثمَّ أفضى به علم التَّعبير إلى مُلكِ مصرَ والجلوسِ على السَّرير، ثم جاء إخوتُه مرَّات وامتاروا منه كرَّات، ثمَّ جمعَ اللهُ بينَ يعقوبَ ويوسف، وزال التَّأسِّي والتَّأسُّف، وجُمِعَ الشَّمل، وبسطَ يوسفُ على إخوتِه الفضل، فتنعَّموا أيَّامًا وشهورًا وأعوامًا، ثمَّ ماتوا وبانوا، وكأنَّهم ما كانوا، ولا بلاءُ يعقوبَ ولا بكاؤه، ولا إخوةٌ ولا جفاءٌ، ولا سجنٌ ولا سجَّانٌ، ولا عزيزٌ ولا ريَّانُ، ولا يوسفُ ولا أصحابٌ، ولا خَوَلٌ(1) ولا أحبابٌ، ولا مملكةٌ ولا أسبابٌ، ولا أمراءُ ولا حُجَّابٌ، وهذه عبرةٌ لأولي الألباب.

وقيل: هذه القصَّةُ مرآة كلِّ مؤمنٍ؛ كان ليوسفَ جمالُ الظَّاهر فنظرَتْ إليه زليخا، وللمؤمنِ جمالُ الباطنِ ينظرُ إليه المولى.

وكان ليوسفَ حُسْنُ الصُّورةِ فاشتراه العزيز؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ [يوسف: ٢١]، وللمؤمنِ حُسْنُ السِّيرة فاشتراه القويُّ العزيزُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

ولَمَّا اشتراهُ العزيزُ أدخلَه دارَ زليخا، ولَمَّا اشترى اللهُ المؤمِنَ أدخلَهُ الدُّنيا.

فأوقعَتْ زليخا يوسفَ في التُّهمةِ، وأوقعَ الشَّيطانُ المؤمنَ في المعصيةِ.

فنُقِلَ يوسفُ إلى السِّجنِ، والمؤمنُ إلى القبرِ، فسُئِلَ يوسفُ في السِّجنِ عن تأويل الرُّؤيا، وسُئِلَ المؤمنُ في القبر عن اللهِ وعن الرَّسولِ والهُدى.

فأجابَ يوسفُ على الصَّواب فأكرمَه الرَّيَّان، ويجيبُ المؤمنُ على الصَّواب فيكرمُه الدَّيَّانُ.

---

(١) في (أ): «حول».

ووصلَ يوسفُ إلى ملكِ مصرَ، والمؤمنُ يصلُ إلى ملكِ الجنَّةِ.

وقيل ليوسفَ: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، ويقال للمؤمن: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١].

وختمَ قصَّةَ يوسفَ بقولِه: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ويُقالُ للمؤمنِ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

* * *